أصـــــول
الاعتقاد في سورة يونس

"عليه السلام"

تأليف الفقيرة إلى عفو ربها القدير
قذلة بنت محمد بن عبدالله القحطاني

بسم الله الرحمن الرحيم

أصل هذا الكتاب رسالة علمية تقدمت بها الباحثة
لنيل درجة الماجستير من كلية أصول الدين
بالرياض، ونالت الدرجة بتقدير "ممتاز"

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٠ -٧١].

أما بعد (١):

فلقد كان سلفنا الصالح رضوان الله تعالى عليهم يتعلمون القرآن مقروناً بالعلم والعمل، "كما قال أبو عبدالرحمن السلمي: حدثنا الذين

(١) هذه خطبة الحاجة وقد رواها أبو داود في كتاب النكاح، باب: في خطبة النكاح رقم: ٢١١٨ (٦٤٤/١ -٦٤٥)، والنسائي في كتاب الجمعة باب كيفية الخطبة رقم: ١٤٠٤ (١٠٥/٣) وقد جمع طرقها العلامة الشيخ ناصر الدين الألباني -رحمه الله - في رسالة مستقلة بعنوان "خطبة الحاجة".

كانوا يقرئوننا القرآن عثمان بن عفان وعبدالله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي - صلى الله عليه وسلم - عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم جميعاً" (١) .

والقرآن العظيم "كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل، ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ولا يَخْلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ﴾ [الجن: ١ -٢].

"من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم" (٢) .

ولقد أكرمني الله عز وجل بالالتحاق بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، لدراسة العقيدة الإسلامية ذلك العلم الذي هو من أشرف العلوم وأنفعها، ولقد كانت لديَّ رغبة في أن يكون بحث لنيل الدرجة العلمية "الماجستير" في العقيدة متعلقاً بالقرآن الكريم، للتعمق في دلائله، وعقائده الصافية، وأسراره العظيمة إذ هو أعظم وأجل كتاب.

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/٣٧).

(٢) جزء من حديث رواه الترمذي في كتاب ثواب القرآن، باب: ما جاء في فضل القرآن رقم: ٢٩٠٨ (٨/١١٢ -١١٣) وقال: "هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول وفي الحارث مقال" ا.هـ.

وبعد أن منَّ الله عز وجل عليَّ بإتمام السنة التمهيدية للماجستير، شرعت في البحث عن موضوع، فوقع اختياري على موضوع "أصول الاعتقاد في سورة يونس عليه السلام" وقد أشار به عليَّ الشيخ د: محمد ربيع الجوهري الأستاذ المشارك بكلية التربية للبنات بأبها – سابقاً – فجزاه الله خيراً وضاعف مثوبته ولقد كان من أسباب اختياري لهذا الموضوع عدة أمور:

١ - ميلي الشخصي كما سبق.
٢ - إن القرآن الكريم هو المصدر الصافي للعقيدة الصحيحة وما كثر الجدل والنقاش في مسائل العقيدة إلا نتيجة البعد عن القرآن الكريم والاشتغال بعلومهم وفلسفات عقيمة لا تغني عن الحق شيئاً.
٣ - إن القرآن الكريم قد اشتمل على جميع أنواع التوحيد، فكان من الأجدر أن تصرف الجهود لاستخراج العقائد التي اشتملت على سور القرآن.
٤ - لأهمية هذه السورة الكريمة، وما اشتملت عليه من قضايا العقيدة بما في ذلك أركان الإيمان الستة، كما سيتضح ذلك - إن شاء الله - من خلال البحث.

فوضعت للموضوع خطة، وقدمته إلى مجلس القسم، فوافق على الموضوع مشكوراً، وقد سرت فيه وفق الخطة التالية: بعد أن أجرى عليها القسم بعض التعديلات، وهي تشتمل على:

مقدمة، وتمهيد وخمسة أبواب وخاتمة.

المقدمة: وتحدثت فيها عن أهمية الموضوع، وأسباب اختياري له، والخطة التي سرت عليها، ومنهجي في البحث.

التمهيد: وفيه بيان لخصائص السور المكية عامة وسورة يونس خاصة بصورة مجملة.

الباب الأول: في الإيمان بالله، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في إثبات الربوبية وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الاستدلال بالآيات الكونية على الربوبية.

المبحث الثاني: الاستدلال بالفطرة على الربوبية.

الفصل الثاني: في إثبات الألوهية وفيه ثلاثة مباحث.

المبحث الأول: معنى توحيد الألوهية ودلائله.

المبحث الثاني: الاستدلال بتوحيد الربوبية على الألوهية.

المبحث الثالث: بيان الشرك في الألوهية وأدلة بطلانه.

الفصل الثالث: في الأسماء والصفات وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: في بيان الأسماء الحسنى الواردة في السورة.

المبحث الثاني: في بيان صفات الله تعالى الواردة في السورة.

المبحث الثالث: في بيان منهج السلف في الأسماء والصفات والرد على المخالفين.

الباب الثاني: في الإيمان بالملائكة والكتب وفيه فصلان:

الفصل الأول: الإيمان بالملائكة

الفصل الثاني: الإيمان بالكتب.

الباب الثالث: في النبوة وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: في الوحي وفيه مبحثان:

المبحث الأول: المراد بالوحي وأنواعه.

المبحث الثاني: شُبَه منكري الوحي والرد عليها.

الفصل الثاني: في إثبات النبوات وفيه مبحثان:

المبحث الأول: في دلائل النبوة.

المبحث الثاني: دعوات الرسل التي ذكرت في السورة.

الفصل الثالث: في إثبات نبوة محمد عليه الصلاة والسلام وفي مبحثان:

المبحث الأول: في إثبات نبوته صلى الله عليه وسلم.

المبحث الثاني: في عموم رسالته صلى الله عليه وسلم.

الفصل الرابع: في الولاية وفيه مبحثان:

المبحث الأول: معنى الولاية وصفات الأولياء.

المبحث الثاني: منهج أهل السنة في إثبات الولاية والرد على المخالفين.

الباب الرابع: في اليوم الآخر وفيه فصلان:

الفصل الأول: في البعث والجزاء.

الفصل الثاني: مشاهد القيامة كما وردت في السورة.

الباب الخامس: في القضاء والقدر وفيه ثلاثة فصول.

الفصل الأول: في معنى الإيمان بالقدر وحكمه.

الفصل الثاني: في الرزق والأجل.

الفصل الثالث: في الهداية والإضلال.

الخاتمة: وبينت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث.

الفهارس: وتشمل:

١ - فهرس الآيات القرآنية.

٢ - فهرس أطراف الحديث النبوي.

٣ - فهرس الآثار.

٤ - فهرس الفرق والطوائف.

٥ - فهرس الأعلام.

٦ - فهرس المصادر والمراجع.
٧ - فهرس الموضوعات (*) .

(*) بعد الطباعة رأت دار طويق للنشر والتوزيع عدم طبع الفهارس؛ لكثرتها، فوافقت وأبقيت فهرس الموضوعات وفهرس المصادر والمراجع فقط.

أما منهجي في البحث فقد سرت على المنهج التالي:

١ - عزو الآيات إلى سورها.

٢ - تخريج الأحاديث والآثار من المصادر الحديثية ما أمكن، وإذا كان الحديث في الصحيحين اكتفيت بعزوه إليهما، أما إذا كان في غير الصحيحين فأتوسع في تخريجه ما أمكن، ثم أنقل كلام علماء الحديث في الحكم عليه، وكذلك الآثار.

٣ - عزو الحديث بذكر الكتاب، الباب، الرقم، الجزء، الصفحة.

٤ - تعريف الأعلام غير المشهورين بترجمة موجزة.

٥ - شرح الألفاظ الغريبة.

٦ - التعريف بالفرق بشكلٍ موجز.

٧ - وضعت ما نقلته نصاً بين علامتي تنصيص، وما نقلته بالمعنى فقط، أحلت عليه بلفظ: انظر مرجع كذا.

٨ - عند ذكر المرجع اذكر اسم الكتاب واسم مؤلفه عند أول ذكر له، ثم اكتفي بعد ذلك بذكر الكتاب والجزء والصفحة فقط ما عدا ما تشابهت فيه الأسماء فإني أذكر مؤلفه غالباً.

٩ - تشكيل الآيات، وكتابتها بالرسم العثماني ما أمكن ذلك.

١٠ - رتبت المراجع عند الإحالة عليها، حسب تاريخ الوفاة.

١١ - نقلت أقوال الخصوم من كتبهم ما أمكنني ذلك، وما لم أتمكن منه نقلته من كتب المقالات.

١٢ - لم ألتزم عند الرد على المخالفين بالرد عليهم من خلال السورة، وإنما أتوسع في ذلك ما أمكن، وذلك لأن الرد على المخالفين ينبغي أن يكون قوياً ملزماً.

١٣ - قد أنقل من بعض الكتب ما يؤيد رأيي في مسألة ما، وليس معنى ذلك موافقتي للمؤلف في جمع آرائه، ولكن الحكمة ضالة المؤمن... .

١٤ - ما ذكرت بلفظ شيخ الإسلام وأطلقت فالمقصود ابن تيمية رحمه الله.

وبعد طباعة الرسالة قمت بتصحيح الأخطاء بطريقة المقابلة، وحاولت جهدي أن أتدارك الأخطاء المطبعية ما أمكنني ذلك.

ولا يخفى سعة هذا الموضوع وتشعب أطرافه.

ويعلم الله أني قد بذلت فيه ما استطعت من جهد، ولا حول لي ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فما كان فيه من صواب فمن الله وحده، وما كان فيه من خطأ فمن نفسي، وأستغفر الله وأتوب إليه.

وفي الختام أشكر الله تعالى وأحمده على ما مَنَّ به عليَّ من إتمام هذا البحث فله جل وعلا، وافر الشكر والثناء.

ثم أتوجه بالشكر إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وأخص بالشكر كلية أصول الدين — قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة — على إتاحتهم لي هذه الفرصة للتزود من العلم النافع، كما أتوجه بالشكر إلى فضيلة المشرف على الرسالة الشيخ د. عبدالكريم الحميدي على ما أولاني من حسن التوجيه، ورحابة الصدر خلال فترة بحثي، فنسأل الله تعالى أن يجعل ذلك في موازين حسناته، وأن يزيده من فضله وأن يوفقه لما يحبه ويرضاه ويجزيه عني خير الجزاء.

كما أتوجه بالشكر إلى فضيلة الشيخين الكريمين فضيلة الشيخ د.محمد بن عبدالرحمن الشايع رئيس قسم القرآن وعلومه وفضيلة الشيخ د.محمد عمر محمد حسن الأستاذ بكلية أصول الدين وعضو هيئة التدريس بالكلية على تفضلهما بقراءة هذا البحث وإبداء الملاحظات

والتوجيهات فجزاهما الله خير الجزاء. كما أشكر الرئاسة العامة لتعليم البنات على منحي تفرغاً كلياً لمدة عامين دراسيين لإعداد هذه الرسالة فجزاهم الله خيراً ووفقهم لما يحبه ويرضاه.

كما أشكر فضيلة الشيخ د. محمد ربيع الجوهري على ما بذله في مساعدتي أثناء البحث عن موضوع، وأثناء وضع الخطة، كما أشكر زوجي الأستاذ عبدالرحمن القحطاني على ما بذله معي من جهد وتضحية مما كان له أكبر الأثر في إتمام هذا البحث بعد عون الله تعالى.

كما إني أشكر كل من قدم لي مساعدة في أثناء البحث بإعارة كتاب أو توجيه نصح وأخص بالذكر الأخ الشيخ عبدالله العتيبي وأهله، وكذلك الإخوة من جامعة الملك سعود زملاء زوجي، كما اشكر جميع أفراد أسرتي وأخص بالذكر والدتي الحبيبة على ما غمرتني به من جميل الرعاية وفائق العطف والحنان، فأسأل الله تعالى أن يجزي الجميع عني خير الجزاء، وأن يثقل له موازينهم يوم العرض الأكبر إنه سميع مجيب.

كما أسأله تعالى أن يتقبل عملي هذا وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

كتبته

قذلة بنت محمد بن عبدالله القحطاني

تمهيد

خصائص السور المكية عامة وسورة يونس خاصة:

إن المهمة العظمى للأنبياء والرسل عليهم صلوات الله وسلامه هي بيان أنواع التوحيد والدعوة إلى عبادة الله جل وعلا وحده لا شريك له، ونبذ عبادة ما سواه من الآلهة التي لا تملك نفعاً ولا ضراً، فهو وحده جل وعلا المستحق للعبادة، ولقد قام نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بهذه المهمة خير قيام، حيث بين دين الله ودعا أمته إلى التوحيد، خلال ثلاثة وعشرين عاماً قضاها عليه صلوات الله وسلامه في الدعوة والجهاد والصبر والمثابرة، وكان الوحي يتنزل عليه خلال هذه الفترة حيث قضى ثلاث عشرة سنة في مكة، وعشر سنين في المدينة المنورة، وبلا شك أن طبيعة الدعوة تختلف في المرحلتين حيث كان عليه الصلاة والسلام يواجه في مكة طواغيت الكفر ورؤوس الضلالة، وقوم قد أشربوا حب عبادة الأصنام والأوثان في قلوبهم، فكان لابد أن يقتلع أولاً وقبل كل شيء أصول الوثنية من نفوسهم لتطهر وتسمو إلى خالقها وبارئها جل وعلا. أما في المدينة فكان هناك المؤمنون المصدقون ومعهم شرذمة من المنافقين المندسين بينهم، وهناك أيضاً طوائف من أهل الكتاب.

فمن هنا اختلف أسلوب الدعوة وطبيعته في مكة والمدينة والمتتبع للسور المكية يجد لها مميزات تختلف عن مميزات القرآن المدني.

ومن أهم هذه المميزات:

١ - قلع أصول الوثنية والشرك من نفوسهم، وذلك بالحجة الدامغة، والدليل الواضح، وضرب لهم الأمثال في ذلك، وبيان أن الشرك بالله من أعظم الذنوب، ولا يغفر لصاحبه، بل هو خالد مخلد في

نار جهنم، قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ [الإسراء: ١١١]

وقوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾ [القصص: ٦٤].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ [يونس: ٣٤].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ﴾ [يونس: ٣٥].

٢ - دعوتهم إلى النظر والتأمل في آيات الله الكونية، والاستدلال بذلك على ألوهيته تعالى وربوبيته. قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

٣ - إثبات أصول الإيمان الستة، ومن ذلك إثبات الرسالة ودحض شبههم وافتراءاتهم في الطعن في الرسالة وفي الوحي. وتحديهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن، قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

٤ - تصوير المجتمع الجاهلي، وما فيه من فواحش، وعادات قبيحة كسفك الدماء، والزنى، ووأد البنات، وأكل أموال اليتامى ظلماً.

٥ - توضيح أصول الأخلاق، وبناء المجتمع على أساس من الفضائل ومكارم الأخلاق، قال تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا

وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥١ -١٥٢].

٦ - ذكر قصص الأنبياء مع أممهم، ثم مصير المكذبين بعد ذلك ونجاة أهل الحق، ليرتدع هؤلاء المشركون عن شركهم، وتسلية نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - ليتحلى بالصبر، ويثق بنصر الله ولو بعد حين، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف: ١١١].

٧ - التفصيل في إثبات البعث، والرد على منكريه، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ ﴾ [سبأ: ٣].

٨ - تصوير مشاهد القيامة وأهوالها، وما تشتمل عليه بما في ذلك من البعث والحشر، والحساب، والجزاء والصراط، والجنة ونعيمها، والنار وجحيمها، بألفاظ قوية، وعبارات مؤثرة، تهز الوجدان، وتحرك المشاعر، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النازعات: ٣٤ -٤١].

وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [النازعات: ٣٣ -٤٢].

٩ - سلك القرآن المكي سبيل الإيجاز في الخطاب، مع شدة الإيقاع، وقوة اللفظ، لهذا جاء كثير من السور المكية قصيرة الآيات، قصير السور، ويكثر فيه القسم.

قال تعالى: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ ﴾ [التكوير: ١ -٦].

وقوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ﴾ [التكوير: ١٥ -١٩].

وقوله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ ﴾ [الانفطار: ١ -٥]. وغير ذلك كثير [(١)] والسورة التي هي موضوع البحث هي سورة يونس عليه السلام، وهي سورة مكية بالاتفاق [(٢)].

---

(١) انظر في المكي والمدني: البرهان في علوم القرآن للزركشي (ج١/ ١٨٨ — ١٨٩) ومناهل العرفان للزرقاني (١٨٦/١ وما بعدها)، ومباحث في علوم القرآن للشيخ مناع القطان (ص ٥٤ -٥٥)، ومباحث علوم القرآن صبحي الصالح ص١٦٤ -٢٣٣.

(٢) انظر الدر المنثور للسيوطي (٣٣٩/٤)، وبصائر ذوي التمييز (٢٣٨/١).

واستثنى منها بعض العلماء بعض الآيات:

فقيل قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ [يونس: ٩٤]. إلى ثلاث آيات، وروي هذا عن ابن عباس.

وقيل الآية السابقة وآية بعدها. روي ذلك عن مقاتل [(١)].

وقيل قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨] والتي تليها.

وقيل قوله تعالى:

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [يونس: ٤٠].

وقيل نزل أولها أربعون آية في مكة، والباقي في المدينة. والله أعلم[(٢)].

ووجود بعض الآيات منها مدنية، لا يخرجها عن طابع السور المكية.

سبب التسمية:

وقد سميت سورة يونس لورود الإشارة إلى قوم يونس – عليه السلام – في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس: ٩٨].

إذ هم المثل الوحيد في القوم الذين عادوا إلى ربهم فتابوا، وأنابوا، قبل حلول العذاب بهم، فكشف الله عنهم العذاب، وتاب عليهم

---

(١) "مقاتل بن سليمان البلخي المفسر، أبو الحسن. رَوَى عن مجاهد، والضحاك، وابن بريدة. وعنه حرمّي بن عمارة، وعلي بن الجعد، وخلق .. قال الشافعي: الناس عيال في التفسير على مقاتل ..". اختلف العلماء في توثيقه. انظر ميزان الاعتدال (١٧٣/٤) وانظر تهذيب التهذيب (٢٤٩/١٠ -٢٥٤).

(٢) انظر المحرر الوجيز لابن عطية (٣/٩)، وزاد المسير لابن الجوزي (٤/٣)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣٠٤/٨).

وذلك خصوصية تظهر شرف يونس عليه السلام وكرامته [١] كما سيأتي إن شاء الله تعالى [٢].

ويلاحظ وضوح الطابع المكي على سورة يونس، وذلك يتبين بما يلي:

بدأت بقوله تعالى: ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ .. ﴾ الآية [يونس: ١ -٢].

وفي هذا دعوة إلى الإيمان بالقرآن وأنه من عند الله عز وجل، وفي إثبات نبوة محمد ﷺ ورد أقوالهم الباطلة إنه ساحر أو مجنون أو كاهن .. الخ وتحديهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن.

الدعوة إلى الإيمان بالله عز وجل وتحقيق الألوهية والعبودية لله الواحد القهار وأنه الإله الحق وذلك بما اشتملت عليه من بيان مظاهر قدرته جل وعلا في الخلق والرزق والتدبير، والإحياء والإماتة والتصرف الحكيم، مما يخاطب الفطرة السليمة والعقل الواعي المتدبر لآيات الله الكونية وذلك مما هو محسوس وملموس كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [يونس: ٣].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦ ﴾ [يونس: ٦].

---

(١) انظر في ظلال القرآن (١٧٥٢/٣).
(٢) انظر ص٢٧٨ وما بعدها.

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس: ٣١].

تصوير مشاهد القيامة واليوم الآخر، وهذه من القضايا الكبرى التي تناولتها السورة الكريمة.

كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [يونس: ٤٥].

وقوله تعالى في بيان حال أهل الجنة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [يونس: ٩ -١٠].

وفي حال أهل النار يقول جل ذكره: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [يونس: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [يونس: ٥٤].

وفيها أيضاً تقرير للبعث، ورد على منكريه في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [يونس: ٣٤].

وقوله تعالى: ﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [يونس: ٥٣].

فيها دعوة للنبي ﷺ للصبر على أذى المشركين، وبيان أن الهداية بيد الله سبحانه وتعالى، يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [يونس: ٩٩].

وقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [يونس: ١٠٩].

بيان ما عليه هؤلاء الكفار من الضلال في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [يونس: ٥٩].

احتوت السورة المباركة على بعض قصص الأنبياء وهم نوح وموسى ويونس، عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، وبيان لمصير المكذبين المعاندين، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [يونس: ١٣].

وفي السورة خصائص أخرى غير ما ذكر سيأتي الحديث عنها، إن شاء الله، في ثنايا البحث [(١)].

---

(١) انظر البرهان في علوم القرآن للزركشي (١/١٨٨ -١٨٩)، وانظر بصائر ذوي التمييز (١/٢٣٨) وما بعدها، وانظر التفسير الموضوعي للقرآن (تفسير سورة يونس) د. محمد البهي ص٣ -٦، وانظر مناهل العرفان (١/١٨٦) وما بعدها وانظر مباحث في علوم القرآن للشيخ مناع القطان (٥٤ -٥٥).

الباب الأول

في الإيمان بالله تعالى وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في إثبات الربوبية.

الفصل الثاني: إثبات الألوهية لله تعالى.

الفصل الثالث: إثبات الأسماء والصفات.

الفصل الأول

في إثبات الربوبية وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الاستدلال بالآيات الكونية على الربوبية.

المبحث الثاني: الاستدلال بالفطرة على الربوبية.

الفصل الأول
في إثبات الربوبية

إن الإيمان بالله جل وعلا ويشمل الإيمان بربوبيته وألوهيته وما يجب له من صفات وأسماء تليق بجلاله جل وعلا مما أخبر به في كتابه، أو ثبت من سنة نبيه محمد ﷺ وهذه هي أقسام التوحيد الثلاثة، التي تشمل القسم الخبري العلمي الاعتقادي وتشمل توحيد الربوبية والأسماء والصفات، والقسم الإنشائي الطلبي العلمي وهو توحيد الألوهية توحيد القصد، والإرادة، الذي دعت إليه الرسل، ومن أجله أنزلت الكتب، وأبى المشركون قبوله والاعتراف به [(١)].

والرب في اللغة: "المالك، والسيد، والمدبر، والمربي، والقيم، والمنعم" [(٢)].

وقال ابن الأنباري [(٣)]:

"والرب ينقسم على ثلاثة أقسام: يكون الرب المالك، ويكون الرب السيد المطاع، قال تعالى: ﴿ فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ﴾ [يوسف:٤١]، ويكون الرب المصلح، رب الشيء إذا أصلحه .. "ا.هـ [(٤)].

والله عز وجل هو المالك، المتصرف، الخالق، الرازق، المحيي، المميت، المدبر، السيد، المطاع .. الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

---

(١) انظر اقتضاء الصراط المستقيم، ص٤٦٤ -٤٦٥، ومدارج السالكين (٤٤٩/٣).

(٢) لسان العرب: مادة (ربب) وهو من كلام أحمد بن يحيى (٣٩٩/١).

(٣) عبدالرحمن بن محمد بن عبيدالله الأنصاري، أبو البركات كمال الدين الأنباري: من علماء اللغة والأدب وتاريخ الرجال كان زاهداً عفيفاً .. سكن بغداد وتوفي فيها، الأعلام (٣٢٧/٣).

(٤) لسان العرب: (٤٠٠/١ -٤٠١).

له صفات الكمال المطلق، وله تصرف العبادة، وهو الإله الحق، الذي يحق الحق بكلماته ولو كره المجرمون.

والإيمان بربوبية الله جل وعلا، مركوز في الفطرة لا ينكره إلا معاند مكابر، والاستدلال عليه يكون من قبيل التنبيه وإيقاظ الفطر الغافلة وقد اعترف به المشركون، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾. [يونس: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [المؤمنون: ٨٤ -٨٩].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الزمر: ٣٨].

ومع اعترافهم به فلم يدخلهم في الإسلام، ولم ينجهم من عذاب الله وسخطه وذلك لعدم اعترافهم بلازمه، وصرفهم العبادة لغير الله.

والمتأمل في هذا الكون الهائل بأرضه وسمائه، الناظر في بره وبحره، أجرامه وكواكبه، يعلم يقيناً أنه لا يمكن أن يوجد هذا العالم إلا بموجد أوجده، حي قادر لا يعتريه الحدوث والتجدد وهو الرب جل وعلا. قال تعالى: ﴿ .. أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الطور: ٣٥ -٣٦].

وقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يونس: ١٠١].

المبحث الأول: الاستدلال بالآيات الكونية على الربوبية

لقد اشتملت سورة يونس – عليه السلام – على كثير من آيات الله جل وعلا في الكون كما هو الغالب على السور المكية، وقد جعلت الحديث في هذا المبحث دائراً تحت المسائل التالية:

١ - خلق السماوات والأرض.
٢ - تدبير الأمر.
٣ - خلق الشمس والقمر.
٤ - اختلاف الليل والنهار.
٥ - ما خلق الله في السماوات والأرض.
٦ - جريان الفلك في البحر.
٧ - الرياح.
٨ - الرزق.
٩ - خلق السمع والبصر.
١٠ - إخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي.
١١ - بدء الخلق وإعادته.

وأستعين بالرب جل وعلا في بيان هذه الآيات وتوضيحها وإيضاحها مرتبة حسب ورودها في السورة الكريمة فأقول:

١- خلق السماوات والأرض

قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٣].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ.. ﴾ [يونس: ٣١].

مما لا شك فيه أن خلق السماوات والأرض من أعظم الدلائل على ربوبية الله عز وجل فلو نظرنا إلى:

أ- السماء:

لرأينا هذا البناء الشامخ الذي ليس به خلل ولا فطور، قد رفعه الله تعالى بلا أعمدة، وزينة بالنجوم، وجعلها فيه كالمصابيح المضيئة.

قال ابن جرير رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:١٦٤] إن الله تعالى ذكره، ونبه عباده على الدلالة على وحدانيته، وتفرده بالألوهية، دون كل ما سواه من الأشياء بهذه الآية. ا.هـ (١) أي آية خلق السماوات والأرض.

ب- الأرض:

وهاهي الأرض آية أخرى، دلالة ثانية على إبداع البارئ جلا وعلا، وعلى ربوبيته فقد جعلها قراراً ومستقراً لجميع الكائنات، وسخرها للإنسان، ثم اقتضت حكمته تعالى أن يجعل الجبال لها أوتاداً،

---

(١) جامع البيان لابن جرير (٦٢/٢).

ولو لم يجعل عليهاالجبال الشامخات لم تكن مستقرة كما نشاهد، ولأصبحت تتكفأ تكفؤ السفينة، فلا يمكن أن يستقر عليها بنيان أو كائن.

وتأمل في خلق هذه الأرض من جوهر التراب، ولم تكن من الذهب أو الفضة أو الياقوت .. أو غير ذلك من الجواهر النفيسة، إذ لو كانت منها لفاتت مصالح الإنسان عليها وكذلك الحيوان [(١)] .

وتأمل ما أودعها الرب تعالى من الكنوز الثمينة التي ينتفع بها الخلق في أمور معاشهم، وأهم ذلك (البترول) الذي يتدفق من باطنها ملايين الأطنان.

وتأمل العيون التي تتفجر من باطنها، على نحو لا يعلمه إلا الله تعالى، ثم انظر إلى تلك الأراضي المتجاروة، ومع ذلك فبعضها يختلف عن بعض فمنها ما يصلح للنبات والمرعى، ومنها قيعان لا تصلح لشيء من ذلك [(٢)] .

وفي سورة يونس – عليه السلام – يبين الرب تعالى، ويلفت أنظار العباد إلى خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ولاشك أن ذلك من دلائل ربوبيته، وألوهيته وأنه الإله المستحق للعبادة، ولذلك قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٣].

ويقول أيضاً: ﴿ إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦ ﴾ [يونس: ٦].

ويقول جل ذكره في سورة النحل: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣ ﴾ [النحل: ٣].

---

(١) انظر التبيان في أقسام القرآن لابن القيم، (ص١٨٦).

(٢) انظر: المرجع السابق، (ص١٧٦)، ومفتاح دار السعادة لابن القيم (١/٢٢١).

ويقول تعالى: ﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ [إبراهيم: ١٠].

إلى غير ذلك من الآيات التي لوتتبعتها لطال المقام، وكلها تشير إلى عظيم خلق السماوات والأرض، وما خلق فيها الله تعالى من عظيم الآيات وبين المعجزات الدالة على ربوبيته.

٢- تدبير الأمر:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ ﴾ [يونس: ٣].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣١ ﴾ [يونس: ٣١].

إن تدبير الأمر في هذا العالم لمن آيات الله الباهرة. فمن الذي سخر الشمس أن تطلع صباحاً وتغرب مساءً؟! ومن الذي أجرى القمر في فلك معين لا يحيد عنه قيد أنملة؟! ومن الذي أجرى الأفلاك بما لا يعلم كنهه إلا خالقه؟! ومن الذي أحيا وأمات؟! وأوجد من العدم؟! وأغنى وأفقر؟! ومن الذي أنزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها؟! ومن الذي أخرج لنا من الأرض ثمرات مختلفاً ألوانها مع تساوي التربة والغذاء؟! من الذي يدبر أمر السماء والأرض ..؟! إنه بلا شك ولا ريب الله سبحانه وتعالى، وهو مع هذا لا يشغله شأن عن شأن، بل هو محيط بعلم كل شيء ليس معه شريك ولا ند.

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝ ﴾ [الرعد: ٢].

قال الإمام الشوكاني في تفسير قوله تعالى: (يدبر الأمر):

"قيل يبعث الأمر، وقيل ينزل الأمر، وقيل يأمر به ويمضيه، واشتقاقه من الدبر، والأمر الشأن، وهو أحوال ملكوت السماوات والأرض والعرش وسائر الخلق" (١).

وإذا كان الرب جل وعلا هو مدبر جميع أمور الدنيا والمعاش فله الحق في تدبير أمور الآخرة، وذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب وتشريع الشرائع، فلا أحد غيره يستحق أن يتفرد بتلك الأمور العظيمة.

٣- خلق الشمس والقمر:

وهاهي آية خلق الشمس والقمر، آية أخرى، ودلالة عظيمة على ربوبية الله عز وجل، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ ﴾ [يونس: ٥].

ونستطيع أن نعدد بعض الآيات الباهرات في خلق الشمس والقمر لنرى عظمة الرب تعالى في خلق هذين النيرين.

فمن الآيات: طلوع الشمس وغروبها على نمط معين، وكذلك القمر بنظام دقيق، لا يتخلف ولا يعتريه اضطراب.

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٢/٤٢٣).

وتأمل ماذا سيحصل لو طال النهار ولم تغرب الشمس، أو العكس فلو حصل ذلك لأحرقت الشمس ما على الأرض من نبات، ولو حصل العكس لتجمد كل ما على الأرض (١).

قال تعالى: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس: ٣٨ -٤٠].

ومن الآيات ما احتوته الشمس في خلقها من الآيات الباهرات حيث "يبلغ قدر الشمس كما أثبته العلم الحديث حوالي (٨٦٤٠٠٠) ميل ويبلغ وزنها حوالي (ألفي بليون بليون طن) وكلها مكونة من الغازات الملتهبة الشديدة السخونة، وذراتها الغازية الملتهبة تتجول داخل الشمس بحرية مطلقة .. وتتحمل الشمس ما يقع عليها من هصر بسبب تفجير الطاقة النووية فوق ما يخطر بالبال، أو يتصوره العقل البشري. إن ذلك الطوفان الطاغي من تفجير النَّوى يرفع درجة حرارة الشمس إلى ما لا يقل عن (١٤ مليون درجة مئوية) وتسخن هذه الحرارة لا كرتنا الأرضية فحسب بل تسخن جميع المجموعة الشمسية" (٢).

ومن الآيات أيضاً ما يخزن من أشعة الشمس في النبات بواسطة ما يسمى (عملية التمثيل الغذائي) في النبات حيث يتم تصنيع الغذاء في الورقة الخضراء بواسطة أشعة الشمس، وبإيقادنا لهذه الأجزاء الشجرية تنطلق الطاقة المخزونة.

---

(١) انظر العلم يدعو للإيمان، أكريسي موريسون ص٥٥، والله جل جلاله لسعيد حوى، ص٤٠.
(٢) سبعون برهاناً عملياً على وجود الذات الإلهية (١/ ١٣٣).

وقد تتحول هذه الطاقة إذا طمرت وتراكمت إلى فحم حجري، أو بترول [١]، فسبحان من بيده ملكوت كل شيء: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ [يس: ٨٠].

ومن الآيات أيضاً في خلق القمر تقدير منازله، فهو أقرب الأجرام إلى الأرض، وقطره (٣٤٧٨ ك.م)، وهو يدور حول الأرض ببطء، وله كل ليلة منزل، وعدد منازله ثمانية وعشرون منزلاً، ويمكن رؤيته في جميع المنازل عدا ليلة أو ليلتين فيحتجب فيها عن الأنظار [٢].

وفي هذا حكمة عظيمة بيّنها جل وعلا في قوله: ﴿ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ [يونس: ٥].

وقوله تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٨٩].

٤- اختلاف الليل والنهار:

إن في اختلاف الليل والنهار، وفي تعاقبهما لآية عظيمة لمن ألقى السمع وهو شهيد، ولهذا أكثر الله تعالى من ذكرها في القرآن العظيم، في آيات كثيرة، وبأساليب متنوعة.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝ ﴾ [يونس: ٦].

ويقول تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

---

(١) انظر كتاب التوحيد للزانداني (١٤١/٢).

(٢) انظر تفسير المراغي (٦٨/٤)، وسبعون برهاناً على وجود الذات الإلهية (١١٧/١).

وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ [الروم: ٢٣].

فتأمل كيف جعل الله سبحانه وتعالى الليل سكناً تسكن فيه الخلائق، وجعل النهار لخروجهم وطلبهم الرزق في الأرض، فكيف كان الحال لو جعل الله تعالى النهار سرمداً، بلا ليل نسكن فيه؟

وتأمل لو جعل الله الليل سرمداً إلى يوم القيامة، كيف سيكون حالنا، والظلام يغطي الكون وأمور معاشنا متوقفة، ولهذا نبه الله سبحانه عباده إلى التأمل والنظر في هذه الآية بقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [القصص: ٧١ -٧٢].

لاشك أن ذلك آية على ربوبيته جل وعلا [(١)].

وآية أخرى في النوم الذي لا يستطيع أحدٌ تفسيره، والوقوف على حقيقته، وفي الوقت نفسه لا يمكن أن يعيش الإنسان دون أن ينام [(٢)].

---

(١) انظر مفتاح دار السعادة (١/٢٠٣).

(٢) أجرى د. (هارولد ويليامز) تجربة ملخصها أنه "قام بتجربة .. على جماعة مكونة من خمسة وعشرين رجلاً تطوعوا بالبقاء مستيقظين فترات تصل إلى مائة ساعة، أي أكثر من أربعة أيام. ودلت التجربة على أنه لم تطرأ عليهم أعراض خطر خلال اليومين الأولين .. ولكن المتاعب بدأت بعد يومين فقد تبين للمتطوعين أن أصبح من الصعب عليهم أن يركزوا انتباههم، وأصبحوا سريعي التهيج بدأ بعضهم يرى صور الأشياء ==

كما ثبت طبياً الفرق الكبير بين نوم الليل، ونوم النهار، إذ إن نوم الليل له فوائد صحية، وينال الجسم فيه راحته بعيداً عن الضوضاء والصخب (١).

ومن الآيات أيضاً تعاون الليل والنهار على تحقيق مصالح الخلق. مع اختلافهما، وما بينهما من التضاد، وهذه كلها آيات على ربوبية الخالق سبحانه وتعالى (٢).

==

مزدوجة، كما عانوا أيضاً من هلوسة غريبة .." ثقافة طبية (ص١٤)، نقلا عن كتاب سبعون برهاناً (١٢٨/١).

(١) انظر مع الطب في القرآن، (ص١٠٥ -١٠٦).

(٢) انظر تفسير الفخر الرازي (٢١٥/٤).

٥- ما خلق الله في السماوات والأرض:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ۝٦ ﴾ [يونس: ٦].

وهذه آية أخرى، وماذا عساك أن تحيط به مما خلق الله في السماوات والأرض؟! قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ۝١٠١ ﴾ [يونس: ١٠١].

أولاً: الدلائل السماوية:

من كواكب، وأفلاك، وأحوال المطر، والرعد، والبرق، والصواعق .. وغير ذلك مما هي آيات بينات على خالقها ومدبرها سبحانه وتعالى.

فتأمل تلك الكواكب العظيمة، التي تفوق حجم الأرض آلاف المرات، بل قد تبدو الأرض بالنسبة لها كحبة الرمل، ولاشك أن عظمتها تدل على عظمة خالقها سبحانه (١).

وتأمل كذلك النجوم الزاهرة التي زين الله بها السماء الدنيا فقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝٦ ﴾ [الصافات: ٦]، ومع ذلك فهم يهتدون بها في ظلمات البر والبحر، ويستدلون بها على القبلة، ولهم فيها منافع أخرى. " وهذه الكواكب مختلفة في صفات كثيرة فبعضها سيارة، وبعضها ثابتة، والثوابت بعضها في المنطقة وبعضها في القطبين، وأيضاً الثوابت لامعة والسيارة غير لامعة، وأيضاً بعضها كبيرة درية عظيمة الضوء، وبعضها خفيفة قليلة الضوء" (٢) وهذه النجوم والكواكب متباعدة بعضها عن بعض بمسافات

---

(١) انظر العقيدة في الله، د. عمر الأشقر، (ص١٤٥).

(٢) تفسير الفخر الرازي (١٣/ ١٠٦).

هائلة، لا تحسب إلا بالسنة الضوئية [(١)] ، وهناك عدد كبير من النجوم لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة.

ثم تأمل المطر النازل من السماء على شكل نقط صغيرة، لا تؤذي من سقطت عليه، ثم تتحول إلى أنهار وينابيع، عذبة طيبة المذاق [(٢)] .

ومن الآيات في خلقه أيضاً كونه سبباً لحياة الأحياء، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

كما جعله سبحانه من الأسباب في رزق العباد قال جل ذكره: ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الذاريات: ٢٢] .

ومن الآيات أيضاً ذلك السحاب المحمل بكميات هائلة من الماء، ومن ذلك يظل معلقاً بين السماء والأرض إلى أن يأذن الله تعالى بنزوله، وهذا من أعظم الآيات [(٣)] ، وتأمل هذا الماء الساقط تجده عذباً حلواً، فإذا خالط مياه البحار والمحيطات عاد مالحاً، وهذا من الحكم العظيمة الباهرة، إذ لو كان ماء البحر عذباً لصعب على الكائنات الحية من أسماك وغيرها أن تعيش فيه، وذلك بسبب العفونة والفساد الذي ينشأ من القاذورات الساقطة فيه، فلما كان مالحاً، صار وطناً صالحاً لما يعيش فيه من كائنات حية وما يستخرج منه من منافع. وتأمل حال البرق، والرعد، والصواعق، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

---

(١) السنة الضوئية حوالي: "٦ مليون مليون وهي المسافة التي يقطعها الضوء في عام" هندسة النظام الكوني في القرآن، ص١٦.

(٢) انظر المرجع السابق، ص١٥ -١٦، وص ٢٤، وكتاب التوحيد للزنداني (١٣٤/٢).

(٣) انظر تفسير الفخر الرازي (٢١٩/٤).

مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ [الرعد: ١٢ -١٤].

فهذه من الآيات العظيمة الكثيرة، لم تأملها بعين البصيرة والتفكر، فهاهو البرق ضياء لامع، بارق يكاد يخطف الأبصار، وقد ذكر العلماء بأن له علاقة وثيقة بتسميد التربة، وتغذية النبات، وذلك بزيادة مركبات النتروجين فيها، وهو عبارة عن شحنات كهربائية يتم تفريغها بقدرة الله وعظمته، وعند التفريغ نسمع صوت الصواعق (١).

فلنتأمل: هذه الشحنات الكهربائية ما مصدرها؟! وكيف تكونت؟! وما الذي جعل فيها هذه القوة؟! وما هو هذا التيار الكهربائي الذي لا نرى إلا آثاره؟! لاشك أنها عظمة الله تعالى.

ثانياً: الدلائل الأرضية:

بما في ذلك من أحوال النبات والحيوان والبحار والمعادن .. فتأمل أحوال النبات وما فيه من عيب صنع الله، إذ يسقى بماء واحد، ومع ذلك اختلفت ألوانه، وتباينت أشكاله، وتفاوت طعمه فهذا عنب، وهذا تمر، وهذا زيتون .. فسبحان الخالق الذي أتقن كل شيء خلقه (٢).

قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد: ٤].

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن

---

(١) انظر: سبعون برهاناً علمياً (١/١٦٣ -١٦٤، ١٧١)، وانظر الله والكون د. محمد جمال (ص١٥٦، ١٥٩).

(٢) انظر كتاب التوحيد للشيخ عبدالمجيد الزنداني (١/٣٣).

طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وتأمل ما خلق الله تعالى من أنواع الحيوانات، فمنها ما يركب ومنها ما يحلب، ومنها ما يتغذى عليه، ومنها ما يحرس الإنسان وغير ذلك ما هو آية دالة على خالقه تبارك وتعالى (١).

وتأمل اللبن الذي يخرج طعاماً لذيذاً سائغاً للشاربين، مع أنه يخرج من بين الدم والفرث، مع اختلافه عنهما لوناً وصفة (٢)، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [النحل:٦٦].

وانظر إلى البحار، والأنهار، والعيون وما أودعه الله فيها من عجائب الأسرار، حيث إن البحار تغطي حوالي ثلاثة أرباع الكرة الأرضية، ولولا إمساك الله جل وعلا الماء لطفح وغطى جميع أرجاء المعمورة (٣)، وتأمل الأرض، وما فيها من آيات كما سبق بيان بعض ذلك (٤).

لاشك أن هذه الدلائل السماوية والأرضية كلها تدل على ربوبية الله تعالى وعظمته.

٦- جريان الفلك في البحر

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى

---

(١) انظر مفتاح دار السعادة (١/٢٠٦).
(٢) انظر التفسير القرآني لقرآن لعبدالكريم الخطيب (١٤/٣٢١).
(٣) انظر مفتاح دار السعادة (١/٢٠٤)، وسبعون برهاناً (٢/٢٨٦ -٢٧٢).
(٤) انظر ص(١٤ -١٥).

ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يونس: ٢٢].

ويقول تعالى في سورة إبراهيم: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

وقوله تعالى في سورة الشورى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الشورى: ٣٢].

وهذه آية عظيمة من آيات الله، فلهذه المخلوقات خواص معينة، تجعلها تظل باقية على سطح الماء، ولو اختلفت هذه الخواص التي أودعها الله تعالى في هذه المخلوقات ما جرت السفن على الماء، ومن هذه الخواص كثافة الماء، وضغط الهواء، والتيارات المائية والهوائية، ودرجة الحرارة، وغير ذلك من الخواص التي ذكرها العلماء [(١)] وهذه الآية تدل على الربوبية من وجوه:

إن هذه السفن، وإن كانت من تركيب الناس غير أن الله تعالى خالق آلاتها، فلو لم يخلق آلاتها لم يكن هناك سفن أصلاً.

الثاني: إن الرب تعالى يحركها بواسطة الرياح التي لو سكنت، لسكنت السفن عن الحركة، كما ذكر تعالى في قوله: ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الشورى: ٣٣] ثم إن هذه الرياح لو كانت ريحاً عاصفاً، لغرقت الفلك بمن فيها، فهذا من رحمة الله عز وجل.

---

(١) انظر تفسير الآيات الكونية د. عبدالله شحاتة، (٢١٧)، وطريق الإيمان لسميح عاطف، ص٥٩.

الثالث: إنه عز وجل أودع هذه المواد من الخصائص، والصفات التي لو اختل ميزانها أو تغير لما استطاع أحد أن يركب البحر.

الرابع: إنه عز وجل خصَّ كل قطر منٍ أقطار العالم بشيء معين، وأحوج الكل إلى الكل فصار ذلك داعياً إلى ركوب البحر وتحمل المشاق.

الخامس: تسخير الرب تعالى البحر لحمل السفن، مع قوة سلطانه، إذا هاج، وما فيه من أهوال.

السادس: ما في هذه البحار من الحيوانات والمخلوقات العظيمة، ومع ذلك يخلص منها السفن، ويوصلها بالسلامة [(١)].

٧- الرياح:

قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ [يونس: ٢٢] فهذه الرياح التي تملأ الكون، خلقها الرب عز وجل لحكم عظيمة وهي من آيات ربوبيته.

وهي أنواع ذكرها الله تعالى في آيات كثيرة، ومتفرقة في القرآن الكريم، بل وأقسم بها في مواضع، وذلك لشرفها، ولما فيها من بديع صنعه وكمال قدرته.

فمن أنواع الرياح، النوع الذي يسير الفلك في البحر، وهو مذكور في سورة يونس في الآية التي سبق ذكرها. والريح العاصف وهي مذكورة في الآية السابقة أيضاً. ومن أنواع الرياح أيضاً ما ذكره الله تعالى في أول

---

(١) انظر تفسير الرازي (٢١٨/٤).

سورة المرسلات – على اختلاف العلماء في تأويلها [١] قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ ﴾ [المرسلات: ١ -٥] .

ومن أنواع الرياح، الرياح اللواقح التي تقوم بتلقيح الأزهار [٢] فتكون بعد ذلك الثمار، قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ۝٢٢ ﴾ [الحجر: ٢٢].

وهذه الرياح كما أنها تأتي رحمة، وبشرى، فهي قد تأتي عذاباً ونقمة قال تعالى: ﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝٤٢ ﴾ [الذاريات: ٤١ -٤٢].

لاشك أن هذا كله من آيات الله العظام.

٨- الرزق

قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣١ ﴾ [يونس: ٣١]. .

فالرزق من آيات الله العظيمة في هذا الكون، فانظر إلى رزق الأجنة في الأرحام، كيف يصل إليها عن طريق الحبل السري، وعندما تخرج من تلك الظلمات الثلاث، يفتق لها ثدي الأم فيخرج لبناً صافياً عذباً، يحوي جميع المواد الغذائية التي يحتاجها البدن، فإذا اشتد العود، نبتت الأسنان فتغذى البدن بعد ذلك على الخيرات العظيمة التي تخرج من

(١) انظر تفسير ابن كثير (١٨٩/٧).
(٢) انظر جامع البيان (٢٠/١٤، ٢٢).

الأرض، وكما رزق الإنسان رزق الأسماك في أعماق البحر والدود في جوف الصخر، وكذلك ساق غذاء الحشرات التي لا تكاد ترى بالأبصار، وخلق لها وسيلة التقاط الغذاء إما بالمنقار، وإما بالمخالب، أو الخراطيم كلٌ وما يناسب الخلقة التي خلقه الله عليها [(١)] ، ولهذا يقول جل ذكره: ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦ ﴾ [هود: ٦]. ويقول جل ذكره: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ۝٣ ﴾ [فاطر: ٣].

٩- خلق السمع والبصر:

قال تعالى: ﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ ﴾ [يونس: ٣١].

إن ما خلق الله عز وجل في هاتين الحاستين، لعالم وحده، وإن فيهما من دقيق وعجيب صنع الله، ما لا يمكن أن يخطر على بال.

وفي التعبير عنهما بالملكية مع أنه مالك لكل شيء فيه إشارة إلى أن الإنسان بهاتين الحاستين يتعلم، فهما من أظهر الحواس في الإنسان إذ بدونهما لا يمكن له المعرفة والتعلم، فهما وإن كانتا من أسباب تفضيل الإنسان، وترقيه في العلم والمعرفة، فهما تحت تصرف الرب تعالى وفي ملكيته، وهو قادر على سلبهما [(٢)] .

---

(١) انظر تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (١٢/١٢ -١٣)، والإيمان للزنداني وآخرين، ص٤٢ -٤٤.

(٢) انظر التفسير القرآني للقرآن (١١/١٠٠).

والمتتبع لآيات القرآن الكريم يجد تقديم السمع على البصر في جميع المواطن التي ذكرت في القرآن، عدا ما جاء في سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ﴾ [الكهف:٢٦] ومن الحكمة في هذا — والله أعلم — كما ذكرها بعض العلماء:

- إن الآيات السمعية، إنما تدرك بالسمع دون البصر، وهي أعظم الآيات، ولذلك قدم السمع على البصر.
- إن وظيفة السمع تبدأ قبل وظيفة الإبصار في الجنين كما ذكر ذلك الأطباء.
- إن تعلم النطق يتم عن طريق السمع، وإذا ولد أصم فإنه يصعب عليه الانسجام مع المحيط الخارجي، بعكس البصر، فالإنسان قد يتعلم وهو أعمى، وكثير من عباقرة وأذكياء العالم كانوا عمياناً.
- إن الأُذن تقوم بوظيفة السمع، وتقوم بوظيفة أخرى، وهي التوازن في الجسم، أما البصر فله وظيفة النظر والرؤية فقط (١) .

والأذن تتركب من الأذن الخارجية، والأذن الوسطى، والأذن الداخلية، وقد احتوت جميعاً على بديع خلق الله عز وجل، وعجيب صنعه، فتأمل الأذن الخارجية، كيف خلقها الله تعالى على شكل صدفة كثيرة التعاريج؟ لتجميع الذبذبات الصوتية وتكسر من حدتها، ثم

---

(١) انظر قطر الولي على حديث الولي للشوكاني ص٤٣٩، ومع الطب في القرآن، ص٥٣ -٥٤.

تنقلها إلى القناة الغضروفية، ثم إلى غشاء الطبلة ثم إلى المخ فيترجمها إلى حروف وأصوات، فسبحان من أتقن كل شيء خلقه [١] .

ثم تأمل حاسة البصر وما فيها من دقيق الخلق فهي مكونة من ثلاث طبقات، تحوي من الأغشية، والأوعية الدموية، والأنسجة ما تحار فيه العقول، فمثلاً "العين الواحدة حوالي (١٤٠) مليون مستقبل حساس للضوء، وهي تسمى بالمخاريط والعصي، وطبقة المخاريط والعصي هذه هي واحدة من الطبقات العشرة (٠,٤مم). ويخرج من العين نصف مليون ليف عصبي فينقل الصورة بشكل ملون" [٢] .

وتأمل أيضاً هذه الرموش والجفون التي تحيط بالعين، وذلك لحفظ العين ووقايتها، وانظر إلى هذه الغدة الدمعية، التي لم يخلقها الرب جل وعلا عبثاً، فقد ذكر العلماء من فوائد الدموع، تخفيف شدة الحزن، وترقيق القلب وتطهيره إذا كانت من خشية الله، بالإضافة إلى ترطيب العين وتنظيفها من الميكروبات والأتربة إذ تحوي مواد مطهرة [٣] .

ومن الآيات أيضاً في خلق العين ما جعل الله لهذه العين من قوة الإبصار حتى في الضوء الخافت.

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتاب خلق الإنسان بين الطب والقرآن، د. محمد البار، ص٣٢٤.
(٢) مع الطب في القرآن، ص٤١.
(٣) انظر خلق الإنسان بين الطب والقرآن، ص٣٤٠ وانظر ٣٣٨ -٣٣٩.

ومن الآيات أيضاً رؤية بعض المخلوقات لبعض الأشعة التي لا يراها الإنسان من ذلك مثلاً: رؤية النحل للأشعة فوق البنفسجية، ورؤية البومة للأشعة تحت الحمراء [1]، فسبحان الخلاق العليم.

١٠- إخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي:

قال تعالى: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣١].

وهذا مشهد آخر من مشاهد هذا الكون، وهو مألوف لدينا، نراه ويتكرر أمامنا عشرات المرات، ولهذا تبلد الحس تجاهه، فضعف الشعور بمعاني العظمة ودلائل الربوبية فيه، وإخراج الحي من الميت، وإخراج الميت من الحي تتعدد معانيه كما ذكرها المفسرون:

فمنها: إخراج الإنسان الحي من النطفة، والعكس، وكذلك إخراج الطائر الحي من البيضة، والعكس.

ومنها: إخراج المؤمن من الكافر والعكس والمؤمن بمثابة الحي، والكافر بمثابة الميت.

ومنها إخراج النبتة الحية من البذرة الميتة [2].

ولو قال قائل: إن النطفة، والبيضة، والنواة، تحتوي على مادة الحياة، كما ثبت في العلم الحديث، فالجواب على ذلك أن يقال: لنعد إلى نشأة الحياة فهل كان هناك مادة للحياة أصلاً؟ فالجواب قطعاً لا. ولا يستطيع أحدٌ الإجابة بنعم، إذ لو قال ذلك للزم الدور والتسلسل وهذا باطل.

ثم إن في حياتنا اليومية الكثير مما نشاهده دليلاً واضحاً على ذلك

---

(١) انظر العقيدة في الله، د. عمر الأشقر، ص١٣٨.

(٢) انظر زاد المسير (١/ ٣٧٠).

فمثلاً الطعام الذي يتناوله الحي أليس ميتاً؟، ومع ذلك يتكون منه المني والمبيض، ويتحول في الجسم إلى خلايا حية من جنس خلايا الجسم، فهذا إخراج الحي من الميت، وأما إخراج الميت من الحي فمثاله خروج اللبن وغيره من الحي، وهذه شبه يثيرها الملاحدة، ليشككوا في صحة الوحي وأقوالهم مردودة، كما أنه ليس شرطاً موافقة القرآن الكريم لكل نظرية علمية، فكثير من هذه النظريات التي اعتقد الناس صحتها، ثبت بطلانها ومخالفتها للواقع (١).

وعلى العموم فإن ظاهرة إخراج الحي من الميت، وإخراج الميت من الحي من الدلائل الكونية، الدالة على وحدانية الرب وعلى قدرته على الخلق والإعادة.

---

(١) انظر فيما سبق: تفسير المنار (٣٥٦/١١ -٣٥٧)، ومجلة الأزهر العدد ٨ شوال ١٣٩٦هـ ص (١٢٨١ -١٢٨٢)، ومع الطب في القرآن، ص٥٥.

١١- بدء الخلق وإعادته:

قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [يونس: ٣٤].

ومعنى الآية "من ينشئ خلق شيء من غير أصل، فيحدث خلقه ابتداء ثم يعيده؟ يقول: ثم يفنيه بعد إنشائه، ثم يعيده كهيئته قبل أن يفنيه فإنهم لا يقدرون على دعوى ذلك"[١].

فمن من الآلهة المزعومة يستطيع أن يفعل ذلك؟!: ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [فصلت:٧-٩].

ومما يبين ما في بدء الخلق من الآيات العظام، إن الإنسان إلى الآن لم يستطع التوصل إلى مراحل نشأة الكون، وكل نظرية تظهر تتعارض مع سابقتها، فمنهم من قال: "ترجع نشأة السيارات (الكواكب وتوابعها) حول الشمس إلى صدام مروع حدث بين الشمس ونجم هائل أدى إلى تناثر أجزاء من الشمس بالانجذاب نحو هذا النجم، وبردت تدريجياً حتى صارت صلبة، ودارت حول نفسها من هول الصدام"[٢] وهذه هي ما يعرف بنظرية التصادم، وظهرت بعدها نظرية أخرى تعرف بنظرية المدَّ الغازي، وتنص على: "أن مسألة انفصال الكواكب عن الشمس شيء سليم، ولكن ليس بالتصادم، وإنما تم الانفصال أثناء مرور نجم قريباً[٣] من الشمس وجذبه إياها .."[١].

---

(١) جامع البيان (١١/١١٥).

(٢) هندسة النظام الكوني في القرآن، ص١١٦.

(٣) كذا بالأصل والصحيح قريب.

وهناك نظريات أخرى تدل على مدى تخبط الإنسان وجهله في معرفة حقائق هذا الكون [٢] . وتأمل في بدء الإنسان: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات:٢١] فقد بدأ خلقه من نطفة مهينة، لو تركت شيئاً من الوقت خارج الجسم لفسدت، فانظر كيف حفظها الباري، وأكمل خلقها حتى خرجت في أحسن تقويم، وهذه النطفة عبارة عن خلية واحدة نشأت من اتحاد الحيوان المنوي عند الذكر مع البويضة عند الأنثى، فنتج عن ذلك "الأمشاج" أي البويضة الملقحة، ثم تأمل ما يحصل لها من التطورات، حيث يزداد عدد الخلايا، وفي خلال خمسة أيام أو أسبوع تعلق بجدار الرحم في النصف العلوي منه، ثم تتوالى مراحل نمو الجنين متتابعة [٣] كما صورها الله تعالى في القرآن الكريم في آيات كثيرة، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ [الحج:٥]. وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون:١٢ -١٤] .

==

(١) المرجع السابق، ص١١٧.
(٢) انظر المرجع السابق، ص١١٨.
(٣) انظر خلق الإنسان بين الطب والقرآن، ص١٩٥، وما بعدها.

وفي الحديث عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ : "إن الله عز وجل قد وكل بالرحم ملكاً يقول: يا رب: نطفة. يا رب: علقة. يا رب: مضغة، فإذا أراد أن يقضي خلقه قال: أذكر أم أنثى؟ شقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ وما الأجل؟ فيكتب في بطن أمه" (١) وتأمل هذا الدم الذي يجري في عروقك، وما هي محتوياته؟ التي من ضمنها كريات الدم الحمراء التي ذكر العلماء بأنك لو وضعتها في صف بجانب بعض لأحاطت بالأرض (٥ -٦) مرات، وتقطع في عروق البدن مسافة تصل حوالي ١١٥٠كم (٢) "ويستهلك الجسم من خلايا (١٢٥) مليون خلية في الثانية الواحدة .. وبنفس الوقت يتشكل ويتركب نفس العدد من خلايا تقريباً .." (٣) لاشك أن هذا كله يدلنا على الخالق العظيم، فسبحان من خلق فسوى، وقَدّر فهدى، لاشك أن من قدر على البدء قادر على الإعادة من باب أولى إذا اقترن الإيمان بالربوبية، بالإيمان بالبعث.

قال تعالى: ﴿ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [يونس: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ ﴾ [التوبة: ١١٦].

وسيأتي الحديث عن البعث في الباب الرابع إن شاء الله تعالى.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الحيض، باب مخلقة وغير مخلقة رقم: ٣١٢ (١٢١/١)، ورواه في كتاب الأنبياء باب قوله تعالى: "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة" رقم: ٣١٥٠ (١٢١٣/٣) عن مسدد بنحوه، ورواه مسلم في كتاب القدر باب كيفية الخلق لآدمي في بطن أمه رقم: ٢٦٤٦ (٢٠٣٨/٤)، واللفظ لمسلم.

(٢) انظر مع الطب في القرآن، ص٣٩.

(٣) المرجع السابق، ص٤٠.

والواقع أن دلائل الكون شاهدة بوجود الرب تعالى، وربوبيته، وهذا لا ينكره إلا الملاحدة، حتى الحيوانات تشهد بذلك، فهاهو الهدهد يستدل على صحة توحيده بإخراج الله تعالى الخبء وهو الماء من السماء والأرض.

ويخاطب سليمان – عليه السلام – بأعظم التوحيد في قوله تعالى: ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النمل:٢٥-٢٦] ويستدل بذلك أيضاً على أن معرفة الله تعالى فطرية لا تحتاج إلى نظر أو استدلال كما سيأتي في المبحث القادم – إن شاء الله – .

المبحث الثاني: الاستدلال بالفطرة على الربوبية:

إن الإقرار بالرب تعالى، أمر مستقر في الفطرة لا يحتاج إلى دليل، لمن هو سليم الفطرة، وعلى هذا اتفق سلف الأمة وأئمتها، وخالف في هذا أهل البدع من الجهمية (١)، والمعتزلة (٢)، وبعض الأشاعرة (١)،

---

(١) أصحاب الجهم بن صفوان – ستأتي ترجمته – وهم من الجبرية الغالية، من آرائهم: نفي الصفات كلها، والقول بفناء النار، وأن الإيمان هو المعرفة فقد، وعندما ظهرت بدعهم، بترمذ، قتل مسلم بن أحوز الجهم بن صفوان سنة ١٢٤هـ، في آخر دولة بني أمية، (انظر المقالات، ص٢٧٩ -٢٨٠، وانظر الملل والنحل للبغدادي، ص١٤٥، وانظر الملل والنحل للشهرستاني (١/٨٦).

(٢) أصحاب واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، يقال: إن سبب ظهورها أن واصل بن عطاء كان تلميذاً للحسن البصري، فسئل الحسن عن مسألة الفاسق هل هو مؤمن أو كافر؟ فأظهر واصل القول بالمنزلة بين المنزلتين ثم اعتزل حلقة الحسن يدعو إلى بدعته، ومن آرائهم نفي الصفات، ونفي خلق الله لأفعال العباد، ووجوب إنفاذ الوعد والوعيد، وتخليد مرتكب الكبيرة في النار، وهم فرق كثيرة قد تصل إلى عشرين فرقة منها: الواصلية، والعمرية الهذيلية والنظامية .. الخ. (انظر الفرق بين الفرق للبغدادي، =

فقالوا: إن المعرفة لا تحصل إلا بالنظر [٢] ، ومنهم من قال بوجوب النظر [٣] ، ومن من ادعى الإجماع وجوبه [٤] "واختلفوا في أول الواجبات فقيل: معرفة الله تعالى لأنها الأصل، وقيل النظر فيها أو القصد إليه لتوقفها عليه، وقيل الشك لأن النظر بعده .." [٥] .

واستدلوا بأدلة من السمع والعقل منها:

١ - قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يونس:١٠١].

وقوله تعالى: ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الروم: ٥٠].

==

ص٩٣ وما بعدها، والملل والنحل (٥٧/٥ -٧٢) والملل والنحل للشهرستاني ٤٣/١ وما بعدها، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازي، ص٢٣ وما بعدها.

(١) الأشاعرة أصحاب أبي الحسن الأشعري، وكان في أول أمره من المعتزلة، ثم فارقهم وأسس المذهب الأشعري، ثم عاد في آخر حياته إلى مذهب أهل السنة والجماعة كما صرح في كتبه المتأخرة كالإبانة، ومقالات الإسلاميين، وإليه ينتسب الأشاعرة ومن آرائهم إثبات سبع صفات لله تعالى، ويخالفون أهل السنة في إثبات الكلام، وفي قولهم بالكسب كما سيأتي وكان ظهورها في القرن الرابع الهجري. انظر الملل والنحل (٩٤/١ -١٠٣).

(٢) انظر مجموع الفتاوى (٣٣٠/١٦ -٣٤٠) مجموعة الرسائل المنيرية (١٩٨/٢ وما بعدها)، وشفاء العليل، ص٤٧٦ -٤٩٩، والمواقف للإيجي، ص٢٨ -٣٣، ودلائل التوحيد للقاسمي، ص(١٨٨ -١٨٩).

(٣) انظر شرح الأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار، ص٣٩، والمواقف ص٢٨ -٢٩، وتحفة المريد شرح جوهرة التوحيد لإبراهيم البيجوري، ص٢١ -٢٢.

(٤) انظر شرح المقاصد للتفتازاني، ص٢٩٠.

(٥) انظر شرح المقاصد، ص٣٠١، وشرح الأصول الخمسة، ص٣٩، والجامع لأحكام القرآن (٧ -٣٣١).

وقالوا: إن هذا أمر والأمر يفيد الوجوب.

٢ - إن معرفة الله تعالى واجبة، وطريقها النظر، فأصبح النظر واجباً لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب (١).

ولهم أدلة عقلية أخرى (٢).

وهذا القول باطل، فالفطرة السليمة لا تحتاج إلى النظر العقلي ولا الاستدلال لمعرفة الخالق، وإنما يحتاج ذلك من فسدت فطرته (٣).

وبطلان هذا القول يتبين بما يلي:

١ - مخالفته للكتاب والسنة، وإجماع الأمة، وهذا كاف في بطلانه.

قال تعالى: ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ .. ﴾ [إبراهيم:١٠].

وقوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم:٣٠].

قال ابن كثير - رحمه الله -:

يقول تعالى: فسددت وجهك واستمر على الدين الذي شرعه لك من الحنيفية ملة إبراهيم، الذي هداك الله لها .. وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده" (٤).

وفي الحديث عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول

---

(١) انظر المواقف ٢٨ -٢٩.

(٢) انظر المغني للقاضي عبدالجبار ٢٣٠/١٢ وما بعدها، وشرح الأصول الخمسة، ص٥١ - ٦٤.

(٣) انظر مجموع الفتاوى (٧٣/٦).

(٤) تفسير ابن كثير (٣٥٨/٥).

اللهﷺ : "ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟" ثم يقول أبو هريرة — رضي الله عنه — "فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم" (١) .

٢ - إن هذا القول لم يؤثر عن النبي ﷺ وهو المبعوث إلى الخلق جميعاً أبيضهم وأسودهم، عربهم وعجمهم، ولم ينقل لنا قط أنه قال لأحد لا يصح إسلامك حتى تستدل عليه بالنظر، فلو كان ذلك واجباً لبيَّنه ﷺ لأمته ونُقل واستفاض، ولكان ذلك أول ما تعلمه الأنبياء لأممهم.

٣ - إنه يلزم من هذه المقالة، القول بكفر أكثر أهل الأرض، لأن أكثرهم عوام لا يعرفون معنى النظروالاستدلال، بل إيمانهم بالله تعالى فطري، لم يحتج إلى شيء من ذلك، وهذا اللازم باطل إجماعاً.

٤ - إن قول بعضهم بوجوب الشك قبل النظر، يلزم منه أن يظل الإنسان فترة من الزمن شاكاً في خالقه — والعياذ بالله — يطلب الأدلة ويلتمس البينة، فكيف حاله لو مات في هذه الفترة؟!.

٥ - إن جميع الخلق اعترفوا بالله رباً من غير تعلم ولا تلقين حجة، ولا اصطلاح وقع بينهم، حتى الذين لم تبلغهم دعوة الإسلام.

٦ - ومما يبين فساد هذا القول — أيضاً — أنه لو صح لجاز للكفار إذا غلبهم المؤمنون أن يقولوا لهم، دعوا لنا فرصة للنظر والاستدلال

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز باب: إذا أسلم الصبي رقم: ١٢٩٣ (٤٥٦/١ -٤٥٧) ورواه أيضاً في باب ما قيل في أولاد المشركين رقم: ١٣ (٤٦٥/١) عن الزهري به بنحوه. ورواه مسلم في كتاب القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة، رقم: ٢٦٥٨ (٢٠٤٧/٤) به.

على ربكم، وهذا لم يقع. إذ يلزم منه إقرار المسلمين لهم بالكفر مدة نظرهم، وهذا باطل [١].

وبهذا يتبين بطلان قولهم بوجوبه، وأما ما استدلوا به من الآيات فلا دليل فيه إذ هي في مخاطبة المشركين المعاندين، ودعوة لهم إلى النظر والتأمل في آيات الله الكونية وهو طريق صحيح لمعرفة الله تعالى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - :

"أمروا بالنظر ليعرفوا الحق ويقروا به ولا ريب أن النظر يجب على هؤلاء" [٢] ا.هـ.

أدلة الفطرة في سورة يونس:

الدليل الأول:

ظهورها في الشدائد والكوارث على شكل التجاء إلى الله تعالى وتضرع.

١ - في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [يونس: ١٢].

ومعنى الآية أن الإنسان إذا أصابه الضر، فإنه يستغيث بالله ويسأله في جميع حالاته، قائماً وقاعداً وعلى جنب، ولا يعتريه الملل ولا

---

(١) انظر فيما سبق: الفصل في الملل والنحل لابن حزم (٤/٦٧ وما بعدها)، والجامع لأحكام القرآن (٧/٣٣٠ -٣٣٣)، ومدارج السالكين (١/٥٩ -٦٠)، ودلائل التوحيد للقاسمي ص (١٩٣ -١٩٤)، ومنهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد لعثمان بن حسن (١/٢١٠ -٢١٣).

(٢) رسالة في الكلام على حديث يولد المولود على الفطرة، ضمن الرسائل المنبرية (٢/٢٠٣).

الفتور فإذا أنعم الله تعالى عليه أعرض وعاد إلى انتكاس الفطرة، والتعامي عن الحق، وترك الشكر لله الذي فرج عنه البلاء [(١)].

٢ - في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يونس:٢٢].

في الآية تصوير رائع لموقف المعاندين، المكذبين لرسل الله، حتى إذا ركبوا البحر وعصفت الأمواج، وأحاطت بهم الشدائد، واستولى عليهم الخوف والهلع عند ذلك تستيقظ فطرهم التي هي مفطورة على توحيد الله فتلهج الألسنة بالدعاء، وتتعالى الصيحات، وتتجه القلوب إلى الخالق وحده، ويظهر صدق الالتجاء .. وهذا يصدر منهم تلقائياً بدون تقليد ولا نظر.

وفي هذا دليل على أن الخلق جبلوا على التوحيد، والالتجاء إلى الله في الشدائد، حتى الوحوش والبهائم ترفع رؤوسها إذا أصابها الجهد والجوع، فهذه جبلة في جميع المخلوقات [(٢)].

الدليل الثاني:

الاستفهام التقريري، إذ قد استقر في نفوسهم الإقرار بالرب تعالى.

قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس: ٣١].

---

(١) انظر: جامع البيان (٩٣/١١).

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن (٣٢٥/٨)، وفتح القدير للشوكاني (٤٣٤/٢ -٤٣٥) ودلائل التوحيد، ص١٩٢، وفي ظلال القرآن (١٧٧٤/٣).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [يونس: ٣٥].

فهذا إقرار منهم بأن الله رازقهم، وخالقهم، ومدبرهم .. إذ هذا الإقرار مركوز في فطرهم، معلوم لديهم بالضرورة، وهم لا يعرفون النظر ولا الاستدلال.

وفي الحديث عن عياض بن حمار [(١)] – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: "ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم، مما علمني يومي هذا كل مال نحلته عبداً، حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم. وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أَحْلَلْت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب .. [(٢)] الحديث.

ومن هنا نعلم أن دلالة الفطرة على الربوبية، أمر جبلي لا ينكره إلا معاند، حتى زعماء الكفر والشرك لم يكونوا ينكرون توحيد الربوبية، ولهذا جاءت الرسل، وأنزلت الكتب لتقرير توحيد الألوهية والدعوة إلى إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، كما سيأتي في الفصل القادم إن شاء الله.

---

(١) عياض بن حمار بن أبي حمار بن مجاشع التميمي المجاشعي، صحابي سكن البصرة وروى عن النبي – صلى الله عليه وسلم – انظر الإصابة لابن حجر (٥/٤٨).

(٢) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار رقم: ٢٨٦٥ (٤/١٩٧م)، ورواه أحمد في المسند (٤/١٦٢) عن قتادة به.

الفصل الثاني

إثبات الألوهية وفيه مبحثان:

الأول: معنى توحيد الألوهية ودلائله.

الثاني: الاستدلال بتوحيد الربوبية على الألوهية.

الثالث: بيان الشرك في الألوهية وأدلة

المبحث الأول: معنى توحيد الألوهية ودلائله

التوحيد مصدر وحَّد يوحد، توحيد، ومعناه التفرد، والانفراد [١] .

وأما الألوهية فهي مأخوذة من آله، إلاهةً وألوهة، وهي العبادة، والجمع آلهة، والإله كل ما عبد بحق وهو الله عز وجل، أو بغير حق كالأصنام وغيرها مما يعبد من دون الله عز وجل [٢] .

وقيل مأخوذة من "إلاهٍ، وتقديرها فعلانية بالضم: تقول إلاه بين الإلاهية والإلهانية، وأصله من أله يأله إذا تحير، يريد إذا وقع العبد في عظمة الله تعالى وجلاله .. وصرف همه إليها أبغض الناس حتى لا يميل قلبه إلى أحد" [٣] .

وقيل مأخوذ من ولاه، وقيل لاه يلوه لياها وفيه أقوال أخرى [٤] والأول المعتمد.

وأما معنى توحيد الألوهية من حيث الشرع فالمراد به إخلاص العبادة لله تعالى وحده لا شريك له، والعبادة هي "اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الباطنة والظاهرة" [٥] ، فلا يدعى إلا الله تعالى، ولا يستغاث إلا به، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يذبح إلا له، ولا يطاع إلا هو، ولا يرجى إلا هو .. الخ.

---

(١) انظر الصحاح (٢٢٢٣/٦) ولسان العرب (٤٥٠/٣) مادة (وحد)، وبصائر ذوي التمييز (١٦٩/٥ - ١٧٠).

(٢) انظر لسان العرب (٤٦٧/١٣ وما بعدها) مادة أله، والقاموس المحيط، ص١٦٠٣.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر (٦٢/١)، والصحاح (٢٢٢٤/٦)، ولسان العرب (٤٦٩/١٣).

(٤) انظر المفردات في غريب القرآن للراغب، ص٢١ - ٢٢.

(٥) العبودية لابن تيمية ص٤، ومجموع الفتاوى (٣٧٨/١٤ - ٣٨٠)، وبدائع الفوائد لابن القيم (١٣٨/١).

وهذا هو التوحيد الطلبي، وتوحيد القصد والإرادة، التوحيد العلمي الذي بينه جل وعلا في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ ﴾ [الكافرون: ١ -٣].

والذي من أجله بعث الله الرسل مبشرين ومنذرين فكل نبي أرسل في قومه فهو يدعوهم إلى توحيد الله جل وعلا وعدم الإشراك به، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٢٣ ﴾ [المؤمنون: ٢٣].

وهذا هود عليه السلام يقول: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٦٥ ﴾ [الأعراف: ٦٥].

وهذا صالح يقول: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وهذا شعيب يقول: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وهكذا جميع الأنبياء والرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ومن أجل هذا التوحيد كانت الخصومة بين الأنبياء وأقوامهم وأُنزلت لأجله الكتب، ومن أجله جرد السيف على أهل الشرك والجحود، ومن أجله خلقت الجنة والنار، وهذا التوحيد أنكره الكفار وأبوا قبوله مع اعترافهم بتوحيد الربوبية، ومع هذا فلم يقبل منهم، وكانوا من الخالدين في جهنم والعياذ بالله.

وفي سورة يونس – عليه السلام – تظهر الدعوة إلى هذا التوحيد في كثير من الآيات الكريمة يقول جل ذكره مبيناً عظمته وقدرته، وداعياً إلى

إخلاص العبادة له: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [يونس: ٣].

يقول ابن جرير – رحمه الله – عند تفسير هذه الآية:

"هذا الذي صفته سيدكم ومولاكم لا من لا يسمع، ولا يبصر، ولا يدبر، ولا يقضي من الآلهة والأوثان فاعبدوه يقول فاعبدوا ربكم الذي هذه صفته، وأخلصوا له العبادة، وأفردوا له الألوهة والربوبية بالذلة منكم له دون أوثانكم، وسائر ما تشركون معه في العبادة" ا.هـ[1].

ويقول جل ذكره: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [يونس: ١٣ -١٤].

ويقول تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يونس: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [يونس: ٢٨ -٢٩].

ويبين جل وعلا اعترافهم بربوبيته مع عدم إقرارهم بألوهيته فيقول تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ

(١) جامع البيان: ١١/٨٣.

وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس: ٣١ -٣٢].

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة في تقرير هذا التوحيد.

وفي السنة بيّن الرسول ﷺ هذا التوحيد أكمل بيان وكان أول ما يدعو إليه المشركون شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ففي حديث معاذ بن جبل لما بعثه إلى اليمن، قال له: "إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يوحدوا الله تعالى فإذا عرفوا ذلك، فأخبرهم أن الله افترض عليهم زكاة في أموالهم، تؤخذ من غنيهم فتُرد على فقيرهم، فإذا أقروا بذلك فخذ منهم، وتوق كرائم أموال الناس" (١).

وعن معاذ بن جبل – أيضاً – قال النبي ﷺ: "يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: أن يعبدوه ولا

---

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى رقم: ٦٩٣٧ (ج٦/٢٦٨٥)، ورواه أيضاً في كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة حديث رقم ١٣٣١ (٢/٥٠٥) به بنحوه، ورواه في كتاب الزكاة أيضاً باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة عن يحيى بن عبدالله به بنحوه، حديث رقم: ١٣٨٩ (ج٢/٥٢٩). ورواه في باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد على الفقراء حديث رقم ١٤٢٥ (٢/٤٤) عن زكريا بن إسحاق به بنحوه.
ورواه مسلم في كتاب الإيمان باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام رقم: ٢٩ (١/٥٠) عن زكريا بن إسحاق بنحوه وزاد (واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب)، ورواه أيضاً في كتاب الإيمان من طريق أخرى.

يشركوا به شيئاً، أتدري ما حقهم عليه؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: ألا يعذبهم" (١).

وهذه الأحاديث وغيرها، دليل على مكانة هذا التوحيد، وأنه أعظم الأعمال وعليه مدار صلاحها وفسادها (٢).

دلائل توحيد الألوهية:

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد باب ما جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى توحيد الله تبارك وتعالى حديث رقم ٦٩٣٨ (ج٦/٢٦٨٥). ورواه في كتاب الجهاد باب اسم الفرس والحمار حديث ٢٧٠١ (ج٣/٢٧٠١) من طريق أخرى عن معاذ بن جبل بنحوه وزاد (فقلت يا رسول الله، أفلا أبشر به الناس؟ قال: لا تبشرهم فيتكلوا)، ورواه في كتاب اللباس باب إرداف الرجل خلف الرجل رقم ٥٦٢٢ (ج٥/٢٢٢٤) عن معاذ بن جبل بأطول منه. ورواه في كتاب الاستئذان باب من أجاب بلبيك وسعديك رقم: ٥٩١٢ (ج٥/٢٣١٢) عن معاذ بنحوه، وفي كتاب الرقاق باب من جاهد نفسه في طاعة الله رقم: ٦١٣٥ (ج٥/٢٣٨٤) عن معاذ بن جبل، ورواه مسلم في كتاب الإيمان باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، حديث رقم: ٥٠ (ج١/٥٩)، ورواه في كتاب الإيمان بطرق أخرى أيضاً.

(٢) وإذا علم ذلك وظهر لنا مكانة هذا التوحيد وأنه التوحيد الذي دعت إليه الرسل وهم أكمل الناس توحيداً، عرفنا ضلالة الصوفية في تقسيمهم التوحيد إلى ثلاثة أقسام توحيد العامة الذي يصح بالشواهد، ويقصدون به توحيد الألوهية التي دعت إليه الرسل، والنوع الثاني توحيد الخاصة وهو الذي يثبت بالحقائق، والنوع الثالث توحيد خاصة الخاصة وهو توحيد اختصه الحق لنفسه واستحقه لقدره، وضلالهم — والعياذ بالله — واضح للعيان، فهل يتصور أن يكون توحيدهم أكمل من توحيد الأنبياء والرسل هذا التوحيد الذي دلت عليه الدلائل والبراهين، وظهوره وجلاؤه، وشهادة الفطر والعقول به من أعظم الأدلة على أنه أعظم مراتب التوحيد، ونحن نعلم أن الدين قد كمل وأن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم هي خاتمة الرسالات قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] فلماذا لم يبين ذلك لأمته عليه الصلاة والسلام وكيف لنا أن نعلم ذلك إن لم يعلمنا إياه محمد صلى الله عليه وسلم وبيان ضلال هؤلاء مبسوط في مواضعه من كتب السلف وليس هذا مجاله. انظر مدارج السالكين (٣/٤٨٥) وما بعدها.

وأما دلائل هذا التوحيد فكثيرة ولسورة يونس – عليه السلام – منها أوفر نصيب ومن ذلك:

أولاً: ما خلقه الله عز وجل في السماوات والأرض مما سبق بيانه وتفصيله [١] من خلق السماوات والأرض، وتدبير الأمر، وخلق الشمس القمر، واختلاف الليل والنهار، وجريان الفلك في البحر، والرياح التي تجري بأمر الله، والرزق، وإخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي، وبدء الخلق وإعادته وغير ذلك من المظاهر الكونية التي تدل دلالة واضحة على أن ذلك الخالق، البارئ، المصور، هو المستحق للعبادة وحده دون سواه.

فكيف تصرف العبادة لغيره وهو الخالق، الرب وجميع الخلق لا حول لهم ولا قوة، قال جل وعلا: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [يونس: ٣].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [يونس: ٦].

ويقول الله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس: ٣١ -٣٢].

والمعنى أفلا تصرفون العبادة له، وهون خالقكم، ورازقكم؟! وكيف تصرفونها إلى آلهة ليست لها من صفات الربوبية شيء؟!

لاشك أن هذا من أعظم الضلال.

---

(١) انظر ص١٢ وما بعدها.

فكل من عبد غير الله، أو صرف شيئاً من أنواع العبادة لغير الله فقد حاد عن السبيل وسلك سبيل الغواية، فهذه الأدلة الكونية العظيمة لابد لها من موجد واجب الوجود، وهو الله تعالى، إذ لا يستطيع ذلك إلا هو سبحانه.

قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [يونس: ٣٤].

ولهذا أعقب الله تعالى هذا الاستفهام بقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [يونس: ٣٦].

ثانياً: خلق الإنسان:

فهذا الإنسان المخلوق من نطفة، فيه من دلائل توحيد الله عز وجل ما يقيم الحجة على المشركين المكذبين ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات: ٢١].

وقد سبق الحديث عن خلق الإنسان في الفصل الأول [١] وإنما أوردته هنا إشارة إلى دلائل توحيد الله تعالى في خلقه، والتي يصورها الرب في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [يونس: ٣٤]. وقوله تعالى: ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس: ٣١].

فما دام أن هذه الأصنام لا تستطيع الخلق ولا الإعادة، ولا تملك

---

(١) انظر ص٣١ -٣٢.

السمع ولا البصر ولا تستطيع إخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي، وهم مقرون بذلك معترفون به، فكيف تصرف لها العبادة، ولا تصرف للخالق الذي لولاه لما وجد خلق، ولا إعادة،ولا سمع، ولا بصر، فأنى يصرفون.

ثالثاً: شهادة الفطرة:

إن الفطرة لا تتوجه إلى غير خالقها، ودليل ذلك ما ذكره الرب جل وعلا في قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يونس: ٢٢].

فعند اجتماع هذه الأسباب الموجبة للخوف، المؤذنة بالهلاك، يحصل الدعاء لله والإخلاص له ظاهراً وباطناً، مع التزام الشكر لله جل وعلا فإذا استجاب لهم رجعوا على حالهم من دعاء غيرهم والتعلق بما سواه [(١)] قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [يونس: ٢٣].

وهذا من أبرز دلائل التوحيد فمادام أنهم لا يلجئون في الشدة إلا إلى الله ولا يكشفها عنهم إلا هو، إذن فالإخلاص والتوحيد هو المطلوب في سائر الأوقات والأزمان، ولما ركب عكرمة بن أبي جهل [(٢)] البحر وماج

(١) انظر تفسير الفخر الرازي ج١٣/٢٣.

(٢) عكرمة بن أبي جهل عمرو بن هشام بن المغيرة القرشي المخزومي كان كأبيه من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أسلم عام الفتح وجاهد في سبيل الله في قتال المرتدين في زمن أبي بكر رضي الله عنهما، مات شهيداً بأجنادين، وقيل يوم
==

البحر وأخذوا يتضرعون إلى الله جل وعلا كان ذلك سبب إسلامه والقصة، كما رويت عن سعد بن أبي وقاص قال: لما كان يوم فتح مكة أمن رسول الله ﷺ الناس إلا أربعة نفر وامرأتين وقال اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة عكرمة بن أبي جهل، وعبدالله بن خطل [١] ومقيس بن صبابة [٢]، وعبدالله بن أبي السرح [٣]فأما عبدالله بن خطل فأدرك وهو متعلق بأستار الكعبة فاستبق إليه سعيد بن حريث [٤] وعمار بن ياسر وكان أشب الرجلين فقتله، وأما مقيس بن صبابة فأدركه الناس في

==

اليرموك سنة ١٥هـ وقيل سنة ١٣(انظر الإصابة ٢٥٨/٤) (وانظر تهذيب التهذيب ٢٣٠/٧) (وانظر الأعلام ٢٤٤/٤ -٢٤٥).

(١) عبدالله بن خطل رجل من بني تميم بن غالب، وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقتله لأنه كان مسلماً، فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم مصدقاً وبعث معه رجلاً من الأنصار، وكان معه مولى له يخدمه .. فأمره بأمر فلم يعمله فقتله، ثم ارتد مشركاً وكان له قيناتان تهجوان النبي صلى الله عليه وسلم (انظر السيرة ٧٤/٤) (وانظر فتح الباري ٧ -٦٠٤).

(٢) مقيس بن صبابة بن حزن بن يسار الكناني القرشي: شاعر، اشتهر في الجاهلية، كانت إقامته بمكة، وهو ممن حرم على نفسه الخمر في الجاهلية. شهد بدر مشركاً .. وأسلم أخ له اسمه هشام، فقتله رجل من الأنصار خطأ، وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالدية، فقبضها. ثم ترقب قاتل أخيه حتى ظفر به وقتله، وارتد ولحق بقريش، وقال شعراً في ذلك، فأهدر النبي صلى الله عليه وسلم دمه، فقتله نميلة بن عبدالله الليثي يوم فتح مكة، وقيل: رآه المسلمون بين الصفا والمروة فقتلوه بأسيافهم" (الأعلام للزركلي ٢٨٣/٧) وانظر السيرة (٧٥/٤).

(٣) عبدالله بن سعد بن أبي السرح القرشي العامري، من بني عامر بن لؤي من قريش، فاتح أفريقية، وفارس بني عامر من أبطال الصحابة، أسلم قبل فتح مكة، وهو من أهلها، وكان من كتاب الوحي للنبي صلى الله عليه وسلم، مات بعسقلان فجأة وهو قائم يصلي (سنة ٣٨هـ) وهو أخو عثمان بن عفان من الرضاع، (الأعلام (٨٨/٤ - ٨٩) وانظر السيرة (٧٢/٤ -٧٣).

(٤) سعيد بن حريث بن عمرو بن عثمان بن عبدالله المخزومي، أسلم قبل فتح مكة، مات بالكوفة وقيل قتل يوم الحرة، (الإصابة ٩٥/٣).

السوق فقتلوه، وأما عكرمة فركب البحر فأصابتهم عاصفة فقال أصحاب السفينة أخلصوا آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً هاهنا، فقال عكرمة والله لئن لم ينجني من البحر إلا الإخلاص لا ينجني في البر غيره اللهم إن لك علي عهداً إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمداً ﷺ حتى أضع يدي في يده فلأجدنه عفواً كريما، فجاء فأسلم .. [1] الحديث، فهذه الفطرة لا تتجه إلى غير خالقها، ولكن قد يعتريها غطاء من الشهوات والشبهات فيصرفها عن بارئها، لكنها عندما تفيق منه لا تتجه إلا إلى بارئها.

المبحث الثاني:

الاستدلال بتوحيد الربوبية على الألوهية:

لقد بين الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز الآيات الدالة على ربوبيته في مواضع لا تحصى من كتابه الكريم، وذلك للاستدلال بها على الألوهية الذي هو متضمن للربوبية، وأرشد إلى هذا نبيه محمد ﷺ يقول تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا

(١) رواه النسائي كتاب تحريم الدم، باب: الحكم في المرتد، حديث رقم: ٤٠٦٧ (١٥/٧ -١٠٦)، أبو داود في كتاب الجهاد، باب: قتل الأسير ولا يُعرض عليه الإسلام، رقم: ٢٦٨٣ (٦٥/٢ -٦٦) عن سعد بن أبي وقاص مختصر وقال الهيثمي: "رواه أبو يعلى والبزار.. ورجالهما ثقات. ا.هـ، مجمع الزوائد (١٦٩/٦) وروى بأطول منه البيهقي في الدلائل (٩٨/٥)، وانظر صحيح سنن النسائي للألباني (٨٥٢/٣ -٨٥٣).

﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [النمل: ٥٩ -٦١].

فإن كان جل وعلا هو خالق جميع النعم. فكيف تصرف العبادة إلى سواه لان الاعتراف بأنه الخالق، الذي خلق كل هذه النعم التي نتنعم بها فذلك مستلزم ألا يعبد إلا هو، فجعل الأول دليلاً على الثاني، إذ كانوا يعترفون بالأول، وينازعون في الثاني (١) وهذا محض الضلال والغواية، وفي سورة يونس عليه السلام يقرر الرب جل وعلا في عدة آيات هذه الحقيقة ففي خلق السماوات والأرض يقول تعالى:

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [يونس:٣]. فبعد بيانه سبحانه خلق السماوات والأرض واستوائه على العرش، وتدبيره للأمر، أعقبها بإثبات ألوهيته وأنه المستحق للعبادة في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [يونس: ٣].

وفي خلق الشمس والقمر يقول تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [يونس: ٥].

وفي اختلاف الليل والنهار يقول تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [يونس: ٦].

لاشك أن خلق الله تعالى لهذه المخلوقات، وما في خلقها من العظة والإتقان لدال على كمال القدرة، وكمال الحكمة، وهذا دال على أنه

---

(١) انظر شرح الطحاوية، ص٢٦.

وحده سبحانه المعبود، الذي لا ينبغي أن تصرف العبادة، والرغبة والرهبة إلا إليه (١) .

وفي بيان أن الله تعالى هو الرازق، المالك، مخرج الحي من الميت، ومخرج الميت من الحي ومدبر الأمر، دليل آخر على استحقاقه للعبادة لأن من كانت هذه صفته كيف يعبد غيره ممن لا يَرْزُقُ ولا يملكُ، ولا ينفع ولا يضر وليس له من صفات الربوبية شيء؟! قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس: ٣١ -٣٢].

ثم يسوق الرب تعالى عليهم حججاً أخرى في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [يونس: ٣٤-٣٥]

ثم يأمر الله تعالى بالإجابة على هذا التساؤل، وذلك إما عن طريق تلقين الجواب لهم وإرشادهم إليه، وإما لكون الأمر قد بلغ من الوضوح الجلاء إلى درجة أنه لا حاجة إلى معرفة جواب الخصم.

وإما لكون المشركين لا ينطقون بالحق الذي استقر في نفوسهم مخافة أن تقوم عليهم الحجة (٢) .

---

(١) انظر تيسير الكريم الرحمن لابن سعدي (٣/٣٢٦).

(٢) انظر فتح القدير (٢/٤٤٣ -٤٤٤).

ومن الآيات أيضاً التي فيها بيان استلزام توحيد الربوبية لتوحيد الألوهية قوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [يونس: ٦٦].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [يونس: ١٠٤].

فهذه الأدلة الكونية في الآفاق وفي الأنفس من أصرح الأدلة على ألوهية الرب تعالى، ولهذا من كانت فطرته سليمة، فإنه لا يجد بداً من التسليم والإيمان بالله تعالى رباً ومعبوداً.

كما جاء في الحديث الذي رواه النسائي عن أنس قال "نهينا في القرآن أن نسأل النبي ﷺ عن شيء فكان يعجبنا أن يجيء الرجل العاقل من أهل البادية فيسأله، فجاء رجل من أهل البادية فقال يا محمد أتانا رسولك فأخبرنا أنك تزعم أن الله عز وجل أرسل، قال: صدق. قال: ومن خلق السماء؟ قال: الله. قال: فمن خلق الأرض؟ قال: الله، قال: فمن نصب فيها الجبال؟ قال: الله، قال: فمن جعل فيها المنافع؟ قال: الله. قال: فبالذي خلق السماء والأرض ونصب فيها الجبال وجعل فيها المنافع آلله أرسلك؟ قال: نعم. قال: وزعم رسولك أن علينا زكاة أموالنا. قال: صدق. قال: فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قال: وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان في كل سنة. قال: صدق. قال: فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا قال: نعم. قال: وزعم رسولك أن علينا الحج من استطاع إليه سبيلاً قال صدق. قال فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا. قال نعم. قال: فوالذي بعثك بالحق لا

أزيدن عليهن شيئاً ولا أنقص فلما ولى قال النبي ﷺ لئن صدق ليدخلن الجنة" [١].

ولهذا كان الشرك من أعظم الذنب عند الله، كما جاء في الحديث عن عبدالله بن مسعود قال: "سألت النبي ﷺ : أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خالقك. قلت: إن ذلك لعظيم. قلت: ثم أي؟ قال: وأن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك، قلت: ثم أي؟ قال: إن تراني حليلة جارك" [٢].

ومن هنا يتبين استلزام توحيد الربوبية، لتوحيد الألوهية وتضمن توحيد الألوهية لتوحيد الربوبية، ومعنى ذلك أن من آمن بالله رباً، خالقاً ورازقاً، فهذا يستلزم ألا يصرف العبادة لغيره، إذ لا يستحقها إلا من اتصف بصفات الكمال وهو الله وحده جل وعلا.

---

(١) رواه النسائي في كتاب الصيام باب وجوب الصيام ح رقم ٢٠٩١ (ج٤/١٢١ - ١٢٢)، والحديث رواه البخاري مختصراً بنحوه من حديث أنس بن مالك بمعناه في كتاب العلم باب ما جاء في العلم حديث: ٦٣ (١/٣٥). ورواه مسلم مختصراً عن أنس بن مالك في كتاب الإيمان باب بيان الصلوات أحد أركان الإسلام رقم: ٨ (١/٤٠).

(٢) رواه البخاري في كتاب التفسير باب قوله تعالى: (فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) حديث رقم: ٤٢٠٧ (ج٤/١٦٢٦) وفي باب قوله تعالى: (والذين يدعون مع الله إلهاً آخر) الآية ح رقم: ٤٤٨٣ (ج٤/١٧٨٤) ورواه أيضاً في كتاب الأدب باب قتل الولد خشية أن يأكل معه ح رقم: ٥٦٥٥ (ج٥/٢٢٣٦) وفي كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة باب إثم الزناة ح رقم ٦٤٢٦ (ج٦/٢٤٩٨) وفي كتاب التوحيد باب قوله تعالى: (فلا تجعلوا لله أندادا) ح رقم ٧٠٨٢ (ج٦/٢٧٣٤) وفي باب قوله تعالى: (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) الآية ح رقم ٧٠٩٤ ج٦/٢٧٣٩.
ورواه مسلم في كتاب الإيمان باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها حديث (١٤١) (ج١/٩٠) عن عبدالله بن مسعود به.

وأما ما تضمن توحيد الألوهية لتوحيد الربوبية فمعناه، أن من عبد الله وحده لا شريك له، لابد أن يكون قد استقر في قلبه أنه رب العالمين، وأنه الخالق، والرازق، المدبر[١].

(١) انظر العبودية، ص (٤٨)، ومدارج السالكين (١/ ٤١١)، وعقيدة التوحيد في القرآن لمحمد ملكاوي، ص (١٢٢ - ١٢٣).

المبحث الثالث:
بيان الشرك في الألوهية وأدلة بطلانه:

إن الإشراك بالله انحراف خطير يعتري الفطرة البشرية التي فطرها الله تعالى على الإسلام والتوحيد وهو من أقبح القبائح، لأن صاحبه يجعل مع الله شريكاً في ملكه، ويسيء الظن به، وأجمع العلماء على أن صاحبه خالد في نار جهنم، لا يغفر الله له هذا الجرم العظيم. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [النساء: ٤٨].

والمشرك محروم من الشفاعة، مستباح الدم والمال والعرض، ولو كان يقر أن الله هو الخالق، الرازق، النافع، الضار، فالرب جل وعلا لم ينزل الكتب، ويرسل الرسل، إلا لكي يطاع ويعبد كما قال جل ذكره ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦] ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾ [الحديد: ٢٥].

"والشرك: كالشريك، والشريك المشارك، وشاركت فلاناً: صرت شريكه ويقال: هذه شريكتي، وما ليس فيه إشراك أي ليس فيه

شركاء، وأحدها شِرك وأشرك بالله: جعل له شريكاً في ملكه، تعالى الله عن ذلك" [(١)].

والقرآن الكريم قد أطال في نفي الشرك وإقامة الأدلة على بطلانه خاصة في القسم المكي منه، ومن تلك السور التي تناولت موضوع الشرك سورة يونس عليه السلام التي نحن بصدد استخراج العقائد منها وأستطيع أن أحدد أنواع الشرك التي وردت في هذه السورة الكريمة في أربعة أنواع [(٢)] كما يلي:

أولاً: شرك العبادة.

ثانياً: شرك الشفاعة.

ثالثاً: شرك الطاعة والاتباع.

رابعاً: شرك الدعاء.

وإليك بيان هذه الأنواع وأدلة بطلانها:

---

(١) لسان العرب باختصار (١٠/٤٤٨ -٤٤٩) مادة شرك، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة، ص٢٨. والصحاح (٤/١٥٩٣)، والنهاية في غريب الحديث (٢/٤٦٦).

(٢) مرتبة حسب ورودها في السورة.

أولاً شرك العبادة:

وقد ذكر الله عز وجل هذا الشرك في قوله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يونس:١٨].

وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [يونس:٢٨ -٢٩] ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [يونس:١٠٤] .

والعبادة هي الطاعة، وأصل العبودية الخضوع والتذلل، يقال طريق معبد إذا وطئته الأقدام (١) .

وهي في الشرع كما سبق تعريفها لشيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – هي "اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة" (٢) . ومن تعريفها اللغوي يتبين أن العبادة لابد أن يصاحبها خضوع وتذلل لله عز وجل والعبادة تشمل – كما سبق – جميع ما يحبه الله من صلاة وصوم، وحج، وصدقة، وجهاد، وصلة أرحام، وتلاوة قرآن، وذكر، ودعاء .. الخ، فمن صرف شيئاً من ذلك لصنم، أو ولي، أو كوكب، أو قبر، فقد أشرك في عبادته والله غني عن الشرك، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال

(١) انظر لسان العرب مادة (عبد) (٢٧٠/٣ -٢٧٨).
(٢) رسالة العبودية، ص٤.

رسول الله ﷺ : "قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غير، تركته وشركه" (١) .

ولهذا وصف الله أنبياءه بأنهم عبيد له وذلك في مجال التشريف والتكريم كما قال تعالى عن نبيه ﷺ : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء: ١] .

ووصف عيسى عليه السلام بالعبودية رداً على النصارى الذين يدعون أُلوهيته قال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الزخرف: ٥٩].

وقال جل وعلا عن نوح عليه السلام: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الصافات: ٧٩ -٨١].

وقال عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [ص: ٤٥]، وهكذا جميع الأنبياء.

ولنعد الآن إلى أصل ابتداع وحدوث الوثنية في الأرض، وانتقالها إلى جزيرة العرب، روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما "صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ودٌّ فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ.

---

(١) رواه مسلم كتاب في الزهد والرقائق باب من أشرك في عمل غير الله، رقم ٢٩٨٥ (ج٤/٢٢٨٩) ورواه البيهقي في الأسماء والصفات من طريق آخر عن أبي هريرة بمعناه (ج/٣٤٠).

وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير، لآل ذي الكلاع. أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت) [(١)] .

وأخرج الفكاهي [(٢)] عن عبيدالله بن عبيد بن عمير [(٣)] قال: (أول ما حدثت الأصنام على عهد نوح، وكانت الأبناء تبر الآباء، فمات رجل منهم فجزع عليه؟ فجعل لا يصبر عنه، فاتخذوا مثالاً على صورته، فكلما اشتاق إليه نظره، ثم مات ففعل به كما فعل، حتى تتابعوا على ذلك، فمات الآباء، فقال الأبناء: ما اتخذ آباؤنا هذه إلا أنها كانت آلهتهم، فعبدوها) [(٤)] .

وروى ابن جرير عن محمد بن قيس [(٥)] (ويعوق ونسرا) قال: كانوا أقواماً صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير باب: (وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق) رقم: ٤٦٣٦ (١٨٧٣/٤).

(٢) محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي: مؤرخ. من أهل مكة، كان معاصراً للأزرقي، متأخراً عنه في الوفاة، ولم تحدد سنة وفاته، من مؤلفاته (أخبار مكة) انظر الأعلام (٢٨/٦) وانظر مقدمة أخبار مكة (١/ ٥ -٣٢).

(٣) عبيدالله بن عبيد أبو وهب الكلاعي الدمشقي، صدوق، من السادسة، مات سنة اثنتين وثلاثين، (التقريب رقم ٤٣١٩) ص ٣٧٣، وانظر تهذيب التهذيب ٣٢/٧.

(٤) أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (١٦٢/٥) ولم يذكر بقية إسناده، ونقله عن السيوطي في الدر المنثور (ج٨/٢٩٤)، ونقله الحافظ في الفتح (٥٣٧/٨).

(٥) محمد بن قيس المدني أبو أيوب، قال ابن سعد كان كثير الحديث عالماً، ذكره ابن حبان في الثقات، وقال أبو داود ثقة، وضعفه ابن معين قيل توفي أيام الوليد بن يزيد (انظر تهذيب التهذيب ٣٦٧/٩)، وانظر التقريب رقم ٢٤٥ ص٥٠٣.

قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصورهم، فلما ماتوا، وجاء آخرون دب إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر فعبدوهم (١) .

ومن مجموع الروايات يتبين لنا أن أول شرك وقع في الأرض كان في قوم نوح — عليه السلام — ومن أسبابه:

١ - اندراس العلم، وانتشار الجهل.
٢ - الغلو في الصالحين.
٣ - اتخاذ التماثيل والصور، ثم عبادتها، بتسويل وتزيين من إبليس - لعنه الله.

أما عن انتقالها إلى الجزيرة العرب، وعبادتها هناك ففيها رأيان:

الأول: ما ورد في أكثر الروايات الصحيحة، إن أول من نصب الأوثان في جزيرة العرب ودعا إلى عبادتها عمرو بن لُحي الخزاعي (٢) ، وهو من قبيلة خزاعة (٣) .

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (٩٨/٢٩ -٩٩) وإسناده فيه موسى بن عبيدة قال عنه الحافظ ابن حجر في التقريب (ضعيف لاسيما في عبدالله بن دينار) انظر ص٥٢٢، وفيه أيضاً محمد بن حميد وهو ضعيف انظر التقريب ص ٤٧٥، وباقي إسناده ثقات ومحتج بهم.

(٢) عمرو بن لحي بن حارثة بن عمر بن عامر الأزدي، وهو جد خزاعة، تولى الحجابة بمكة، وزار بلاد الشام فلما وصل مآب من أرض البلقاء وجدهم يعبدون الأصنام فأعجبه ذلك فطلب منهم أن يهبوه صنما فأعطوه "هبل" فقدم به إلى مكة ونصبه للعبادة والتعظيم، فكان أول من فعل ذلك من العرب، انظر السيرة (١٢١/١ -١٢٣)، وانظر البداية والنهاية (١٧٤/٢)، وانظر الأعلام (٨٤/٥).

(٣) "سميت خزاعة لأنهم تخزعوا من ولد عمرو بن عامر، حين أقبلوا من اليمن يريدون الشام فنزلوا بمر الظهران فأقاموا بها" السيرة: (١٣٦/١).

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ : "رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار، كان أول من سيب السوائب" (١) .

الثاني: ذكره ابن إسحاق في قوله: (ويزعمون أن أول من كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل، أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم، حين ضاقت عليهم، إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم، فحيثما نزلوا وضعوه، فطافوا به .. حتى خلف الخلوف، ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره فعبدوا الأوثان (٢) اهـ. وهذا الرأي ضعيف والجواب عليه من أوجه:

الأول:

إنه لا ينافي القول السابق، إذ يمكن الجمع بينهما بالقول: إن العرب فعلت ذلك في بداية الأمر، فلما رأى ذلك عمرو بن لحي أعجبه، فجلب الأصنام من الشام ودعا إلى عبادتها، وتعظيمها ولم تكن كذلك(٣) .

الثاني:

إنه لا يقوى على معارضة القول الأول لصحة دليله.

الثالث:

تصدير ابن إسحاق له بلفظ "ويزعمون" مما يدل على تضعيفه له.

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب: (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة) رقم: ٤٣٤٧ (١٦٩٠/٤) ورواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب: النار يدخلها الجبارون، رقم: ٥١ (٢١٩٢/٤) عن صالح به.

(٢) السيرة النبوية (١٢٢/١).

(٣) انظر الأعلام (٨٤/٥).

وحديث ابن عباس المتقدم يبين أن كل قبيلة من العرب اتخذت صنماً تعبده، فود كانت لكلب بدومة الجندل، وسواع لهذيل، ويغوث لمراد، ويعوق لهمدان، ونسر لحمير آل ذي الكلاع، واستحدثوا أصناماً أخرى كمناة، واللات، والعزى، ونائلة وإساف (١).

ولم تكن عبادتهم قاصرة على عبادة الأصنام، بل عبدوا الملائكة، والأنبياء، والكواكب والشمس، والقمر، والنار، والجن (٢).

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

وكانوا ينحتون أصنامهم على شكل من يعظمونه من بشر، أو كوكب، أو ملك، ثم يعكفون عليها ويعبدونها، وكانت الشياطين تدخل في هذه الأصنام وتخاطبهم، وتخبرهم ببعض المغيبات، وهم مع ذلك يبذلون أموالهم، وأبناءهم دونها، بل ويبذلون دماءهم في سبيلها - نعوذ بالله من الضلال - (٣).

ومن أسباب ضلالهم وكفرهم القياس الفاسد، حيث قاسوا الخالق بالمخلوق وقالوا كيف يسمع حاجاتنا جميعاً في وقت واحد، وهذا ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝ ﴾ [ص: ٤ -٥].

---

(١) انظر السيرة (١/١٢٠ -١٣٢)، وانظر أخبار مكة (٥/١٦٢ وما بعدها)، وانظر تاريخ الأمم والملوك (١/١٦٩) وانظر الملل والنحل (٢/٢٣٧)، وانظر إغاثة اللهفان لابن القيم (٢/٢٩٤) وما بعدها، وانظر فتح الباري (٣/٥٨٤ -٥٨٥).

(٢) انظر إغاثة اللهفان (٢/٣١٧ -٣١٨).

(٣) انظر إغاثة اللهفان (٢/٣١٤ وما بعدها).

ومن أسباب ضلالهم - أيضاً - الغلو في الصالحين كما وقع لقوم نوح.

ومن أسباب ضلالهم زعمهم أن هذه الأصنام تقربهم إلى الله زلفى، ثم صرفوا العبادة كلها لها من دون الله.

ومع الإصرار والعناد فقد دعاهم – عليه الصلاة والسلام – إلى توحيد الله، وأفنى في ذلك عمره، وصبر على أذاهم، وما كادوا له حتى أظهر الله دينه وأعلى كلمته: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء: ٨١].

وقد أخبر – عليه الصلاة والسلام – بأن عبادة الأصنام ستظهر في آخر الزمان كما جاء في الحديث عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى" فقلت: يا رسول الله: إن كنت لأظن حين أنزل الله ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة: ٣٣]. إن ذلك تام.

قال: "إنه سيكون من ذلك ما شاء الله، ثم يبعث الله ريحاً طيبة، فتوفي من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم" (١).

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تقوم الساعة حتى تضطرب اليات نساء دوس حول ذي الخلصة (٢) "(١).

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة رقم ٢٩٠٧ (٢٢٣٠/٤)، ورواه البيهقي في السنن الكبرى (١٨١/٩) عن عبدالحميد بن جعفر به، ورواه الحاكم في المستدرك عن عبدالحميد بن جعفر به (٤٩٤/٤) رقم: ٨٣٨١.

(٢) ذو الخلصة: (بيت كان فيه صنم كان يسمى الخلصة لدوس وخثعم وبجيلة) الأمكنة والمياه والجبال للزمخشري ص٩٩، وانظر السيرة (١٣٠/١).

==

وهذا يشكل من حديث جابر – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم" (٢) .

وللعلماء آراء في الجمع بين هذه الأحاديث:

فقال بعضهم: المراد بهم أصحابه فمن بعدهم، بأنهم لا يعودون إلى عبادة الشيطان ذكر ذلك البيهقي في الدلائل بقول: "باب ما جاء في إخباره ﷺ بأن المسلمين لا يعبدون الشيطان في جزيرة العرب – يريد أصحابه فمن بعدهم فكان كما قال – ثم كان ما أخبر به من التحريش بينهم في آخر أيامه" (٣) .

وقيل: بل المراد المنع من ارتداد من أسلم، وعودته إلى عبادة الأصنام، وأجابوا عن ارتداد مانعي الزكاة وغيرهم، بأنهم لم يعبدوا الأصنام (٤) .

وقيل: إن المراد بحديث جابر – رضي الله عنه – "إن المصلين لا يجمعون بين الصلاة وعبادة الشيطان كما فعلته اليهود والنصارى" (٥) .

==

قال سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز – رحمه الله – عند شرحه لكتاب التوحيد في دروسه المسجلة على أشرطة كاسيت "وقد وقع ذلك بأن أعيد هذا وعبد في عهد قريب قبل قيام هذه الدولة وطافوا به" ا.هـ.

(١) رواه البخاري في كتاب الفتن، باب تغيير الزمان رقم: ٦٦٩٩ (٢٦،٤/٦)، ورواه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة رقم ٢٩٠٦ (٢٢٣٠/٤) عن الزهري به.

(٢) رواه مسلم في كتاب صفات المنافقين، وأحكامهم باب: تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس .. رقم: ٢٨١٢ (٢١٦٦/٤)، ورواه الترمذي في كتاب البر والصلة، باب: ما جاء في التباغض رقم: ١٩٣٧ (٣٣٠/٤)، ورواه الإمام أحمد في المسند (٣١٣/٣).

(٣) دلائل النبوة (٣٦٣/٦).

(٤) انظر تحفة الأحوذي (٦٧/٦).

(٥) المرجع السابق (٦٨/٦).

وقيل: إن الشيطان يئس، وهذا اليأس لا يمنع من وقوع الشرك، فقد يقع ما يئس منه، أو لعل يأسه عندما رأى قوة الإسلام وانتشاره فلما ذهب ذلك الجيل، ذهب يأسه ووقع الشرك [١].

والقول الراجح من هذه الأقوال – والله أعلم – القول الأخير، لأن حديث جابر ليس فيه تخصيص بالصحابة.

والردة قد وقعت في عهد أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – ولا يمنع وقوعها عودتهم إلى عبادة الأصنام كما كانوا.

والقول الثالث لا دليل عليه.

كما أن القول الأخير أمكن فيه الجمع بين النصوص.

ثانياً: شرك الشفاعة:

وقد ورد في قوله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يونس: ١٨].

وفي نفيها قال جل وعلا: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [يونس: ٣].

والشفاعة في اللغة مأخوذة من "شفع وهي خلاف الوتر، وهو الزوج نقول: كان وتراً فشفعته شفعا، وشفع لي يشفع شفاعة وتشفع:

(١) انظر عقيدة المؤمن للشيخ أبي بكر الجزائري، ص٣٤٢.

طلب. والشفيع: الشافع، والجامع شفعاء، واستشفع بفلان على فلان وتشفع له إليه فشفعه فيه"[١].

إذن فالشفاعة بمعنى ضم شيء إلى آخر مساوياً له أو دونه لإعانته أو التوصل إلى محبوب عنده.

وهي تعني عند المشركين دعاء غير الله والتوجه إليه بالعبادة والتضرع والرغبة والرهبة والمحبة وسؤاله الحاجات، ليكون ذلك وسيلة إلى نيل ما عند الله عز وجل[٢].

والشفاعة نوعان:

الأولى: شفاعة منفية.

والثانية: شفاعة مثبتة.

أولاً: الشفاعة المنفية:

وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨].

وقوله: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأنعام: ٥١].

وهؤلاء المشركون يقولون: إن الله تعالى لعظمته لا نسأله إلا بالوسائط والشفعاء كحال الملوك، ومعلوم بطلان قولهم هذا من عدة أوجه منها:

---

(١) لسان العرب ج٨/١٨٣ -١٨٤ مادة (شفع) وانظر الصحاح (١٢٣٨/٣) والقاموس المحيط ٩٤٧.

(٢) انظر جامع البيان (٩٨/١١).

إن من يتقرب إليه بالوسائط إما أن يكون قادراً على سماع الحوائج بدون واسطة أو يكون قادراً على سماعها بواسطة. فإن كان الأول فلا داعي لهذه الوساطة، وإن كان الثاني كان الوسيط أفضل منه، والله تعالى له الكمال المطلق.

ومنها: إن الله تعالى أمر بسؤاله بلا واسطة، فيجب اتباع أمره، وعدم مخالفته.

ومنها: إن هذه الوسائط تكون على أحد وجوه ثلاثة وهي:

الأول: أن تخبر الملك بأحوال خفيت عليه في الرعية لم يعلمها، والله تعالى يعلم السر وأخفى.

الثاني: أن يكون الملك عاجزاً عن تدبير أمور الرعية فهو محتاج إلى أعوان وأنصار يعينونه ويساعدونه ويقضون حاجات الرعية ومعلوم قطعاً وجزماً بأن الله الواحد جل وعلا لا يكرثه ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء لا تخفى عليه خافية، خالق كل شيء، ليس له ولي ولا ظهير من الذل، ولهذا لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فأصبحت الشفاعة له وحده لا شريك له.

الثالث: إن الملك قد لا يكون مريداً للإحسان للرعية ولكن إذا جاء الوسيط فكلمه ونصحه ووعظه قام بالأمر وحصلت الشفاعة، أما الرب جل وعلا فهو الرحيم بعباده المحسن إليهم.

إن الملوك قد تُكره على الشفاعة إما لحاجتها إلى الشافع وإما خوف الضرر إذا لم تحصل الشفاعة، أما الرب جل وعلا فهو الغني سبحانه، بل العباد كلهم يرجون رحمته ويخافون عذابه (١).

ولهذا فطالبو الشفاعة من غير الله مشركون، لا تنفعهم شفاعتهم يوم القيامة، قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾[الزمر: ٤٣ - ٤٤].

ومن ذلك ما حصل ويحصل من التمسح بقبور الأولياء والصالحين، أو غيرهم ممن يعتقدون ولايته، ودعاءهم وسؤالهم الحاجات والشفاعة مما عمَّ شره، وزاد خطره (٢).

قال شيخ الإسلام – رحمه الله – : "لا يجوز أن يقول لملك ولا نبي ولا شيخ – سواء كان حياً أو ميتاً – اغفر ذنبي، ولا انصرني على عدوي، ومن سأل ذلك مخلوقاً، فهو مشرك بربه من جنس المشركين الذين يعبدون الملائكة والأنبياء والتماثيل التي يصورونها على صورهم، ومن جنس دعاء النصارى للمسيح وأمه .." (٣).

---

(١) انظر كتاب الزيارة لابن تيمية، ص٧٧ -٨٤، والرسالة الأكملية لابن تيمية ص٦٦ -٦٧ وهي في الفتاوى (١٣٣/٦) والهدية السنية جمع بن سحمان، ص٥١ -٥٢.

(٢) كما يفعل اليوم عند القبور كقبر عبدالقادر الجيلاني، والبدوي في مصر واليمن، ومشهد الحسين – رضي الله عنه – ومشهد هود – عليه السلام – على حد زعمهم في جامع دمشق، وقبر بهاء الدين بباكستان، وقبر حواء كما يزعمون في جدة، وقبر ابن عباس – رضي الله عنه – في الطائف، وغيرها.
انظر اقتضاء الصراط المستقيم، ص٣١٦، وكشف الشبهات مع الهامش، ص١١ - ١٩.

(٣) كتاب الزيارة، ص٧٨ -٧٩.

ثانياً: الشفاعة المثبتة:

فهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يونس: ٣].

وقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر: ٤٣-٤٤].

وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨].

وقوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الزخرف: ٨٦].

وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦].

وهي ثابتة أيضاً في السنة – كما سيأتي – وبإجماع أهل السنة والجماعة [1] بشروط هي:

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية، ص٢٢٣.

١ - الرضا عن الشافع وكونه أهلاً للشفاعة والرضا عن الشافع يعني أن يكون من أولياء الله المقربين، فلا شفاعة لمن ليس الله راضياً عنه، وكونه أهلاً له، وهذا يخرج شفاعة الأصنام والأشجار والموتى والزنادقة، فهؤلاء ليسوا أهلاً للشفاعة ولا يملكون نفعاً ولا ضراً قال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يونس: ١٨].

٢ - الإذن من الله عز وجل في الشفاعة كما قال عز وجل: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقوله: ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ﴾ [يونس: ٣].

٣ - الرضا عن المشفوع له قال تعالى: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فهؤلاء المشركون محرومون من شفاعة الشافعين لأن الله عز وجل ليس راضياً عنهم جزاء كفرهم وتكذيبهم، والله عز وجل لا يرضى إلا عن أهل التوحيد (١) .

ومن هنا يتبين الفرق بين الشفاعة عند الخالق والشفاعة عند المخلوقين فالشفاعة عند الخالق لا تكون إلا بإذنه ولا تكون إلا لمن يحب وممن رضي عنه، وأما عند الخلق فقد تكون بغير إذنه ورغماً عنه، وقد يجيب إليها مكرهاً خوفاً من إلحاق الضرر به نتيجة غضب الشافع، ممن قد يكون وزيراً أو زوجة أو ولداً.

وقد تكون لمن يحب ولمن لا يحب، ثم إن الشافع قد شفع المشفوع

---

(١) انظر مجموع الفتاوى (١٤/٣٨٠ -٣٨٢) وانظر (١٤/٤١٤)، ومدارج السالكين (١/٣٤٠ -٣٤١).

إليه، وشفع المشفوع له، والله تعالى وتر لا يشفعه أحد [(١)] .

وهذه الشفاعة المثبتة، تثبت لأهل التوحيد من الأنبياء — عليهم صلوات الله وسلامه — والملائكة، وصالح المؤمنين.

ونبينا محمد — صلى الله عليه وسلم — أول شافع كما جاءت بذلك الأحاديث المتواترة فعن أنس بن مالك — رضي الله عنه — قال: قال رسول الله ﷺ : "أنا أول الناس يشفع في الجنة، وأنا أكثر الأنبياء تبعاً"[(٢)] .

ولـه الشفاعة العظمى وهي شفاعته لأهل الموقف لفصل لقضاء وله ثبتت أنواع كثيرة من الشفاعة يطول ذكرها [(٣)] .

ومن هنا يتبين بطلان دعوى المشركين شفاعة الأصنام لهم وأنه لا ينالها إلا أهل التوحيد والإخلاص كما في حديث أبي هريرة — رضي الله عنه — أنه قال قيل: يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ : "لقد ظننت يا أبا هريرة ألا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله، خالصاً من قلبه"[(٤)] .

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص٢٣٥ -٢٣٦.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب: قوله صلى الله عليه وسلم (أنا أول الناس يشفع في الجنة) رقم: ٣٣٢ (١/١٨٨).

(٣) انظر النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير ٢/٣١٢ وما بعدها، وشرح العقيدة الطحاوية ٢٢٣ -٢٣١، وفتح الباري (١١/٤٣٣ -٤٣٦) والشفاعة لمقبل الوادعي.

(٤) رواه البخاري في كتاب العلم باب: الحرص على الحديث رقم: ٩٩ (١/٤٩)، وفي كتاب الرقاق، باب: صفة الجنة والنار، رقم: ٦٢٠١ (٥/٢٤٠٢) عن عمرو به وزاد في آخره (خالصاً من نفسه)، ورواه أحمد في مسنده من طريق آخر عن أبي هريرة — رضي الله عنه — بلفظ "نفسه (٥/٣٧٣). ورواه الآجري في الشريعة من طريق آخر عن أبي هريرة بنحوه ص ٣٤٠.

قال ابن القيم – رحمه الله – معلقاً على هذا الحديث: "وتأمل قول النبي ﷺ كيف جعل أعظم الأسباب التي تنال بها شفاعته: تجريد التوحيد، عكس ما عند المشركين: أن الشفاعة تنال باتخاذهم أولياء شفعاء، وعبادتهم وموالاتهم من دون الله، فقلب النبي ﷺ ما في زعمهم الكاذب، وأخبر أن سبب الشفاعة: هو تجريد التوحيد، فحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع" (١) . ا.هـ.

ثالثاً: شرك الطاعة والاتباع:

إن من أعظم الذنوب، وأشدها عند الله عز وجل، الاعتداء على خصائص الربوبية، من قبل بشر لا يستطيعون لأنفسهم نفعاً ولا رشداً، زاعمين أن لهم سلطان التشريع، وتحليل ما حرمه الرب عز وجل، وتحريم ما أحله الله عز وجل، وهم في هذا الزعم يظنون أن زمام الأمور بأيديهم، وأن لهم سلطاناً ينبغي اتباعه، وقد غفلوا عن بشريتهم وضعفهم، لأن من كاد مشرعاً لابد أن يكون عالماً بالماضي، والحاضر والمستقبل وهم بلا شك لا يعلمون الماضي، وهم مدركون لشيء من الحاضر، جاهلون قطعاً بالمستقبل ومن كان هذا شأنه فلا يصلح أن يكون مشرعاً مع الله عز وجل، لهذا عاب الله عليهم هذا الزعم، وفنده، وأبطل ادعاءاتهم فيه، بل وجعله شركاً لا يغفر لصاحبه قال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [الشورى: ٢١].

(١) مدارك السالكين (١/٣٤١).

وقال تعالى في سورة يونس – عليه السلام – : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ۝٥٩ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦٠ ﴾ [يونس: ٥٩ -٦٠].

وهؤلاء المشركون كانوا يحرمون على أنفسهم أنواعاً من الرزق، ويحللون أنواعاً أخرى، من تلقاء أنفسهم، مما تمليه عليهم شياطينهم، وقد ذكر الله عز وجل وذلك في الكتاب العظيم قال جل وعلا: ﴿ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝١٣٨ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝١٣٩ ﴾ [الأنعام: ١٣٨ -١٣٩].

وقال تعالى: ﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٤٣ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٤٤ ﴾.
[الأنعام: ١٤٣ -١٤٤].

وقوله: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝١٣٦ ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

وقال جل وعلا: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٠٤ ﴾ [المائدة: ١٠٣ -١٠٤].

روى ابن جرير – رحمه الله – بسنده عن ابن عباس، في قوله: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ ﴾ قال: جعلوا لله من ثمراتهم ومالهم نصيباً، وللشيطان والأوثان نصيباً، فإن سقط من ثمره ما جعلوا لله في نصيب الشيطان تركوه، وإن سقط مما جعلوه للشيطان في نصيب الله التقطوه وحفظوه وردوه إلى نصيب الشيطان، وإن انفجر من سقي ما جعلوا لله في نصيب الشيطان تركوه، وإن انفجر من سقي ما جعلوه للشيطان في نصيب الله سدوه، فهذا ما جعلوا من الروث وسقي الماء، وأما ما جعلوا للشيطان من الأنعام، فهو قول الله تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ ﴾ (١).

وقد قيل إن المراد ترك التسمية (٢) وقد رجح ابن جرير – رحمه الله – القول الأول، والذي يظهر لي والعلم عند الله أنه لا منافاة بين القولين، فالمشركون يعلمون هذا وذاك فهم قد يجعلون لأصنامهم نصيباً، وهم في الوقت نفسه لا يذكرون اسم الله تعالى إلا مقروناً بأسماء آلهتهم عند ذبح هذه الأنعام مما هو نصيب الله عز وجل –

(١) رواه ابن جرير في تفسير (ج٨/٤٠)، وفي إسناده من تُكُلم فيه وقد ذكره ابن كثير في تفسيره(١٠٦/٣) عن ابن عباس بمعناه وقال "وهكذا قال مجاهد وقتادة والسدي وغير واحد".
(٢) انظر جامع البيان (٤٢/٨)، وتفسير ابن كثير (١٠٦/٣).

بزعمهم – وإن كان للآلهة. لم يذكروا اسم الله تعالى، تعالى الله عما يعملون ويقولون .. والله أعلم.

وقد جاء في تفسير معنى البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام أقوال ذكرها المفسرون وغيرهم أذكر بعضاً منها ليظهر ضلال هؤلاء المشركين وسفههم:

قيل: إن البحيرة: "الناقة إذا أنتجت خمسة أبطن، والخامس ذكر بحروه فأكله الرجال والنساء، وإن كان الخامس أنثى بحروا أذنها، أي شقوها وكانت حراما على النساء، لحمها ولبنها، فإذا ماتت حلت للنساء" [(١)] . وقيل إنها ابنة السائبة وهي التي تابعت اثنتي عشرة إناثا ليس بينهن ذكر، فما نتجت بعد ذلك من أنثى شق أذنها ثم خليت وتسمى البحيرة [(٢)] . وقيل البحيرة التي يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس [(٣)] .

وأما السائبة فهي: "البعير يُسيب بنذر يكن على الرجل إن سلّمه الله من مرض أو بلغه منزلة أن يفعل ذلك" [(٤)] ، وقيل: إن السائبة هي الناقة إذا ولدت اثنتي عشرة إناثاً ليس فيها ذكر سيبت فلا تركب ولا يشرب لبنها ولا يؤخذ وبرها [(٥)] .

---

(١) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص١٤٧، وروى عن ابن عباس (انظر زاد المسير ج٢/٣٦.

(٢) انظر جامع البيان ج٨٨/٧، ونقل عن عطاء (انظر زاد المسير ٤٣٦/٢) وقاله ابن إسحاق السيرة ٣٣/١.

(٣) روي عن سعيد بن المسيب – رحمه الله – كما روى ذلك البخاري بسنده في كتاب التفسير "ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام" رقم: ٤٣٤٧ (ج٤/١٦٩٠).

(٤) تفسير غريب القرآن ص١٤٧.

(٥) انظر جامع البيان (٨٨/٧).

وقيل: "إن الرجل كان يسيب من ماله ما شاء فيأتي به خزنة الآلهة، فيطعمون ابن السبيل من ألبانه ولحومه إلا النساء، فلا يطعمونهن شيئاً منه إلا أن يموت فيشترك فيه الرجال والنساء رواه أبو صالح [(١)] عن ابن عباس [(٢)].

وقال ابن إسحاق في تعريف السائبة هي "الناقة إذا تابعت بين عشر إناث ليس بينهن ذكر، سيبت فلم يركب ظهرها [(٣)].

وقال سعيد بن المسيب: "السائبة: كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء" [(٤)] ا.هـ.

وأول من سيب السوائب عمرو بن عامر الخزاعي – عليه لعنة الله – كما روى البخاري عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: "رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار، كان أول من سيب السوائب" [(٥)].

وأما الوصيلة: قيل "من الغنم، كانوا إذا ولدت الشاة سبعة أبطن نظروا: فإن كان السابع ذكراً ذبح فأكل منه الرجال والنساء، وإن كان أنثى تركت في الغنم وإن كان ذكراً وأنثى قالوا: قد وصلت أخاها. فلم

---

(١) باذام ويقال بأذان أبو صالح مولى أم هانئ بنت أبي طالب روى عن علي وابن عباس وأبي هريرة .. روى عنه الأعمش وإسماعيل السدي وسماك بن حرب وغيرهم قال عنه ابن حجر "ضعيف يرسل من الثالثة" ا.هـ انظر تهذيب التهذيب (١/ ٣٦٤ -٣٦٥) وتقريب التهذيب رقم ٦٣٤ ص١٢٠.

(٢) زاد المسير ٢/ ٤٣٧.

(٣) السيرة ١/ ١٣٣.

(٤) رواه البخاري (ج٤/ ١٦٩٠) وقد تقدم، وروى نحوه ابن جرير عن ابن عباس (٧/ ٩٠).

(٥) سبق تخريجه ص ٥٨.

تذبح لمكانها، وكانت لحومها حراماً على النساء، ولبن الأنثى حرام على النساء، إلا أن يموت منها شيء فيأكله الرجال والنساء" (١).

وقيل "الوصيلة: إن الشاة إذا نتجت عشر إناث متتابعات في خمسة أبطن ليس فيهن ذكر، جعلت وصيلة، قالوا: وصلت، فكان ما ولدت بعد ذلك لذكورهم دون إناثهم، إلا أن يموت منها شيء، فيشتركون في أكله ذكورهم وإناثهم (٢).

وروي عن سعيد بن المسيب في قوله تعالى "ولا وصيلة"، قال: فالوصيلة من الإبل كانت الناقة تبتكر بالأنثى، ثم ثنت بأنثى فسموها الوصيلة، ويقولون: وصلت اثنيين، ليس بينهما ذكر، فكانوا يجدعونها لطواغيتهم، أو يذبحونها" (٣).

وقال ابن كثير – رحمه الله – وكذا روي عن الإمام مالك بن أنس – رحمه الله – (٤).

وأما الحام: قيل إنه "الفحل الذي ركب ولد ولده، ويقال إذا نتج من صلبه عشرة أبطن. قالوا: قد حمى ظهره فلا يركب ولا يمنع من كلأ ولا ماء" (١).

---

(١) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص١٤٧، وقال ابن الجوزي رواه أبو صالح عن ابن عباس بنحوه انظر زاد المسير (٤٣٨/٢).

(٢) جامع البيان (ج١١/٨٨) وقاله محمد بن إسحاق انظر السيرة (١/١٣٣).

(٣) رواه ابن جرير في تفسيره (والشك منه) (ج٧/٩١) وفي إسناده الحسن بن يحيى بن الجعد ابن أبي الربيع الجرجاني أبو علي قال فيه الحافظ في التقريب صدوق (انظر التقريب ص١٦٤) وأما باقي رجال إسناده فثقات، وقد رواه أيضاً ابن كثير في تفسيره (٦٦٥/٢) قال: قال عبدالرزاق: أنبأنا معمر عن الزهري عن سعيد بن المسيب هو الحسن بن يحيى بن الجعد أو الحسن بن يحيى بن كثير العنبري والأول قال فيه الحافظ في التقريب صدوق، والثاني قال فيه لا بأس به، (انظر التقريب ص١٦٤) وأما باقي رجال إسناده فثقات، وقد رواه أيضاً ابن كثير في تفسيره (٦٦٥/٢) قال: قال عبدالرزاق: أنبأنا معمر عن الزهري عن سعيد بن المسيب.

(٤) انظر تفسير ابن كثير (ج٢/٦٦٥).

وروى ابن جرير عن الشعبي نحو هذا القول ونقل عن ابن عباس أيضاً ومالك (٢) – رحمهم الله – وقيل: "إنه الفحل يظهر من أولاده عشر إناث من بناته، وبنات بناته، قاله عطاء" (٣).

فهذا التحريم والتحليل الذي يمارسه هؤلاء المشركون، من أكبر علامات الانحراف عندهم والضلال الذي يعتقدونه.

وقد سماه الله شركاً كما سبق في قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١].

وفي الحديث عدي بن حاتم عندما أسلم وجاء إلى النبي ﷺ يقول: "أتيت النبي ﷺ ، وفي عنقي صليب من ذهب فقال له رسول الله ﷺ يا عدي اطرح هذا الوثن، وسمعته يقرأ في سورة براءة: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١].

قال: أما أنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه (٤).

وعن عدي ابن حاتم – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ سورة براءة فلما قرأ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ قلت يا رسول الله، أما أنهم لم يكونوا يصلون لهم؟

==

(١) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص١٤٨، وقاله ابن إسحاق انظر السيرة (١٣٣/١).
(٢) انظر جامع البيان ج٨٩/٧.
(٣) زاد المسير ٨٩/٢.
(٤) رواه الترمذي في سننه كتاب التفسير تفسير سورة التوبة رقم ٣٠٩٤ (٢٤٨/٨) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبدالسلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث. ا.هـ. ورواه ابن جرير من طريق آخر عن عبدالسلام بن حرب به بنحوه (١١٤/١٠).

قال: (صدقت ولكن كانوا يحلون لهم ما حرم الله فيستحلونه ويحرمون ما أحل الله لهم فيحرمونه) (١) .

ومثل هذا التحريم والتحليل الذي مارسه أهل الجاهلية الأولى، يمارسه الآن طواغيت الجاهلية المعاصرة، فيحلون ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله، تراهم يحلون الربا ويسمونه بغير اسمه ويزعمون أنه ضروري، وأنه عامل من عوامل انتعاش الاقتصاد!! ويحلون الزنى علناً، ويحرمون تعدد الزوجات!!. ويضعون القوانين التي يحكمون بها جميع المعاملات معرضين عن وحي رب الأرض والسماوات.

يقول سيد قطب – رحمه الله – :

"ولم يكن بد أن يكون "دين الله" هو الحكم بما أنزل الله دون سواه، فهذا هو مظهر سلطان الله، مظهر حاكمية الله. أن لا إله إلا الله وهذه الحتمية، لا تنشأ فحسب من أن ما أنزل الله خير مما يصنع البشر لأنفسهم من مناهج وشرائع، وأنظمة وأوضاع، فهذا سبب واحد من أسباب هذه الحتمية، وليس هو السبب الأول ولا الرئيسي، إنما السبب الأول والرئيسي، هي أن الحكم بما أنزل الله إقرار بألوهية الله، ونفي لهذه الألوهية وخصائصها عمن عداه وهذا هو الإسلام" ا.هـ (٢) .

ولهذا عده شيخ الإسلام – محمد بن عبدالوهاب – من نواقض الإسلام العشرة قال – رحمه الله – : "الرابع: من اعتقد أن غير هدى

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (١١٤/١٠) وفي سنده غطيف بن أعين السابق ذكره، وقد روى ابن جرير نحوه من عدة طرق، ورواه أيضاً موقوفاً على حذيفة بن اليمان وابن عباس والحسن وابن البختري وغيرهم.

(٢) في ظلال القرآن (٨٢٨/٢).

النبي ﷺ أكمل من هديه أو أن حكم غيره أحسن من حكمه كالذين يفضلون حكم الطواغيت على حكمه فهو كافر" ا.هـ [(١)] .

وعلى هذا فالعلمانية – التي تشدق بها المستغربون – ما هي إلا امتداد لجذور الوثنية منذ العصر الجاهلي، فهؤلاء المشركون يعترفون الربا وبأنه خالق السماوات والأرض، ومالك كل شيء، لكنهم يكتفون بهذا، وأما العبودية والتحليل والتحريم فلا يرون أنها له سبحانه، فما الفرق بينهم وبين من يدعي أن الدين في المسجد قط ولا دخل في سائر شئون الحياة. قال تعالى: ﴿ **وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ** ﴾ [البقرة:١٩٣] . يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – "فإذا كان بعض الدين لله وبعضه لغير الله وجب القتال حتى يكون الدين كله لله" [(٢)] ا.هـ. ويقول أيضاً: "ومعلوم بالاضطرار من دين المسلمين واتفاق جميع المسلمين أن من سوغ اتباع غير دين الإسلام أو اتباع شريعة غير شريعة محمد ﷺ فهو كافر وهو ككفر من آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض الكتاب كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾** ﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥١] [(٣)] ا.هـ

ويقول أيضاً: "كل طائفة خرجت عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجب قتالها باتفاق أئمة المسلمين وإن تكلمت

---

(١) مجموعة التوحيد ص٢٧.
(٢) الفتاوى الكبرى (٤/ ٢٨٠).
(٣) الفتاوى الكبرى (٤/ ٢٨٦).

بالشهادتين، فإذا أقروا بالشهادتين وامتنعوا عن الصلوات الخمس وجب قتالهم حتى يصلوا وإن امتنعوا عن الزكاة وجب قتالهم حتى يؤدوا الزكاة .. وكذلك إن امتنعوا عن الحكم في الدماء والأموال والأعراض والأبضاع ونحوها بحكم الكتاب والسنة .. ا.هـ (١) .

والواقع أن دين الإسلام شامل لجميع جوانب الحياة فكيف وأنى لنا أن نلهث وراء القوانين البشرية والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾ [المائدة: ٣].

وهل لدين أكمله رب الأرباب أن يكمله البشر أو يدّعون ذلك؟ كبرت كلمة تخرج من أفواههم.

ومن اطلع على أسباب ظهور العلمانية في أوربا علم علماً يقينياً أنه لا مجال لها في ديار الإسلام، فأسباب ظهورها هناك لا وجود لها في بلاد الإسلام ولا حول ولا قوة إلا بالله (٢) .

رابعاً: شرك الدعاء (٣) :

إن دعاء غير الله عز وجل من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله عز وجل، فالدعاء هو العبادة كما جاء في الحديث (الدعاء هو العبادة) (٤) .

---

(١) المرجع السابق ٤/٢٧٩.

(٢) انظر في العلمانية وأسباب ظهورها كتاب العلمانية للشيخ سفر الحوالي وكتاب تهافت العلمانية لعماد الدين خليل.

(٣) الشرك في الدعاء يتضمن الشرك في العبادة وقد سبق ولكن أفردته هنا لأهميته، ولكثرة وقوعه.

(٤) رواه الترمذي في كتاب التفسير في تفسير سورة المؤمن من حديث النعمان بن بشير قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول .. الحديث وفي آخره ثم قال "وقال ربكم ادعوني استجب لكم" الآية ٦٠ غافر رقم ٣٢٤٤ (ج٨/٣٧٢) وقال: هذا حديث =

وقال جل وعلا: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر: ٦٠].

وجاء في الحديث (الدعاء مخ العبادة) [(١)] ، وجاء في حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – أنه ﷺ قال: "ليس شيء أكرم على الله من الدعاء"[(٢)] .

وهذه الأحاديث تبين أهمية الدعاء، ومكانته من العبادة وذلك لما يشتمل عليه من الخضوع، والتضرع، والذل للمسئول والاعتراف بالحاجة إليه، ولهذا ورد في الحديث أنه مخ العبادة "مخ الشيء: خالصه، وإنما كان مخاً لأمرين: أحدهما أنه امتثال أمر الله تعالى حيث قال: ادعوني. فهو محض العبادة وخالصها، والثاني أنه إذا رأى نجاح الأمور من الله قطع أمله عن سواه ودعاه لحاجته وحده، وهذا هو أصل العبادة" [(٣)] .

==

حسن صحيح. وفي كتاب الدعوات باب ما جاء في فضل الدعاء من طريق آخر عن النعمان بن بشير به رقم ٣٣٦٩ (٩٢/٩) ورواه الإمام أحمد عن النعمان بن بشير به (٢٦٧/٤، ٢٧١، ٢٨٦)، ورواه ابن ماجة في كتاب الدعاء باب فضل الدعاء من طريق آخر عن النعمان بن بشير بنحوه رقم ٢٨ ٣٨ (١٢٥٨/٢) وعزاه العجلوني في كشف الخفاء لمسلم (٤٨٥/١) وهو وهم.

(١) رواه الترمذي عن أنس بن مالك في كتاب الدعوات باب ما جاء في فضل الدعاء رقم ٣٣٦٨ (ج٩٢/٩)، وقال: "هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة" ا.هـ.

(٢) رواه الترمذي في كتاب الدعوات باب ما جاء في فضل الدعاء عن أبي هريرة – رضي الله عنه – رقم ٣٣٦٧ (ج٩١/٩) وقال: هذا حديث حسن، ا.هـ، ورواه ابن ماجة في كتاب الدعاء باب فضل الدعاء عن محمد بن يحيى به رقم ٣٨٢٩ (ج١٢٥٨/٢) ورواه البخاري في الأدب المفرد عن عمر بن مرزوق به رقم ٧١٢ ص٢٤٩.

(٣) لسان العرب مادة مخخ (٥٢/٣).

ولهذا قال جل وعلا: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ ﴾ [الأعراف: ٥٥ -٥٦].

والدعاء في اللغة بمعنى الرغبة إلى الله تعالى، ويأتي بمعنى الاستغاثة، كقولك للرجل إذا لقيت العدو خالياً فادع المسلمين، ومعناه استغث بهم، وقد يأتي بمعنى العبادة كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

وقال الله عز وجل: ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ [الصافات: ١٢٥] أي تدعون رباً سوى الله (١).

والدعاء على نوعين:

الأول: دعاء المسألة.

الثاني: دعاء العبادة.

وهما متلازمان فكل من دعا بكشف الضر، وسؤال الحاجات فقد عبده، وغالب ما جاء في القرآن ما ذكر ودعاء المشركين لآلهتهم، فالمراد به دعاء العبادة (٢).

والمرء إذا دعا فلا يخلو الأمر من ثلاث حالات سواء دعا بنفسه أو دعا له غيره بطلب منه أو بغير طلب:

الحالة الأولى: أن يدعو الله وحده لا شريك له.

الحالة الثانية: أن يدعو غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

الحالة الثالثة: أن يدعو غير الله ويدعو الله معه.

---

(١) انظر لسان العرب ٢٥٧/١٤ (مادة دعا)، وانظر القاموس المحيط ص١٦٥٥، وانظر الصحاح ٢٣٣٦/٦ -٢٣٣٧.

(٢) انظر مجموع الفتاوى (١٠/١٥ -١٣).

فأما الحالة الأولى: فلا خلاف في مشروعيتها، وفضلها وهي المراد بقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠]. ، وقوله: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وجاء في سورة يونس في قوله تعالى: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾ [يونس: ١٠] .

وأما الحالة الثانية: فهي الشرك الأكبر الذي جاء التحذير منه.

والحالة الثالثة: تدخل معها في الحكم لأن الله أمر بدعائه وحده فمن دعا معه غيره، عد هذا شركاً والله غني عن الشرك [(١)] كما جاء في الحديث عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: "قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه" [(٢)] .

وكان دعاء غير الله عز وجل متفشياً في الجاهلية وقد تعددت أساليب القرآن الكريم في إبطاله والرد على من فعله وذلك بعد طرق:

منها: إرشادهم إلى دعائه عز وجل وحده لا شريك له.

ومنها: بيان عجز وفقر من يدعون من الأصنام والأشجار، ونحوها.

ومنها: تذكيرهم بما هو كامن في نفوسهم من الإيمان والتوحيد ودعاء الله وحده وظهور هذا الأمر عند اشتداد الخطب، وانقطاع المعين.

---

(١) انظر كتاب الزيارة لابن تيمية ٧٥ -٨٦.

(٢) رواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق باب من أشرك في عمله غير الله رقم ٢٩٨٥ (٢٢٨٩/٤)، ورواه ابن ماجة من حديث أبي هريرة — رضي الله عنه — كتاب الزهد باب الرياء والسمعة رقم ٤٢٠٢ (١٤٠٥/٢) بنحوه، ورواه الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي سعيد بن فضالة الأنصاري بمعناه (٤٦٦/٣) (٢١٥/٤).

ومنها: ذكر بيان حالهم وتعاديهم يوم القيامة مع أوليائهم الذين يدعون من دون الله [١].

وإذا تأملنا سورة يونس عليه السلام رأينا أنها اشتملت على جميع هذه الأساليب، فأما دعوتهم وإرشادهم إلى دعاء الله وحده لا شريك له ففي قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [يونس: ١٠٤ -١٠٦].

وأما في بيان عجز وفقر من يدعوهم من دون الله وأنهم لا يملكون نفعاً ولا ضراً ففي قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يونس: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [يونس: ٦٦].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [يونس: ١٠٦-١٠٧].

وأما في تذكيرهم بما هو كامن في نفوسهم من الإيمان والتوحيد ودعاء الله وحده، وظهور هذا الأمر عند اشتداد الخطب، وانقطاع المعين، فقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ

(١) انظر رسالة الشرك ومظاهره لمبارك بن محمد علي، ص١٩٣.

قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [يونس: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يونس: ٢٢].

وأما في ذكر بيان حالهم وتعاديهم يوم القيامة مع أوليائهم الذين يدعون من دون الله قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [يونس: ٢٨ -٢٩] .

وما يفعله الجهلة في زماننا من دعاء الأموات، وسؤالهم الحاجات، والتمسح بقبورهم – والعياذ بالله – من الشرك الأكبر.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله –

"ولقد قصد الصلاة عند قبور الأنبياء والصالحين من غير أن يقصد دعاءهم والدعاء عندهم مثل أن يتخذ قبورهم مساجد لكان ذلك محرماً منهياً عنه ولكان صاحبه متعرضاً لغضب الله ولعنته كما قال النبي ﷺ: "اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" (١) .

---

(١) رواه البخاري من حديث عائشة بلفظ (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) كتاب الجنائز باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور رقم ١٢٦٥ (٤٤٧/١).

ورواه مسلم في كتاب المساجد باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد عن عائشة – رضي الله عنها – بلفظ البخاري رقم ١٩ (٣٧٦/١).

وقال "قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" (١) .
فإذا كان هذا محرماً وهو سبب لسخط الرب ولعنته، فكيف بمن يقصد دعاء الميت والدعاء عنده وبه واعتقد أن ذلك من أسباب إجابة الدعوات ونيل الطلبات وقضاء الحاجات، وهذا كان أول أسباب الشرك في قوم نوح وعبادة الأوثان في الناس .." ا.هـ (٢) .

وهذا الذي يفعله هؤلاء عند قبور الموتى، لم يفعله رسول الله ﷺ ولا الصحابة من بعده – وحاشاهم – ولا فعلته القرون الثلاثة المفضلة، فهل يعقل أن يصرف عنه أولئك، ثم يوفق إليه هؤلاء؟ لاشك أن هذا من البدع المحدثة والشرك الأكبر (٣) نسأل الله السلامة .

حتى قبر النبي محمد ﷺ وهو إمام الرسل، الشافع المشفع، عليه وعلى جميع الأنبياء صلوات الله وسلامه، فكيف بقبر غيره ممن يزعمون أنهم أولياء، وقد لا يكون في القبر ميتٌ أصلاً؟!!

يقول العلامة الشيخ حمد بن عتيق – رحمه الله – : "أما ما يفعله أكثر الناس عند قبر النبي ﷺ من دعائه، والتضرع إليه، وسؤاله، بأنواع السؤال، وكذلك ما يفعله عباد القبور من دعاء الأموات والاستغاثة بهم في الشدائد والملمات، والاستنجاد بهم في تفريج الكربات، وإغاثة اللهفان كل ذلك من أعظم المحدثات، وأكثر المنكرات لأنه من الدعاء الذي هو مخ العبادة" (٤) .

---

(١) رواه البخاري كتاب المساجد باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور رقم ٤٢٦ (١٦٨/١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه مسلم من طريق آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه به رقم (٢٠) (٣٧٦/١).

(٢) مجموع الفتاوى (١٦٦/١ -١٦٧).

(٣) انظر الهدية السنية، ص٤٢.

(٤) مجموعة رسائل الشيخ حمد بن عتيق، ص١٨.

وسؤال الميت والاستغاثة به على ثلاثة أحوال:

الحالة الأولى: أن يتوجه إليه مباشرة بطلب قضاء الحاجات، وكشف الملمات من شفاء مريض، ورد غائب، وقضاء دين ونحو ذلك، وهذا من الشرك الأكبر.

الحالة الثانية: أن يطلب من صاحب هذا القبر، أن يدعو الله له، ليكون شفيعاً له عند الله، لكونه أقرب عند الله، وهذا من جنس قول الله عز وجل على لسان المشركين: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ [الزمر: ٣].

وقد بينت فساد هذا القول في شرك الشفاعة.

الحالة الثالثة: أن يسأله الدعاء له، كما يقال للحي: ادع الله لنا وطلب الدعاء من الحي مشروع ولا بأس به، وكان الصحابة – رضوان الله عليهم – يطلبون من النبي ﷺ أن يدعو لهم. وقال ﷺ لعمر – رضي الله عنه – عندما استأذنه في العمرة فأذن له وقال: "لا تنسنا يا أخي من دعائك" (١).

وأما أن يطلب الدعاء من الميت، فهذا غير مشروع ولم يفعله أحد من الصحابة ولا التابعين ولا أمر به أحد من الأئمة، بل هو بدعة ما أنزل الله بها من سلطان، والصحابة بعد موت النبي ﷺ طلبوا من العباس أن يستسقي لهم بدعاء الله عز وجل، فلو كان هذا مشروعاً لذهبوا إلى قبر النبي ﷺ وطلبوا منهم أن يدعو لهم كما ثبت في الصحيح عن أنس – رضي الله عنه – أن عمر بن الخطاب – رضي الله

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الصلاة باب الدعاء رقم ١٤٩٨ (ج١/٤٧٠). ورواه البيهقي في كتاب السنن الكبرى كتاب الحج باب التوديع من طريق آخر عن شعبة به (٢٥١/٥) وضعفه الشيخ الألباني رحمه الله، انظر ضعيف الجامع الصغير (رقم ٦٢٧٨).

عنه – : كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبدالمطلب. فقال: "اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فأسقنا، قال فيسقون" (١) . وكان الصحابة – رضوان الله عليهم – إذا جاءوا إلى قبر النبي ﷺ سلم أحدهم عليه، ثم إذا أراد أن يدعو انحرف إلى جهة القبلة يدعو الله وحده (٢) .

(١) رواه البخاري في كتاب الاستسقاء باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا رقم الحديث ٩٦٤ (ج١/٣٤٢ -٣٤٣) ورواه في كتاب فضائل الصحابة باب ذكر العباس بن عبدالمطلب رقم ٣٥٧ (ج٣/١٣٦٠) عن أنس – رضي الله عنه – به.

(٢) انظر فيما سبق: كتاب الزيارة ص٨٢ وما بعدها، واقتضاء الصراط المستقيم، ص٣٢٠ -٣٢١.

الأدلة على بطلان الشرك في سورة يونس:

لم تخل سورة من سور القرآن الكريم، من الرد على المشركين، وإبطال الشرك، وخاصة في المكي منه، وذلك لأهمية أمر العقيدة وبنائها البناء الصحيح، ولأن إنكار ألوهية الخالق أمر في غاية الشناعة والفحش، وكيف يكون رباً خالقاً رازقاً، ثم لا يكون معبوداً، وهذا من أعجب العجب.

وسورة يونس عليه السلام تناولت أمر الشرك وأدلة بطلانه في كثير من الآيات بل تكاد لا تخلو آية منها من إثبات عقيدة التوحيد الخالصة ومن ذلك ما يلي:

أولاً: إبطال الشرك عن طريق إثبات الربوبية

فقد جعل الله عز وجل في هذا الكون من الآيات والدلائل ما تثبت وجوده وربوبيته مما لا يدع مجالاً للشك في وجود الله تعالى، واستحقاقه للعبودية، فالكون كله علويه وسفليه ينطق بالوحدانية لله سبحانه وتعالى(١).

ومن الآيات التي ذكرت في سورة يونس عليه السلام:

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [يونس: ٣].

وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى

(١) انظر مدارج السالكين (ج١/ ٥٩).

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ [يونس: ٥ -٦].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس: ٣١ -٣٢].

وقوله جل وعلا: ﴿ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يونس: ٥٦].

وقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [يونس: ١٠٤].

فهذه الآيات العظيمة فيها من الدلائل على عظمة الرب وسلطانه، وقدرته على كل شيء، ما يجعل هؤلاء الكافرين لا يستطيعون الإدلاء بأي حجة، بل هم يعترفون بهذا ويقرون به، لكنهم يصرفون العبادة لغيره، وهذا من الظلم والبغي وضلال القلوب والعياذ بالله، كيف تصرف العبادة للمملوك ولا تصرف للمالك، وتصرف للعبد، ولا تصرف للرب، وقد سبق بيان هذا في الفصل الأول.

ثانياً: إبطال الشرك عن طريق تذكيرهم بإخلاصهم وقت الشدة والخوف

ودعائهم الله وحده لا شريك له، فإذا عاد الأمن والرخاء عادوا في شركهم وكفرهم، ولهذا وبخهم الله وعاب عليهم فعلهم هذا، والعجب لماذا لا يدعون شركاءهم وقت الحاجة، ولماذا تنصرف قلوبهم

إلى الله عز وجل ولا تنصرف لغيره؟! ولكنها فطرة الله التي فطر الله الناس عليها.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [يونس: ١٢].

والآية تصور جزع هذا الإنسان وقلقه، وإكثاره من الدعاء في جميع حالاته سواءً مضطجعاً أو قاعداً أو قائماً، وهذه أغلب الحالات التي يكون عليها الشخص فإذا كشف عز وجل الغمة عاد إلى كبره وعناده.

ويقول تعالى مصوراً حالة أخرى لهم تعتريهم عند ركوبهم البحر، وهيجان الأمواج، وارتفاع الأصوات، وانقطاع السبل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [يونس: ٢٢-٢٣] .

ثالثاً: إبطال الشرك عن طريق ذكر جزاء من أعرض عن التوحيد

وأن مصير من أعرض عنه، هو مصير المجرمين أولئك، وهذه سنة الله الكونية لا تتغير ولا تتبدل قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [يونس: ١٣ -١٤].

وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧ ﴾ [يونس:٢٧] .

وقوله: ﴿ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٩ ﴾ [يونس: ٣٩].

وذكر جل وعلا قصة نوح عليه السلام ودعوته لقومه وتكذيبهم له ثم أعقب ذلك بقوله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ٧٣ ﴾ [يونس: ٧٣].

ثم ذكر تعالى قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وإعراضهم عن دعوته ثم بين مصيرهم وهلاكهم في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠ ﴾ [يونس: ٩٠].

وقوله: ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٩٥ ﴾ [يونس: ٩٥].

وقوله تعالى تحذيراً لهم: ﴿ فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ١٠٢ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٣ ﴾ [يونس: ١٠٢ -١٠٣].

رابعاً – إبطال الشرك وذلك بنفي ملكية هذه الآلهة للنفع أو الضر:

كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يونس: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [يونس: ١٠٦].

وهي تنفي الشرك من وجوه:

منها: أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر سواء عبدت أو لم تعبد.

ومنها: أنه من المعلوم قطعاً أن المعبود لابد أن يكون أكمل من العابد، فإذا كانت هذه الأصنام المعبودة لا تملك نفعاً ولا ضراً، بل ولا تحسن التصرف، والذين يعبدونها يتصرفون حتى في شأنها هي وما يخصها من الإصلاح والإفساد فهم إذن أكمل حالاً منها.

ومنها: أن العبادة من أعظم ما يقوم به العبد من التعظيم لمن بعده، وإذا كان الحال كذلك فلا تصرف إلا لمن يستحقها، ومن يستحقها غير الله عز وجل، وإلا فلسان حالهم يقول، إن هذه الآلهة تستحق أن يصرف لها أعظم التعظيم وهذا ضلال [(١)].

ومنها: أن هذه الأصنام لا تملك نفعاً ولا ضراً، ومن كانت هذه حاله فكيف تكون لديه من الوجاهة والسؤدد، حتى يكون شفيعاً عند الله، وسيقولون يوم القيامة لهم: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الشعراء: ٩٧ -٩٨].

(١) انظر تفسير الفخر الرازي (١٧/ ٦٢ -٦٣).

وهاهو سيد الخلق – عليه الصلاة والسلام – يدعو قرابته مبيناً لهم أنه لا يملك لهم من الله نفعاً ولا ضراً، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: "قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

قال: "يا معشر قريش، أو كلمة نحوها، اشتروا أنفسكم لا أغني عنك من الله شيئاً، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبدالمطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد ﷺ سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئاً [(١)].

فإذا كان هذا هو حال رسول الله ﷺ فكيف بحال غيره من هذه الأوثان والأموات التي يدعونهم من دون الله، والزعم بأنهم يشفعون لهم، حرمهم شفاعة محمد ﷺ والأنبياء لأن هذا شرك والمشرك منتفية في حقه الشفاعة.

خامساً: بيان حالهم يوم القيامة مع شركائهم، ونفي الشركاء لهذه العبادة وتخليهم عن عابديهم:

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا

---

(١) رواه البخاري في كتاب تفسير باب، ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ .. رقم ٤٤٩٣ (١٧٨٧/٤ -١٧٨٩)، ورواه في كتاب الوصل باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب رقم ٢٦٠٢ (ج١٢٩٨/٣ من حديث أبي هريرة بمعناه، ورواه مسلم في كتاب الإيمان باب قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ بألفاظ متقاربة نحوه عن أبي هريرة وعائشة – رضي الله عنهما – رقم (٣٤٩) (٣٥٠) (٣٥١) (١٩٢/١ -١٩٣).

تَعۡبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يونس: ٢٨ -٢٩].

وبيان ذلك من وجوه منها: قوله عز وجل: "فزيلنا" وهي بمعنى الفراق، والتباين كما ذكر هذا أهل اللغة [١].

والمعنى أن هؤلاء الشركاء يفارقون عابديهم، عند الحشر، وهذا يبطل شفاعتهم لهم ونصرتهم، ومن كان هذا حاله فلا يستحق العبادة.

ومنها: غفلة هؤلاء الشركاء عن معبوديهم، بل وإنكارهم لعبادتهم قال ابن كثير – رحمه الله – في معنى هذه الآية ما كنا نشعر بها ولا نعلم بها، وإنما كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم، والله شهيد بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلى عبادتنا ولا أمرناكم بها ولا رضينا منكم بذلك.

وفي هذا تبكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم شيئاً، ولم يأمرهم بذلك ولا رضي به ولا أراده بل تبرأ منهم وقت أحوج ما يكونون إليه" ا.هـ [٢].

وإذا كانت الآلهة لا تعلم بهذه العبادة، فالواقع أن صرفهم لها العبادة سخف في العقل، وعماية عن الحق، والإنسان عندما يقوم بعبادة ما فهو يرجو ثوابها من المعبود، وعندما لا يعلم بها المعبود فهو قطعاً لا يثيب عليها فكيف والحال أن هذه الآلهة لا تعلم بهذه العبادة، ولا تستطيع أن تثيب عليها لو علمت بها.

سادساً: بيان عجز الشركاء:

---

(١) انظر لسان العرب مادة (زيل) ج١١/ ٣١٦.
(٢) تفسير ابن كثير ج٣/٥٠٠.

كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّۗ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٥ ﴾ [يونس: ٣٥].

وإبطال الشرك في هاتين الآيتين جاء من وجوه:

منها: الإتيان بهذه الحجة على طريقة الاستفهام، وتفويض الإجابة لهم، وذلك لجلاء هذا الأمر ووضوحه، وهذا أبلغ وأوقع في نفوس المخاطبين حيث هذا مشعر لهم بأن الأمر لا يحتاج إلى بينة [(١)] .

ومنها: لفت أنظارهم إلى خالق الكائنات، وأن منشئها وخالقها هو الله عز وجل يعترفون بذلك، فهل تستطيع هذه الآلهة أن تفعل ذلك، وهم حتماً لا يستطيعون ادعاء ذلك، حتى ولو قالوه فالواقع يكذبهم.

ومنها: تكرار الاستفهام عن الهداية إلى سبيل الحق والرشاد، هل تفعله هذه الآلهة أم أن الله عز وجل هو الذي يهدي، وإن كانت هذه الآلهة لا تستطيع الهداية ولا تملكها توصلنا إلى نتيجة حتمية وهي أن المالك للهداية إذاً أحق بالاتباع ممن لا يملكها وهو محتاج إليها.

ومنها قوله تعالى: ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ وهذا تعجب من أفعالهم ودليل على عدم انتفاعهم بالسمع والبصر والفؤاد.

ومنها: ما جاء بعد هذه الآيات من قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٣٦ ﴾ [يونس: ٣٦] .

والمعنى أنهم في عبادتهم لهذه الآلهة يتبعون الشك، وليس عندهم يقين، وإنما تقليد واتباع لآبائهم، وهذا لا يغني عن الحق شيئاً، ولهذا يطالبهم الله تعالى بالدليل والبرهان على استحقاق هذه الأصنام للعبادة

(١) انظر تفسير الفخر الرازي ١٧/ ٩٣.

فهم أولاً: مخلوقون، فكيف يكون المخلوق إلهاً؟! وكيف يكونون شركاء لمن خلقهم؟! ثم هم عاجزون عن النصرة، والنفع والضر حتى لأنفسهم، فتبين عجزهم عن نصر غيرهم أو نفعه من باب أولى [(١)] .

(١) انظر قرة عيون الموحدين، ص٩٤ -٩٥.

سابعاً: إثبات غنى الرب عز وجل، ونفي الحاجة عنه:

قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بِهَـٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [يونس:٦٨].

وقد أبطل الله تعالى إشراكهم، بادعائهم نسبة الولد إليه [(١)] - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً - في هذه الآية الكريمة من عدة أوجه:

منها: إنه الغني سبحانه ومن كان غنياً فليس محتاجاً للولد.

ومنها: إن التماس الولد يكون في حق من هو محتاج إليه في مصالحه الحاصلة أو المتوقعة والرب جل وعلا منزه عن هذا.

ومنها: إن الولد يكون منسوباً إلى الشخص بشرطين. الأول: كونه سبب حصوله وتولده منه. والثاني: أن يكون من جنسه ومعلوم قطعاً بأن الرب جل وعلا ليس كمثله شيء وأنه أحد صمد فرد لم يتولد منه شيء وليس له مساوياً ولا شبيهاً.

ومنها: لو كان للرب ولد للزم أن يكون متصفاً بالشهوة واللذة، وقد علم امتناع هذا وتنزهه عن الصاحبة.

ومنها: أنه جل وعلا قد تنزه عن الأم والأب فكذلك الولد [(٢)] .

ومنها: "إن الولادة لا تكون إلا من أصلين سواء في ذلك تولد الأعيان التي تسمى الجواهر – وتولد الأعراض والصفات، بل ولا يكون تولد الأعيان إلا بانفصال جزء من الولد، فإذا امتنع أن تكون له صاحبة

(١) وهذا من الشرك في الربوبية، وإذا بطل الشرك في الربوبية فبطلانه في الألوهية من باب أولى.

(٢) انظر تفسير الفخر الرازي (١٣٨/١٧ -١٣٩).

امتنع أن يكون له ولد، وقد علموا كلهم أن لا صاحبة لا من الملائكة ولا من الجن ولا من الإنس فلم يقل أحد منهم إن له صاحبة"(١).

بل لو ادعى أحدهم أن مريم أم المسيح عليهما السلام هي امرأة لله جل وعلا وتقدس لكفروه واعتقدوا شناعة قوله، وهم مع ذلك يقولون إن المسيح ولده الله ولادة عقلية، والقول السابق ليس بأفسد من هذا القول الأخير (٢).

ومنها: ما جاء في قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٨٤] فإذا كان مالكاً لجميع ما في السماوات وما في الأرض، خالقاً لها، وأن الجميع مخلوقون عبيد مماليك، والولد لابد أن يكون من جنس والده، فكيف يجوز ذلك والكل له جل وعلا مخلوق (٣).

ومنها: قوله تعالى في الآية: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦٨﴾ [يونس:٦٨]، فالرب جل وعلا يطالبهم بأن يأتوا بسلطان أي حجة على ما يقولون فمن المعلوم أن كل من ادعى شيئاً لا يقبل منه إلا بعد إقامة الدلائل والبراهين على صدقه، وثبوته فأين برهانهم ودليلهم، على أن لله جل وعلا ولداً.

وحينما لم يأتوا بدليل مع مطالبة الله عز وجل لهم بذلك تبين عجزهم وكذبهم على الله جل وعلا، وقولهم عليه بلا علم.

ولهذا جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: "كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني

---

(١) مسائل الجاهلية، ص٦٤.

(٢) انظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (١٣٠/٣).

(٣) انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير لكلام المنان ٣٣١/٢ -٣٣٢، وانظر تفسير الطبري ١٤٠/١١.

ولم يكن له ذلك، أما تكذيبه إياي أن يقول: إني لن أعيده كما بدأته، وأما شتمه إياي أن يقول اتخذ الله ولدا، وأنا الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد" (١) .

ثامناً: تصوير مشاهد الحسرة والندم التي يعيشها هؤلاء المعرضون عن التوحيد يوم القيامة:

كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٠ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝٥١ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ۝٥٢ ﴾ [يونس: ٥٠ -٥٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٥٤].

وفي الحديث: "يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له: أرأيت لو كان لك ملءُ الأرض ذهباً، أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم، فيقال له: قد كنت سئُلت ما هو أيسر من ذلك" (٢) .

---

(١) رواه البخاري كتاب التفسير باب قوله (الله الصمد) حديث ٤٦٩١ (ج٤/٦٩٠٣) ورواه أيضاً في كتاب التفسير في تفسير قل هو الله أحد من طريق أخرى عن أبي هريرة – رضي الله عنه – به رقم ٤٦٩٠ (٤/١٩٠٣).
وأخرجه ابن منده في التوحيد عن أبي هريرة بنحوه (ج١/٦).

(٢) رواه البخاري كتاب الرقاق باب من نوقش الحساب عُذب عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – رقم ٦١٧٣ (ج٥/٢٣٩٥)، ورواه أيضاً في كتاب الأنبياء باب قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ عن أنس بن مالك بمعناه رقم ٣١٥٦ (١٣/٣)، ورواه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب طلب الكفار الفداء بملء الأرض ذهباً عن أنس بن مالك بمعناه رقم ٢٨٠٥ (١٦١/٤).

ويقول تعالى أيضاً: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًاۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [يونس: ٢٧].

وفي المقابل صورة مشرقة لأهل التوحيد والتصديق يقول تعالى: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [يونس: ٢٦] ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يونس: ٦٢ -٦٤].

ومن هنا يتبين بطلان الشرك، وأن المشرك يتعلق بوهم، وببيت أوهى من بيت العنكبوت، فإذا كان وجوب الوجود، والغنى المطلق، من خصائص الرب جل وعلا وليس لبشر مهما أوتي أن يشاركه في خصائصه كان الاستقلال بالفعل من خصائصه أيضاً، ومن كان كذلك فليس له شريك فكيف يجعل له شريكاً والشريك هو الند والمساوي، بل وكيف يعبد غيره ويسمى إلاهاً؟! إن ذلك لمن أعجب العجب [١].

بل وهؤلاء المشركون، قد اتخذ كل واحد منهم وثناً يعبده، ويتقرب إليه بأنواع القربات، وهو يسيء الظن بالوثن الذي اتخذه غيره، ويزعم أن وثنه يستجاب عنده، ولا يستجاب عند غيره من الأوثان، ومن المحال أن يكونوا كلهم على صواب، وموافقة بعضهم دون بعض تحكم بلا دليل مرجح، وموافقتهم جميعاً يؤدي إلى الجمع بين الأضداد، وهذا مما يبين ضلالهم وبطلان عقيدتهم [٢]، ولهذا ختمت

---

(١) انظر الفتاوى: (٣٤/١ -٩٣٥)، وانظر قرة عيون الموحدين، ص٩٤ -٩٥.

(٢) انظر اقتضاء الصراط المستقيم، ص٣٤٥.

السورة الكريمة بالبراءة من الشرك في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [يونس: ١٠٤] [(١)].

---

(١) انظر في تفسيرها جامع البيان (١١/١٧٦).

الفصل الثالث

فـي الأسـمــاء والصفـات

وفيه ثلاثة مباحث:

الأول : في بيان الأسماء الحسنى الواردة في السورة.

الثاني: في بيان صفات الله تعالى الواردة في السورة.

المبحث الأول: في بيان الأسماء الحسنى الواردة في السورة

إن الإيمان بأسماء الله وصفاته هو القسم الثالث من أقسام التوحيد، وهو ضمن التوحيد العلمي، الاعتقادي، الخبري.

ومعرفة هذا التوحيد والإيمان به من أكبر عوامل محبة الله عز وجل في القلوب وزيادتها، وكذلك من عوامل زيادة الإيمان (١).

ومعنى الإيمان بهذا التوحيد: الإيمان بكل ما وصف الله به نفسه في كتابه، أو وصفه به رسوله ﷺ فيما ثبت عنه، على الحقيقة من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل، ولا تحريف.

وأسماء الله تعالى كلها حسنى، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ومعنى كونها حسنى أن "كل اسم دال على صفة كمال عظيمة، وبذلك كانت حسنى.

فإنها لو دلت على غير صفة، بل كانت علماً محضاً، لم تكن حسنى.

وكذلك لو دلت على غير صفة، ليست بصفة كمال، بل إما صفة نقص أو صفة منقسمة إلى المدح والقدح، لم تكن حسنى" (٢).

وأبدأ بعون الله وتوفيقه في بيان الأسماء الحسنى الواردة في السورة:

١- اللّه:

---

(١) انظر مدارج السالكين (١٧/٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (١٢٠/٣).

وقد ورد ذكره في سورة يونس — عليه السلام — في واحد وستين موطناً منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [يونس: ٣]. الآية.

وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [يونس: ٣].

وقوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ﴾ [يونس: ٤]. وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [يونس: ٥].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [يونس: ٦]. إلى آخر ما ورد في السورة. وروى ابن جرير عن ابن عباس في معناه قال: "الله ذو الألوهية والمعبودية على خلقه أجمعين" (١).

وقال شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب — رحمه الله — : "الله عَلَمٌ على ربنا تبارك وتعالى معناه الإله أي المعبود" (٢) ا.هـ.

وقال معناه: "واجب الوجود الذي لم يزل ولا يزال" (٣).

واختلف العلماء في هذا الاسم هل هو مشتق أم غير مشتق ويجرى مجرى الأعلام المحضة على قولين:

الأول: أنه مشتق، وعزاه القرطبي إلى الأكثرين (٤).

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (١/٥٤) وفي إسناده (بشر بن عمارة) ضعفه ابن حجر، والنسائي، وقال البخاري: يعرف وينكر، انظر ميزان الاعتدال (٣٢١،١) رقم: ١٢٠٩، وانظر التقريب، رقم: ٦٩٧.

(٢) مؤلفات محمد بن عبدالوهاب (١١/٤).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٠٢/١).

(٤) انظر المرجع السابق ونفس الجزء والصفحة وانظر المفردات في غريب القرآن، ص٢١.

ثم اختلفوا في مادة أصله، واشتقاقه، فقيل: إنه مشتق من "لاه يليه إذا ارتفع .. "(١) وقيل من "لاه يلوه إذا احتجب"(٢) .

وقيل من "إلاهُ على فعال بمعنى مفعول، لأنه مألوه أي معبود .." (٣) وذكر العلماء له اشتقاقات أخرى (٤) .

القول الثاني: أنه علم مرتجل غير مشتق، ورجحه الخطابي (٥) ، والغزالي (٦) ، وغيرهما (٧) واستدلوا بأنه لو كان مشتقاً، لكان له معنى كلياً يشترك معه غيره، وحيث انعقد الإجماع على أن لا إله إلا الله توجب التوحيد الخالص، فكان هذا ينفي كونه مشتقاً، ولأننا إذا أردنا أن نصف ذاتاً، نذكر الاسم أولاً، ثم نتبع ذلك الصفات كقولك: زيد عالم زاهد (٨) .

قال ابن القيم – رحمه الله – : "إن أريد بالاشتقاق .. أنه مستمد من أصل آخر فهو باطل، ولكن الذين قالوا بالاشتقاق لم يريدوا هذا المعنى ولا ألم بقلوبهم، وإنما أرادوا أنه دال على صفة له تعالى وهي الإلهية كسائر أسمائه الحسنى كالعليم والقدير والغفور والرحيم والسميع

---

(١) بصائر ذوي التمييز (١٣/٢).
(٢) المرجع السابق ونفس الجزء والصفحة.
(٣) الصحاح (٢٢٢٢/٢)، وانظر لسان العرب (٤٦٧/١٣)، وانظر كتاب سيبويه (١٩٥/٢).
(٤) انظر تفسير ابن كثير (٣٦/١ -٣٧) وانظر بصائر ذوي التمييز (١٢/٢ وما بعدها)، وانظر البحر المحيط وهوامشه (٤١/١)، وانظر معنى لا إله إلا الله للزركشي، ص١١٨ -١٢١.
(٥) انظر الأسماء والصفات للبيهقي (٤٧/١ -٤٩).
(٦) انظر المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى، ص٤٨.
(٧) انظر الإرشاد للجويني، ص١٣٨ ، وانظر بصائر ذي التمييز (١٢/٢).
(٨) انظر بصائر ذوي التمييز (١٢/٢ -١٣).

والبصير، فإن هذه الأسماء مشتقة من مصادرها بلا ريب وهي قديمة والقديم لا مادة له"[(١)] ا.هـ.

ولهذا الاسم العظيم خواص ليست لغيره من الأسماء:

١ - دلالته على جميع الأسماء والصفات بسائر الدلالات.

٢ - إضافة سائر الأسماء الحسنى إليه، كقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ [الحشر: ٢٤] وقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾.

[الأعراف: ١٨٠].

٣ - الابتداء به في جميع الأمور وتعليق حتى الذبائح بذكره عليها.

٤ - من قال "لا إله إلا الله .." عصم دمه، وماله، وحسابه على الله تعالى.

٥ - اختصاصه بالقسم.

٦ - افتتاح الصلاة به.

٧ - إنه خاص بالله تعالى، فلا يتسمى به غيره، فلذلك لا يُثَنَّى ولا يُجْمَع[(٢)].

ولهذا عده بعض العلماء اسم الله الأعظم، وقد نسب ذلك إلى بعض السلف.

روى ابن أبي حاتم عن جابر بن زيد في قوله تعالى: "بسم الله" قال: "اسم الله الأعظم هو الله، ألا ترى أنه في جميع القرآن يبدأ به قبل كل اسم[(١)].

---

(١) بدائع الفوائد (١/٢٢).

(٢) انظر التوحيد لابن مندة (٢/٢١ وما بعدها)، ومدارج السالكين (١/٣٢)، ومعنى لا إله إلا الله ص١٣٥ وما بعدها، وبصائر ذوي التمييز (٢/٢٠).

ورجح ذلك ابن كثير [٢] ، وابن العربي [٣] - رحمهما الله تعالى.

٢- الرب:

وقد ورد في سورة يونس عليه السلام مضافاً في عدة مواطن:

منها قوله تعالى: ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس:١٠].

وقوله: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ [يونس: ٢] .

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [يونس:٣] .

وقوله تعالى: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس:١٥] .

.. إلى آخر ما ورد في هذه السورة الكريمة في أربعة وعشرين موضعاً [٤].

ومعناه "السيد الذي لا شبه له، ولا مثل في سؤدده، والمصلح أمر خلقه بما أسبغ عليهم من نعمه، والمالك الذي له الخلق والأمر" [٥] .

٣- الشهيد:

==

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ١١) وإسناده حسن، في سنده أبو هلال الراسبي قال عنه ابن حجر: "صدوق فيه لين" ا.هـ التقريب رقم ٥٩٢٣ ص٤٨١، وذكره السيوطي في الدر المنثور (١/ ٢٣) وعزاه إلى ابن أبي شيبة والبخاري في تاريخه وابن الضريس في فضائله.

(٢) انظر تفسير ابن كثير (١/ ٣٥).

(٣) انظر عارضة الأحوذي (١٣/ ٣٤)، والاختلاف في تحديد الاسم الأعظم في فتح الباري (١١/ ٢٢٧ -٢٢٨).

(٤) انظر المعجم المفهرس، ص٣٦٣ -٣٨٠.

(٥) جامع البيان (١/ ٦١).

ومن أسمائه جل وعلا الواردة في السورة "الشهيد" وقد جاء في قوله تعالى: ﴿ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [يونس: ٢٩]. وقوله: ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [يونس: ٤٦]. وقوله: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [يونس: ٦١] الآية.

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ : "أنه ذكر رجلا من بني إسرائيل، سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال: ائتني بالشهداء، أشهدهم، فقال: كفى بالله شهيداً، قال: فأتني بالكفيل، قال: كفى بالله كفيلا، قال: صدقت، فدفعها إليه إلى أجل مسمى .." الحديث (١).

"والشهود والشهادة الحضور مع المشاهدة إمَّا بالبصر أو البصيرة وقد يقال للحضور مفرداً قال تعالى: ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ [التوبة: ٩٤]." (٢).

ومعنى الشهيد من أسماء الله تعالى: "الشهيد على العباد بأعمالهم وأحوالهم" (٣).

وقال شارح الطحاوية - رحمه الله - : "الشهيد الذي لا يغيب عنه شيء ولا يعزب عنه، بل مطلع على كل شيء، مشاهد له، عليم بتفاصيله" (١).

---

(١) رواه البخاري كتاب الكفالة باب: الكفالة والقرض والديون بالأبدان وغيرها رقم ٢١٦٩ (ج٢/٨٠٢) ورواه مختصراً في كتاب الزكاة باب ما يستخرج من البحر رقم ١٤٢٧ (ج٢/٥٤٥)، ورواه في كتاب البيوع باب: التجارة في البحر رقم ١٩٥٧ (ج٢/٧٢٧)، وفي كتاب الاستقراض: باب: إذا أقرضه إلى أجل مسمى رقم ٢٢٧٤ (ج٢/٨٤٧).

(٢) المفردات، ص٢٦٧ -٢٦٨.

(٣) الحجة في بيان المحجة ١٤٨/١.

٤- الحَقُّ:

ومن أسماء الله الحسنى الواردة في السورة (الحق) وهو سبحانه الحق ومعناه "المتحقق كونه ووجوده وكل شيء صح وجوده وكونه فهو حق"(٢). قال تعالى: ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝٣٠ ﴾ [يونس: ٣٠] وقوله: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس: ٣٢].

ويقول تعالى في سورة الكهف: ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ۝٤٤ ﴾ [الكهف: ٤٤]، وقوله تعالى في سورة الحج: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ ﴾ [الحج: ٦].

وفي الحديث عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال: "اللهم لك الحمد، أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن، ولله الحمد، أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنجت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت أنت المقدم، وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت، أو لا إله غيرك" (٣).

==

(١) شرح الطحاوية، ص٣٨، وانظر تيسير الكريم الرحمن (٥/٦٢٨).
(٢) الحجة في بيان المحجة ١/١٣٥.
(٣) رواه البخاري في كتاب التهجد باب التهجد بالليل رقم ١٠٦٩ (ج١/٣٧٧)، ورواه في كتاب التوحيد باب قوله تعالى: "وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق" رقم ٦٩٥٠ (ج٦/٢٦٨٩) عن سليمان به بنحوه.

==

قال ابن العربي – رحمه الله – : "والوجود على قسمين: وجود حقيقي، ووجود شرعي، فأما الوجود الحقيقي فليس إلا لله وصفاته وعليه جاء قوله ﷺ : "أنت الحق، وقولك الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق .."، فأما الله وصفاته فوجودها هو حق، لأنه لم يسبقها عدم، ولا يعقبها فناء .. ا.هـ [١] .

والحق يقال على أوجه:

الأول: يقال لموجد الشيء بسبب ما تقتضيه الحكمة، ولهذا قيل في الله تعالى هو الحق.

الثاني: يقال للموجد بحسب مقتضى الحكمة ولهذا يقال فعل الله تعالى كله حق.

الثالث: في الاعتقاد للشيء المطابق لما عليه ذلك الشيء في نفسه.

الرابع: للفعل والقول الواقع بحسب ما يجب وبقدر ما يجب كقولنا وذلك حق وقولك حق [٢] .

وقال القرطبي – رحمه الله – في تفسير هذا الاسم: "أي الواجب الوجود، واصله من حقَّ الشيء أي ثبت وجوده لنفسه لم يسبقه عدم ولا يلحقه عدم .." ا.هـ [٣] .

==

ورواه أيضاً في باب "وجوه يومئذ ناظرة" رقم ٧٠٠٥ عن سليمان به بنحوه ورواه في باب: قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾ رقم ٧٠٦٠ (ج٦/٢٧٢٤) عن سليمان به بنحوه، وأخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها: باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه رقم ٧٦٩ (ج١/٥٣٣) عن طاووس به نحوه.

(١) أحكام القرآن (ج٣/٨).

(٢) المفردات، ص١٢٥ (باختصار).

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٨/٣٣٦، وانظر تيسير الكريم الرحمن (٥/٦٣٢).

٥- العليم:

ومن أسماء الله الحسنى التي وردت في السورة (العليم) وهو من أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة قال تعالى: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [يونس:٣٦] وقوله: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يونس: ٦٥].

والعليم والعالم صفتان مشتقتان من العلم، فالعالم اسم الفاعل من علم يعلم فهو عليم، والعليم من أبنية المبالغة في الوصف بالعلم وهو بمنزلة قدير من القادر" (١).

فالله جل وعلا هو العالم والعليم الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء علم الخلق قبل أن يخلقهم ويعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون.

وقد ذكر ذلك الرب جل وعلا في قوله تعالى – من سورة يونس عليه السلام – : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ [يونس: ٦١].

والعلم من الصفات الذاتية التي لا تنفك ولا تفارق الرب جل وعلا.

والعليم من صيغ المبالغة لإثبات كمال العلم.

قال تعالى: ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٥]

(١) اشتقاق أسماء الله، ص٥٠.

وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾ [النساء: ١٧٦].

٦- ذو الفضل:

ومن أسماء الله الحسنى المضافة إلى صفاته، وأفعاله سبحانه (ذو الفضل) قال تعالى: ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يونس: ٦٠].

وقوله: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨].

وقد جاء هذا الاسم في حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – في المستدرك وعند ابن مندة – رحمه الله – في سياق أسماء الله جل جلاله[1].

(١) رواه الحاكم في كتاب الإيمان (١/ ٦٣ -٦٤) وقال: "هذا حديث محفوظ من حديث أيوب وهشام عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة مختصراً دون ذكر الأسامي الزائدة فيها كلها في القرآن، وعبدالعزيز بن الحصين بن الترجمان ثقة وإن لم يخرجاه وإنما جعلته شاهداً للحديث الأول" ا.هـ المستدرك ١/ ٦٣ -٦٤.
ورواه الترمذي في الدعوات باب أسماء الله الحسنى رقم: ٣٥٠٢ (٩/ ١٧٣) من طريق أخرى عن أبي هريرة – رضي الله عنه – وقال: "هذا حديث غريب حدثنا به غير واحد عن صفوان ابن صالح وهو ثقة عند أهل الحديث، وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم لا نعلم في كبير شيء من الروايات له إسناد صحيح ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث .. ا.هـ.
ورواه ابن ماجة من طريق أخرى عن الأعرج به مع تقديم وزيادة ونقصان في كتاب الدعاء: باب: أسماء الله عز وجل، رقم: ٣٨٦١ (٢/ ١٢٦٩ -١٢٧٠).
والحديث ضعفه جماعة من العلماء منهم الذهبي في التخليص (١/ ٦٣) حاشية المستدرك. والمناوي في فيض القدير (١/ ٦٣) حاشية المستدرك وصححه بعضهم، وحسنه النووي وجمع طرقه أبو نعيم الأصبهاني في رسالة مطبوعة، وخرجه ابن حجر في رسالة بعنوان =

فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: "إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة: الله الرحمن، الرحيم، الإله، الرب، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الحليم، العالم، السميع، البصير، الحي، القيوم، الواسع، اللطيف، الخبير، الحنان، المنان، البديع، الودود، الغفور، الشكور، المجيد، المبدئ، المعيد، النور، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الغفار، الوهاب، القادر، الأحد، الصمد، الكافي، الباقي، الوكيل، المجيد، المغيث، الدائم، المتعال .." الحديث إلى قوله "ذو الطول، ذو المعارج، ذو الفضل الخلاق، الكفيل، الجليل، الكريم" (١).

وفي حديث الاستخارة "واستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم .." (٢) الحديث.

٧- السميع:

ومن أسماء الله عز وجل الثابتة في هذه السورة (السميع) وقد ورد في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يونس: ٦٥].

==

تخريج الأسماء الحسنى وانظر عارضة الأحوذي ١٣/٣٤ ومجموع الفتاوى (٣٧٩/٦) وفتح الباري ٢١٩/١١ وتفسير ابن كثير (٢٥٧/٣) وتحفة الذاكرين للشوكاني، ص٧٤.

(١) انظر التوحيد لابن منده (٢٠٣/٢).

(٢) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: "قل هو القادر" رقم: ٦٩٥٥ (٢٦٩٠/٦)، ورواه في كتاب التطوع، باب: ما جاء في التطوع مثنى رقم: ١١٠٩ (٣٩١/١) عن عبدالرحمن بن أبي الموالي به.

وفي الحديث عن أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه – قال: "كنا مع رسول الله ﷺ فكنا إذا أشرفنا على وادٍ، هللنا وكبّرنا ارتفعت أصواتنا فقال النبي ﷺ: "يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمًّا ولا غائباً، إنه معكم إنه معكم سميع قريب تبارك اسمه وتعالى جده" (١).

والرب جل شأنه سميع بسمع، يسمع الأصوات، مهما اختلفت اللغات، وتعددت اللهجات، لا كما يقول المبتدعة سميع بلا سمع تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، بل نثبتها على الوجه اللائق به سبحانه.

٨- الغني:

ومن أسماء الله الحسنى الواردة في السورة (الغني) وقد ورد في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٦٨﴾ [يونس: ٦٨].

ويقول تعالى في سورة فاطر: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝١٥﴾ [فاطر: ١٥]، وقوله في سورة التغابن: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٥

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد، باب: ما يكره من رفع الصوت بالتكبير، رقم: ٢٨٣٠ (١٠٩١/٣)، ورواه في كتاب التوحيد، باب: قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ رقم: ٦٩٥٢ (٢٦٩٠/٦) عن أبي عثمان به، بنحوه وزاد في آخره، "ثم أتى علي وأنا أقول في نفسي: لا حول ولا قوة إلا بالله، فقال لي: يا عبدالله بن قيس قل لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها كنز من كنوز الجنة".
ورواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب: استحباب خفض الصوت بالذكر رقم: ٢٧٠٤ (٢٠٦٧/٤) عن عاصم به بنحوه وفيه زيادة نحو زيادة البخاري السابقة.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴿٦﴾ ﴾ [التغابن: ٥ -٦] .

وعن عائشة – رضي الله عنها – في حديث الاستسقاء وفيه ثم قال: "الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين" لا إله إلا الله يفعل ما يريد، اللهم أنت الله لا إله إلا أنت الغنيُّ ونحن الفقراء، أنزل علينا الغيث، واجعل ما أنزلت لنا قوة وبلاغاً إلى حين"الحديث[(١)] .

"(و) الغني في كلام العرب: الذي ليس بمحتاج إلى غيره" [(٢)] .

والله جل شأنه – هو الغني بذاته، الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، فلا يحتاج إلى أحد، بل هو الذي أغنى خلقه، وأعطاهم، ورزقهم وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة.

وليس ثَمَّ مخلوق إلا وهو محتاج إلى غيره مهما اتسع ملكه وسلطانه، ومهما ملك من الأموال، فهو محتاج إلى من يساعده، ويعينه في أمور معاشه، أما الرب تعالى وتقدس فلا حاجة إليه إلى خلقه فغناه من لوازم ذاته سبحانه.

٩– الغفور:

ومن أسماء الله الحسنى الواردة في السورة (الغفور) وقد جاء في قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾

---

(١) رواه أبو داود في كتاب صلاة الاستسقاء باب رفع اليدين في الاستسقاء رقم ١١٧٣ (ج١/٣٧٥) والحديث قال عنه أبو داود: "هذا حديث غريب إسناده جيد"، وحسنه الألباني انظر صحيح أبي داود رقم: ١٠٤٠ (١/٢١٧).

(٢) اشتقاق أسماء الله، ص١١٧.

□[يونس: ١٠٧] .

واشتقاقه في اللغة من الستر والتغطية [(١)] .

ومعناه: أن الله جل وعلا هو غفار الذنوب الذي يستر على عباده ويتجاوز عن سيئاتهم، وآثامهم.

وفي حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه: أنه قال لرسول الله ﷺ : علمني دعاء أدعو في صلاتي، قال: "قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم" [(٢)] .

١٠- الرحيم:

ومن أسماء الله الحسنى الواردة في السورة (الرحيم) في قوله تعالى: **﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾**

[يونس: ١٠٧] ..

وفي فاتحة الكتاب يقول تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ ﴾ [الفاتحة: ٣] .

قال ابن جرير – رحمه الله – : "إن بالتسمية بالرحمن موصوف بعموم الرحمة جميع خلقه، وأنه بالتسمية بالرحيم موصوف بخصوص الرحمة بعض خلقه، إما في كل الأحوال وإما في بعض الأحوال .." [(٣)] . ا.هـ.

---

(١) انظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة، ص١٤.

(٢) رواه البخاري في كتاب صفة الصلاة باب الدعاء قبل السلام رقم: ٧٩٩ (ج١/٢٨٦ - ٢٨٧)، وفي كتاب التوحيد وكان الله سميعاً بصيراً رقم: ٦٩٥٣ (٦/٢٦٩٠) عن يزيد به.

(٣) جامع البيان (١/٥٦).

وقيل في الفرق بينه وبين الرحمن:

إن الرحمن لا يطلق إلا على الله تعالى اسماً وصفةً، وأما الرحيم فيطلق على الله تعالى وعلى غيره قال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وقيل الرحمن أشد مبالغة من الرحيم لدلالة الرحمن على عموم الرحمة، وخصوص الرحمن للمؤمنين، ولأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى (١).

وقال ابن القيم – رحمه الله – : "الرحمن من صفته الرحمة، والرحيم من يرحم بالفعل" (٢) ا.هـ.

المبحث الثاني: صفات الله تعالى الواردة في السورة

إن الرب جل وعلا كما قد تسمى بأسماء، فقد وصف نفسه جل شأنه بصفات، كما لا تليق إلا به، وباب الصفات أوسع من باب الأسماء، فقد يتصف الله عز وجل بصفة لا يتسمى بها، على سبيل المثال: الاستواء صفة له لكن لا نسميه مستوٍ، وكذلك الكلام من صفاته جل وعلا لكن لا نطلق عليه اسم (متكلم) فلا يقول الداعي مثلاً: يا متكلم اغفر لي، وقس على هذا.

أما الأسماء فهي تدل على معانيها من الصفات فكل اسم نثبت له ما يدل عليه من صفات الكمال بخلاف المخلوق الذي قد يسمى سعيداً

---

(١) انظر بدائع الفوائد (١/٢٤)، وانظر تفسير ابن كثير (١/٣٨)، وانظر لوامع الأنوار (١/٣١).

(٢) مختصر الصواعق (٢/١١٠).

وهو شقي، ويسمى أميناً وهو خائن .. لأن أسماء المخلوقين أعلام محضة.

وصفات الله تعالى تنقسم إلى قسمين:

أولاً: صفات ثبوتية كالسميع، والعليم، والقدير، والحي، .. وهي كلها صفات كمال، وتنقسم الثبوتية إلى ثلاثة أقسام:

١ - صفات ذاتية: وهي الصفات الملازمة لذاته سبحانه لم يزل ولا يزال متصفاً بها كالعلم، والحياة، والسمع، والبصر، والقدرة، والوجه واليدين.

٢ - صفات فعلية تتعلق بإرادته ومشيئته كالكلام والنزول، والمجيء، الخ.

٣ - صفات ذاتية فعلية: أي أن الله تعالى متصف بها أزلاً وأبداً، وأنها في الوقت نفسه تحدث آحادها بمشيئته وإرادته، كالكلام.

ثانياً: صفات سلبية: وهي ما نفاها الله عز وجل عن نفسه كقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩]. وهي قليلة، ولا تقتضي النفي المطلق بل النفي فيها، لإثبات ضده من الكمال لأن النفي المحض لا كمال فيه ولا مدح، ويوصف به الجماد كما يقال الجدار لا يظلم، لعجزه وعدم قدرته وهذا نقص ينزه الرب عنه فلا يظلم لكمال عدله، وكقوله تعالى: ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ﴾ [سبأ: ٣] لكمال علمه [(١)] .

---

(١) انظر التدمرية، ص٥٧ -٥٩، وانظر الحق الواضح المبين، ص٦ وما بعدها مكتبة المعارف، الرياض، وانظر القواعد المثلى، ص٢١ وما بعدها.

وقد ورد في سورة يونس عليه السلام من الصفات الثبوتية بنوعيها الذاتي والفعلي كما سيأتي، كما ورد فيها صفات سلبية كقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[يونس: ٦١].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا ﴾ [يونس: ٤٤] الآية . كما سيأتي تفصيله وجاء فيها صفة واحدة من صفات المشاكلة والمقابلة وبيانه في هذا البحث - إن شاء الله - .

أولاً الصفات الثبوتية:

أ- الصفات الذاتية:

١- العلم:

وقد جاءت هذه الصفة في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[يونس: ٣٦] .

وقوله: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ [يونس: ٦١] .

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يونس: ٦٥] .

وهي من الصفات الذاتية، التي لا تنفك عن الرب تعالى، فهو العليم بكل شيء الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وقد سبق الحديث عنها في مبحث الأسماء [١] .

(١) انظر ص ١٠٣ -١٠٤.

٢- صفة الشهادة:

وقد وردت في قوله تعالى: ﴿ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴾ [يونس: ٢٩].

وقوله: ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس: ٤٦].

وقوله: ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ الآية [يونس: ٦١].

قال ابن كثير – رحمه الله – عند تفسير هذه الآية: (أي إذ تأخذون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم راءون سامعون .." [١].

وبعض العلماء أرجع معنى الشهيد إلى معنى العليم، باعتبار أن الرب جل وعلا عالم الغيب والشهادة، والغيب عبارة عما بطن، والشهادة ما ظهر، فباعتبار العلم مطلقاً فهو العليم، وبالإضافة إلى الغيب فهو الخبير، وبالإضافة إلى الأمور الظاهرة فهو الشهيد، وهذا معنى جيد [٢].

وقد سبق الحديث عن هذه الصفة في مبحث الأسماء [٣].

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/٥١١).

(٢) انظر المقصد الأسنى ص١١٩، وانظر تحفة الأحوذي (٩/٤٨٦).

(٣) انظر ص ١٠٠ -١٠٢.

٣- صفة الملك:

وهي من أسماء الله وصفاته الثابتة، فمن أسمائه الحسنى الملك، والمالك وهذه الصفة وردت في قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس: ٣١].

فالرَب تعالى هو الملك الذي بيده الملك يؤتيه من يشاء، وهو مالك الملك الذي لا ينازعه فيه منازع، وهو سبحانه المتصرف في الأمور كلها بما يشاء من إحياء وإماتة، وإيجاد وإفناء [(١)].

وهذه الصفة من الصفات الذاتية، ومن الصفات الفعلية.

قال القرطبي – رحمه الله –: "إن وصف الله سبحانه بأنه ملك كان ذلك من صفات ذاته، وإن وصف بأنه مالك كان ذلك من صفات فعله" [(٢)] ا.هـ.

٤- صفة العزة:

وقد وردت في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يونس: ٦٥].

وفي الحديث عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: "بينما أيوب يغتسل عريان فخر عليه جراد من ذهب، فجعل أيوب يحتثى في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى وعزتك، ولكن لا غنى لي عن بركتك" [(٣)].

---

(١) انظر التوحيد لابن منده (٢/٥٤)، والاعتقاد للبيهقي ص٢٢، والجامع لأحكام القرآن (١/١٤٠)، وتحفة الأحوذي (٩/٤٨٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/١٤٣).

(٣) رواه البخاري في كتاب الغسل، باب ك من اغتسل عرياناً وحده، رقم: ٢٧٥ (١/١٠٧ -١٠٨) ورواه من طريق أخرى عن أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب =

وصفة العزة صفة ذاتية ملازمة للرب تعالى أزلاً وأبداً ولها معان ثلاثة:

الأول: "عزة القوة الدال عليها من أسمائه القوي المتين ..

وعزة الامتناع فإنه هو الغني بذاته فلا يحتاج إلى أحد، وعزة القهر والغلبة لكل الكائنات فهي مقهورة لله خاضعة لعظمته منقادة لإرادته"[١].

وهذه المعاني الثلاثة مجتمعة في وصف الرب تعالى بالعزة، وهي من صفات ذاته سبحانه.

٥- صفة السمع:

وجاءت في قوله تعالى: ﴿ **وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾** ﴾ [يونس:٦٥] ، وهي من صفات الذات الثابتة لله تعالى على وجه يليق به من غير تأويل أو تحريف أو تشبيه، وقد سبق الحديث عنها في مبحث الأسماء الحسنى[٢] .

٦- صفة الغنى:

وجاءت في قوله تعالى: ﴿ **قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا** ﴾ [يونس:٦٨] .

والله تعالى الغني بذاته، والكل محتاج إليه سبحانه، وقد تقدم الكلام عن هذه الصفة في مبحث الأسماء[٣] .

==
التوحيد باب: قول الله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ رقم: ٧٠٥٥ (٢٧٢٣/٦).

(١) الحق الواضح المبين، ضمن مجموعة رسائل الشيخ عبدالرحمن السعدي، ص٢٤.

(٢) انظر، ص١٠٦.

(٣) انظر ص١٠٦ -١٠٧.

٧- صفة الإرادة والمشيئة:

فقد وردت في آيات كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [يونس: ١٦].

وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [يونس: ٢٥].

وقوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ ﴾ [يونس: ٤٩].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ ﴾ [يونس: ٩٩].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [يونس: ١٠٧].

والإرادة نوعان:

١ - كونية، قدرية وهي مرادفة للمشيئة وهي مستلزمة لوقوع المراد، وشاملة لجميع الخلق فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وهي ليست مستلزمة للمحبة والإرادة، فقد يبغض الله تعالى شيئاً، ويشاء وقوعه كما خلق إبليس والشياطين والكفار مع بغضه لهم، وكذلك خلقه من الأفعال ما يبغضه ويسخطه كالكفر والشرك والنفاق.

وهي المرادة في قوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

٢ - شرعية دينية، وهي موافقة للأمر والنهي، ومتضمنة للمحبة والرضا، فما أراده الله شرعاً فقد أحبه ورضيه، وهي لا تستلزم وقوع المراد بل قد يحب الله أمراً ولا يشاؤه — سبحانه — فلا يقع لعدم المشيئة،

وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقوله: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النساء: ٢٦].

وأما المشيئة فهي متعلقة بخلقه وأمره الكوني، والشرعي، فلا يقع في الكون إلا ما يشاء الله تعالى، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن (١).

وهذا الإثبات ما عليه أهل السنة والجماعة، خلافاً للمبتدعة من المعتزلة وغيرهم ممن يخرج أفعال العباد أن تقع بمشيئة الله ويجعل ذلك بخلق العبد ومشيئته كما سيأتي تفصيل ذلك (٢).

ب- الصفات الفعلية:

١ – الخلق:

وقد جاء في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [يونس: ٣] الآية وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ [يونس: ٤] الآية.

وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [يونس: ٥ -٦].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [يونس: ٣٤].

---

(١) انظر منهاج السنة (١٦/٣ -١٧، ١٥٦ -١٥٨)، ومجموع الفتاوى (٤٤٠/٨ - ٤٤١، ١٨٨ -١٩٠، ١٩٧ -٢٠٠)، وشفاء العليل (٨٨ -٨٩)، وفتح الباري (٤٥٨/١٣ -٤٥٩) والتنبيهات السنية على العقيدة الواسطية ص٢٧٤، وشرح كتاب التوحيد لعبدالله الغنيمان (٢٤٩/٢ -٢٥٤).

(٢) انظر ص٤٣٧ وما بعدها.

وفي الحديث: "كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض" (١).

وهذه الصفة من صفات الله تعالى الفعلية، التي اتصف بها أزلاً وتحدث آحادها بمشيئته وإرادته سبحانه، فهو الخالق وما عداه مخلوق.

يقول الإمام الطحاوي – رحمه الله – : "ليس منذ خلق الخلق استفاد اسم الخالق ولا بإحداثه البرية استفاد اسم البارئ" (٢) ا.هـ.

وخلقه سبحانه للأشياء على ضربين:

الأول: ما خلقه بيده – سبحانه – كخلقه لآدم عليه السلام، قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [ص: ٧٥].

وفي حديث ابن عمر – رضي الله عنهما – قال: "خلق الله أربعة أشياء بيده: العرش، وجنات عدن، وآدم، والقلم، واحتجب من الخلق بأربعة: بنار وظلمة، ونور وظلمة" (٣).

الثاني: ما خلقه – تعالى – بمشيئته وكلامه، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس: ٨٢]. وهذا شامل لجميع الخلق.

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري في صحيحه عن عمران بن حصين، في كتاب بدء الخلق، باب: ما جاء في قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ رقم: ٣٠١٩ (١١٦٦/٣).

(٢) العقيدة الطحاوية، ص١٤، وانظر شرح العقيدة الطحاوية، ص٤٩، ومنهاج السنة ١٥٤/١ وما بعدها.

(٣) رواه الحاكم في كتاب التفسير (٣٤٩/٢ -٣٥٠) تفسير سورة الأعراف (٣٥٠/٢) وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ورواه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٤٢٩/٣) مختصراً والحديث صححه الذهبي في التلخيص (انظر حاشية المستدرك ٣٤٩/٢).

٢- الاستواء:

وهو من صفات الله الفعلية، التي أثبتها أهل السنة والجماعة، وقد دلَّ عليها الكتاب، والسنة، والإجماع.

ففي القرآن الكريم جاء في سبعة مواضع من كتاب الله عز وجل (١) ومن هذه المواضع ما جاء في سورة يونس عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [يونس: ٣].

وفي البخاري عن أبي هريرة — رضي الله عنه — قال: قال رسول الله ﷺ: "لما قضى الله الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إنَّ رحمتي غلبت غضبي" (٢).

وعن العباس بن عبدالمطلب قال: كنت في البطحاء في عصابة فيهم رسول الله ﷺ فمرت بهم سحابة فنظر إليها فقال: "ما تسمون هذه؟ قالوا: السحاب، قال: والمزن قالوا: والمزن، قال: والعنان قالوا: والعنان، قال: أبو داود لم أتقن العنان جيداً، قال: "هل تدرون ما بعد ما بين السماء والأرض؟ قالوا: لا ندري، قال: إنَّ بعدما بينهما إما واحدة أو اثنتان أو ثلاث وسبعون سنة، ثم السماء فوقها كذلك "حتى عدَّ سبع سماوات، ثم فوق السابعة بحر بين أسفله وأعلاه مثل ما بين

(١) وهي في سورة الأعراف الآية ٣، والرعد الآية: ٣، وطه الآية: ٥، والفرقان: الآية ٥٩، والسجدة الآية: ٤، والحديد آية: ٤.

(٢) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب: ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ وهو أهون عليه" رقم: ٣٠٢٢ (١١٦٧/٣) ورواه في كتاب التوحيد، باب: ويحذركم الله نفسه رقم ٦٩٦٩ (٢٦٨٤/٦) عن أبي هريرة بنحوه، ورواه مسلم في كتاب التوبة، باب: في سعة رحمة الله رقم: ٢٧٥١ (١٠٦/٤) به بلفظ (لما خلق).

سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أو عال [١] بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم على ظهورهم العرش من بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم الله تبارك وتعالى فوق ذلك" [٢] .

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة.

وأما الإجماع فقد نقله عدد من أئمة أهل السنة من أمثال مالك، والأوزاعي، والليث، والثوري، وغيرهم [٣] — رحمهم الله — .

روي البيهقي بسنده عن محمد بن كثير المصيصى [٤] قال: سمعت الأوزاعي يقول: "كنا والتابعون متوافرون نقول: إن الله تعالى ذكره

---

(١) أي ملائكة على صورة الأوعال والأوعال: تيوس الجبل واحدها: وَعِلٌ، انظر النهاية في غريب الحديث (٥/٢٠٧).

(٢) رواه أبو داود في كتاب السنة، باب: في الجهمية والمعتزلة، رقم: ٣٣١٧ (٩/٥٩ - ٦٠) عن سماك به بنحوه وقال: هذا حديث حسن غريب روى الوليد بن أبي ثور عن سماك نحوه ورفعه، وروي شريك عن سماك بعض هذا الحديث ووقفه ولم يرفعه" ا.هـ.
ورواه ابن ماجة في المقدمة باب: فيما أنكرت الجهمية رقم: ١٩٣ (١/٦٩)، ورواه الإمام أحمد في مسنده عن سماك بن حرب به (١/٢٠٦ -٢٠٧) ورواه الدارمي في الرد على المريسي ص٩٠ -٩١ بنحوه، ورواه ابن أبي عاصم في السنة عن سماك به بنحوه (١/٢٥٣) ورواه ابن خزيمة في التوحيد عن سماك به بنحوه (١/٢٣٤ - ٢٣٥).
وقال شيخ الإسلام ابن تيمية — رحمه الله — : "هذا الحديث مع أنه رواه أهل السنن كأبي داود، وابن ماجة، والترمذي، وغيرهم: فهو مروي من طريقين مشهورين، فالقدح في أحدهما لا يقدح في الآخر" ا.هـ مجموع الفتاوى ١٩٢/٣.
والحديث ضعفه الألباني، وذكر له متابعات انظر ظلال الجنة في تخريج السنة، ص٢٤٥.

(٣) انظر مجموع الفتاوى (٥/٣٩)، وانظر اجتماع الجيوش الإسلامية، ص١١١ وما بعدها.

(٤) محمد بن كثير بن أبي عطاء الثقفي نزيل المصيصة، صدوق كثير الغلط ومن صغار التاسعة، مات سنة مائة وبضع عشرة، التقريب رقم: ٦٢٥٠، وانظر تهذيب التهذيب (٩/٣٦٩ -٧٠).

فوق عرشه، ونؤمن بما وردت السنة به من صفاته جل وعلا" [١] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : "القرآن والسنن المستفيضة المتواترة، وغير المتواترة، وكلام السابقين، والتابعين، وسائر القرون الثلاثة: مملوء بما فيه إثبات العلو لله تعالى على عرشه بأنواع الدلالات، ووجوه من الصفات .." ا.هـ [٢] .

وأما معنى الاستواء في اللغة: فهو العلو والاستقرار [٣] والسلف فسروه بأربعة معان هي: الارتفاع، والعلو، والصعود، والاستقرار.

روى الذهبي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [فصلت: ١١] قال: "صعد" [٤] .

وذكر البخاري عن أبي العالية [٥] في معنى (استوى إلى السماء) : ارتفع، وعن مجاهد استوى علا على العرش [٦] .

---

(١) رواه البيهقي في الأسماء والصفات (٢/١٥٠) وذكر الذهبي في العلو (المختصر ١٣٨) وقال ابن تيمية – رحمه الله – "إسناد صحيح" مجموع الفتاوى (٥/٤٠)، ونقله ابن القيم في اجتماع الجيوش، ص١٢٦.

(٢) مجموع الفتاوى ٥/١٦٤، انظر مختصر العلو للذهبي، ص١٢٨ وما بعدها، واجتماع الجيوش الإسلامية، ص١١١، وما بعدها.

(٣) انظر الصحاح (٦/٢٣٨٥)، وانظر الاختلاف في اللفظ لابن قتيبة مطبوع ضمن عقائد السلف، ص٢٤١.

(٤) رواه الذهبي في العلو ص١١٩، وضعف هذه الرواية البيهقي في الأسماء والصفات (٢/١٥٤) وكذلك ضعفها القرطبي في تفسيره (١/٢٥٥).

(٥) رفيع بن مهران أبو العالية الرياحي، أدرك الجاهلية، وأسلم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بسنتين، مات سنة ٩٠هـ وقيل غير ذلك – قال العجلي: تابعي ثقة من كبار التابعين.
انظر تهذيب التهذيب (٣/٢٦٣ -٢٤٧)، والتقريب رقم: ١٩٥٣ ص١٢٠.

(٦) ذكره البخاري في كتاب التوحيد باب: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ معلقاً بصيغة الجزم (٦/٢٦٩٨) وانظر الفتح (١٣/٤١٥).

وقال ابن جرير – بعد أن أورد عدة معان للاستواء – "وأولى المعاني بقوله جل ثناؤه: قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٩] علا عليهن وارتفع فدبرهن بقدرته وخلقهن سبع سماوات" ا.هـ (١).

وأما كيفية الاستواء فمجهولة، ولا نعلمها، بل الرب تعالى مستو على عرشه حقيقة بلا تكييف، ولا تمثيل، ولا تشبيه، كما قال الإمام مالك – رحمه الله – عندما جاءه رجل فقال: يا أبا عبدالله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾ [طه: ٥] كيف استوى؟ قال الراوي: فما رأينا مالكاً وجد من شيء كوجده من مقالته، وعلاه الرحضاء، وأطرق، وجعلنا ننتظر ما يأمر به فيه، قال: ثم سري عن مالك، فقال: "الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وإني لأخاف أن تكون ضالاً" ثم أمر به فأخرج (٢).

وكذلك روي نحو هذا عن أم سلمة – رضي الله عنها – وعن ربيعة بن أبي الرحمن (٣).

وأما العرش فهو في اللغة "سرير الملك، وعرض البيت سقفه" (٤).

وعرش الرحمن – جل وعلا – عرش عظيم، لا يعلم قدره إلا

---

(١) انظر جامع البيان (١/١٩١ –١٩٢)، والحجة في بيان المحجة (٢/٢٥٨).

(٢) رواه الدارمي في الرد على الجهمية، ص٢٨٠، وفي سنده شخص مجهول، ورواه البيهقي في الاعتقاد من طريق أخرى، ص٥١، ونقله الذهبي في العلو عن البيهقي، ص١٠٣، وقال: "إسناده صحيح"، وقال ابن حجر في الفتح (١٣/٤١٧) "سنده جيد".
وقال ابن تيمية: "إسناده كلهم ثقات" ا.هـ مجموع الفتاوى (٥/٤٠ –٤١).

(٣) انظر العلو ص١٠٣ وقال الذهبي عقب رواية الأثر المتقدم "وتقدم نحوه عن ربيعة شيخ مالك وهو قول أهل السنة قاطبة" ا.هـ، وانظر اجتماع الجيوش الإسلامية، ص١٢٢.

(٤) الصحاح (٣/١٠٠٩).

الله، وهو سقف المخلوقات وله قوائم، وتحمله الملائكة [(١)] قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [غافر: ٧].

وقد كثر النزاع في هذه الصفة بين أهل السنة والجماعة والفرق المبتدعة، وسيأتي – إن شاء الله – ذكر المذاهب والرد على المخالفين في المبحث القادم [(٢)] .

٣– التدبير:

وقد وردت في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ ﴾ [يونس: ٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس: ٣١].

ومعناه قضاؤه تعالى للأمر وحده من دون أن يشاركه أحد في التدبير [(٣)] .

قال ابن كثير – رحمه الله – : "أي من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون" [(٤)] ا.هـ.

وقد سبق بسط الحديث في تدبير الأمر [(١)] .

---

(١) انظر رسالة عرش الرحمن (ضمن مجموعة الرسائل والمسائل) (١١٧/٤ وما بعدها) وشرح العقيدة الطحاوية ص٢٨٧.

(٢) انظر ص ١٣٦ وما بعدها.

(٣) انظر جامع البيان (٨٤/١١)، وتفسير البغوي (٣٤٣/٢)، والجامع لأحكام القرآن (٣٠٨/٨).

(٤) تفسير ابن كثير (٥٠١/٣).

==

(١) انظر ص١٥ -١٦.

٤- البدء والإعادة:

وقد وردت صفتا البدء والإعادة في قوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس: ٤].

والرب تعالى هو الذي يبدأ الخلق على غير مثال سابق ثم يعيده ليجزي العباد بأعمالهم (١) .

وقد سبق الحديث فيها (٢) .

٥- الهداية:

ومن صفات الله تعالى الثابتة له الهداية، فهو يهدي من يشاء بفضله ويضل من يشاء بعدله، وقد وردت في عدة آيات من سورة يونس منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [يونس: ٩].

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [يونس: ٢٥].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [يونس: ٣٥].

وفي الحديث عن جابر قال: كان رسول الله ﷺ يخطب الناس،

---

(١) انظر الحجة في بيان المحجة (١/١٥٦ -١٥٧)، والأسماء والصفات للبيهقي(١/١٣٣)، والاعتقاد ص٢١، وتيسير الكريم الرحمن (٥/٦٢٨).

(٢) انظر ص٣٠ -٣٢.

يحمد الله ويثني عليه بما هو أهله: ثم يقول "من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وخير الحديث كتاب الله .." (١) الحديث.

وهداية الرب تعالى لخلقه تأتي على أربع مراتب هي:

الأولى: مرتبة الهداية العامة لجميع المخلوقات لمصالحهم في أمور معاشهم.

الثانية: هداية البيان والإرشاد، وهي عامة لجميع المكلفين، وهي حجة الله تعالى على خلقه، وهي التي أثبتها الرب تعالى لنبيه ﷺ في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴾ [الشورى: ٥٢] الآية.

الثالثة: هداية الإلهام والتوفيق، وهي خلق الفعل المستلزم للهداية، وهذا لا يقدر عليها إلا لله تعالى فهو يهدي من يشاء فضلاً منه تعالى.

الرابعة: هداية المؤمنين لدخول الجنة، وهداية الكافرين لدخول النار (٢).

وسيأتي – إن شاء الله – بسط القول في موضوع الهداية (٣).

٦- الرؤية:

رؤية الرب جل وعلا هي الغاية التي شمر لها المشمرون، وتنافس فيها المتنافسون، وأكرم الله بها أولياءه وأهل محبته، وحجب عنها أهل سخطه ومقته، وهي أعظم نعيم أهل الجنة، آمن بها أهل السنة والجماعة، وكفر بها أهل الزيغ والضلالة فنسأل الله عز وجل أن يكرم أهل السنة والجماعة برؤيته، ويقرَّ بذلك أعينهم في دار كرامته، آمين.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجمعة، باب: تخفيف الصلاة والخطبة، رقم: ٤٥ (٢/٥٩٣).
(٢) انظر شفاء العليل ص١١٧ وما بعدها.
(٣) انظر ص ٤٤٧ وما بعدها.

وفي سورة يونس عليه السلام لم يرد التصريح بذلك وإنما ورد قوله: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [يونس: ٢٦].

وقد ذكر ابن الجوزي — رحمه الله — في تفسير الزيادة ستة أقوال:

"أحدها: إنها النظر إلى الله عز وجل .. [وذكر من قال بهذا القول من الصحابة وغيرهم وسيأتي].

الثاني: أن الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب، رواه الحاكم عن علي، ولا يصح.

الثالث: أن الزيادة مضاعفة الحسنة إلى عشرة أمثالها، قاله ابن عباس، والحسن.

الرابع: أن الزيادة مغفرة ورضوان، قاله مجاهد.

الخامس: أن الزيادة ما أعطاهم في الدنيا لا يحاسبهم به في القيامة.

السادس: أن الزيادة: ما يشتهونه .." [(١)].

فأما القول الأول وهو تفسير الزيادة بالنظر إلى الله تعالى، فقد ثبت، وصح مرفوعاً، وموقوفاً على عدد من الصحابة والتابعين.

فأما المرفوع فمنه ما رواه مسلم في صحيحه عن صهيب، عن النبي ﷺ قال: "إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً [(٢)].

أزيدكم؟ فيقولون ألم تبيِّض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحبّ إليهم من النظر إلى

---

(١) زاد المسير (٤/ ٢٤ -٢٥) (باختصار).

(٢) زاد المسير ٤/ ٤ -٢٥.

ربهم عز وجل [(١)] . وفي رواية أخرى [(٢)] ثم تلا الآية: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦] . .

وروي مختصراً عن صهيب عن النبي ﷺ في قوله (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وقال: الحسنى الجنة والزيادة نظرهم إلى وجهه "ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة" بعد نظرهم إليه [(٣)] .

وروى الدارقطني عن أبي موسى الأشعري عن رسول الله ﷺ قال: "يبعث الله عز وجلّ يوم القيامة منادياً بصوت يسمع أولهم وآخرهم: إن الله عز وجل وعدكم الحسنى وزيادة، فالحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله عز وجل [(٤)] .

---

(١) رواه مسلم كتاب الإيمان: باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى ح رقم ٢٩٧ (١/١٦٣).

(٢) رواه مسلم كتاب الإيمان: باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة لربهم سبحانه رقم ٢٩٨ (١/١٦٣)، ورواه ابن ماجة في المقدمة: باب فيما أنكرت الجهمية رقم ١٨٧(١/٦٧). ورواه الترمذي في صفة الجنة: باب ما جاء في رؤية الرب تبارك وتعالى رقم ٢٥٥٥٠ (٧/٢٣٠) وفي التفسير رقم: ٣١٠٤ (٨/٢٦٧)، ورواه ابن أبي عاصم في السنة ص٢٠٥ -٢٠٦، ورواه الإمام أحمد (٤/٣٣٢ -٣٣٣)، ورواه ابن خزيمة في التوحيد (١/٤٤٣ -٤٤٤) والآجري في الشريعة ص٢٦١، والبيهقي في الاعتقاد ص٥٧ -٥٨. من طرق كثيرة كلهم عن حماد بن سلمة به.

(٣) رواه عبدالله بن الإمام أحمد في السنة ص٥٢ ورواه بطرق أخرى عن حماد بن سلمة به بنحوه وبمعناه ص٥٢، ٥٦ ورواه الدارقطني في الرؤية ص٢٥٤ عن حماد بن سلمة به مختصراً. ورواه ابن مندة في الرد على الجهمية من طريق أخرى عن حماد بن سلمة به مختصراً، ص٩٥. ورواه الهروي في الأربعين في دلائل التوحيد من طريق أخرى عن حماد بن أبي سلمة به، ص٨٥.

(٤) رواه الدارقطني في الرؤية ص١٥٦، ورواه من طرق أخرى عديدة عن أبي بكر الهذلي به وبنحوه ومختصراً ص١٥٧، ١٥٨.

وروي أيضاً عن أنس بن مالك قال: سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ قال: "الذين أحسنوا العمل في الدنيا والحسنى: هي الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم [١].

وروي البيهقي عن حماد بن سلمة قوله: وروينا عن أبي بن كعب وكعب بن عجرة عن النبي ﷺ في قوله: "للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قال: "النظر إلى وجه الرحمن" [٢].

وأما ما جاء موقوفاً على عدد من الصحابة فمنهم أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – روى ابن أبي عاصم عن عامر بن سعد عن أبي بكر الصديق في قوله تعالى: "للذين أحسنوا الحسنى وزيادة" قال: النظر إلى وجه الله تعالى [٣].

---

(١) رواه الدارقطني في الرؤية ص١٧١، وأخرجه ابن مندة في الرد على الجهمية ص٨٥، ٩٥ واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد رقم: ٧٧٩٠ (٤٥٦/٣)، والخطيب في تاريخه (١٤٠/٩٠) وفيه ضعف لضعف مسلم بن سالم البلخي انظر الميزان (١٨٥/٢). ونوح بن أبي مريم قال البخاري فيه: منكر الحديث انظر الميزان (٢٧٩/٤) وقال الخطيب: هكذا رواه مسلم عن نوح بن أبي مريم عن ثابت البناني عن أنس وهو خطأ، والصواب عن ثابت عن عبدالرحمن بن أبي ليلى عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم كذلك رواه حماد بن سلمة وكان أثبت الناس في ثابت ا.هـ تاريخ بغداد (١٤٠/٩).

(٢) رواه البيهقي في الاعتقاد ص٥٨، ورواه ابن جرير في تفسيره بنحوه ٧٥/١١ من طرق ورواه الدارقطني في الرؤية، ص٢٨١، وفي السند ضعف، والحديث له شواهد ترقيه إلى الصحة كما في حديث صهيب عند مسلم.

(٣) رواه ابن أبي عاصم في السنة، ص٢٠٦ رقم ٤٧٣، ورواه عبدالله بن الإمام أحمد في السنة ص٥٩، والآجري في التصديق بالنظر، ص٣٧، والدارقطني في الرؤية ص٢٨٩ من طرق، ص٢٩٠ -٢٩٣، وابن منده في الرد على الجهمية، ص٩٥، والبيهقي في الاعتقاد، ص٥٨.
كلهم عن أبي إسحاق به، وقال الألباني – رحمه الله – في ظلال الجنة: حديث موقوف صحيح، ورجاله ثقات رجال الشيخين من الطريق الثانية، وكذا الأولى إلا ==

وروي أيضاً عن حذيفة، روى الدارقطني عن مسلم بن نذير السعدي عن حذيفة في قوله عز وجل: "للذين أحسنوا الحسنى وزيادة" قال: النظر إلى وجه الله عز وجل (١).

وروي أيضاً عن أبي موسى الأشعري في قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ ..﴾. الآية، قال الجنة، والزيادة هي النظر إلى الله عز وجل(٢).

وقد روي في هذا التفسير عن عدد من التابعين منهم سعيد بن المسيب، وعبدالرحمن بن أبي ليلى وعبدالرحمن بن سابط وقتادة

==
مسلم بن نذير وهو لا بأس به كما قال أبو حاتم لكن أبو إسحاق السبيعي مدلس وقد عنعنه، لكن يشهد له الحديث المرفوع قبله، ا.هـ ٢٠٦.

(١) رواه الدارقطني في الرؤية من طرق عن أبي إسحاق ص٢٩٤ -٢٩٥، ورواه ابن جرير في تفسيره (٧٤/١١).

(٢) رواه ابن خزيمة في التوحيد (٤٥٦/٢)، وابن جرير في تفسيره (١٠٥/١١)، والدارقطني في الرؤية، ص٤٩، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٤٥٩/٢) وفي سنده أبو بكر الهذلي. قال عنه الذهبي: واهٍ (الميزان ١٩٤/٢). وهو صحيح بشواهده، قال النووي — رحمه الله — بعد حديث صهيب السابق في مسلم: هذا الحديث هكذا رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة وغيرهم من رواية حماد بن سلمة عن ثابت عن ابن أبي ليلى عن صهيب عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال أبو عيسى الترمذي وأبو مسعود الدمشقي وغيرهما: لم يروه هكذا مرفوعاً عن ثابت غير حماد بن سلمة ورواه سليمان بن المغيرة وحماد بن زيد وحماد بن واقد عن ثابت عن ابن أبي ليلى من قوله ليس فيه ذكر النبي - صلى الله عليه وسلم - ولا ذكر صهيب، وهذا الذي قاله هؤلاء ليس بقادح في صحة الحديث فقد قدمنا في الفصول أن المذهب الصحيح المختار الذي ذهب إليه الفقهاء وأصحاب الأصول والمحققون من المحدثين وصححه الخطيب البغدادي أن الحديث إذا رواه بعض الثقات متصلاً وبعضهم مرسلاً أو بعضهم مرفوعاً وبعضهم موقوفاً حكم بالمتصل وبالمرفوع لأنهما زيادة ثقة وهي مقبولة عند الجماهير من كل الطوائف، والله أعلم. انتهى، شرح مسلم (ج١٧/٣).

والحسن البصري، وعكرمة مولى ابن عباس والسدي والضحاك ومجاهد وغيرهم [١].

ومن هنا فالقول بأن تفسير هذه الآية: الزيادة: هي النظر إلى وجه الله تعالى ثابت عن الرسول ﷺ والصحابة، ومن جاء بعدهم من التابعين.

ومن العجب ما يتشدق به الزمخشري بقوله: زعمت المشبهة والمجبرة أن الزيادة النظر إلى وجه الله تعالى وجاءت بحديث مرفوع "إذا أدخل أهل الجنة الجنة نودوا أن يا أهل الجنة، فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً هو أحب إليهم منه" .. ا.هـ [٢].

فعجباً له والطائفة التي ينتسب إليها كيف يردون الحديث الثابت عن النبي ﷺ من هذه الطرق والروايات التي لا يكذب بها! إلا معاند فنعوذ بالله من البدعة.

وأما ما قيل من أقوال في تفسير الزيادة بغير النظر فجميع هذه الأقوال تدخل تحت نعيم أهل الجنة، ومعلوم أن الله عز وجل يعطي أهل الجنة ما يشتهونه مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فالمغفرة، والرضوان، ومضاعفة الحسنات، والغرف وكل ما يشتهونه حاصل لهم لا محالة فلا وجه لأن يذكر نعيم أهل الجنة ثم يخصص شيء مما سبق، أما الرؤية فهي شيء زائد على هذا النعيم، وهي أعظم ما يتطلعون إليه.

---

(١) انظر ما روي عنهم في كتاب الرؤية للدارقطني ص٢٩٨، ٣٠٠، ٣٠٢، وما بعدها، وانظر الاعتقاد ص٥٩، والتوحيد لابن خزيمة ٤٤٧/٢ -٤٤٩.

(٢) الكشاف (٣٤٢/٢).

ثم إن التفسير ثبت عن الرسول ﷺ الذي أنزل عليه القرآن، وعن الصحابة الذين عايشوا التنزيل، والتابعين من بعدهم، وتفسير الصحابي حجة، وما ورد عن ابن عباس فقد ورد عنه تفسير الزيادة بالنظر كما ذكر ذلك ابن الجوزي عند ذكره الأقوال، وما ورد عن علي فقد قال ابن الجوزي إنه لا يصح، وكذلك ما ورد عن الحسن فقد قال ابن خزيمة – رحمه الله – بعد روايته لحديث مرسل عن الحسن في إثبات الرؤية – إنما أمليت هذا الخبر مرسلاً لأن بعض الجهمية ادعى بأن الحسنى كان يقول: إن الزيادة: الحسنة عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف، تمويهاً على بعض الرعاع والسفل .. ا.هـ (١) .

وروى البيهقي عن الحسن "الذين أحسنوا الحسنى" وقال الجنة، وزيادة قال النظر إلى وجه الرب عز وجل (٢) .

قال الخازن – رحمه الله – "وأجيب عن قولهم ولأن جماعة من المفسرين حملوا الزيادة على غير الرؤية بأنه معارض بقول جماعة من المفسرين بأن الزيادة هي الرؤية والمثبت مقدم على النافي" ا.هـ (٣) .

وقال ابن القيم – رحمه الله – "... ولما عطف سبحانه الزيادة على الحسنى التي هي الجنة دلَّ على أنها أمر آخر وراء الجنة وقدر زائد عليها" ا.هـ (٤) .

والواقع أن كل ما قيل في تفسير الزيادة بغير الرؤية لم يصح منه شيء وليست له أسانيد صحيحة بنقل الثقة عن الثقة إلى سيدنا محمد ﷺ .

---

(١) التوحيد (٢/٤٥٤).
(٢) الاعتقاد، ص٥٩.
(٣) حادي الأرواح، ص٢٧٢.
(٤) حادي الأرواح، ص٢٧٢.

والرؤية من أمور العقيدة التي اتفق عليها أهل السنة والجماعة، ودلّ عليها الكتاب والسنة، مع اتفاقهم على أنه لا يراه أحدٌ في الدنيا، ولم يختلفوا إلا في نبينا محمد ﷺ ، فقيل: إنه رآه بعينه وقال به ابن عباس وأبو ذر وكعب الأحبار .. وقيل إنه لم يره ونقل عن عائشة رضي الله عنها وابن مسعود.

وقيل: رآه بفؤاد ونقل عن ابن عباس: ومن العلماء من توقف في هذه المسألة.

ورجع شيخ الإسلام نفي الرؤية العينية، وقال: "وليس في الأدلة ما يقتضي أنه رآه بعينه ولا ثبت ذلك عن أحد من الصحابة، ولا في الكتاب والسنة ما يدل على ذلك، بل النصوص الصحيحة على نفيه أدل: كما في صحيح مسلم [(١)] ا.هـ.

ثم ذكر ما يدل على رؤية النبي ﷺ للآيات العظيمة، وقال: "ولم يخبرهم بأنه رأى ربه بعينه وليس في شيء من أحاديث المعراج الثابتة ذكر ذلك ولو كان قد وقع ذلك لذكره كما ذكر ما دونه" ا.هـ [(٢)] .

وقول شيخ الإسلام هذا دليل قوي على نفي رؤيته ﷺ والذي يظهر لي – والله أعلم – أنه لا منافاة بين الأقوال فمن نفى الرؤية فقد نفى رؤية العين، ومن أثبتها فالمراد إثبات رؤية القلب وعليها يحمل قول ابن عباس وغيره من السلف، وقد روى مسلم عن ابن عباس قوله: "رأى ربه بفؤاده مرتين" [(٣)] فيحمل المطلق على المقيد.

---

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان حديث رقم ٢٨٥ (١٥٨/١) باب معنى قول الله عز وجل: ولقد رآه نزلة أخرى.

(٢) مجموع الفتاوى ٥١٠/٦.

(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان رقم: ٢٨٥ (١٥٨/١) باب معنى قول الله عز وجل "ولقد رآه نزلة أخرى".

وهذا الرأي لشيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – حيث يقول: "قد تدبرنا عامة ما صنفه المسلمون في هذه المسألة وما تلقوه فيها قريباً من مئة مصنف، فلم أجد أحداً يروي بإسناد ثابت ولا صحيح ولا عن صاحب ولا عن إمام أنه رآه بعين رأسه، قال: فالواجب اتباع ما كان عليه السلف والأئمة وهو إثبات مطلق الرؤية أو رؤية مقيدة بالفؤاد"[(١)]ا.هـ.

ومن الأدلة على ثبوت رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة زيادة على ما سبق قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [القيامة: ٢٢ -٢٣].

وجه الدلالة: إضافة النظر إلى الوجه الذي هو محل النظر، وتعديته بإلى التي هي صريحة في النظر بالإضافة إلى عدم وجود قرائن صارفة للمعنى الظاهر[(٢)].

وقد روى الدارقطني عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: "إنَّ أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه ألفي سنة، وإن أفضلهم منزلة لمن ينظر في وجه الله عز وجل في كل يوم مرتين، ثم تلا: "وجوه يومئذ ناضرة" قال: البياض والصفاء: "إلى ربها ناظرة" قال: ينظر كل يوم إلى وجه الله عز وجل"[(٣)].

---

(١) مجموع الفتاوى ٣٨٦/٣ -٣٨٧، وانظر في هذه المسألة التوحيد لابن خزيمة ٤٧٧/٢ والشفا للقاضي عياض ٢٥٧/١ وما بعدها، وانظر زاد المعاد (٣٦/٣ -٣٧)، وانظر لوامع الأنوار (٢٥٠/٢ -٢٥٦).

(٢) انظر التصديق بالنظر للآجري ص٩، وانظر حادي الأرواح ص٢٧٦.

(٣) رواه الدارقطني في الرؤية، ص(٢٧٣ -٢٧٤)، ورواه الترمذي في صفة الجنة، باب: ما جاء في رؤية الرب تبارك وتعالى – رقم: ٢٥٥٦ (٢٣١/٧) بمعناه، وقال الترمذي: "وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن إسرائيل عن ثوير عن ابن عمر مرفوعاً ..ا.هـ.

وهذا التفسير ثبت عن عدد من الصحابة والتابعين من أمثال ابن عباس، وعكرمة والحسن .. وغيرهم [١].

ومن الأدلة قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥].

روي عن الشافعي – رحمه الله – قوله في قول الله عز وجل: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ قال: "فلما حجبهم في السخط كان هذا دليلاً على أنهم يرونه في الرضا" [٢].

والأدلة من القرآن كثيرة، يطول بسطها [٣].

وأما السنة فقد تواترت عن النبي ﷺ وقد نص على التواتر عدد من الأمة منهم ابن قتيبة [٤]، والآجري [٥]، والبيهقي [٦]، والنووي [٧]، وابن تيمية [٨]، وابن القيم [٩]، وابن كثير [١٠]، وابن احجر [١١]، وغيرهم [١٢].

---

(١) انظر السنة لعبدالله بن أحمد ص٦١ -٦٢، وانظر الشريعة للآجري، ص٢٥٦، وانظر التصديق بالنظر ص٣٥، وانظر تفسير ابن كثير (١٧٢/٧)، وانظر الدر المنثور (٢٩٠/٦).

(٢) رواه البيهقي في الاعتقاد ص٦٣، وفي سنده ابن هرم القرشي لم أعثر على ترجمته، ورواه اللالكائي من طريق أخرى بمعناه في شرح أصول الاعتقاد (٤٩٦/٣)، (٥٠٦/٣).

(٣) انظر حادي الأرواح.

(٤) انظر: الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية ص٢٣٨، (ضمن عقائد السلف).

(٥) انظر التصديق ص١٠، وانظر الشريعة، ص٢٧٦.

(٦) انظر الاعتقاد، ص٦٦.

(٧) انظر شرح مسلم (١٥/٣).

(٨) انظر مجموع الفتاوى (٤٢١/٦).

(٩) انظر حادي الأرواح، ص٢٧٧، ٣١٩.

(١٠) انظر تفسير ابن كثير ١٧١/٧.

(١١) انظر الفتح (٤٤٣/٣).

(١٢) انظر شرح الطحاوية، ص١٧٠، ونظم المتناثر من الحديث المتواتر رقم ٣٠٧، ص٢٥٠ -٢٥١، والفقه الأكبر مع شرحه ص٧٦، ولوامع الأنوار (٢٤٣/٢)، ومعارج القبول (٣٣٣/١)، ومشكاة المصابيح (الهامش) (١٥٧٧/٣).

ومن هذه الأحاديث ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – أن أُناسا في زمن النبي ﷺ قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال النبي ﷺ : "نعم هل تضاروُّن في رؤية الشمس بالظهيرة، ضوء ليس فيها سحاب"، قالوا: لا، قال: "وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر، ضوء ليس فيها سحاب" قالوا: لا، قال النبي ﷺ : "ما تضارون في رؤية الله عز وجل يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما .." [١] الحديث.

والأدلة كثيرة [٢] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : "والذي عليه جمهور السلف أن من جحد رؤية الله في الدار الآخرة فهو كافر، فإن كان ممن لم يبلغه العلم ذلك عرف ذلك كما يعرف من لم تبلغه شرائع الإسلام، فإن أصر على الجحود بعد بلوغ العلم له فهو كافر" ا.هـ [٣] .

وقد خالف في الرؤية المعتزلة، والجهمية، وغيرهم، وسيأتي – إن شاء الله – بيان أدلتهم والرد عليها في المبحث القادم [٤] .

وقد اختلف العلماء في كون الرؤية شاملة لجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم على ثلاثة أقوال:

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب: (إن الله لا يظلم مثقال ذرة) رقم: ٤٣٠٥ (١٦٧١/٤ -١٦٧٢)، ورواه في كتاب التوحيد، باب: قول الله تعالى: (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) رقم: ٧٠٠١ (٢٠٧٦/٦ -٢٠٧٧) بأطول منه، ورواه مسلم في كتاب الإيمان، باب: معرفة طريق الرؤية عن أبي هريرة – رضي الله عنه – بأطول منه.

(٢) انظر الرؤية للدارقطني، ص٩١ وما بعدها، وحادي الأرواح، ص٢٧٧ وما بعدها.

(٣) مجموع الفتاوى (٤٨٦/٦).

(٤) انظر ص١٥٢ وما بعدها.

الأول: إن الرؤية خاصة بالمؤمنين لا يشاركهم فيها غيرهم.

الثانية: إنه يراه أهل الموقف كلهم مؤمنهم وكافرهم ثم يحتجب عن الكفار، وإن الكفار يرونه رؤية تعريف وتعذيب لا رؤية سرور وفرح ثم يحتجب عنهم.

الثالث: أنه يراه المنافقون دون الكفار [١].

وبالقول الأول أخذ شيخ الإسلام ابن تيمية وأطال في الاستدلال عليه.

وبالثالث: قال ابن خزيـمة واستدل له.

٧- الرزق:

وقد وردت هذه الصفة في قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ [يونس: ٣١] الآية.

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [يونس:٥٩].

ورزق الله تعالى لعباده يشمل الحلال، والحرام، فهو سبحانه الرزاق لجميع خلقه برهم، وفاجرهم، كذا الدواب والبهائم قال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾ [هود: ٦].

وقد سبق الحديث عن الرزق [٢] وسيأتي - إن شاء الله - مفصلاً [١].

---

(١) انظر التوحيد لابن خزيمة ٢/ ٤٢٠، ومجمع الفتاوى ٦/ ٤٨٦، وحادي الأرواح ص٢٦٩، وشرح الطحاوية ١٧٤.

(٢) انظر ص٢٦.

٨- الإحياء والإماتة:

وقد جاءت في قوله تعالى: ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يونس: ٥٦] .

وفي الحديث عن جابر بن عبدالله – رضي الله عنهم – في قصة حج النبي ﷺ قال فيه: ".. فرقى على الصفا حتى بدا له البيت، وكبر ثلاثاً، وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده .." [٢] الحديث.

وصفتا الإحياء والإماتة من الصفات الثابتة للرب تعالى فهو: "الذي يحيي النطفة الميتة فيخرج منها النسمة الحية، ويحيي الأجسام البالية بإعادة الأرواح إليها عند البعث، ويحيي القلوب بنور المعرفة، ويحيي الأرض بعد موتها بإنزال الغيث، وإنبات الرزق.

المميت .. الذي يميت الأحياء، ويوهي بالموت قوة الأقوياء" [٣] .

٩- الرحمة:

الرحمة من صفات الله تعالى، الثابتة له، وقد سبق ذكر اسمه تعالى الرحيم [١] كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس: ١٠٧].

==

(١) انظر ص٤٣٦ وما بعدها.

(٢) رواه أبو داود في كتاب المناسك: باب صفة حج النبي - صلى الله عليه وسلم - رقم: ١٩٠٥ (١/٥٨٥ -٥٨٩)، وهو في مسلم في كتاب الحج، باب: حجة النبي صلى الله عليه وسلم رقم: ١٢١٨ (٨٨٦ -٨٩٢) بنحوه وليس عند مسلم لفظ (يحيي ويميت).

(٣) الاعتقاد ص٢١، وانظر الأسماء والصفات (١/١٣٤)، والمفردات ٤٧٦ -٤٧٧.

وهذه الصفة نثبتها لله تعالى على وجه يليق به، ليست كرحمة المخلوق التي هي رقة تعتري القلب، ولا نؤولها بأنها إرادة الثواب، بل نثبتها على الحقيقة ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨ ﴾ [يونس: ٥٨]. .

"فعطف الرحمة على الفضل يدل على المغايرة، وفضل الله تعالى الذي هو الثواب والجزاء مخلوق، ليس من صفات الله تعالى القائمة به"(٢). وفرّق تعالى بين رحمته ورضوانه وبين ثوابه كما في قوله تعالى: ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ۝٢١ ﴾ [التوبة: ٢١] فدل ذلك على المغايرة فالرحمة صفته، والجنة والنعيم من ثوابه وهي مخلوقة(٣) والرحمة إما أن تكون مضافة على الرب تعالى وهي بهذا صفة من صفاته تعالى الذاتية كما في قوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٥٦] .

وقوله ﷺ في الحديث الصحيح: "لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إنَّ رحمتي غلبت غضبي" (٤) .

وهذه الرحمة اتصف بها الرب تعالى، وتسمى بها قبل خلق البشر، وهذا فيه ردٌ على من ادعى أنها مجاز.

وإما أن تكون مخلوقة، وهي من آثار رحمة الله تعالى الذاتية كما في قوله تعالى في سورة يونس: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ

==

(١) انظر ص١٠٨ -١٠٩.
(٢) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للشيخ عبدالله محمد الغنيمان (٧٩/١).
(٣) انظر مختصر الصواعق (١٣١/٢).
(٤) سبق تخريجه ص١١٩.

مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ﴾ [يونس: ٢١] الآية، وهي هنا تكون مفعولاً لله تعالى [(١)].

١٠- الصفات المقابلة:

وهذه الصفات لا يوصف الله بها تعالى ابتداءً، ولا يشتق له منها اسم كالمكر، والسخرية، والمخادعة ...

وقد ورد المكر في سورة يونس عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [يونس: ٢١].

قال ابن القيم – رحمه الله – : "وأما المكر الذي وصف به نفسه، فهو مجازاته للماكرين بأوليائه ورسله، فيقابل مكرهم السيئ بمكره الحسن، فيكون المكر منهم أقبح شيء، ومنه أحسن شيء لأنه عدل، وكذلك المخادعة والمكر" ا.هـ [(٢)].

وقال – رحمه الله – : "والكيد والخداع لا يذم من جهة العلم ولا من جهة القدرة، وإنما يذم من جهة سوء القصد وفساد الإرادة ..، إذا عرف ذلك فنقول: إن الله تعالى لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع والاستهزاء مطلقاً ولا ذلك داخل في أسمائه الحسنى .. والمقصود أن الله سبحانه لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع إلا على وجه الجزاء لمن فعل ذلك بغير حق .." ا.هـ [(٣)].

---

(١) انظر مختصر الصواعق (١١٥/٢)، وشرح كتاب التوحيد لعبدالله الغنيمان (١٨٥/٢ - ١٨٦).

(٢) الفوائد: ص٢٩٠، وانظر الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية للشيخ عبدالعزيز السلمان، ص وكتاب صفات الله لصالح المسند، ص١٢١ -١٢٢.

(٣) مختصر الصواعق المرسلة (٣٣/٢ -٣٤).

ثانياً: الصفات السلبية:

وهذه الصفات لا تقتضي السلب مطلقاً، إذ لو كانت كذلك لم تدخل في صفات الله تعالى، وإنما هي متضمنة لثبوت ضدها من الكمال، إذ النفي مطلقاً لا يعد مدحاً.

ومن هذه الصفات في السورة:

١ - نفي الظلم عن الرب تعالى في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [يونس:٤٤].

وذلك لكمال عدله، إذ نفي الظلم مطلقاً لا يعد مدحاً كقول الشاعر:

قُبيلة لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

فوصفه للقبيلة بعدم الظلم لضعفهم، وهذا هجاء بدليل قوله (قُبيلة) بالتصغير، أما الرب تعالى فإذا قال (لا يظلم) فهذا لكمال عدله، والظلم إنما يصدر من ذي حاجة أو من السفيه الجاهل — كما سيأتي (١) والرب تعالى له الكمال المطلق (٢).

٢ - نفي العزوب كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس: ٦١].

فنفي الرب تعالى عن نفسه العزوب لكمال علمه، وإحاطته بكل شيء مهما صغر ودقّ (٣).

---

(١) انظر ص٤٥١.

(٢) انظر مجموع الفتاوى (١٣٣/١٤٤)، والحق الواضح المبين لابن سعدي ص٦ والقواعد المثلى لابن عثيمين، ص٢٢ -٢٤.

(٣) انظر بدائع الفوائد (١٦٦/١)، وتفسير ابن كثير (٥١١/٣).

ومما يجدر ذكره أن هذه الصفات التي يثبتها أهل السنة والجماعة، ليست الصفات السلبية التي يثبتها الأشاعرة، فالصفات السلبية عندهم خمس هي:

١ - القدم ومعناه "عدم الأولية أو عدم افتتاح الوجود، فالقديم هو الذي لا أول له أو الذي لا افتتاح لوجوده"[1].

٢ - البقاء.

٣ - مخالفته تعالى للحوادث.

٤ - قيامه بالنفس والمعنى "أنه مستغن في نفسه ليس باعتبار شيء آخر"[2].

٥ - الوحدانية[3].

وهذه الصفات السلبية التي وصفوا الله تعالى بها، قد وصف الله تعالى بها بعض مخلوقاته كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩].

وقوله تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ [الرعد: ٤] وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ [النساء: ٦] إلى غير ذلك، ولاشك أنهم يثبتون هذه الصفات على نحو مخالف لصفة المخلوق، فصفة الرب تعالى تليق بكماله وعظمته، على نحو مخالف لصفة المخلوق تدل على ضعفه وعجزه وحاجته.

---

(١) شرح الصاوي على جوهرة التوحيد، ص٧٩.

(٢) المرجع السابق ص٨٣.

(٣) انظر في تفصيل ذلك المرجع السابق من ٧٩ -٩٢، وشر جوهرة التوحيد للبيجوري من ص٥٢ -٥٩.

وهذا يلزمهم أن يثبتوا جميع الصفات التي وردت في كتاب الله تعالى أو على لسان رسول الله ﷺ على الحقيقة على نحو يليق بالخالق جل وعلا، وإثباتهم لبعض الصفات دون بعض تناقض ظاهر [1].

(١) انظر الأسماء والصفات للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، ص٦٠ -٦٣.

المبحث الثالث:

بيان منهج السلف في الأسماء والصفات والرد على المخالفين

السلف الصالح هم أهل السنة والجماعة، الذين ساروا على نهج نبيهم محمد ﷺ ، واجمعوا على الحق ولم يخالفوه، ومنهجهم في باب الأسماء والصفات، وسط بين التشبيه والتعطيل، فهم يثبتون الأسماء والصفات لله تعالى إثباتاً بلا تشبيه، ولا تمثيل، ولا تكييف ولا تعطيل ولا تحريف، قال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] .

ردٌ على المعطلة، ويقول تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤] فالسلف اجتنبوا التعطيل في مقام النفي والتنزيه، وتجنبوا التشبيه في مقام الإثبات. وضابطهم في هذا الباب إن أسماء الله وصفاته توقيفية فلا نسمي الله جل وعلا إلا بما سمى به نفسه، وكذلك لا نصفه إلا بما وصف به نفسه أو جاء على لسان رسول الله ﷺ ، فلا نثبت إلا ما أثبته الله ولا ننفي إلا ما نفاه الله عن نفسه وأسمائه جل وعلا حق على حقيقته "وليس فيه لغز ولا أحاج بل معناه يعرف من حيث يعرف

مقصود المتكلم بكلامه، لاسيما إذا كان المتكلم أعلم الخلق بما يقول"[١].

وهذا مذهب السلف قاطبة روى الدارقطني عن الوليد بن مسلم[٢]، قال: "سألت الأوزاعي ومالك بن أنس وسفيان الثوري، والليث بن سعد، عن هذه الأحاديث التي فيها الرؤية وغير ذلك، فقالوا أمضها بلا كيف" [٣].

ومن منهج أهل السنة والجماعة إن كل اسم من أسمائه تعالى، إذا أطلق عليه فهو يتضمن إثبات صفة له سبحانه وتعالى لأن أسماءه تعالى أعلام وأوصاف، ولو كانت أعلاماً محضة لم تكن محمودة، ولساغ إبدال بعضها ببعض، ولأصبح معنى العزيز، والرحيم، والقوي .. واحداً وأصبحت مترادفة، وهذا باطل، ونفي هذه المعاني هو الإلحاد في أسماء الرب تعالى حيث قال: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وأيضاً لو لم تتضمن صفات لم يجز أن يخبر بأفعالها فنقول يسمع، ويبصر، ويعلم.

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٦ -٢٧).

(٢) "الوليد بن مسلم القرشي، أبو العباس الدمشقي، ثقة لكنه كثير التدليس والتسوية مات سنة ١٩٥" التقريب ص٥٨٤، وانظر ترجمته في ميزان الاعتدال (٤/ ٣٤٧ -٣٤٨) وتهذيب التهذيب (١١/ ١٣٣ -١٣٤).

(٣) رواه الدارقطني في كتاب الصفات ص٧٥، ورواه الذهبي في العلو عن الوليد بن مسلم (المختصر رقم ١٣٧، ص١٤٣) وروي أيضاً نحوه رقم: ١٣٤ ص١٤٢، وقال الألباني في المختصر: "إسناده صحيح رجاله كلهم ثقات .. ا.هـ. مختصر العلو: ص١٤٢.

ومن منهجهم – أيضاً – أن الاسم يدل على المسمى بثلاث دلالات وهي دلالة المطابقة، والتضمن، واللزوم، فهو يدل على الذات والصفة بالمطابقة، ويدل على الذات بالتضمن، ويدل على الصفة بمفردها بالتضمن، ويدل على الصفات الأخرى باللزوم فمثلاً السميع يدل على الذات وعلى صفة السمع بالمطابقة، ويدل على الذات بمفردها بالتضمن، ويدل على صفة السمع بمفردها بالتضمن،ويدل على الصفات الأخرى كالحياة، والإرادة .. باللزوم، لأن من شأن السميع أن يكون حياً، مريداً، قادراً .. وكذلك سائر الصفات [١] .

قال أبو حنيفة – رحمه الله – في الفقه الأكبر بعد ذكره الصفات وأنها على قسمين ذاتية وفعلية: "لم يزل ولا يزال بأسمائه وصفاته لم يحدث له اسم ولا صفة لم يزل عالماً بعلمه، والعلم صفة في الأزل، وقادراً بقدرته، والقدرة صفة في الأزل، ومتكلماً بكلامه والكلام صفة في الأزل، وخالقاً بتخليقه والتخليق صفة في الأزل .. وفعل الله تعالى غير مخلوق، وصفاته في الأزل غير محدثة ولا مخلوقة فمن قال: إنها مخلوقة أو محدثة، أو وقف أو شك فيها فهو كافر بالله تعالى" ا.هـ [٢] .

وروى الذهبي عن يونس بن عبدالأعلى [٣] قال: سمعت الشافعي يقول: "لله تعالى أسماء وصفات لا يسع أحد قامت عليه الحجة ردها"[٤] .

---

(١) انظر مدارج السالكين (١/ ٢٨ -٣١)، وانظر بدائع الفوائد (١/ ١٦٢).

(٢) الفقه الأكبر مع شرحه ص١٨٠.

(٣) يونس بن عبدالأعلى، أبو موسى الصدفي، وثقه أبو حاتم، ونعتوه بالحفظ والعقل .. ووثقه ابن حجر مات سنة ١٦٤هـ، (انظر ميزان الاعتدال ٤/ ٤٨١)، (وانظر التقريب ص٦١٣).

(٤) رواه الذهبي (المختصر ص١٧٧) وقال الذهبي: قد تواتر عن الشافعي ذم الكلام وأهله وكان شديد الاتباع للآثار في الأصول والفروع .. ا.هـ.

وروى اللالكائي عن محمد بن الحسن قال: اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الربِ عز وجل من غير تغيير ولا وصف، ولا تشبيه، فمن فسر اليوم شيئاً من ذلك فقد خرج مما كان عليه النبي ﷺ وفارق الجماعة فإنهم لم يصفوا ولم يفسروا ولكن أفتوا بما في الكتاب والسنة ثم سكتوا فمن قال بقول جهم فقد فارق الجماعة لأنه قد وصفه بصفة لا شيء" [(١)] .

ونقل شيخ الإسلام ابن تيمية عن الإمام أحمد – رحمهما الله – قوله: لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف، ولا تعطيل ومن غير تكييف، ولا تمثيل، بل يثبتون له ما أثبته لنفسه من الأسماء الحسنى، والصفات العليا، ويعلمون أنه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] : لا في صفاته، ولا في ذاته، ولا في أفعاله ا.هـ [(٢)] .

أما المخالفون لمذهب أهل السنة والجماعة، فهم طائفتان:

الأولى: المشبهة [(٣)] "يزعمون أن معبودهم جسم له نهاية، وحدّ طويل عريض، عميق، طوله مثل عرضه، وعرضه مثل عمقه .. ذو

---

(١) شرح أصول الاعتقاد رقم ٧٤٠ (٣/٤٣٢ -٤٣٣).

(٢) مجموع الفتاوى ٥/٢٥٧، وانظر (٥/٥٨ -٥٩)، وانظر معارج القبول ١/٣٦٢ - ٣٦٥.

(٣) أصحاب هشام بن الحكم الرافضي المتوفى سنة ١٩٠ في خلافة المأمون، وهم صنفان فصنف: شبهوا ذات البارئ بذات غيره، وصنف شبهوا صفاته بصفات غيره وهم فرق شتى: منهم السبابية، والبيانية اتباع بيان بن سمعان، والمغيرية، والمنصورية، منهم الخطابية والحلولية .. وغيرهم (انظر المقالات ص ٢٠٩، والفرق بين الفرق ص ٢١٤ -٢١٩ والملل والنحل للشهرستاني ١/١٠٣ وما بعدها، والأعلام (٨/٨٥).

لون وطعم ورائحة مجسة ..." [١] ويزعمون أيضاً "إن الله على صورة الإنسان .. وأنه نور ساطع يتلألأ بياضاً وأنه حواس خمس كحواس الإنسان سمعه غير بصره وكذلك سائر حواسه .." [٢] إلى آخر ما قالوه – تعالى الله عن قولهم هذا علواً كبيراً – وأكثرهم من الشيعة [٣] أخزاهم الله.

ومجرد التأمل لهذا المذهب وتصوره، كاف في الرد عليه وبيان شناعته، فهم لم يعقلوا من معاني الصفات إلا على ما يفهمونه من صفات المخلوقين فجعلوا الخالق كالمخلوق، ولو أنّ أحداً من الخلق قال لشخص عظيم من الناس، إن يدك كيد الرجل الضعيف الهزيل، أو كيد الكلب أو الخنزير لاشتد نكيره لذلك، وعظم الأمر عليه، فكيف بالخالق – جل وعلا [٤].

والله تعالى يقول عن نفسه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

الثانية: المعطلة للصفات، الذين يعطلون – الرب – تعالى عن أسمائه وصفاته كالجهمية، والفلاسفة [٥] وغيرهم [١].

---

(١) المقالات ص٣١٠ -٣١٢ وانظر الفصل في الملل والنحل (٢/٢٧٧)، والملل والنحل (١/٩٢).

(٢) المرجع السابق، ص٢٠٩.

(٣) الشيعة: هم الذين شايعوا علياً – رضي الله عنه – وادعوا إمامته وخلافته وتقديمه على أبي بكر وعمر، وادعو العصمة للأئمة من الصغائر والكبائر مطلقاً، وهم فرق كثيرة وأصولها ثلاث الغلاة، والإمامية، والزيدية.
انظر المقالات ص٥ وما بعدها، والملل والنحل للشهرستاني (١/١٤٦).

(٤) انظر التوحيد لابن خزيمة (١/١٩٦).

(٥) هم أقسام فمنهم القدماء أصحاب أفلاطون وأرسطوا طاليس، ومنهم الفلاسفة المشاءون وأصحاب الرواق، وأساطين الحكمة، وفلاسفة الإسلام من أمثال الكندي =

أو يثبتون الأسماء دون الصفات كالمعتزلة وشبهتهم في ذلك إن إثبات الصفات، وهي شيء زائد عن الذات يستلزم تعدد القدماء فلو أثبتنا صفة العلم مثلاً لله تعالى "فإنه لا يخلو أن يكون الله العالم بنفسه، ويكون العلم من صفاته في ذاته لا صفته لغيره، فقد جعل مع الله سواه، ولو كان مع الله سواه، لكان أحدهما قديماً والآخر محدثاً، فيجب على من قال بذلك أن يبين أيهما المحدث لصاحبه، فإن قال: إن العلم أحدث الخالق كفر، وإن قال: إن الله أحدث العلم، فقد زعم أن الله كان غير عالم حتى أحدث العلم، ومتى لم يكن العلم فضده لاشك ثابت، وهو الجهل .." [٢] . كما إن إثبات الصفات يستلزم عندهم التجسيم والتشبيه.

ومن المعطلة أيضاً من أثبت الأسماء وبعض الصفات، ونفي البعض الآخر كجمهور الأشاعرة، والماتريدية [٣] ومن وافقهم [٤] ، ومذهب المعطلة يعود إلى المشبهة لأن المعطلة شبهوا أولاً ثم عطلوا ثانياً،

==

والفارابي وزعيمهم ابن سينا، وفلاسفة الإسلام اتبعوا طريقة أرسطوا طاليس في جميع ما ذهب إليه .. أنكروا المعاد الأجسام، ونفوا الصفات .. ولهم آراء أخرى شنيعة. انظر الملل والنحل (١/٦٠، ١٥٨ وما بعدها).

(١) انظر الرسالة التدمرية لابن تيمية ص١٣ -١٦، ومعارج القبول (١/٣٦٩ -٣٧٣).

(٢) رسائل العدل والتوحيد (٢/١٣٧ -١٣٨).

(٣) اتباع أبي منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي، وهو من أئمة علماء الكلام نسبته إلى ما تريد (محلة بسمرقند) توفي سنة ٣٣٣هـ، عاصر أبا الحسن الأشعري، من آرائه: إن معرفة الله مدركة بالعقل، وإن أفعال الله تعالى أرادها لحكمة اختارها، وإن كلام الله هو المعنى القائم بذاته وأنها قديمة. وإثبات رؤية الله تعالى في الآخرة وله آراء أخرى، انظر الأعلام (٧/١٩). وانظر جامع الفرق والمذاهب الإسلامية ص١٧٠ - ١٧١، وكتاب أبي منصور الماتريدي حياته وآراؤه.

(٤) انظر الإرشاد للجويني ص٧٧ -٧٨، وأركان الإيمان لوهبي سليمان ص٣٦.

ثم شبهوا أخيراً بالممتنعات والجمادات، فالجميع يلتقون في نقطة واحدة [١].

الرد على المخالفين:

وبعد بيان منهج أهل السنة والجماعة، ومذهبهم في الصفات، وبيان منهج المخالفين، استعين الله في الرد عليهم، وسيكون الرد على وجه الإجمال، والتفصيل، فأما الإجمال فسيكون – إن شاء الله – شاملاً لجميع الصفات التي أنكرها المبتدعة، وأما التفصيل فسيكون – إن شاء الله – لصفتي الاستواء، والرؤية لكثرة النزاع فيهما.

الرد الإجمالي:

١ - إن الله تعالى قد أثبت له صفات وأسماء حسنى كما سبق ذكره من الآيات المشتملة على هذه الأسماء والصفات، فإنكاركم لها تكذيب بالقرآن ورد له.

٢ - إن هؤلاء الجهمية والمعتزلة نفوا الصفات عن الرب تعالى لأن إثباتها – بزعمهم – يستلزم التشبيه والتجسيم، فوقعوا في شر من ذلك، إذ شبهوه تعالى بالمعدومات التي لا تقبل الكمال [٢].

كما أن الله عز وجل قد عاب الأصنام بسلبها صفات الكمال من كلامٍ وهداية، وحياة قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [يونس: ٣٥].

---

(١) انظر مجموع الفتاوى (٥/٢٧).
(٢) انظر الرسالة التدمرية، ص٣٦ -٣٨.

وقوله: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يونس:١٠٦]. وقوله: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٨].

ولا شك أن سلب هذه الصفات عن الرب جل وعلا تشبيه له بمن عابه من الأصنام والجمادات، فإذا كان إثباتها صفة كمال، وعدمه نقص، فالرب جل وعلا له الكمال المطلق، وما كان من صفة كمال فالرب أحق بها، ونفيها عن سلب للكمال الواجب له.

وأما المعتزلة الذين ينفون الصفات فيقال لهم لا فرق بين ما أثبتموه وما نفيتموه، فهذه الأسماء قد تسمى ببعضها الخلق، "فإن نفيت ما نفيت لكونه لم تجده في الشاهد إلا لجسم فانف الأسماء، بل وكل شيء لأنك لا تجده في الشاهد إلا لجسم" (١) .

كما إن العلم بكيفية الصفة، يستلزم العلم بكيفية الذات، فإن قيل كيف يسمع، أو كيف يبصر، .. قيل لهم كيف ذاته، فإن قالوا لا نعلم، قيل لهم وكذلك سائر الصفات لا علم لنا بالكيفية ونحن نثبتها بلا كيف.

وهذه الروح التي هي بين جنبينا تصعد وتنزل، وتذهب، وتجيء، ومع ذلك لا نعلم كيفيتها ولا يمكن ذلك إذ هو من اختصاص الرب جل وعلا: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء:٨٥] . فإن كنا لا نعرف كيفيتها مع إيماننا بوجودها، ومع قربها منا، ومع أنها مخلوقة، فكيف بالخالق جل وعلا ولله المثل الأعلى (٢) .

---

(١) التدمرية، ص٣٥.

(٢) انظر التدمرية ٥٦ -٥٧، والأسماء والصفات للشنقيطي، ص٩٦ -٩٨.

ومثل هذا يقال لمن ينفي بعض الصفات ويثبت البعض الآخر – بزعمهم إن ما أثبتوه دل عليه العقل وما نفوه نفاه العقل، وهم متناقضون في ذلك لأمور منها:

إن الله عز وجل أنزل الكتاب ووضحه رسوله بسنته عليه الصلاة والسلام وجعله جل وعلا حاكماً عن التنازع، ولم يأمرنا بأن نحتكم إلى عقولنا القاصرة.

ومنها: إن كان العقل أثبت هذه الصفات السبع فهو لا ينفي باقي الصفات وهذا نفي بغير دليل.

ومنها: يمكن إثبات الصفات التي أثبتوها بالعقل أيضاً فنقول نفع العباد يدل على الرحمة، ومثوبة الطائعين تدل على محبته لهم، وعقابه للكافرين يدل على بغضهم (١) .

الرد التفصيلي:

١ – الاستواء:

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ ﴾ [يونس: ٣].

ففي هذه الآية الكريمة رد على طائفتين، الأولى الملاحدة الذين يقولون بقدم العالم (٢) .

وفيها أيضاً رد على نفاة الاستواء من المعتزلة والجهمية والأشاعرة وغيرهم .. فقالوا "الاستواء هاهنا الاستيلاء والغلبة" (٣) .

---

(١) انظر التدمرية ٣٢ -٣٤ وتوضيح الكافية الشافية، ص٦١.
(٢) انظر اجتماع الجيوش الإسلامية، ص٨٦.
(٣) شرح الأصول الخمسة، ص٢٢٦، وانظر الإرشاد للجويني، ص ٥٩ -٦٠.

وفسروا العرش بأنه الملك [١] .

وهذا باطل وقد رد أهل السنة عليهم، وأطالوا، وصنفوا المصنفات الكثيرة في ذلك [٢] .

واستدلوا بقول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

وقد رد عليهم شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – قولهم هذا من اثني عشر وجهاً منها:

إن هذا التفسير مخالف لما فسره سلف الأمة – رحمهم الله – كما سلف وأول من أحدثه هم الجهمية والمعتزلة.

ومنها: إن معنى الاستواء مشهور ومعلوم عند العلماء من السلف، و لو لم يكن معلوماً ما قال الإمام مالك – رحمه الله – "الكيف مجهول" فنفي الكيف دلالة على العلم بالأصل.

ومنها: لو جاز تفسير الاستواء بالاستيلاء لجاز أن نقول: إنه مستو على السماء والأرض، ولجاز أن يقال: إنه مستوٍ على الهواء والبحار .. ولّما مُنِع ذلك دلَّ على اختصاص الاستواء بالعرش.

ومنها: إن تفسير الاستواء بالاستيلاء يفهم منه أن الرب جل وعلا، لم يكن مستوياً على العرش حتى خلق السماوات والأرض وهذا باطل.

---

(١) من هذه المصنفات الرد على الجهمية للبخاري، والدارمي، والإمام أحمد. وكتب السنة للإمام أحمد وابنه عبدالله، والأثرم، والمروزي، والخلال، والتوحيد لابن خزيمة، وابن مندة، والشريعة للآجري، وشرح أصول الاعتقاد للألكائي، وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم – رحمهم الله تعالى.

(٢) شرح الأصول الخمسة، ص٢٢٦.

إن هذا التفسير لم يثبت في اللغة، وعمدتهم في ذلك بيت من الشعر وهو بيت مصنوع مختلق لا يعرف في اللغة.

إن قيل: إنه روي من جماعة من علماء اللغة، قيل: إن الاستيلاء يقال لمن كان عاجزاً ثم غلب، كما أنه يأتي بمعنى المنازعة والمغالبة، فمن نازع الرب جل وعلا في العرش حتى غلبه — تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً - وهو جل شأنه لا يعجز شيء في الأرض ولا في السماء.

إن الاستواء لو حمل على هذا المعنى لكان يحمل على معنى ينزه عنه الله — جل وعلا — ويُنزه رسوله ﷺ أن يفسر القرآن بهذا المعنى.

إن لفظ الاستواء تكرر في جميع المواطن التي ذكر فيها بهذا اللفظ، ولو كان بمعنى الاستيلاء لذكر بهذا اللفظ ولو في موضع واحد، فلمّا لم يذكر وجب تفسيره بما دل عليه القرآن والسنة واللغة.

إن معنى الاستواء معلوم لدى الصحابة والتابعين ومن تبعهم، ولم يختلفوا في ذلك فكل تفسير حدث بعد ذلك لا يلتفت إليه [(١)].

كما أبطل ابن القيم — رحمه الله — هذا القول من اثنين وأربعين وجهاً في الصواعق المرسلة أوجز بعضها فيما يلي:

إن لفظ الاستواء يأتي مطلقاً ويأتي مقيداً، والمطلق من أمثال قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ﴾ [القصص: ١٤]، ومعناه كمل وتمَّ، والمبتدأ يأتي مقيداً (بإلى) أو (على) أو (مقروناً بالواو) وفي الأولى يكون معناه العلو والارتفاع كما في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [البقرة: ٢٩] والثاني أيضاً معناه العلو والارتفاع والاعتدال، كما في قوله تعالى: ﴿ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقوله: ﴿ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ

(١) انظر مجموع الفتاوى (١٤٤/٥ -١٤٩).

ظُهُورِهِ ﴾ [الزخرف:١٣] والثالث في مثل نحو استوى الماء والخشبة بمعنى سواها، وهذه معاني الاستواء في اللغة ولم يرد فيها الاستيلاء البتة.

إنه لو كان الاستواء على العرش بمعنى الاستيلاء لم يكن لذكر الاستواء على العرش فائدة أصلاً لأن الله عز وجل مستولٍ على كل شيء.

أنه أتى بلفظ (ثم) التي معناها الترتيب مع التراخي، ولو كان معنى الاستواء الاستيلاء لكان يعني أن الرب جل وعلا لم يستول على العرش إلا بعد خلق السماوات والأرض، ومعلوم بطلانه.

إن الإجماع منعقد على أن الله عز وجل مستوٍ على عرشه حقيقة. وقد نقل هذا الإجماع عدد من أئمة أهل السنة.

إن البيت الذي استدلوا به محرف والصحيح أنه هكذا:

بشرٌ قد استولى على العراق ..

وهذا لو كان له قائل معروف، فكيف وهو غير معروف في دواوين العرب وأشعارهم، وعلى فرض صحته فلا دليل فيه، لأن معناه الاستواء حقيقة على سرير الملك حيث إن بشراً نائب لعبدالملك بن مروان على العراق، ولم يكن مستولياً على العراق، وإنما الذي استولى عليها هو عبدالملك بن مروان، ولم يكن بشر منازعاً لأخيه ملكه.

كما أنه لو أراد ذلك اللفظ المجازي البعيد لذكر في اللفظ قرينة دالة على ذلك، فلما لم يكن، بل دل اللفظ على بطلانه لم يجز حمله عليه!!.

إن الرب جل شأنه عبر بالفوقية على العرش وهذا معنى الاستواء على العرش، وقالت الجهمية: إن معنى ذلك أن الرب خير من العرش وأفضل منه، وهذا يلزم منه معنى مستهجن جداً، ولم يأت في كلام العرب مدحاً، بل هو ذم وهو من جنس قول القائل السماء فوق

الأرض، والثلج بارد، والشمس أضوأ من السراج، وفي المثل السائر نظماً:

ألم تر أن السيـف ينقـص قدره ❖ إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

بخلاف ما إذا كان الأمر احتجاجاً على مبطل أو مشرك كما في قوله تعالى: ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل: ٥٩].

إن حقيقة قولهم هذا إخلاء العرش من الله سبحانه وتعالى [١].

"وقال بعض أصحاب ابن كلاب [٢]: إن الاستواء صفة ذات، ومعناه نفي الاعوجاج" [٣] وهذا باطل فالأمة قد أجمعت على أن الاستواء من الصفات الفعلية وأنه مستو على العرش حقيقة وأنه لا يجوز أن يتسمى الرب بالاستواء فلا يقال "يا مستوي ارحمني" كما إنه يلزم من ذلك أن يكون العرش لم يزل مع الله عز وجل، لأنه متعلق بالاستواء وهذا كفر [٤].

ويقول البغدادي [٥] "واختلف أصحابنا في هذا، فمنهم من قال: إن آية الاستواء من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، وهذا قول مالك

---

(١) انظر مختصر الصواعق (١٢٦/٢ -١٥٢).

(٢) عبدالله بن سعيد بن كلاب، أبو محمد القطان: متكلم يقال له ابن كُلاب قيل: لقب بها لأنه كان يجتذب الناس إلى معتقده إذا ناظر عليه كما يجتذب الكلاب الشيء، له كتب منها (الصفات) و(خلق الأفعال) و(الرد على المعتزلة) توفي سنة ٢٤٥هـ، الأعلام (٩٠/٤).

(٣) الفصل في الملل والنحل (٢٨٩/٢).

(٤) انظر المرجع السابق ونفس الجزء والصفحة.

(٥) عبدالقاهر بن طاهر بن محمد بن عبدالله البغدادي التميمي، أبو منصور، ولد ونشأ في بغداد وتوفي في إسفرائيل سنة ٤٢٩، متكلم له تصانيف كثيرة منها: "الفرق بين الفرق" و"الملل والنحل" و"أصول الدين" وغيرها.
انظر طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (١٣٦/٥ وما بعدها) و(الإعلام ٤٨/٤).

بن أنس وفقهاء المدينة والأصمعي وروي أن مالكاً سئل عن الاستواء فقال: الاستواء معقول وكيفيته مجهولة، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب، ومنهم من قال: إن استواءه على العرش فعل أحدثه في العرش سماه استواء .. ثم ساق الأقوال إلى أن قال: والصحيح عندنا تأويل العرش في هذه الآية على معنى الملك كأنه أراد أن الملك ما استوى لأحد غيره .. ا.هـ (١) .

والواقع أن نسبة القول: إن الاستواء من المتشابه إلى الإمام مالك وفقهاء المدينة فهو افتراء عليهم، وقد علمنا مذهبهم فيما سبق، وقول مالك هذا دليل على أنه يرى رأي أهل السنة في الاستواء، فالكيف مجهول ولا نعلمه، وأما المعنى من حيث اللغة فهو معلوم لدينا، وأما تفسير الاستواء بأن معناه: "أن الملك ما استوى لأحد غيره" فهو ظاهر البطلان ويقتضي أن يكون الرب جل وعلا ملك العرش بعد أن لم يكن له ملك غيره، كما إن تخصيص العرش بذلك أمر لا فائدة منه لأن الرب جل وعلا مالك كل شيء، كما نرد عليهم بما سبق من أقوال شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم — رحمهما الله تعالى — .

ومعلوم منافاة قياس صفات الخالق على صفات المخلوق، فللرب صفات تليق بجلاله وعظمته، وللمخلوق الضعيف صفات تليق بضعفه وعجزه، وكذلك استواؤه على عرشه استواء يليق به، ولا يشبه استواء المخلوق على الدابة أو نحوها، لأن المخلوق يكون محتاجاً إليها لتحمله، أما الله جل شأنه فهو خالق الكون، وهو الذي يمسكه، وكذلك العرش وحملة العرش، فلا يكون محتاجاً لشيء من خلقه.

---

(١) أصول الدين (ص١١٢ -١١٣)، وانظر لمع الأدلة للجويني، ص١٠٨.

كما أن البشر جميعاً يرفعون أيديهم عند الدعاء إلى السماء، لعلمهم أن ربهم وخالقهم على عرشه فوق سماواته، وهؤلاء الجهمية والمعتزلة يريدون أن يقولوا ليس في العرش أحد.

نقل شيخ الإسلام ابن تيمية عن أبي حنيفة قوله فيمن قال لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض قال: "قد كفر، لأن الله يقول: وعرشه فوق سبع سماوات" (١).

ويقول الإمام الدارمي – رحمه الله – : وما ظننا أن نضطر إلى الاحتجاج على أحد ممن يدعي الإسلام في إثبات العرش والإيمان به، حتى ابتلينا بهذه العصابة الملحدة في آيات الله، فشغلونا بالاحتجاج لما لم تختلف فيه الأمم قبلنا. ا.هـ (٢).

---

(١) مجموع الفتاوى (٥ -٤٧) وانظر في الفتاوى (٥/٥٢).

(٢) الرد على الجهمية ص٢٦٣ (ضمن عقائد السلف).

٢- الرؤية:

خالف في إثبات الرؤية طوائف من المبتدعة من المعتزلة، والزيدية[١]، والخوارج [٢]، وأكثر المرجئة [٣].

قال القاضي عبدالجبار [٤] : "اختلف الناس في ذلك: فأما أهل

---

(١) الزيدية: سميت بذلك نسبة إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وكان قد بويع له بالكوفة في زمن هشام بن عبدالملك، وكان - رحمه الله - لا يرضى سب الشيخين أبي بكر وعمر، فلما سمع من بعض أصحابه الذين بايعوه ذلك، أنكر عليهم، فتفرقوا عنه فقال لهم: رفضتموني، ويقال إن ذلك سبب تسميتهم بالرافضة. والزيدية من فرق الرافضة المعتدلة، وهم فرق منهم الجارودية، والسليمانية، والبترية واليعقوبية.
انظر مقالات الإسلاميين ص٦٥ وما بعدها، والفرق بين الفرق ص١٦ -١٧.

(٢) الخوارج: هم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي - رضي الله عنه - بعد التحكيم الذي جرى بينه وبين معاوية - رضي الله عنه - واجتمعوا بالنهروان، وهم مجمعون على تكفير علي - رضي الله عنه - ومن آرائهم التخليد في النار لصاحب الكبيرة لكفره ولم يخالف في ذلك إلا فرقة النجدات ويرون الخروج على الأئمة.
وهم فرق شتى منها: النجدية، والعجاردة، والإباضية، والأزارقة، والصفرية.

(٣) المرجئة: هم الذين يقولون لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، وقالوا: إن الإيمان لا يقبل الزيادة والنقصان، وسموا مرجئة، لأنهم كانوا يقولون بتأخير العمل عن النية وقيل لأنهم كانوا يعطون الرجاء بقولهم السابق، وهم أصناف فمنهم مرجئة القدرية، ومنهم المرجئة الجهمية الذين مالوا إلى آراء جهم، ومرجئة الخوارج .. ومن فرقهم: اليونسية، والغسانية، والعبيدية، والثوبانية.
انظر مقالات الإسلاميين ١٣٢ وما بعدها، وانظر الفرق بين الفرق ص١٩، والملل والنحل للشهرستاني (١/١١٤)، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص١٠٧ - ١٠٩.

(٤) عبدالجبار بن أحمد بن عبدالجبار الهمذاني الأسد آبادي، أبو الحسين: قاض، أصولي، كان شيخ المعتزلة في عصره .. ولي باري، مات فيها سنة ٤١٥، له تصانيف كثيرة منها تنزيه القرآن عن المطاعن، وشرح الأصول الخمسة، والمغني وغيرهما الأعلام (٣/٢٧٣)، وانظر تاريخ بغداد (١١/١١٢).

العدل بأسرهم [١] ، والزيدية، والخوارج، وأكثر المرجئة. فإنهم قالوا لا يجوز أن يرى الله تعالى بالبصر، ولا يدرك به على وجه، لا لحجاب ومانع لكن ذلك يستحيل" ا.هـ [٢] .

واستدلوا بأدلة من السمع والعقل، فمن أدلة السمع: قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وقوله: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ الآية [الأنعام: ١٠٣].

"ووجه الدلالة في الآية، هو ما قد ثبت من أن الإدراك إذا قرن بالبصر لا يحتمل إلا الرؤية وثبت أنه تعالى نفى عن نفسه إدراك البصر، ونجد في ذلك تمدحاً راجعاً إلى ذاته. وما كان في نفيه تمدحاً راجعاً إلى ذاته كان إثباته نقصاً، والنقائص غير جائزة على الله تعالى في حال من الأحوال" [٣] .

أما استدلالهم بالعقل فقالوا: "إنه يستحيل أن يرى في ذاته، فيجب أن يدل على أنه لا يصح أن يرى بالأبصار، ولا يدرك بها، لأنها لا يصح أن يرى بالبصر ما يستحيل أن يرى نفسه، كما لا يصح أن نعلم بالقلب ما يستحيل أن يكون معلوماً في نفسه" [٤] وقالوا: "ومما يدل على أنه لا يصح أن يرى بالأبصار أن البصر لا يصح أن يرى به إلا ما كان مقابلاً له، أو في حكم المقابل له" [٥] .

---

(١) يقصد "بأهل العدل" المعتزلة.
(٢) المغني في أبواب التوحيد والعدل (٤/ ١٣٩).
(٣) شرح الأصول الخمسة، ص٢٣٣.
(٤) المغني في أبواب التوحيد والعدل (٤/ ١٤٠).
(٥) المرجع السابق ونفس الجزء والصفحة.

وقالت الأشاعرة ومن وافقهم [١] : إن الله تعالى يُرى لا في جهة، فهم أثبتوا الرؤية، ولكن لا في جهة، وقالوا: إنه يرى خلقه من غير جهة، فجاز أن يُرى في غير جهة، وذلك انطلاقاً من نفيهم الجسمية والعلو لله تعالى [٢] .

وقد سبق بيان بعض أدلة أهل السنة والجماعة [٣] .

فأما استدلال منكري الرؤية بقوله: ﴿ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ﴾ [الأعراف: ١٤٣] الآية.

فهي دليل عليهم لا لهم من وجوه:

الأول: إن السائل للرؤية موسى – عليه السلام – وهو من الرسل ومحال أن يسأل ما لا يجوز ولو سأل ما لا يجوز لجاء بيان ذلك كما جاء في شأن نوح – عليه السلام – في قوله تعالى: ﴿ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٦] .

الثاني: إن الرب تعالى قال: "لن تراني" ولم يقل لست بمرئي، أو لا تجوز رؤيتي.

الثالث: إن الجبل مع قوته وصلابته لم يحتمل ذلك، فكيف بقوى البشر الضعيفة؟! وهذا في الدنيا، وأما في الآخرة فينشئهم الله نشأة أخرى ليست كحالهم في الدنيا.

الرابع: إن الله تعالى علق رؤيته باستقرار الجبل مع إمكان ذلك، ولم يعلقه بمحال.

---

(١) كالكلابية أصحاب عبدالله بن سعيد بن كلاب وقد سبقت ترجمته، والقاضي أبي يعلى وغيرهم، انظر تلبيس الجهمية (١/ ٣٥٩).
(٢) انظر الإرشاد، ص١٦٧.
(٣) انظر ص١٢٤ وما بعدها.

الخامس: إن الله تعالى تجلى للجبل وهو جماد لا يعقل، فكيف يمنع من ذلك أولياءه وأهل كرامته.

السادس: إن الله تعالى كلّم موسى وناجاه، ومن جاز له ذلك، جازت له الرؤية من باب أولى.

السابع: إن (لن) ليست لتأبيد النفي، فقد جاءت مطلقة في الآية، ولو جاءت مقيدة بالتأبيد لم تقتضه كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾ [البقرة: ٩٥] مع قوله تعالى: ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ [الزخرف: ٧٧].

كما إن كون (لن) للتأبيد مردود بكثير من الآيات كما في قوله تعالى: ﴿ لَّن تَتَّبِعُونَا ﴾ [الفتح: ١٥] وقوله: قال تعالى: ﴿ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ ﴾ [هود: ٣٦] وقوله: قال تعالى: ﴿ لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا ﴾ [التوبة: ٨٣] فهذه كلها جائزة عقلاً، لولا إن الخبر منع من وقوعها.

وقوله تعالى: "لن تراني" المراد به في الدنيا دون الآخرة كما هو ظاهر من سياق الآية.

الثامن: إن البشر يعجزون عن رؤية ملك من الملائكة في الدنيا إلا من أيده الله من الأنبياء، فكيف برؤية الله تعالى [(١)].

وأما قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾. [الأنعام: ١٠٣].

---

(١) انظر فيما سبق: الاعتقاد ص٥٧، وانظر حادي الأرواح ٢٦٧ -٢٩٦، وانظر شرح العقيدة الطحاوية من ص١٦٦ -١٦٨، وانظر الانتصاف لأحمد منير الإسكندراني مطبوع في حاشية الكشاف (١٥٤/٢).

فهي دليل عليهم أيضاً لأن الإدراك هو الإحاطة، ليس كل مرئي مدرك وكل مدرك مرئي، والله تبارك وتعالى – يُرى ولكن لا يدرك، كما نرى السماء ولا ندركها – ولله المثل الأعلى.

كما إن الآية سيقت في مجال المدح، فدلَّ على تضمنها صفة كمال، لأن العدم ليس مدحاً وليس هو من صفات الله تعالى، فلا يوصف الرب تعالى بأنه لا يُرى لأن هذا لا يعد مدحاً، بل هو سلب للكمال، والله تعالى له صفات الكمال المطلق وهذا الحق الذي اتفق عليه السلف.

كما إن تمام الآية الكريمة دليل عليهم إذ يقول تعالى: ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ﴾ فهذا دليل على إدراكه الأبصار، والمعتزلة ينفون ذلك [١].

وأما إبطال أدلتهم العقلية فأقول:

إن نفيهم الرؤية بناء على أن إثباتها يؤدي إلى كون الرب تعالى في جهة، ولو كان في جهة لكان جسماً، والأجسام متماثلة، فإثبات الجسم يقتضي الحدوث فكل جسم حادث – على حد – زعمهم – [٢].

والجهة هذه التي ينفونها من الألفاظ المجملة التي تحتاج إلى تفصيل، فإن أريد بالجهة أمراً وجودياً أي بمعنى أن الله تعالى داخل في خلقه، أو تحويه بعض مخلوقاته، فلاشك في بطلان هذا القول.

وإن أُريد بالجهة أمراً عدمياً وهو ما فوق العالم، وأنه تعالى بائن من خلقه فوق سماواته، مستو على عرشه، فهذا بلا شك معنى حق [٣].

---

(١) انظر التصديق بالنظر ص١٠، وانظر مجموع الفتاوى (٦/٢٨٩)، وانظر التدمرية ص٥٩، وانظر حادي الأرواح ص٢٧٣، وانظر شرح الطحاوية ص١٦٨ -١٦٩، وانظر الفتح (١٣/٤٣٥ -٤٣٦).

(٢) انظر منهاج السنة (٣/٣٤٣)، وانظر التدمرية ص١١٩ -١٢٠.

(٣) انظر مجموع الفتاوى (٥/٢٦٢ -٢٦٣) وانظر منهاج السنة (٢/٣٤٨، ٥٥٨ - ٥٥٩).

والله جل وعلا له صفات تليق بجلاله وعظمته، لا تشبه صفات المخلوقين فلا يجوز قياس صفاته – تعالى – بصفاته، كما لا يجوز قياس ذاته بذواتهم.

والخلاف مع هؤلاء خلاف منهج، إذ إنهم في اعتمادهم على العقل وتقديمه على السمع، جانبوا النصوص، وأدخلوا في دين الله ما ليس فيه، وأعرضوا عن الحق ففساد مذهبهم في مسألة ما يعود إلى فساد المنهج العقلي الذي سلكوه.

ثم أليس الذي قال: "سترون ربكم عياناً" (١) هو الذي أُنزل عليه القرآن، وبلغه لأمته؟ فهل يظن ظان أن هؤلاء المبتدعة علموا من القرآن، وفهموا من أشد وأوضح مما فهمه نبي الأمة – عليه صلوات الله وسلامه – ؟!!.

وأما قول الأشاعرة بإثبات الرؤية، ونفي الجهة، فهذا ممتنع في بداهة العقول، والرسول ﷺ قد شبه رؤية الله تعالى يوم القيامة برؤية الشمس والقمر، وهما من أشد الأشياء وضوحاً، وهم يرونها فوقهم عيانا فدلَّ ذلك على إثبات رؤيةٍ الرب تعالى عياناً مواجهةً وقولهم هذا لضعفه، واستحالته، كان سبباً لتطاول منكري الرؤية عليهم وإظهار تناقضهم(٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : "هؤلاء المثبتة الذين وافقوا عامة المؤمنين على إمكان رؤيته وانفردوا عن الجماعة بأنه يرى لا

(١) سبق تخريجه، ص١٣٣.

(٢) انظر تلبيس الجهمية (١/٣٥٩ -٣٦٠) و(٢/٨٨ -٨٩)، وانظر منهاج السنة (٣/٣٤١).

فوق الرائي ولا عن يمينه ولا عن شماله، ولا في شيء من جهاته هم قد وافقوا أولئك الجهمية في وجود موجود يكون كذلك ا.هـ [١] .

وإثبات العلو مما اتفق عليه أهل السنة، وتواتر نقله، وشهدت به الفطر السليمة ونفيهم العلو والاستواء هو الذي دفعهم لسلوك هذا الرأي الباطل الذي جمعوا فيه بين الحق والباطل، الذي يعلم فساده بالضرورة [٢] .

وقد عقد ابن القيم – رحمه الله – فصلاً في حادي الأرواح بعنوان: وعيد منكري الرؤية، ثم ساق الآيات والأحاديث ثم قال: "فاجمع بين قوله: فإنكم سترون ربكم" وقوله: لمن ظن أنه غير ملاقيه فإني أنساك كما نسيتني، وإجماع أهل اللغة [٣] على أن اللقاء المعاينة بالأبصار، ويحصل لك العلم بأن منكري الرؤية أحق بهذا الوعيد .. ا.هـ [٤] .

---

(١) المرجع السابق (١/ ٣٦٠).
(٢) انظر منهاج السنة (٣/ ٣٤٢ -٣٤٣)، وانظر مجموع الفتاوى (١٦/ ٨٤ -٨٩).
(٣) انظر حادي الأرواح ص٣١٨.
(٤) انظر المرجع السابق (٣١٨ -٣١٩).

الباب الثاني

في الإيمان بالملائكة والكتب

وفيه فصـلان:

الفصل الأول: الإيمان بالملائكة.

الفصل الثاني: الإيمان بالكتب.

الفصل الأول
الإيمــان بالملائكــة

الإيمان بالملائكة هو الركن الثاني من أركان الإيمان، وقدم على الإيمان بالكتب، والرسل لعدة أسباب:

١ - لتقدم الملائكة في الخلق على الأنبياء.

٢ - لتقديمهم في القرآن كما في قوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وقوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] إلى غير ذلك من الآيات.

٣ - لأنهم مبلغون لوحي ربهم إلى من أرسله الله تعالى من رسله.

٤ - لأن في الإيمان بهم، إيمان بالغيب، وهو مقدم [(١)].

تعريفهم:

الملائكة أصلها "مألكٌ بتقديم الهمزة، من الألوك، وهي الرسالة، ثم قلبت وقدَّمت اللام فقيل مَلاك .. ثم تركت همزته لكثرة الاستعمال، فقيل ملَكٌ، فلما جمعوها ردوها إليه فقالوا ملائكة وملائك .." [(٢)] وقيل أصله: ألك [(٣)]، قيل أصله: "ل أ ك" [(٤)] وكلها مشتقة من الرسالة.

---

(١) انظر فتح الباري (٦/٣٥٣ -٣٥٤)، والسبب الأخير استفدته من إرشادات فضيلة المشرف على الرسالة جزاه الله خيرا.

(٢) الصحاح (٤/١٦١١).

(٣) انظر بصائر ذوي التمييز (٤/٥٢٤).

(٤) انظر المرجع السابق نفس الجزء والصفحة، والنهاية في غريب الحديث (٤/٣٥٩)، ولسان العرب (١٠/٩٦).

والملائكة في اصطلاح الشرع مخلوقات نورانية، وهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، لهم قدرة على التشكل بأشكال مختلفة — كما سيأتي — وهم من عالم الغيب الذي أمرنا بالإيمان به، ولهم صفات عظيمة ووظائف جسيمة (١) - سيأتي بيانها إن شاء الله -.

الأدلة على وجوب الإيمان بالملائكة ومقتضاه:

والأدلة على وجوب الإيمان بهم في قوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية. ومن ينكرهم فهو كافر بنص القرآن قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾ [النساء: ١٣٦].

والملائكة عباد الله المكرمون، خلقهم الله من نور — كما سبق — وأسكنهم السماء، لا يوصفون بذكورة، ولا أنوثة، وليسوا بنات الله ولا أولاد الله جل وعلا، والإيمان بهم يقتضي:

أولاً: الإيمان بوجودهم.

---

(١) انظر منهاج السنة (٢/٥٣٣ -٥٣٨)، والإيمان بالملائكة وأثره في حياة الأمة للشيخ صالح الفوزان ص ٥ -٦.

ثانياً: الإيمان بأنهم عباد الله المكرمون، لا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون، وهذا ينفي اعتقاد أنهم متولدون عن الله عز وجل، أو إنهم عقول فعالة، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

ثالثاً: الإيمان بهم على سبيل الإجمال والتفصيل، فالإجمال بهم جميعاً، والتفصيل فيمن ذكرهم الله جل وعلا في كتابه، أو ذكره لنا رسوله ﷺ في سنته مما ثبت وصح عنه كجبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ورضوان خازن الجنة، ومالك خازن النار وحملة العرش، والكربيون، وملك الموت [1].

رابعاً: الإيمان بما جاء من صفاتهم، ومن ذلك أنهم خلقوا من النور، وأن لهم أجساماً عظيمة، وأن لهم أجنحة قال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ﴾ .[فاطر: ١].

وفي الحديث عن أبي هريرة — رضي الله عنه — قال: قال رسول الله ﷺ : "إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان [2] قال عليٌّ [3]: وقال غيره:

---

(١) قال ابن كثير — رحمه الله — : "وأما ملك الموت فليس مصرح له باسمه في القرآن ولا في الأحاديث الصحاح، وقد جاء تسميته في بعض الآثار بعزرائيل والله أعلم ا.هـ البداية والنهاية (١/ ٤٢).

(٢) "الصفوان: الحجرُ الأملس. وجمعه صُفِيٌّ وقيل هو جمع، واحده صَفْوانَة" النهاية في غريب الحديث (٣/ ٤١).

(٣) علي بن عبدالله أحد رواة الحديث وهو شيخ البخاري.

صفوان ينفذهم ذلك — فإذا: فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربُكم قالوا الحقَّ وهو العلي الكبير" [(١)] .

ومن صفاتهم أيضاً القوة في العبادة كما وصفهم جل ذكره بقوله: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠ ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

ومن صفاتهم أيضاً جمال المنظر وحسنه وبهاؤه كما وصف ذلك عمر — رضي الله عنه — جبريل عندما أتى رسول الله ﷺ في حديث جبريل ومن صفاتهم أيضاً التشكل بأشكال مختلفة، كما في حديث جبريل عن أبي هريرة — رضي الله عنه — أن رسول الله ﷺ كان يوماً بارزاً للناس، إذ أتاه رجلٌ يمشي، قال: يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: "الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته ورسله ولقائه، وتؤمن بالبعث الآخر". قال: يا رسول الله ما الإسلام؟ قال: "الإسلام: أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان". قال: يا رسول الله ما الإحسان؟ قال: "الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه سبحانه وتعالى يراك". قال: يا رسول الله متى الساعة؟ قال: "ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن أشراطها: إذا ولدت المرأة ربتها، فذاك من أشراطها، وإذا كان الحفاة العراة رؤوس الناس، فذاك من أشراطها، في خمس لا يعلمهن إلا الله: "إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد باب قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ الآية. رقم ٧٠٤٣ (٧٢٠/٦) وفي كتاب التفسير أيضاً في باب قوله: ﴿ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ رقم ٤٥٢٤ (١٧٣٦/٤) في كتاب التفسير أيضاً في باب: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ .. الآية، رقم ٤٥٢٢ (١٨٠٤/٤) مطولا، ورواه الترمذي في التفسير باب تفسير سورة سبأ رقم ٣٢٢١ (ج٨/٣٥٧) عن سفيان به وزاد في آخره "والشياطين بعضهم فوق بعض".

الأرحام"، ثم انصرف الرجل، فقال: ردوا عليّ. فأخذوا ليردوا فلم يروا شيئاً، فقال: هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم" [(١)] .

فقد أتاه في صورة أعرابي، وقد يأتيه – عليه الصلاة والسلام – في صورة دحية الكلبي [(٢)] رضي الله عنه، وكما في حديث الثلاثة من بني إسرائيل الأبرص، والأقرع، والأعمى الذين أرسل الله إليهم ملكاً على كل واحد منهم ليبتليهم [(٣)] في صورة رجل، وكما في إرسال الله جل وعلا ملكاً إلى مريم – عليها السلام – وأيضاً الملائكة الذين جاءوا إلى لوط – عليه السلام – في صورة شبان حسان الوجوه وإلى إبراهيم – عليهم السلام – قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَـٰمًا ﴾ [هود: ٦٩].

وقوله تعالى: ومن صفاتهم أنهم منزهون عما يعتري البشر من الجوع والمرض، والتعب والنوم، والنكاح.

ومن صفاتهم الموت فهم يموتون كما يموت البشر [(٤)] .

ومن صفاتهم السمع، والبصر والكلام والأيدي والأقدام والصعود والنزول .. وغير ذلك من الصفات [(١)] .

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير باب "إن الله عنده علم الساعة"رقم ٤٤٩٩(ج٤/١٧٩٣)، وفي كتاب الإيمان باب سؤال جبريل عن الإيمان والإسلام والإحسان عن أبي حيان بنحوه ورقم الحديث ٥٠ (١/٢٧)، ورواه مسلم في كتاب الإيمان باب الإيمان والإسلام والإحسان، عن أبي حيان به رقم ٩ (١/٣٩) وفي الباب روايات عدة.

(٢) كما روى الإمام أحمد في مسنده (٦/١٤١ -١٤٢) عن عائشة – رضي الله عنها – .

(٣) الحديث في كتاب البخاري كتاب الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم ٣٢٧٧ (٣/١٢٧٦) عن أبي هريرة – رضي الله عنه – ، ورواه مسلم في كتاب الزهد، رقم: ٢٩٦٤ (٤/٢٢٧٥).

(٤) انظر مجموع الفتاوى (٤/٢٥٩ -٢٦٠).

خامساً: الإيمان بما كلفوا به من أعمال وهي كثيرة وجليلة من أهمها تبليغ وحي الله جل وعلا إلى رسله – وسيأتي – ومنها إنزال القطر من السماء، وإنبات النبات والموكل به ميكائيل – عليه السلام – ومنهم يخلق الرزق، وله أعوان ومنهم الموكل بالنفخ في الصور [٢] قال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزمر: ٦٨].

ومنهم حملة العرش قال تعالى: ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحاقة: ١٧].

وقال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الزمر: ٧٥].

"ومنهم الكربيون الذين هم حول العرش وهم أشرف الملائكة مع حملة العرش. وهم الملائكة المقربون" [٣].

ومنهم الموكل بالنطفة في الرحم حتى يتم خلقها ويخرج من بطن أمه كما جاء ذلك مصرحاً في كثير من الأحاديث.

ومنهم الموكل بالجنة وإعداد النعيم لأصحابها في مقدمة هؤلاء رضوان – عليه السلام – خازن الجنة.

ومنهم الموكل بإيقاد النار وإعداد العذاب لأهلها الزبانية، وفي مقدمتهم مالك خازن النار، قال تعالى: ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا

==

(١) انظر في تفصيل ذلك: الإيمان بالملائكة (رسالة ماجستير بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية للشيخ محمد بن سليمان الدريوش (من ص٥٥ -١٨).
(٢) انظر البداية والنهاية (١/ ٤٠).
(٣) البداية والنهاية (١/ ٤٠).

رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الزخرف: ٧٧ -٧٨].

ومنهم الموكل بتبشير المؤمنين بالجنة والكرامة وذلك عند موتهم.

ومنهم الموكل بعمارة البيت المعمور في السماء، ومنهم الموكلة بالسحاب وسوقه، ومنهم الموكلة بالجبال.

ومنهم الموكلة بكتابة أعمال العباد من خير وشر، ومنهم الموكلة بإنزال العذاب على الأمم المكذبة بأمر الله تعالى لهم وستأتي.

يقول ابن قيم – رحمه الله – :

"وكل حركة في السماوات والأرض: من حركات الأفلاك، والنجوم، والشمس، والقمر، والرياح، والسحاب، والنبات، والحيوان، فهي ناشئة عن الملائكة الموكلين بالسماوات والأرض – كما قال تعالى: ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ ﴾ [النازعات: ٥] وقال: ﴿ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ ﴾ [الذاريات: ٤] وهي الملائكة عند أهل الإيمان وأتباع الرسل – عليهم السلام – وأما المكذبون للرسل، المنكرون للصانع، فيقولون: هي النجوم [(١)] وهذا قول موجز وجامع لما تقوم به الملائكة الكرام من أعمال منوطة بهم. وفي سورة يونس – عليه السلام – جاءت الإشارة إلى بعض وظائف الملائكة الكرام، ويمكن إجمالها في أربع مسائل:

الأولى: إنزال الوحي على الأنبياء:

---

(١) إغاثة اللهفان ١٧٢/٢ -١٧٣، وانظر فيما سبق: المنهاج للحليمي ٣٠٢/١ وما بعدها وشعب الإيمان للبيهقي ٤٠٥/١ -٤٠٦ والبداية والنهاية ٣٥/١ وما بعدها، والحبائك في أخبار الملائك ص١٣ وما بعدها، ومعارج القبول ٦٥٦/٢، وعالم الملائكة للأشقر، وما بعدها، والإيمان بالملائكة لأحمد عز الدين البيانوني ص٧ وما بعدها، والإيمان بالملائكة وأثره للشيخ صالح الفوزان.

كما في قوله تعالى: ﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢ ﴾ [يونس: ١ -٢].

وقوله: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥ ﴾ [يونس: ١٥].

وقوله: ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝١٠٩ ﴾ [يونس: ١٠٩].

ومحل الشاهد في قوله تعالى: ﴿ أَنْ أَوْحَيْنَآ ﴾ وقوله: ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾. وقوله: ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ ﴾ .

ومن المعلوم أن الملائكة هي التي تنزل بالوحي على الأنبياء والرسل، قال تعالى: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ [مريم: ٦٤] وقوله: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥ ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥] وقوله: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢ ﴾ [النحل: ٢] .

وفي صحيح البخاري عن أم المؤمنين عن عائشة – رضي الله عنها – أن الحارث بن هشام – رضي الله عنه – سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ "أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني، وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول". قالت عائشة –

رضي الله عنها – ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً" (١) .

والصورتان المذكورتان في هذا الحديث هما الحالتان الغالبتان، كما ذكر ذلك ابن حجر – رحمه الله – (٢) وإلا فقد جاءت حالات أخرى لمجيء الملك بالوحي كإتيانه في صورة دحية الكلبي وفي صورته التي خلق عليها ستمائة جناح، على كرسي بين السماء والأرض وهي حالة نادرة كما قالت عائشة فيما روته عن النبي ﷺ و"إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين .." (٣) الحديث وسيأتي مزيد بيان لذلك في فصل الوحي – إن شاء الله (٤) – وجبريل عليه السلام هو المختص بالوحي قال تعالى في وصفه: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [التكوير: ١٩ -٢١] ، فوصفه بأنه رسول، وأنه كريم عنده، وأنه ذو قوة ومكانة عند ربه سبحانه وتعالى، وأنه أمين على الوحي" (٥) ويقول تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [النحل: ١٠٢] . وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الوحي باب كيف بدئ الوحي إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رقم ٢(٤/١٢)، ورواه في كتاب بدء الخلق باب: ذكر الملائكة رقم ٣٠٤٣ (ج١١٧٦/٣) عن هشام به. ورواه مسلم في الفضائل، باب: طيب عرق النبي صلى الله عليه وسلم في البرد وحين يأتيه الوحي رقم الحديث: ٢٣٣٣(١٨١٦ -١٨١٧) عن هشام بنحوه.

(٢) انظر فتح الباري (٢٩/١).

(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ رقم: ١٧٧ (١٥٩/١).

(٤) انظر ص١٩٥ وما بعدها.

(٥) إغاثة اللهفان (١٧٢/٢)، وانظر البداية والنهاية (٣٩/١).

﴿عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [البقرة: ٩٧].

وقد جاء في بعض الأحاديث التصريح بنزول غيره من الملائكة بالوحي ومن ذلك ما رواه ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: "بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضاً من فوقه، فنزل منه ملك، فرفع رأسه، فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض، لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي من قبلك، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيته" (١).

وعن حذيفة قال: ﷺ: العشاء، ثم خرج فتبعته، فإذا عارض قد عرض له، فقال لي: "يا حذيفة هل رأيت العارض الذي عرض لي"؟ قلت: نعم قال: "ذاك ملك من الملائكة استأذن ربه يسلم علي، ويبشرني بالحسن والحسين أنهما سيدا شباب أهل الجنة، وأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة" (٢) والذي يظهر والله أعلم أن جبريل – عليه السلام – اختص بإنزال القرآن الكريم، وأما إنزال غير القرآن من الوحي فشاركه غيره كما جاء في الأحاديث (٣).

---

(١) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة رقم ٨٠٦ (٥٥٤/١) والنسائي في كتاب الافتتاح، باب فضل الفاتحة رقم: ٩١٢ (١٣٨/٢) عن ابن الأحوص به.

(٢) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٧٨/٧)، ورواه أحمد في مسنده وفي أوله قصة (٣٩١/٥) والحاكم في مستدركه بلفظ "أتاني جبريل.." الحديث (٤٢٩/٣) وقال الذهبي في التلخيص: صحيح (انظر حاشية المستدرك ٤٢٩/٣) وقال الذهبي في التلخيص: صحيح (انظر حاشية المستدرك ٤٢٩/٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٧/١).

(٣) انظر السيرة النبوية للذهبي ص٦٥، وفتح الباري ٣٧/١.

الثانية: إهلاك الأمم المكذوبة بأمر الله:

من المهام المنوطة بالملائكة، إنزالهم للعذاب الشديد، وإهلاك الأمم المكذبة للرسل بأمر الله تعالى وقد ورد في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [يونس: ١٣]. وقوله: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [يونس: ٧٣] . وقال تعالى: ﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يونس: ٩٠] روى ابن جرير عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: "لما قال فرعون لا إله إلا الله، جعل جبرائيل يحشو في فيه الطين والتراب" وفي رواية أخرى قال: "لما أغرق الله فرعون قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، فقال جبرائيل: يا محمد لو رأيتني وأنا آخذ من حمأة البحر وأدسهُ في فيه مخافة أن تدركه الرحمة" (١) . وفي إهلاك قوم لوط يقول جل ذكره: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا

---

(١) رواه الترمذي في كتاب التفسير في سورة يونس رقم: ٣١٠٦ (٨/٢٦٨ -٢٦٩) ورقم: ٣١٠٦ وقال الترمذي: "هذا حديث حسن غريب صحيح" ا.هـ ورواه الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس رقم ٣٠٦ (١٨/١٧٧) الفتح الرباني وقال صاحب الفتح الرباني عند شرحه لهذا الحديث: "وهذا الحديث بطريقيه رواته ثقات ليس فيه متهم كان فيهم من هو سيئ الحفظ فقد تابعه عليه غيره" ا.هـ (١٨/١٧٨) والحديث رواه ابن جرير في التفسير (١١/١٦٣) بعدة طرق، ورواه في التاريخ (١/٣٩٨).

عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ [هود: ٧٧ -٨٣].

الثالثة: كتابة أعمال العباد

فالملائكة الكرام تكتب جميع أعمال وأقوال بني آدم، قال تعالى في سورة يونس – عليه السلام –: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [يونس: ٢١].

قال ابن جرير – رحمه الله – عن تفسير هذه الآية: "إن حفظتنا الذين نرسلهم إليكم أيها الناس يكتبون عليكم ما تمكرون في آياتنا" ا.هـ [(١)].

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الزخرف:٨٠].

وقوله تعالى: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [ق:١٧ -١٨].

قال البغوي – رحمه الله – عند تفسير هذه الآية:

"إذ يتلقى ويأخذ الملكان الموكلان بالإنسان عمله ومنطقه يحفظانه ويكتبانه (عن اليمين وعن الشمال)، أي أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله، فالذي عن يمينه يكتب الحسنات، والذي عن شماله يكتب السيئات" ا.هـ [(٢)].

---

(١) جامع البيان (٩٩/١١).
(٢) معالم التنزيل (٢٢٢/٤).

وقال تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝ ﴾ [الانفطار: ٩ -١٢].

قال ابن رجب الحنبلي – رحمه الله – "وقد أجمع السلف الصالح على أن الذي عن يمينه يكتب الحسنات، والذي عن شماله يكتب السيئات" (١) ا.هـ.

كتابة الملائكة لجميع الأقوال والأفعال:

اختلف العلماء هل تكتب الملائكة جميع الأقوال والأعمال، أم أنها لا تكتب إلا الحسنات والسيئات؟!

الأول: أنهما يكتبان جميع ما يصدر من الإنسان حتى أنينه في مرضه، وحتى قوله أكلت، وشربت .. روي عن مجاهد – رحمه الله – وروي أيضاً عن مالك – رحمه الله – ورجح هذا القول السفاريني.

الثاني: إنهما لا يكتبان إلا ما يؤجر عليه، أو يعذب عليه ونُقل عن عكرمة.

وهناك قول ثالث: إنه يكتب جميع ما يصدر عن الإنسان، فإذا كان آخر النهار محا ما كان مباحاً، وقيل إن ذلك يمحي يوم الخميس (٢).

قال ابن رجب – رحمه الله – :

".. إن ما ليس بحسنة فهو سيئة، وإن كان لا يعاقب عليها فإن بعض السيئات قد لا يعاقب عليها، وقد تقع مكفرة باجتناب الكبائر، ولكن

(١) جامع العلوم الحكم (٣٣٦/١).

(٢) انظر زاد المسير (١١/٨)، والجامع لأحكام القرآن (ج١٧/ ص١١)، ومعالم التنزيل ٢٢٢/٤، وجامع العلوم والحكم (٣٣٧/١)، وابن كثير ٤٠٠/٧، والفتح ٣١٥/١١، والحبائك ص٨١، ولوامع الأنوار (٤٥٠/١).

زمانها قد خسره صاحبها حيث ذهب باطلاً، فيحصل له بذلك حسرة في القيامة وأسف عليه، وهو نوع عقوبة" (١) ا.هـ وقد رويت القولان عن ابن عباس – رضي الله عنه – (٢) .

وقال ابن كثير – رحمه الله – في تفسير قوله تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [ق:١٨] "أي ما يتكلم بكلمة (إلا لديه رقيب عتيد) أي إلا ولها من يرقبها معد لذلك يكتبها لا يترك كلمة ولا حركة" ا.هـ (٣) .

وقوله أيضاً بعد أن ذكر القولين السابقين: "وظاهر الآية الأول لعموم قوله تبارك وتعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ ا.هـ (٤) .

فأما من قال إن أنين المريض يكتب عليه، فلأن ذلك يعبر عن الشكوى والتبرم "وتعقب ذلك النووي فقال: هذا ضعيف أو باطل فإن المكروه ما ثبت فيه نهي مقصود، وهذا لم يثبت فيه ذلك. ثم قال فلعلهم أرادوا بالكراهة خلاف الأولى فإنه لاشك إن اشتغاله بالذكر أولى" ا.هـ (٥) والخلاف هذا لفظي، حيث إنهم متفقون على عدم العقاب على المباحات مثل نحو أكلت وشربت .. ونحو ذلك.

كتابة أعمال الكفار:

ظاهر قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/٣٣٧).
(٢) انظر الحبائك ص٨١.
(٣) تفسير ابن كثير (٦/٤٠٠).
(٤) المرجع السابق ونفس الجزء والصفحة، وكتاب الإيمان لابن تيمية ص٤٦ -٤٧.
(٥) نقلاً عن السفاريني في لوامع الأنوار (١/٤٥٢).

﴿ تَمۡكُرُونَ ﴾ [يونس: ٢١] عموم الكتابة، لأعمال المؤمنين والكفار وهذه المسألة قد اختلف العلماء فيها على قولين: .

الأول: إن أعمالهم لا تكتب لأن أعمالهم واحدة، وأمرهم لا خفاء به، ومعهم الشرك بالله تعالى والكفر المحبط لجميع الأعمال، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ ﴾ [الرحمن: ٤١].

الثاني: إن عليهم حفظه، وإن أعمالهم تكتب واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝ ﴾ [الانفطار: ٩ - ١٠] الآية وقوله: ﴿ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ۝ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ۝ ﴾ [الحاقة: ٢٥ - ٢٦] وقوله: وقالوا: إن الذي عن اليمين شاهد على الذي عن الشمال، ويكتب صاحب الشمال بإذنه(١) .

قال الإمام النووي – رحمه الله – فيما نقله عن السفاريني قوله:

"الصواب الذي عليه المحققون بل نقل فيه بعضهم الإجماع أن الكافر إذا فعل أفعالاً جميلة كالصدقة وصلة الرحم، ثم أسلم ومات على الإسلام أن ثواب ذلك يكتب له، ودعوى كونه مخالفاً للقواعد غير مسلم" ا.هـ (٢) .

وقال السفاريني – رحمه الله – : "وممن نص على أن للكافر حفظة بعض المالكية، قال بعضهم وهو الذي لا يصح غيره. وهو الجاري على القول بتكليفهم بفروع الشريعة وهو معتمد الثلاثة خلافاً لأبي حنيفة" ا.هـ (٣) .

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن (١٩/٢٤٨).
(٢) لوامع الأنوار (١/٤٥٠).
(٣) المرجع السابق (١/٤٥١).

والله تعالى يقول عن الكفار يوم القيامة: ﴿ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴾ [الكهف: ٤٩]، والأدلة على كتابة الأعمال ظاهرة، وصريحة، وليس فيها تخصيص للمؤمن دون الكافر.

كتابة أعمال القلوب:

اختلف العلماء في كتابة الملائكة وإطلاعها على أعمال القلوب، والنية، والإخلاص، .. فمنهم من قال باطلاعهم على أعمال القلوب، واستدلوا بالحديث الصحيح عن ابن عباس – رضي الله عنهما – عن النبي ﷺ فيما يروى عن ربه عز وجل قال: "إن الله كتب الحسنات والسيئات فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همَّ بها وعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة" (١) قال ابن حجر – رحمه الله – عن شرح هذا الحديث: وفيه دليل على أن الملك يطلع على ما في قلب الآدمي إما باطلاع الله إياه أو بأن خلق له علماً يدرك به ذلك. ا.هـ (٢).

وقال شارح الطحاوية – رحمه الله – :

قد ثبت بالنصوص .. أن الملائكة تكتب القول والفعل، وكذلك النية لأنها فعل قلب، فدخلت في عموم ﴿ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق باب من هَمَّ بحسنة أو بسيئة رقم ٦١٢٦ (ج/٢٣٨٠ - ٢٣٨١) ورواه مسلم في الإيمان، باب: إذا هما لعبد بحسنة كتبت ... رقم ١٣١ (١/١١٨).

(٢) فتح الباري (١١/٣٣٢).

□[الانفطار: ١٢] ا.هـ (□) .

وقيل: إن الملائكة لا اطلاع لها على أعمال القلوب، ولكن إذا هم العبد بحسنة فاحت منه ريح طيبة، وإذا همَّ بسيئة فاحت منه ريح خبيثة روي هذا عن سفيان بن عيينة وغيره (٢) .

ولنا أن نقول: إن الله تعالى يطلع ملائكته على هذه الأعمال بكيفية لا نعلمها، هو أعلم بها سبحانه، والأدلة على الأول صريحة وصحيحة. ولو قيل كيف تكتب الملائكة أعمال العباد في الحالات التي تفارق فيها العبد مثل حالة دخول الخلاء، وإفضاء الرجل إلى أهله، والاغتسال ..؟! فيقال "إنه ليس هنا المفارقة بالكلية بل يبعدون عنه حينئذ نوع بعد" (٣) أو أن الله تعالى يطلعهم على الأعمال بنوع اطلاع لا نعلم كيفيته. والله أعلم.

وإن قيل هل تكتب الملائكة أعمال من عنده كلب أو صورة أو تدخل لقبض روحه وقد جاء في الحديث بعدم دخولها كما قال ﷺ : "لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة" (٤) ؟!

وأجيب على هذا بعدة أجوبة منها:

---

(١) شرح الطحاوية ص٣٩٠ط، المكتب الإسلامي.

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن (٢٤٨/١٩)، وانظر الحبائك ص٩٢ رقم ٣٩١، وانظر فتح الباري (٣٣٢/١١).

(٣) مجموع الرسائل والمسائل النجدية (٧٨/٢).

(٤) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في شرب أحدكم فليغمسه رقم ٣١٤٤ (١٢٠٦/٣) وفي باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء .. رقم ٣٠٥٣، ورقم ٣٠٥٤ (١١٧٩/٣)، رواه مسلم في اللباس والزينة باب تحريم تصوير صورة الحيوان .. رقم ١٢٠٦ (/١٦٦٥) عن سفيان به.

"إن الحديث محمول على أنهم لا يدخلون بيتاً فيه شيء من ذلك دخول إكرام لصاحبه ودعاء له وتبريك عليه، ولا يمنع ذلك من دخولهم لكتابة الأعمال وقبض الأرواح ومثل هذا غير مستنكر، فإن فساد صاحب المنزل يمنع من دخول صلحاء الناس منزلة مؤاخين له أو مترددين إليه، ولا يمنعهم من أن يدخلوه منكرين عليه ومغيرين أو مطالبين له بحق لزمه .." (١) .

"قال الخطابي: المراد بالملائكة: الذين ينزلون بالرحمة والبركة لا الحفظة فإنهم لا يفارقون الجنب وغير الجنب" ا.هـ (٢) .

وقال ابن الأثير – رحمه الله – : "أراد الملائكة السياحين، غير الحفظة والحاضرين عند الموت" ا.هـ (٣) .

وقال الإمام النووي – رحمه الله – :

"وأما هؤلاء الملائكة الذين لا يدخلون بيتاً فيه كلب ولا صورة فهم ملائكة يطوفون بالرحمة، والتبريك، والاستغفار، وأما الحفظة فيدخلون في كل بيت ولا يفارقون بني آدم في كل حال لأنهم مأمورون بإحصاء أعمالهم وكتابتها" ا.هـ (٤) .

وأقوال الأئمة السابقة متقاربة، ويكادون يتفقون على أن المراد دخول التكريم والتشريف، وهذا الذي دلت عليه الأدلة.

الرابعة: تبشير المؤمنين:

---

(١) الحبائك ص٢١٥.
(٢) الحبائك ص٢١٤، وانظر فتح الباري (٤٠٥/١٠).
(٣) معالم السنن (٦٥/١).
(٤) شرح مسلم (٨٤/١٤).

كما جاء في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يونس: ٦٣ -٦٤].

وسيأتي مزيد بيان لذلك – إن شاء الله تعالى – [١] .

---

(١) انظر ص ٣٤٠ -٣٤٢.

الفصل الثاني
الإيمـان بالكتـب

الإيمان بالكتب هو الركن الثالث من أركان الإيمان كما جاء في القرآن الكريم، والسنة المتواترة.

قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾ [النساء: ١٣٦].

ومعنى الكتاب في اللغة: "اسمٌ لما كتب مجموعاً، والكتاب مصدر"(١)، يقال: كتب يكتب كتاباً وكتابة والجمع كُتبُ وسمي القرآن كتاباً لما جُمع فيه من القصص والأمثال والعقائد والأمر والنهي والتشريع، أو لأنه اشتمل على جميع الكتب السابقة وكل شيء جمع بعضه إلى بعض سُمي كتاباً وقد جاء في القرآن الكريم بمعنى اللوح المحفوظ كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

ويأتي بمعنى التوراة والإنجيل وبمعنى القرآن المجيد قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ ﴾ [فاطر: ٣٢]، وبمعنى الرحمة

(١) لسان العرب (١/ ٦٩٨).

والمغفرة قال تعالى: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام: ٥٤] وغير ذلك (١).

والمراد بالكتب التي يجب الإيمان بها الكتب المنزلة على أنبياء الله ورسله عليهم صلوات الله وسلامه عليهم، التي حوت الدعوة إلى توحيد الله عز وجل، وبيان شرائعه وأحكامه.

وقد جاء الإيمان بالكتب في سورة يونس عليه السلام في قوله تعالى:

﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس: ١ -٢].

وقد ذكر ابن جرير – رحمه الله – في قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾.

ثلاثة أقوال:

الأول: إن الإشارة إلى التوراة والإنجيل، روي عن مجاهد.

الثاني: إن الإشارة إلى الكتب التي كانت قبل القرآن رواه عن قتادة.

الثالث: روي عن آخرين أن الإشارة إلى آيات القرآن.

ثم قال – رحمه الله – "وأولى التأويلين في ذلك بالصواب تأويل من تأوله هذه آيات القرآن .. لأنه لم يجيء للتوراة والإنجيل قبل ذكر ولا تلاوة بعده فيوجه إليه الخبر" ا.هـ (١).

---

(١) انظر بصائر ذوي التمييز (٤/ ٣٢٩ -٣٣٢)، والصحاح (١/ ٢٠٨) والنهاية في غريب الحديث (٤/ ١٤٧) ولسان الميزان (١/ ٦٩٨).

ومن الآيات أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [يونس: ٣٧].

ومحل الشاهد قوله: ﴿ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ففي هذا إثبات الكتب السابقة وأن القرآن الكريم جاء مفصلاً لها ومهيمناً عليها ومبيناً ما وقع فيها من التحريف والتبديل، ومصدقاً لها "ونفس هذا التصديق معجزة مستقلة، لأن أقاصيصه موافقة لما في الكتب المتقدمة، مع أن النبي ﷺ لم يطلع على ذلك، ولا تعلمه ولا سأل عنه ولا اتصل بمن له علم بذلك .." (٢) .

ومن الآيات أيضاً قوله تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [يونس: ٩٤].

فقوله: ﴿ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ إثبات للكتب السابقة.

والإيمان بالكتب يتضمن ما يلي:

أولاً: الاعتقاد الجازم بأن لله جل وعلا كتباً أنزلها على أنبيائه ورسله.

ثانياً: إن الله تعالى تكلم بها على الحقيقة وليس مجازاً، وأن منها المسموع بدون حجاب، ومنها ما سمعه الرسول البشري من الرسول

==

(١) جامع البيان (١١/٨٠).

(٢) فتح القدير (٢/٤٤٥).

الملائكي مبلغاً عن ربه جل وعلا، قال تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [الشورى: ٥١].

ومنها ما خطه جل وعلا بيده قال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

ثالثاً: إن جميع هذه الكتب يصدق بعضها بعضاً قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [يونس: ٣٧].

رابعاً: إن نسخ هذه الكتب بعضها لبعض حق كما نسخ الإنجيل بعض شرائع التوراة وكما كان القرآن ناسخاً لجميع هذه الشرائع.

وأن النسخ جائز في القرآن الكريم فقد ينسخ بعضه بعضاً كما قال تعالى: ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ ﴾ [البقرة: ١٠٦].

خامساً: إن جميع هذه الكتب قد اتفقت على الدعوة على توحيد الله عز وجل وإن اختلفت الشرائع.

سادساً: الإيمان بأن لله كتباً كثيرة لا يعلم عددها إلا الله فنؤمن بها إجمالاً، ونؤمن بما ورد ذكره تفصيلاً كالتوراة، والإنجيل والزبور، وصحف إبراهيم، والقرآن. أما الإيمان بالقرآن الكريم فيشمل جميع ما سبق ويزيد عليها، بأنه يجب مع الإيمان به، امتثال أوامره واجتناب نواهيه، وتحكيمه في جميع شؤون البشر والعمل بمحكمه، والوقوف عند متشابهه، وأنه ناسخ لجميع الكتب السابقة ومهيمن عليها قال

تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة:٤٨] ، وأنه محفوظ بحفظ الله تعالى له، وتلك مزية له خاصة حيث تكفل الله تعالى بحفظه كما قال عز وجل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ [الحجر: ٩].

فجميع ما في المصحف هو كلام الله تعالى لم يفت منه شيء [(١)] .

هذا مجمل معنى الإيمان بالكتب، وإليك التعريف بأشهرها وهي ثلاثة:

١ - التوراة.
٢ - الإنجيل.
٣ - القرآن الكريم.

١- التوراة:

التوراة "لفظ عبراني بمعنى التعليم والشريعة" [(٢)] وهي منزلة على نبي الله موسى الكليم – عليه وعلى نبينا صلوات الله وسلامه – .

والتوراة تطلق اليوم عند اليهود [(٣)] على مجموعة الأسفار الخمسة، وهي سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر الأحبار، وسفر العدد، وسفر التثنية [(١)] .

---

(١) انظر فيما سبق: المنهاج في شعب الإيمان (١/٣١٧ -٣٢٣) وانظر شعب الإيمان للبيهقي ١/٤٤٧ وما بعدها، وانظر معارج القبول (٦٧٢ -٦٧٥) وانظر شرح الواسطية ص١٧.

(٢) إظهار الحق (١/٩٩) وانظر دائرة معارف القرن العشرين (٢/٧٠٢).

(٣) اليهود: هم قوم موسى – عليه السلام – وسموا بذلك الاسم نسبة إلى يهوذا ابن يعقوب وقيل: نسبة إلى الهود وهو التوبة والإنابة، وكان اليهود يعرفون ببني إسرائيل ثم أطلق ==

وقد أخبر الله تعالى بتحريفهم لها كما في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ۝٧٩﴾ [البقرة: ٧٩] ويقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٧٤﴾[البقرة: ١٧٤].

ومن الأدلة على أن التوراة الموجودة الآن محرفة ما يلي:

١ - ما جاء في وصف الرب تعالى بأوصاف لا تليق به تعالى ولا يمكن أن يصف بها نفسه جل وعلا في كتاب من كتبه، ومن أمثلة ذلك ما جاء في الإصحاح الرابع عشر من سفر العدد "فقال موسى للرب فيسمع المصريون الذين أصعدت بقوتك هذا الشعب من وسطهم ١٤ - ويقولون لسكان هذه الأرض قد سمعوا أنك يا رب وسط هذا الشعب الذين أنت يا رب قد ظهرت لهم عيناً لعين، وسحابتك واقفة عليهم وأنت سائر أمامهم بعمود سحاب نهاراً وبعمود نار ليلاً" (٢).

==

عليهم يهود: وديانتهم أصلها صحيح، ولكنهم حرفوا وبدلوا في دين الله تعالى ما لم يشرعه .. وهم فرق كثيرة منها: العنانية والعيسوية، والمقاربة، والسامرة، وغيرها.
انظر الملل والنحل (١/ ٢١٠ وما بعدها) ودائرة معارف القرن العشرين (١/ ٢٨٠ - ٢٩٣). والموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة ص١٨ وما بعدها.

(١) انظر إظهار الحق (١/ ٩٩)، ودائرة معارف القرن العشرين (٢/ ٧٠٢).

(٢) سفر العدد الإصحاح الرابع عشر الفقرة ١٣ - ١٤.

وما جاء في سفر التثنية في الإصحاح الرابع (٢٤ - لأن الرب إلهك هو نار أكله إله غيور) (١) .

٢ - اتهامهم هارون – عليه السلام – بصناعة العجل، وحاشاه وهو نبي من أنبياء الله أن يفتري على الله ويدعو إلى الشرك والوثنية ولكن اليهود إخوان القردة والخنازير، لا يفتؤون يفترون على الأنبياء الكذب والزور، ومن ذلك ما جاء في سفر الخروج في الإصحاح الثاني والثلاثين: "١ - ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون، وقالوا له قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا، لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه. ٢ - فقال لهم هارون انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بها. ٣ - فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون. ٤ - فأخذ ذلك من أيديهم وصوّرهُ بالأزميل وصنعه عجلاً مسبوكاً" (٢) .

إلى آخر ما جاء في كتبهم من التحريف والتبديل، بالإضافة إلى انقطاع أسانيدها، وما فيها من التناقض والاختلاف في التواريخ، وقد شهد بعضهم من المنصفين على أن هذه التوراة كتبت في زمن سليمان –

---

(١) سفر التثنية الإصحاح الرابع الفقرة ٢٤.
(٢) سفر الخروج الإصحاح الثاني والثلاثون الفقرة ١ -٤، وانظر الفقرة ٢١ -٢٦.

عليه السلام – لأن ما فيها شاهد على أن كاتبها ليس موسى – عليه السلام –[١].

٢– الإنجيل:

الإنجيل: "اسم عبراني أو سرياني وقيل: وهو عربي"[٢] قيل "كلمة يونانية معربة معناها البشارة بالخير أو الخبر السار"[٣] والإنجيل قبل أن يحرف هو كتاب الله أنزله إلى نبيه عيسى – عليه الصلاة والسلام – وأما اليوم بعد تحريف النصارى[٤] وتبديلهم فأصبح يطلق على مجمو عة الأناجيل الأربعة وهي:

١ - إنجيل متي.

---

(١) انظر الفصل في الملل والنحل ٢٥٢/١ وما بعدها، والجواب الصحيح (٣٥٦/١ وما بعدها) و (١٨/٢ -٢٠)، وإظهار الحق (١١٢/١ -١٢٨)، و(٤٢٥/٢ وما بعدها).

(٢) لسان العرب (٦٤٨/١١).

(٣) إظهار الحق (١٠٣/١) (الهامش).

(٤) النصارى: أمة المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، وقد مكث فيهم ثلاث سنين، وثلاثة أشهر تقريباً ثم رفعه الله بعد محاولة الصلب، فاختلف الحواريون بعده في أمرين:
الأول: كيفية نزوله، وتجسد الكلمة بأمه، الثانية: كيفية صعوده واتصاله بالملائكة وكان نتيجة اختلافهم، قول بعضهم بإثبات الأقايم الثلاثة. وسموها: الأب، والابن، والروح القدس، وزعموا أنه قُتل، وأن اليهود قتلوه حسداً وبغياً، وأن القتل وقع على الجزء الناسوتي، وقد انقسمت الكنيسة إلى شرقية وموقعها القسطنطينية وغربية وموقعها: روما، وهم فرق شتى منها: الملكانية، والنسطورية، واليعقوبية ومن الفرق الحديثة: الكاثوليك، والأرثوذكس، والبروتستانت. انظر الملل والنحل للشهرستاني (٢٢٠/١ -٢٢٨) ومحاضرات في النصرانية محمد أبو زهرة بكامله والموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة ص٦٤ وما بعدها.

٢ - إنجيل مرقس.

٣ - إنجيل لوقا.

٤ - إنجيل يوحنا.

وهذه الأناجيل الأربعة، تحوي تاريخ حياة عيسى عليه السلام وبعض أعماله وأقواله، ممزوجة بالتحريف والتثليث، والكذب على الله تعالى، وتسمى العهد الجديد ويلحق بها عدة رسائل [(١)] وقد اشتمل الإنجيل على التحريف، والتبديل، كالتوراة وثبت بالدليل القطعي، انقطاع السند بين كاتبه، الذي نقله وأنه لا يعرف له كاتب معروف [(٢)] وفيها من الدعوة إلى التثليث والإشراك بالله تعالى، وزعمهم أن عيسى عليه السلام ابن الله كما في إنجيل متى: في الإصحاح السابع والعشرين "٢٩ - وكان المجتازون يجدفون عليه وهم يهزون رؤوسهم ٤٠ - قائلين يا ناقض الهيكل وبانيه في ثلاثة أيام خلص نفسك، إن كنت ابن الله فانزل عن الصليب ٤٢ - خلّص آخرين وأما نفسه فما يقدر أن يخلصها إن كان هو ملك إسرائيل فلينزل الآن عن الصليب فنؤمن به ٤٣ - قد اتكل على الله فلينقذه الآن إن أراده لأنه قال أنا ابن الله" [(٣)].

بل وزعمهم أنهم كلهم أبناء الله - تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيرا – كما في إنجيل يوحنا الإصحاح الأول قوله: "١١ - إلى خاصته جاء وخاصته لم تقبله. ١٢ - وأمّا كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله أي "المؤمنون" باسمه ١٣ - الذين ولدوا

---

(١) انظر لسان العرب (٦٤٨/١١) وإظهار الحق (١٠٣/١ -١٠٤) ودائرة معارف القرن العشرين (٦٥٥/١ -٦٥٦).

(٢) انظر هداية الحيارى، ص٢١٨ -٢٢١.

(٣) إنجيل متى الإصحاح ٢٧ الفقرة ٣٩ -٤٣.

ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل من الله" (١)
ومن أدلة التحريف، والتبديل ما جاء في كتبهم من وصف الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه – بالأفعال القبيحة التي لا تصدر من عامة الناس، فكيف بالأنبياء – عليهم صلوات الله وسلامه – كما سيأتي – إن شاء الله (٢) ومن أدلة التحريف – أيضاً كتمانهم النصوص الدالة على صدق نبوة نبينا محمد ﷺ كما سيأتي إن شاء الله (٣) والأدلة كثيرة، وليس هذا مجال بسطها (٤) .

---

(١) إنجيل يوحنا الإصحاح الأول الفقرة ١١ -١٣.
(٢) انظر ص ٢٢٧ -٢٢٨.
(٣) انظر ص ٣١٠ وما بعدها.
(٤) انظر الفصل في الملل والنحل (١٣/٢ وما بعدها) وانظر الجواب الصحيح (٩/٢ وما بعدها) وانظر هداية الحيارى لابن القيم ص١٠٦، وما بعدها، وانظر إظهار الحق بجميع أجزائه، وانظر الجواب الفسيح للألوسي (٥٩٣/٢ وما بعدها).

٣- القرآن الكريم:

تعريفه:

أما في اللغة: هو مصدر قرأ يقرأ قراءة وقرآناً ومعناه الجمع والضم، وسمي القرآن بذلك، لأنها جمعت سوره، وضُم بعضها إلى بعض [(١)] "ومنه قولهم: ما قرأت هذه الناقة سَلىً قطُّ وما قَرأَتْ جنيناً قط، أي لم يضم رحمها على ولد" [(٢)].

وقد يطلق لفظ القرآن على القراءة والتلاوة "يقال قرأ قراءةً وقرآناً" [(٣)].

أما في الاصطلاح:

فالقرآن اسم لكلام الله تعالى، المنزل على نبيه محمد ﷺ الذي عجز الجن والإنس أن يأتوا بمثله، وهو كلام الله حقيقة لا مجازاً، ليس بمخلوق، منه بدأ وإليه يعود، المسموع بالآذان، المتلو بالألسنة، المحفوظ في الصدور، المكتوب في المصاحف، وهذا ما دل عليه الكتاب والسنة، واتفق عليه السلف [(٤)].

وقد وصف الله تعالى القرآن في هذه السورة بأنه حكيم في قوله تعالى: ﴿ الٓر تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ ﴾ [يونس: ١] أي "المحكم

---

(١) انظر الصحاح (١/٦٥) وانظر لسان العرب (١/١٢٨ -١٢٩) وانظر الجامع لأحكام القرآن ٢/٢٩٨.

(٢) لسان العرب (١/١٢٨).

(٣) المرجع السابق (١/١٢٩)، وانظر الصحاح (١/٦٥).

(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن (٢/٢٩٨)، ومجموع الفتاوى (١٢/٢٣٥ -٢٣٦) والوجيز في علم التفسير للسيوطي ص٣٩ -٤٠، وشرح الطحاوية ص١٣٥ - ١٣٦.

المبين" [١] وبأنه موعظة، وشفاء، وهدى ورحمة كما في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ ﴾ [يونس: ٥٧] وزعمت الجهمية، والمعتزلة ومن وافقهم أن القرآن مخلوق، قال القاضي عبدالجبار: "وأما مذهبنا في ذلك، فهو أن القرآن كلام الله تعالى ووحيه، وهو مخلوق محدث، أنزله الله على نبيه ليكون علماً ودالاً على نبوته .." ا.هـ [٢] واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الزمر: ٦٢].

وقالوا القرآن شيء، فهو مخلوق، واستدلوا أيضاً بقوله: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣] وقالوا جعل خلق، ولهم أدلة أخرى [٣] وأما الأشاعرة ومن وافقهم فقالوا: إن القرآن "هو القول القائم بالنفس الذي تدل عليه العبارات وما يصطلح عليه من الإشارات" [٤] وهناك فرقة الواقفة، وهم الذين يقولون لا نقول مخلوقاً ولا غير مخلوق وهم فرقتان:

الأولى: تقول: لا نقول إنه مخلوق ولا غير مخلوق وهم الشاكة.

الثانية: تقول: لا نقول هو مخلوق ولا غير مخلوق مع إيمانهم بأنه كلام الله. وقالوا ذلك تورعاً [٥] وجميع هذه الأقوال خالف أصحابها

---

(١) تفسير ابن كثير (٤٨٢/٣).

(٢) الأصول الخمسة ص٥٢٨ وانظر مقالات الإسلاميين ص١٥٣، ١٩١.

(٣) انظر شرح الأصول الخمسة ص٥٣١ وما بعدها وانظر المغنى (٢٠٨/٧ وما بعدها).

(٤) الإرشاد للجويني ص١٠٨ وانظر ص١٠٩ وما بعدها. وانظر الإنصاف للباقلاني ص٥٨ وشرح الفقه الأكبر بشرح ملا علي القاري، ص١٥.

(٥) انظر الرد على الجهمية للدارمي ص١٠٢ والسنة لعبدالله بن الإمام أحمد ص٤٣ والشريعة للآجري ص٨٧، وشرح أصول الاعتقاد (٣٢٤/٢) والفصل في الملل والنحل (١١/٣) وتحقيق كتاب التوحيد لابن خزيمة (٣٢٩/١).

إجماع الأئمة، كما نصَّ على ذلك عدد منهم كما روى البخاري – رحمه الله – في خلق أفعال العباد – عن سفيان بن عيينة قال: "أدركت مشايخنا منذ سبعين سنة منهم عمرو بن دينار يقولون: القرآن كلام الله، وليس بمخلوق" (١) وقال القاسم الأصبهاني – رحمه الله : "أجمع المسلمون أن القرآن كلام الله، و إذا صح أنه كلام الله صح أنه صفة تعالى، وأنه عز وجل موصوف به، وهذه الصفة لازمة لذاته" ا.هـ (٢) .

وروى عبدالله بن أحمد بن حنبل عن أبيه أنه سمع عبدالرحمن بن مهدي يقول "من زعم أن الله يكلم موسى يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه" (٣) .

والسلف – رحمهم الله تعالى – قالوا: "من بدأ" أي بمعنى أن الله تعالى هو المتكلم به فلم يخلقه في غيره، فيكون بدأ من هذا المخلوق وفي هذا رد على من قال بخلق القرآن، إذ لو كان بدأ من ذلك المحل لكان

---

(١) رواه البخاري في كتاب خلق أفعال العباد ص٧، والبيهقي في الأسماء والصفات (٣٨١/١) عن البخاري به وقال: "ورواه غير الحكم عن سفيان بن عيينة نحو رواية سلمة بن شبيب عن الحكم بن محمد" ا.هـ ورواه الدارمي في الرد على المريسي (ص١١٦ -١١٧) من طريق إسحاق بن إبراهيم الحنظلي به وزاد" الله الخالق وما سواه مخلوق والقرآن كلام الله منه خرج وإليه يعود" رواه الذهبي في العلو من طريق إسحاق بن راهويه بلفظ الدارمي (مختصر العلو ص١٦٤) وقال عقبة: وقد تواتر هذا عن ابن عيينة" ا.هـ ومشايخ سفيان بن عيينة هم عدد من الصحابة من أمثال ابن عباس وابن عمر وجابر بن عبدالله وعبدالله بن الزبير – رضي الله عنهم – وأكابر التابعين كعمرو بن دينار.
انظر شعب الإيمان للبيهقي (٤٥٨/١ -٤٥٩).

(٢) الحجة في بيان الحجة (١٩٣/٢) وانظر الفصل في الملل والنحل (١١/٣) والفتاوى الكبرى (١٤٤/٥) ومختصر الصواعق (٢٨٥/٢ -٢٨٦).

(٣) رواه عبدالله بن أحمد في السنة ص١٦، والبيهقي في الأسماء والصفات (٣٨٦/١) عن عبدالله بن أحمد به وإسناده ثقات.

صفة له، وليس صفة للرب تعالى [(١)] وأما أصوات العباد، وحركاتهم فهي مخلوقة، قال البخاري – رحمه الله: "حركاتهم [أي العباد] وأصواتهم، واكتسابهم وكتابتهم مخلوقة، فأما القرآن المتلو المبين المثبت في المصحف المسطور المكتوب، الموعى في القلوب فهو كلام الله ليس بخلق .." اهـ [(٢)] وقال أبو حنيفة – رحمه الله – : "والقرآن كلام الله في المصاحف مكتوب وفي القلوب محفوظ، وعلى الألسن مقروء، وعلى النبي ﷺ منزل، ولفظنا بالقرآن مخلوق، والقرآن غير مخلوق" اهـ [(٣)] وتفصيل ذلك أن اللفظ يطلق على المعنيين: الأول: الملفوظ وهو غير مخلوق قطعاً ولا استطاعة للعبد عليه. الثاني: التلفظ والتلاوة وهو فعل العبد، وهذا مقدور عليه وهو مخلوق [(٤)] ودليل ذلك من سورة يونس في قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ﴾ [يونس: ١٦] الآية وقوله تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ ﴾ [يونس: ٦١] الآية فأضاف التلاوة للعبد، وجعلها فعلاً له، ولاشك أن فعل العبد (التلاوة) مخلوق، وأما (المتلو) فليس بمخلوق فإن المبلغ لكلام غيره بلفظ صاحب الكلام، إنما بلغ غيره كما يقول: روى الحديث بلفظه وإنما يبلغه بصوت نفسه لا بصوت صاحب الكلام" اهـ [(٥)] ومن الآيات الكريمة في سورة يونس التي تثبت أن القرآن كلام الله قوله

(١) انظر مجموع الفتاوى (١٢/٤٠).
(٢) خلق أفعال العباد، ص٣٤.
(٣) الفقه الأكبر مع شرحه ص١٨٠.
(٤) انظر خلق أفعال العباد ص١٣٧ -١٥٤ وانظر شرح أصول الاعتقاد (٢/٣٤٦) وانظر تاريخ بغداد (٨/٦٤) و(٢/٣٠) وانظر مجموع الفتاوى (٦/٥٢٧) وانظر مختصر الصواعق (٢/٣٠٤ وما بعدها) وانظر معارج القبول (١/٢٩٢).
(٥) مجموع الفتاوى (١٢/٣٠٦).

تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [يونس: ٣٧].

فقوله: ﴿ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ دليل على أنه كلام الله. وقوله تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [يونس: ٩٤] فأضاف إنزال القرآن إليه – تعالى – مما يدل على أنه كلامه كما في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ ﴾ [آل عمران: ٧] الآية.

كقوله تعالى: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ﴾ [الشورى: ١٥] الآية، وليس هذا الإنزال كالإنزال المقيد بالسماء كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس: ٢٤] الآية فهذا بمعنى العلو، وهو بمعنى نزول الماء من السحاب، وليس كالإنزال المطلق الذي قد يشمل إنزال ذكور الأنعام الماء في أرحام الإناث وإنزال الحديد والسكينة وغير ذلك ولهذا قال تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [النحل: ١٠٢] وروح القدس هنا جبريل – عليه السلام – وهو الذي أنزل القرآن الكريم على نبينا محمد ﷺ (١) ومن الآيات في الرد على من قال إن القرآن مخلوق قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يونس: ٣٨].

ولو كان مخلوقاً لأمكن مضاهاته، والإتيان بمثله، كيف، وقد جاء في معرض التحدي لأقوام برزوا في الفصاحة والبلاغة، مع شدة

(١) انظر مجموع الفتاوى (١٢/١١٧ وما بعدها) وانظر (١٢/٢٤٦ -٢٥٧).

الحرص على تكذيبه؟: ومع ذلك لم يحاولوا ذلك، فدلَّ على أنه كلام الخالق جل وعلا، ثم إن القائل إن كلامٍ الله تعالى مخلوق إما أن يقول: إنه خلقه في ذاته أو منفصلاً عنه، أو قائماً بغيره.

والأول: باطل لأنه يستلزم أن يكون الرب تعالى محلاً للحوادث، فليس في ذاته شيء من خلقه، ولا في خلقه شيء من ذاته، بل هو سبحانه بائن من خلقه.

والثاني: باطل شرعاً وعقلاً فالصفة لا تقوم بغير الموصوف، ومحال أن تقوم الأعراض بذاتها وهذا مما يعلم في بداهة العقول.

والثالث: يلزم منه أن يكون كل كلام في الوجود كلامه الشعر والنثر والسب والشتم، ومن قال بالتفريق فعليه الدليل، وهذا من أبطل الباطل ومن مؤدى قول الحلولية [1] كما يلزم منه أن يكون قوله تعالى: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه: ١٤] هو قول الشجرة وهذا كفر، ولو جاز أن تقوم الصفة بغير الموصوف لجاز أن يسمى الأعمى بصيراً لأن البصر قد قام بغيره، ولجاز أن يسمى البصير أعمى لأن العمي قد قام بغيره وهذا واضح البطلان ولا يقول به عاقل [2].

---

(١) الحلولية: هم فرقة من فرق الصوفية الغلاة، يرون في أنفسهم أحوالاً عجيبة، وليس لهم نصيب من العلم، ويدعون أنه قد حصل لهم الحلول والاتحاد ومنهم الحسين بن منصور الحلاج الذي أفتى العلماء بقتله، فصلب سنة ٣٠٩هـ، وهم فرق كثيرة ترجع أغلب فرقها إلى غلاة الروافض كالسبابية، البيانية والجناحية والخطابية والنميرية، والروافض أول من أظهر هذه المقالة في الإسلام حيث ادعوا الحلول في الأئمة، انظر الفرق بين الفرق ص(٢٤١١ -٢٥٠) واعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص١١٦ -١١٧.

(٢) انظر الحيدة ص٧٤ وما بعدها، والرد على الجهمية، للإمام أحمد بن حنبل ص١٣٠.

ومما يبطل زعمهم هذا قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٤٠] فلو كان القرآن مخلوقاً لوجب أن يكون مقولاً له: "كن فيكون" ولو كان الله عز وجل قائلا للقول (كن) لكان للقول قولاً، وهذا يوجب أمرين: إما أن يؤول الأمر إلى قول الله غير مخلوق، أو يكون كل قول واقع بقول لا إلى غاية، وذلك محال، وإذا استحال ذلك صح وثبت أن لله عز وجل قولاً غير مخلوق" [١].

وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر: ٦٢] فهو استدلال باطل فقد قال الله تعالى في الريح التي أُرسلت على عاد: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف: ٢٥] ثم أعقبها بقوله تعالى: ﴿ فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ ﴾ [الأحقاف: ٢٥] وقوله تعالى في قصة بلقيس ملكة سبأ ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النمل: ٢٣] ومعلوم أنها لم تؤت كل شيء، بل ملك سليمان يفوق أضعاف ملكها، وإنما المراد من كل شيء يصلح للملوك.

ثم هؤلاء المعتزلة قد أخرجوا أفعال العباد من هذا العموم وجعلوها من خلق العباد كما سيأتي إن شاء الله [٢] فما دليلهم على هذا التفريق والمراد بكل شيء كل شيء مخلوق فيدخل في هذا أفعال العباد جزماً وقطعاً، ومعلوم أن الكلام صفة للرب تعالى، ولا يكون شيء من صفاته مخلوقاً بل هو تعالى — بذاته وصفاته الخالق للخلق أجمعين [٣] وكذلك استدلالهم بقوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣].

---

(١) الإبانة: ص٨٦ -٨٧.

(٢) انظر ص٤٤٨.

(٣) انظر الحيدة ص٣٠، واختلاف اللفظ للدين قتيبة ص٢٣٤، والرد على الجهمية للإمام أحمد بن حنبل ص١١٥ -١١٦ ومجموع الفتاوى ١٤٤/٦ وما بعدها، وشرح الطحاوية ص١٤٠.

استدلال باطل وجهل باللغة العربية وكلام العرب لأن (جعل) لها عدة معان منها: صار وأوجد وخلق .. وإذا كانت بمعنى الإيجاد والخلق تعدت إلى مفعول واحد كقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام: ١] أي بمعنى خلق، وأما إذا كانت بمعنى صير فهي تتعدى إلى مفعولين كقوله: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ ولا يصح أن يقال: إنه بمعنى خلق وإلا لجاز أن نقول في معنى قوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ [النحل: ٩١] أي خلقتم الله - تعالى الله علواً كبيراً - وهذا من أشنع الكفر [١] ومسألة خلق القرآن إنما تفرعت من القول بنفي الكلام عن الله تعالى، ولم تظهر هذه البدعة إلا بعد ظهور الجعد بن درهم [٢] .

ثم ظهور الجهم صفوان [٣] من بعده سنة ١٢٤هـ ولما رأت الأشاعرة فساد هذا القول عدلوا إلى قول وسط جمعوا فيه بين رأي أهل السنة، ورأي مخالفيهم فجعلوا القرآن قديماً قائماً بذات الرب تعالى، وما في

(١) انظر الحيدة ص٤٩ وما بعدها، والرد على الجهمية للإمام أحمد ص١٠٦ وما بعدها، والمفردات ص٩٤ وفتح الباري (٥٠٣/١٣) وشرح العقيدة الطحاوية ص١٤٣ - ١٤٤ وفتح الباري ٥٠٣/١٣.

(٢) الجعد بن درهم مبتدع ضال زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا، ولم يكلم موسى تكليماً قتله خالد القسري في يوم الأضحى وقصته مشهورة معروفة، وإقرار العلماء على قتله دليل إجماعهم على كفره وكان ذلك سنة ١١٨، انظر الفرق بين الفرق (٢٠٤ -٢١١) والملل والنحل للشهر ستاني (٨٦/١) والميزان ٣٦٩/١ والأعلام (١٢٠/٢).

(٣) الجهم بن صفوان، أبو محرز السمرقندي الضال المبتدع، رأس الجهمية قال الذهبي: "هلك في زمان صغار التابعين، وما علمته روى شيئاً، لكنه زرع شراً عظيماً" ا.هـ قتله سليم بن أحوز سنة ١٢٨هـ، "وعندما همَّ بقتله قال الجهم: إن لي أماناً من أبيك، فقال: ما كان له أن يؤمنك، ولو فعل ما أمنتك والله لو كنت في بطني لشققت بطني حتى أقتلك" انظر الملل والنحل للبغدادي ص١٤٥٥، وميزان الاعتدال (٤٢٦/١) والبداية والنهاية (٢٨/١٠) والأعلام (١٤١/٢).

المصحف عبارة عنه فشابهوا النصارى في مسألة اللاهوت والناسوت وقولهم هذا باطل ومما يبين بطلانه من سورة يونس قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [يونس:١٥]

وقوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يونس:٣٨] فالإشارة في قوله تعالى: ﴿ ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ ﴾ [يونس:١٥] بلا شك إلى القرآن الذي بين أيدينا، والرب جل وعلا يطالبهم بأن يأتوا بسورة من مثله فلو كان التحدي واقعاً على المعنى القائم بالنفس لقال المشركون، ومن يعلم بما في نفس الرب جل وعلا، وهذا تكليف بما لا يطاق، وما بالنفس لا يصح أن يشار إليه ثم لما طالبوا الرسول ﷺ أن يبدله لو كان من عنده — لقال ممكن لي أن أبدله من تلقاء نفسي، ولكن رد عليهم ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ [يونس:١٥] وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة — رضي الله عنه — قال: قال النبي ﷺ: "إن الله تجاوز لي عن أمتي ما وسوست به صدورها، ما لم تعمل أو تتكلم" (١) ففي الحديث تفريق بين حديث النفس وبين الكلام وأخبر أنه لا يؤاخذ به حتى يتكلم به، والمراد حتى ينطق به اللسان باتفاق العلماء، فعلم أن هذا الكلام في اللغة لأن الشارع إنما خاطبنا بلغة

(١) رواه البخاري في كتاب العتق باب: الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق ونحوه رقم ٢٣٩١ (٨٩٤/٢) ورواه مسلم في كتاب الإيمان باب: تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر رقم ١٢٧ (١١٦/١) عن قتادة به بلفظ (إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به).

العرب" (١) . ويقال لهم موسى عندما سمع كلام الله عز وجل هل سمعه كله، أو بعضه، فإن قالوا كله لزم ذلك أن يكون موسى عليه السلام قد اطلع على جميع علم الله، وإن قالوا بعضه، بطل مذهبهم، ويقال لهم أيضاً إن كان حقيقة الخبر هي الأمر، والنهي والاستفهام .. كان معنى قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [البقرة: ٤٣] هو معنى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٢] الآية وهذا ظاهر بطلانه، ويلزم أيضاً من قولهم أن تكون آية الدين هي معنى آية الكرسي، ومعنى سورة اللهب لأن النوع عندهم واحد (٢) .

ويقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ ﴾ [الأعراف: ١١] الآية والترتيب (بثم) التي تقتضي الترتيب مع التراخي، تفيد أن الكلام مع الملائكة كان بعد خلق آدم عليه السلام، وقولهم هذا يلزم منه أن يكون قال الله عز وجل هذا قبل خلقه لآدم والملائكة، كذلك قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [ق: ٣٠] فهل قال الله تعالى للنار "هل امتلأت" قبل أن يخلقها، وهل قالت: "هل من مزيدٍ" قبل أن يخلقها؟ وهذا من فساد هذا القول وشناعته (٣) والنصوص متواترة في بيان فساد هذا القول من جميع الوجوه، ويكفي في ذلك أحاديث الشفاعة وأحاديث الرؤية والحساب وأحاديث تكليم الله لملائكته وأنبيائه ورسله، كما بين ذلك ابن القيم

---

(١) شرح الطحاوية ص١٥٨،

(٢) انظر القاعدة النافعة في صفة الكلام لشيخ الإسلام ص٣١ (مطبوعة ضمن الرسائل المنبرية) وانظر مجموع الفتاوى (٨/٤١٣).

(٣) انظر مختصر الصواعق (٢/٢٩٦).

رحمه الله [١] وأما بدعة الوقف في القرآن فقد أنكرها السلف وشددوا في النكير على من اعتقدها وكفروا الفرقة التي لا تقول: إن القرآن كلام الله، وبدعوا الثانية التي تثبت ذلك لأن المسألة ظاهرة لا خفاء فيها [٢] قال الآجري – رحمه الله – : "وأما الذين قالوا: القرآن كلام الله عز وجل ووقفوا وقالوا لا نقول غير مخلوق، فهؤلاء عند كثير من العلماء .. مثل من قال: القرآن مخلوق وأشر، لأنهم شكوا في دينهم .." ا.هـ [٣] وقال أيضاً: "القرآن كلام الله عز وجل، غير مخلوق ومن قال: مخلوق فقد كفر ومن قال: القرآن كلام الله عز وجل ووقف فهو جهمي [٤] ، ومن قال: لفظي بالقرآن مخلوق جهمي كذا قال أحمد بن حنبل" ا.هـ[٥] .

---

(١) انظر المرجع السابق (٢/٢٩٧ -٢٩٨).

(٢) انظر الرد على الجهمية للدارمي ص١٠٢، والسنة لعبدالله بن أحمد ص٤٣، والشريعة للآجري ص٨٧، وتحقيق كتاب التوحيد لابن خزيمة (١/٣٢٩).

(٣) الشريعة: ص٨٧.

(٤) قد سبق بيان معنى اللفظ وتفصيل ذلك ص١٨٦ وقد شدد الإمام أحمد بن حنبل في ذلك لأن إطلاق اللفظ يوهم الاشتباه، وأول من قال ببدعة اللفظية الحسين بن علي بن يزيد الكرابيسي، وكان الإمام أحمد يتكلم فيه بسبب مسألة اللفظ هذه، قال فيه الأزدي: ساقط لا يرجع إلى قوله مات سنة ٢٤٥هـ، انظر تاريخ بغداد (٨/٦٤) وميزان الاعتدال (١/٥٤٤) والأعلام (٢/٢٤٤).

(٥) الشريعة، ص٨٩.

الباب الثالث
في النـبوة

وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: في الوحـي
الفصل الثاني: في إثبات النبوة
الفصل الثالث: في إثبات نبوة محمد ﷺ
الفصل الرابع: في الولايــة

الفصل الأول
في الوحـي

وفيه مبحثان:

الأول: المراد بالوحي وأنواعه

الثاني: شبه منكري الوحي والرد عليها.

المبحث الأول:
المراد بالوحي وأنواعه:

إن إثبات الوحي وتعريفه، ورد الشبهات على من أوردها، طريق إلى الإيمان بالرسل الكرام، وذلك لأن الإيمان بهم إنما هو عن طريق الإيمان بالوحي، بل الإيمان بالوحي هو السبيل إلى الإيمان بالله عز وجل وملائكته واليوم الآخر، لهذا كان تعريفه ورد شبهاته لزاماً عليَّ قبل الدخول إلى إثبات النبوات.

تعريفه:

"الوحي: الكتاب، وجمعه وُحِيٌّ، مثل حَلّيٍ وحُلّيٍ .. والوحي أيضاً: الإشارة، والكتابة، والرسالة، والإلهام، والكلام الخفي، وكل ما ألقيته إلى غير ذلك" (١) .

"والوحي: السرعة، يُمَّد ويقصر، ويقال: الوحى الوَحى: يعن البدار البدار" (٢) وقال الراغب: "أصل الوحي الإشارة السريعة، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت .. وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة" ا.هـ (٣) "واستوحاه: حركه،

(١) الصحاح (٢٥١٩/٦ -٢٥٢٠)، وانظر النهاية في غريب الحديث (١٦٣/٥)، وانظر لسان العرب (١٩/١٥) وانظر بصائر ذوي التمييز (١٧٩/٥ -١٠).
(٢) الصحاح (٢٥٢٠/٦).
(٣) المفردات، ص٥١٥.

ودعاه، ليرسله واستفهمه" [١] وأوحى إليه: بعثه، وأوحى إليه: ألهمه"[٢] .

ومن هنا يتبين أن معاني الوحي تدور حول، الإشارة، والكتابة، والرسالة، والإلهام، والسرعة، والكلام الخفي .. وهذه المعاني تدل على الوحي في تعريفه الشرعي وإن كانت أعم منه.

فأما تعريفه اصطلاحاً:

قال الزهري – رحمه الله – "الوحي: ما يوحي الله عز وجل إلى نبي من أنبيائه، فيثبت الله عز وجل ما أراد من وحيه في قلب النبي ﷺ يتكلم به النبي ﷺ ويبينه، وهو كلام الله عز وجل ووحيه، ومنه ما يكون بين الله ورسوله، لا يكلم به أحد من الأنبياء أحداً من الناس، ولكن سر غيب بين الله عز وجل وبين رسله، ومنه ما يتكلم به الأنبياء، ولا يكتبونه لأحد، ولا يأمرون بكتابته، ولكنهم يحدثون به الناس حديثاً، ويبينون لهم أن الله عز وجل أمرهم أن يبينوه للناس، ويبلغوه[٣] .

وقيل في تعريف الوحي "كلام الله المنزل على نبي من أنبيائه" [٤] وقيل الوحي "أن يُعَلِّمَ الله تعالى من اصطفاه من عباده كل ما أراد

(١) القاموس المحيط ص١٧٢٩.
(٢) لسان العرب (١٥/ ٣٨٠).
(٣) رواه الآجري في الشريعة عن الزهري بسنده عن يونس بن يزيد الأيلي ص٤٥٢ - ٤٥٣، ورواه البيهقي في الأسماء والصفات (١/ ٣١٠).
(٤) عمدة القارئ بشرح صحيح البخاري للبدر العيني (١/ ١٥).

إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم، ولكن بطريقة سرية خفية، غير معتادة للبشر" (١) وقيل الوحي "الإعلام بالشرع، وقد يطلق ويراد به اسم المفعول منه أي الموحى وهو كلام الله المنزل على النبي ﷺ (٢).

أركان الوحي:

ومن خلال هذه التعاريف يتبين أن للوحي في معناه الشرعي الاصطلاحي ثلاثة أركان هي: المصدر، والمورد، والمُوحى، فأما مصدره فهو الله عز وجل، وأما المورد فهو النبي أن الرسول ﷺ الذي يتلقى وحي الله، وأما المُوحى فهو كلام الله وأوامره التي أمر بها، وقد جاء ذكر الوحي في سورة يونس عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾ [يونس:٢] الآية. وفي قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [يونس:١٥] وقوله: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾ [يونس:٨٧]. وفي قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [يونس:١٠٩].

أنواع الوحي:

تعددت طرق الوحي، وأنواعه، فمنها ما يختص بالأنبياء، ومنها ما يشترك معهم غيرهم من البشر وغيرهم قال تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن

(١) مناهل العرفان (٥٦/١).
(٢) العقد المنتظم في أقسام الوحي المعظم ص٤.

﴿يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝﴾ [الشورى: ٥١] وهي كما يلي:

النوع الأول: الرؤيا الصادقة:

والرؤيا الصادقة "هي التي ليس بها ضغث (١) " (٢) ، وكانت الرؤيا الصالحة أول ما بدئ به ﷺ من الوحي كما جاء في حديث عائشة – رضي الله عنها – قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.." الحديث (٣) وشبهت بفلق الصبح لظهوره، ووضوحه، وكذلك الرؤيا، وقوعها حق لا مرية فيه (٤) وكان بدء الوحي للنبي ﷺ بالرؤيا الصالحة، وقال بعض العلماء، إنما كانت الرؤيا الصالحة إرهاصاً للنبوة، قال البدر العيني (٥) رحمه الله "إنما ابتدئ بها فبدئ بأول خصال النبوة، وتباشير الكرامة من صدق الرؤيا مع سماع الصوت وسلام الحجر والشجر عليه بالنبوة، ورؤية الضوء، ثم أكمل الله له النبوة

---

(١) "وكلام ضَغْثٌ وضَغَثٌ: لا خير فيه والجمع أضغاث .. وأضغاث أحلام الرؤيا التي لا يصح تأويلها لاختلاطها "لسان العرب (٣٣٢/٢) وانظر النهاية في غريب الحديث (٩٠/٣).

(٢) انظر فتح الباري ٣١/١.

(٣) رواه البخاري في كتاب الوحي باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول صلى الله عليه وسلم رقم ٣(٤/١) ورواه مسلم في الإيمان باب: الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رقم ٢٥٢ (ج١٣٩/١).

(٤) انظر فتح الباري ٣١/١.

(٥) بدر الدين أبو محمد محمود بن حمد بن القاضي شرف الدين الحنفي المعروف بالعيني، من كبار المحدثين ولد سنة ٧٦٢ تولى القضاء والحسبة في القاهرة وعزل عنها، له مصنفات كثيرة منها: عمدة القاري في شرح البخاري، ومغني في الأخبار في رجال معاني الآثار وغيرهما توفي سنة ٨٥٥ انظر شذرات الذهب (٨٢٦/٧ -٢٨٨) والأعلام (١٦٣/٧).

بإرسال الملك في اليقظة، وكشف له عن الحقيقة كرامة له" (١) وقال ابن حجر – رحمه الله – "وبدئ بذلك ليكون تمهيداً وتوطئة لليقظة، ثم مهد له في اليقظة أيضاً رؤية الضوء وسماع الصوت وسلام الحجر" (٢) وهذا يدل عليه حديث عائشة – رضي الله عنها – في قولها: "ثم حبب إليه الخلاء" وقوله "حتى جاءه وهو في غار حراء" إذ التعقيب بثم يدل على الترتيب مع التراخي ودل على أن الرؤيا كانت قبل الخلوة، وقبل نزول الملك، ولكن هذا لا يمنع أن تكون رؤياه – عليه الصلاة والسلام – بعد ذلك من الوحي، وكذلك رؤيا الأنبياء من قبله (٣)، قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴾ [يوسف: ٤] وقوله تعالى في قصة إبراهيم – عليه السلام –: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢] وقوله تعالى في شأن نبينا محمد ﷺ: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ٢٧].

وفي حديث أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – وفيه ".. فقلت يا رسول الله تنام قبل أن توتر؟ قال: لا تنام عيني ولا ينام قلبي" (٤).

وعن عبيد بن عمير (١) قال: "إن رؤيا الأنبياء وحي، ثم قرأ ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ ﴾ [الصافات: ١٠٢] " (٢) وعن معاذ بن جبل

(١) عمدة القاري (١/٦٧).
(٢) فتح الباري (١/٣١).
(٣) انظر مدارج السالكين (١/٥١).
(٤) رواه البخاري في كتاب المناقب: باب كان النبي صلى الله عليه وسلم تنام عينه ولا ينام قلبه رقم: ٣٣٧٦ ج (٣/١٣٠٨).

– رضي الله عنه – قال: "احتبس عنا رسول الله ﷺ ذات يوم غداة في صلاة الصبح، حتى كدنا نتراءى قرن الشمس، فخرج رسول الله ﷺ سريعاً فثوب بالصلاة وصلى، وتجوز في صلاته، فلما سلم قال: "كما أنتم على مصافكم" ثم أقبل علينا، فقال: "إني سأحدثكم ما حجبني عنكم الغداة، إني قمت من الليل فصليت ما قدر لي فنعست في صلاتي حتى استثقلت، فإذا أنا بربي عز وجل في أحسن صورة، فقال: يا محمد أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت لا أدري يا رب فرأيته وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله في صدري، وتجلى لي كل شيء وعرفت، فقال: يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت في الكفارات والدرجات، قال وما الكفارات؟ قلت: نقل الأقدام إلى الجمعات، وجلوس في المساجد بعد الصلوات، وإسباغ الوضوء عند الكريهات، قال: وما الدرجات؟ قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة والناس نيام .." (٣) الحديث.

==

(١) عبيد بن عمير أبو عاصم الليثي وهو ابن قتادة قاصي أهل مكة، روى عن عمر وأبي موسى الأشعري، وأبيه عمير بن قتادة، انظر التاريخ الكبير للبخاري (٥/٤٥٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتابه صفة الصلاة باب وضوء الصبيان موقوفاً على عبيد بن عمر رقم: ٨٢١ ج١/٢٩٤.

(٣) رواه الترمذي في كتاب التفسير في تفسير سورة (ص) رقم ٣٢٣٣ (٨/٣٦٥)، ورواه الإمام أحمد في المسند (٥/٢٤٣) واللفظ له، ورواه الدارمي في سننه عن عبدالرحمن بن عائش مختصراً، قال الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح، سألت محمد بن إسماعيل – يعني البخاري – عن هذا الحديث فقال هذا الحديث حسن صحيح، وقال هذا أصح من حديث الوليد بن مسلم عن عبدالرحمن بن يزيد بن جا بر قال حدثنا بن اللجلاج. حدثني عبدالرحمن بن العايش الحضرمي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الحديث وهذا غير محفوظ، وروى بشر بن بكر عن عبدالرحمن بن يزيد بن جابر هذا الحديث بهذا الإسناد عن عبدالرحمن بن عايش عن النبي صلى الله عليه وسلم وهذا أصح. وعبدالرحمن بن عايش لم يسمع من النبي صلى الله عليه وسلم" ا.هـ.

==

وقد اختلف في نزول شيء من القرآن بهذا النوع من الوحي، وسبب هذا الاختلاف ما روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك — رضي الله عنه — قال: (بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا، إذ غفا إغفاءة، ثم رفع رأسه مبتسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله، قال: "أنزلت عليَّ آنفاً سورة" فقرأ "بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

[الكوثر: ١ -٣]

ثم قال أتدرون ما الكوثر فقلنا: الله ورسوله أعلم. قال فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل، عليه خير كثير هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم، فيختلج العبد منهم، فأقول: رب إنه من أمتي، فيقول: ما تدري ما أحدثوا بعدك" [١] ومحل الشاهد في الحديث قوله: "فأغض إغفاءة".

قال السيوطي — رحمه الله — : "قال الرافعي [٢] في أماليه: فهم فاهمون من الحديث أن السورة نزلت في تلك الإغفاءة، وقالوا: من

==

وقال ابن رجب — رحمه الله — : في إسناده اختلاف، له طرق متعددة، وفي بعضهما زيادة ونقصان" ا.هـ اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى ص١٢، وقال الهيثمي: "رواه أحمد ورجاله ثقات ورواه الطبراني" ورجاله ثقات وفي الباب عن ابن عمر وثوبان رضي الله عنهم رواه البزار وأبو أمامة ورواه الطبراني ا.هـ مجمع الزوائد (١٦٧/٧ -١٧٩).

(١) رواه مسلم في كتاب الصلاة باب حجة من قال: البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة رقم ٤٠٠ (٣٠٠/١)، ورواه أبو داود في سننه كتاب السنة باب في الحوض رقم الحديث ٤٧٤٧ (٦٥٠/٢) عن المختار بن فلفل به مختصراً، ورواه الإمام أحمد في المسند (١٠٢/٣) عن المختار أيضاً بنحوه.

(٢) عبدالكريم بن محمد بن عبدالكريم، أبو القاسم القزويني: فقيه، من كبار الشافعية، كان له مجلس بقزوين للتفسير والحديث وتوفي فيها .. له "التدوين في ذكر أخبار قزوين" و"الأمالي الشارحة لمفردات الفاتحة .. وغيرها" ت٦٢٣ الأعلام (٥٥/٤).

الوحي ما كان يأتيه في النوم، لأن رؤيا الأنبياء وحي، قال: وهذا صحيح لكن الأشبه أن يقال إن القرآن كله نزل في اليقظة، وكأنه خطر له في النوم سورة وفسرها لهم، قال: ورد في بعض الروايات أنه أغمي عليه، وقد يحمل ذلك على الحالة التي كانت تعتريه عند نزول الوحي ويقال لها برحاء الوحي" ا.هـ ثم عقب عليه السيوطي بقوله - قلت: الذي قاله الرافعي في غاية الاتجاه، وهو الذي كنت أميل إليه قبل الوقوف عليه، والتأويل الأخير أصح من الأول لأن قوله أنزل عليَّ آنفاً يدفع كونها نزلت قبل ذلك، بل نقول نزلت تلك الحالة ليس الإغفاء إغفاء نوم، بل الحالة التي كانت تعتريه عند الوحي، فقد ذكر العلماء أنه كان يؤخذ عن الدنيا" ا.هـ [1] والذي يظهر أنهما حملا الحديث على عدة محامل أوجزها فيما يلي:

١ - أن تكون السورة نزلت في اليقظة ثم خطرت له – عليه الصلاة والسلام – في النوم، وهذا بعيد لما جاء في الحديث (أنزلت علي آنفاً سورة).

٢ - أو عرض عليه الكوثر في الجنة فقرأها عليهم، ليفهم أن هذا هو المراد من تفسير السورة.

٣ - إن ذلك الذي اعتراه – عليه الصلاة والسلام – هو حالة الوحي فظنها أصحابه إغفاءة، ورجح هذا السيوطي – رحمه الله – وهذا قد يشكل أيضاً مع ما كان يعلمه أصحابه ويعرفونه من حاله عليه الصلاة والسلام عند نزول الوحي وأنس بن مالك – رضي الله عنه – كان من كبار الصحابة، ولازم النبي ﷺ كثيراً. ولا ريب أن جبريل عليه

---

(١) الإتقان (١/٤٧ -٤٨)، وانظر العقد المنظم في أقسام الوحي، ص٦.

السلام يدارس الرسول ﷺ بالقرآن كل عام فلا وجه إذن لتأويل الحديث.

هذا فيما يتعلق برؤيا الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه، وأما رؤيا غيرهم من المؤمنين فهي من المبشرات وهي جزء من النبوة كما في الحديث عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: "إن رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة" (١) وعن ابن عمر – رضي الله عنهما –: "إن الرؤيا الصالحة جزء من سبعين جزءاً من النبوة" (٢) فعليه تكون الرؤيا على ثلاث مراتب:

الأولى: رؤيا الأنبياء – عليهم صلوات الله وسلامه – وهي حق، وصدق، وقد تقع كما هي من غير تأويل كما في رؤيا النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿ **لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا** ﴿٢٧﴾ ﴾ [الفتح: ٢٧]. وقد تُأول كما في رؤيا يوسف – عليه السلام –.

الثانية: رؤيا الصالحين من عباد الله، وهي صدق في الغالب ومصداق ذلك في قوله ﷺ "إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا، ورؤيا المسلم جزء من خمس

(١) رواه البخاري في كتاب التعبير باب الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ورواه مسلم في كتاب الرؤيا، في مقدمة الكتاب رقم: ٢٢٦٣ (١٧٧٤/٤).

(٢) رواه مسلم في كتاب الرؤيا، رقم: ٢٢٦٥ (١٧٧٥/٤)، وقال ابن حجر – رحمه الله – بعد إيراد الروايات في العدد: "فحصلنا من هذه الروايات على عشرة أوجه أقلها جزء من ستة وعشرين وأكثرها من ستة وسبعين وبين ذلك أربعون وأربعة وأربعون، وخمسة وأربعون، وستة وأربعون وسبعة وأربعون وتسعة وأربعون وخمسون وسبعون، وأصحها مطلقاً الأول ويليه السبعون .." ا.هـ الفتح ٨٠/١٢.

وأربعين جزءاً من النبوة، والرؤيا ثلاث: فالرؤية الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث المرء نفسه، فإن رأى أحدكم ما يكره، فليقم فليصل، ولا يحدث بها الناس" (١) وهي في الوقت نفسه لا تعد مسقطة لحكم شرعي، ولا موجبة له.

الثالثة: بقية الخلق، فساقهم ومنافقوهم .. وهؤلاء رؤياهم مشتملة على الصدق، وعلى ما عداه من أضغاث الأحلام وهو الغالب (٢).

وقد اختلف في كون رؤيا المؤمن جزءاً من النبوة، والنبوة قد انقطعت وختمت بنبينا محمد على أقوال كثيرة يطول شرحها منها:

١ - إن هذه الرؤيا توافق ما جاءت به النبوة ولا تخالفه، ونقل عن الخطابي.

٢ - إنها جزء من العلم الذي جاءت به الأنبياء، باعتبار أن لها اطلاعاً على بعض الغيب.

٣ - إن المراد بهذا الجزء يعود إلى المعنى اللغوي للنبوة، وهو الإنباء، والإخبار فتكون الرؤيا من باب الخبر الصادق، فلهذا هي جزء من النبوة لاعتبار الصدق فيها، والالجاز لصاحبها أن يسمى نبياً (٣).

٤ - قيل: إن كون الرؤيا ستة وأربعين جزءاً من النبوة خاص ذلك بالأنبياء لا يشاركهم غيرهم (٤).

٥ - إن المراد تشبيه الرؤيا بالنبوة، وجزء الشيء لا يكون مثله كجزء الصلاة لا يعد صلاة.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الرؤيا في المقدمة رقم ٢٢٦٣ (١٧٧٣/٤).
(٢) انظر فتح الباري (٣٧٩/١٢ -٣٨٢).
(٣) انظر المرجع السابق (٣٨٠/١٢ -٣٨٢)، و(٢٧/١).
(٤) انظر صحيح مسلم بشرح النووي (٢١/١٥ -٢٢)، ومدارج السالكين (٥٠/١).

٦ - وقيل: إن ذلك مما يرد علمه إلى الله تعالى [١] وهو الأقرب.

النوع الثاني:

النفث في الروع، والقلب، في الوقت الذي لا يرى فيه الملك، لكنه يقطع بكونه من عند الله عز وجل كما في حديث أبي أمامة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ : "إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها، فأجملوا في الطلب ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية فإن الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته" [٢].

وجاء في معنى النفث في اللغة إنه بمعنى "أوحى وألقى، من النفث بالفم، ومن شبيه بالنفح وهو أقل من التفل، لأن التفل لا يكون إلا ومعه شيء من الريق" [٣].

"والروع، بالضم: القلب والعقل، ووقع ذلك في روعي أي نفسي وخَلَدي وبالي" [٤] ومن المعنى اللغوي هذا يتضح المعنى المراد بهذا النوع من الوحي، وأنه إلقاء ونفخ من الملك الموكل، في قلب ونفس الرسول البشري، يعيه ويدركه، ويعلم أنه من عند الله عز وجل جزماً وقطعاً، وربما يعد هذا النوع داخلاً في إرسال الرسول، المذكور في قوله تعالى:

---

(١) انظر شرح الزرقاني على موطأ مالك (٣٥١/٤).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١٦/١٠ -٢٧)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد وقال: "رواه الطبراني في الكبير وفيه عفير بن معدان وهو ضعيف" ا.هـ (٧٢/٤) ورواه الحاكم من حديث ابن مسعود – رضي الله عنه – (٥/٢) بأطول منه، ومن حديث جابر بنحوه. وقال الذهبي في التلخيص: "على شرط مسلم وشاهده ثم ذكر حديث ابن مسعود حاشية المستدرك (٥/٢)، وهو عند ابن ماجة أيضاً من حديث جابر بنحوه رقم: ٢١٤٤ (٧٢٥/٢).

(٣) النهاية في غريب الحديث (٨٨/٥).

(٤) لسان العرب (١٣٨/٨) مادة (روع)، وانظر النهاية في غريب الحديث (٢٢٧/٢).

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [الشورى: ٥١] الآية.

كما قال السيوطي – رحمه الله – : "وهذا يرجع إلى الحالة الأولى أو التي بعدها (يريد حالة إتيان الملك في مثل صلصلة الجرس أو صورته الحقيقية) بأن يأتيه في إحدى الكيفيتين وينفث في روعه" ا.هـ [(١)] .

النوع الثالث:

أن يأتيه في مثل صلصلة الجرس فيتلبس به وهو أشده على النبي ﷺ روى البخاري عن عائشة أم المؤمنين – رضي الله عنها – أن الحارث بن هشام [(٢)] – رضي الله عنه – سأل رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ : "أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عنّي وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول" قالت: عائشة – رضي الله عنها – : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا [(٣)] .

والصلصلة في اللغة: "صوت الحديد إذا حرك، فقال صَلَّ الحديد وصلصل" [(٤)] ويقال: "تصلصل الحلي، أي صَوَّتَ" [(٥)] والجرس هو

---

(١) الإتقان (١/٩٨).

(٢) الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبدالله بن مخزوم، أبو عبدالرحمن القرشي أخو أبي جهل وابن عم خالد بن الوليد شهداً بدراً مع المشركين واحداً وأسلم يوم فتح مكة وحسن إسلامه، وتوفي في الشام قيل في طاعون عمواس وقيل شهيداً في معركة اليرموك، انظر الإصابة (١/٣٠٧ -٣٠٨)، والإعلام (٢/١٥٨).

(٣) سبق تخريجه ص١٦٧.

(٤) لسان العرب (١١/٣٨٢) مادة (صلل).

(٥) الصحاح (٥/١٧٤٥).

الجُلْجُل الذي يعلق على الدواب [١] وهو مشتق من الجَرَس وهو الصوت المجروس [٢] يقال "أرض خصبة جرسة، الجرسة: التي تصوت إذا حركت وقلبت" [٣] وهذه الصلصلة قيل "صوت الملك بالوحي، قال الخطابي: يريد أنه صوت متدارك يسمعه ولا يتبينه أول ما يسمعه حتى يفهمه بعد، وقيل: بل هو صوت حفيف أجنحة الملك" [٤].

واختلف في وجه تشبيه صوت الوحي، بصوت الجرس مع ثبوت النهي عنه فيما رواه مسلم وغيره عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: "لا تصحب الملائكة رفقة فيها كلب ولا جرس"[٥].

فقيل إن التشبيه هنا لا يلزم منه التساوي، بل قد يكون هناك تشابه في بعض الصفات دون الأخرى، والمراد هنا بيان الجنس.

وقيل: إن صوت الجرس له جهتان: جهة قوة، وجهة طنين، والمقصود هنا التشبيه به من ناحية قوته.

وقيل: ربما يكون النهي ورد بعد هذا السؤال [٦].

والأقرب أن يقال: إن التشبيه بأمر منهي عنه، لوجه من وجوه الشبه أمر لا ينافي ثبوت النهي في المشبه به، كما جاء تشبيه صوت داود – عليه السلام – بصوت المزمار مع ثبوت النهي عنه.

---

(١) لسان العرب (٣٦/٦) مادة (جرس).
(٢) المرجع السابق نفس الجزء، ص٣٥.
(٣) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة.
(٤) فتح الباري (٢٨/١).
(٥) رواه مسلم في كتاب اللباس، باب: كراهة الكلب والجرس في السفر رقم: ٢١١٣ (١٧٦٢/٣)، ورواه أبو داود في كتاب الجهاد، باب: في تعليق الأجراس، رقم: ٢٥٥٥ (٢٩/٢) عن سهيل بن أبي صالح.
(٦) انظر فتح الباري (٢٨/١).

وهذا النوع من الوحي كان من أشد أنواع الوحي، وكان الرسول ﷺ يعاني منه مشقة عظيمة كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة ففي صحيح مسلم عن عبادة بن الصامت، قال: كان النبي ﷺ إذا أنزل عليه الوحي نكس رأسه ونكس أصحابه رؤوسهم، فلما أُتلي عنه رفع رأسه (١) وعن زيد بن ثابت قال: إذا نزل الوحي على رسول الله ﷺ ثقل لذلك وتحدد جبينه عرقاً كأنه الجمان وإن كان في البرد (٢) وعنه أيضاً فيما يروى عنه: أن رسول الله ﷺ أملى عليه: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ٩٥] فجاءه ابن أم مكتوم وهو يُملها عليَّ، قال يا رسول الله والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت، وكان أعمى، فأنزل الله على رسوله ﷺ وفخذه على فخذي، فثقلت عليَّ حتى خفت أن ترضَّ فخذي، ثم سري عنه، فأنزل الله: ﴿ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ ﴾ (٣).

النوع الرابع: مجيء الرسول الملكي في صورة بشر:

(١) رواه مسلم في كتاب الفضائل باب: عرق النبي صلى الله عليه وسلم في البرد، وحين يأتيه الوحي رقم ٢٣٣٥ (١٨١٧/٤) وفي كتاب الحدود حد الزنى رقم: ١٦٩ (١٣١٦/٣ -١٣١٧).

(٢) رواه أبو نعيم في دلائل النبوة (٢٢٤/١)، وصححه العلامة الشيخ الألباني، انظر صحيح الجامع رقم: ٣٧٩٢ (٨٧٠/٢).

(٣) رواه البخاري في كتاب التفسير باب: "لا يستوي القاعدون من المؤمنين .. والمجاهدون في سبيل الله"، رقم: ٤٣١٦ (١٦٧٧/٤)، ورواه أيضاً في كتاب الجهاد باب: في قوله تعالى: "لا يستوي القاعدون من المؤمنين" الآية، رقم ٢٦٧٧ (١٠٤٢/٣)، ورواه أحمد في مسنده من طريق أخرى عن زيد بن ثابت – رضي الله عنه – (١٨٤/٥).

وهذه الحالة من أيسر الأنواع، إذ يرى الرسول ﷺ الملك ويخاطبه، ويعي منه ما يقول، وقد يشاركه في الرؤية غيره من أصحابه [١] ، كما كان جبريل عليه السلام يأتي الرسول ﷺ في صورة أعرابي، وفي صورة دحية الكلبي – رضي الله عنه – وغير ذلك كما جاء في حديث عمر بن الخطاب وأبي هريرة وعائشة – رضي الله عنهم – أجمعين [٢] .

واختلف العلماء في كيفية تصور الملك على صورة رجل فقيل: إن معنى ذلك إفناء الزائد أو إزالته، وتعاد بعد ذلك ونسب الحافظ ابن حجر – رحمه الله – هذا القول لإمام الحرمين [٣] .

وقيل: إن معنى ذلك انضمام أجزاء الملك بعضها إلى بعض، وعودتها إلى حالها ثانية كما يحصل للقطن، ونسب الحافظ هذا القول لشيخ الإسلام ورجح الحافظ إن هذا تغيير ظاهري لصورة الملك وأن هذا القدر الزائد لا يزول، وإنما يخفى على الرائي [٤] .

وفرق الشيخ محمد أبو زهرة – رحمه الله – بين هذا النوع والنوع الثاني وهو الإلقاء في الروع فقال: "إن لقاء جبريل عياناً في حال المخاطبة: إنما في هذه الحال فاللقاء في النفس وفي القلب والعقل ..ا.هـ[٥] .

---

(١) وفي إثبات هذا النوع من الوحي، إبطال لقول الفلاسفة في زعمهم أن الملائكة هي جواهر روحانية، وعقول فعالة، ولو كانت كما زعموا لما أمكن مجيئها بهذه الصورة.

(٢) انظر ص١٦٧.

(٣) عبدالملك بن عبدالله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، الملقب بإمام الحرمين، ولد في جوين من نواحي نيسابور ورحل إلى بغداد ومكة وجاور فيها، له مصنفات كثيرة منها العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية والشامل في أصول الدين على مذهب الأشاعرة والإرشاد وغيرهم، توفي سنة ٤٧٨هـ.
انظر الأعلام (٤/٦٠).

(٤) انظر فتح الباري (١/٢٩).

(٥) خاتم النبيين – صلى الله عليه وسلم – ص ٤٠٤.

النوع الخامس: رؤية الملك بصورته التي خلق عليها:

فيوحي إليه ما يشاء، وقد ثبت هذا لنبينا محمد ﷺ مرتين كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝ ﴾ [النجم:١٣ -١٥] وكما روى مسلم عن مسروق، قال: كنت متكئاً عند عائشة، فقالت يا أبا عائشة: ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية، قلت: ما هن؟ قالت: من زعم أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، قال وكنت متكئاً فجلست، فقلت يا أم المؤمنين: انظريني ولا تعجليني، ألم يقل الله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝ ﴾ [التكوير:٢٣] ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: "إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطاً من السماء ساداً عظيم، بين السماء والأرض .."[(١)] الحديث، فأما الأولى فكانت في الأرض بُعيد بعثته ﷺ بعد أن فتر الوحي روى البخاري عن جابر بن عبدالله – رضي الله عنهما – أنه سمع النبي ﷺ يقول في فترة الوحي: "بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه فرجعت فقلت: زملوني زملوني فأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝ ﴾ [المدثر:١ -٥] فحمي الوحي وتتابع" [(٢)].

---

(١) سبق تخريجه ص١٦٧.

(٢) رواه البخاري كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم ٤(١/ ٥ -٦)، ورواه في كتاب: بدء الخلق باب: إذا قال أحدكم: آمين، والملائكة في السماء فاقت إحداهما الأخرى .. رقم: ٣٠٦٦ (٣/ ١٨٢)، ورواه ==

وأما الثانية ففي السماء ليلة الإسراء والمعراج روى الإمام أحمد — رحمه الله — بسنده عن ابن مسعود — رضي الله عنه — أنه قال هذه الآية: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ قال رسول الله ﷺ : "رأيت جبريل عند سدرة المنتهى عليه ستمائة جناح ينثر من ريشه التهاويل الدر والياقوت" (١) .

النوع السادس: تكليم الله عز وجل لرسوله بلا واسطة ملك من وراء حجاب:

كما كلم الله موسى بن عمران كما ثبت في قوله تعالى: قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ [الأعراف: ١٤٣] الآية وكما كلم الله محمداً ﷺ ليلة المعراج عندما فرض عليه الصلوات الخمس (٢) .

وكما كلم الله آدم عليه السلام ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [البقرة: ٣٥] وفي هذا رد على الجهمية والمعتزلة ومن سار على منهجهم في نفي صفة الكلام عن الرب جل وعلا.

==

مسلم في كتاب الإيمان، باب: بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رقم: ١١٦(١٤٣/١) عن ابن شهاب به نحوه.

(١) المسند (٤٢١/١)، وذكره ابن كثير في تفسيره (٤٥٠/٦)، وقال: هذا إسناد جيد ا.هـ.

(٢) عدَّ ابن القيم — رحمه الله — هذا مرتبة مستقلة حيث قال "السادسة": ما أوحاه الله فوق السماوات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها" ا.هـ زاد المعاد (٧٩/١ -٨٠) ثم ذكر ذلك في المرتبة السابعة وهي "كلام الله بلا واسطة" وأفرادها بمرتبة مستقلة لا أرى له وجهاً لأنه يدخل ضمن هذه المرتبة ولاسيما وتكليم الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج كان على وجهين نوع منه بواسطة، ونوع بغير واسطة على قول من يرى أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه ليلة الإسراء والمعراج.

النوع السابع: تكليم الله عز وجل لرسوله من غير حجاب:

وهي خاصة بنبينا محمد ﷺ في رأي من يرى أن رسول الله ﷺ رأى ربه ليلة الإسراء والمعراج.

يقول ابن القيم – رحمه الله – : ".. وهذا على مذهب من يقول: إنه ﷺ رأى ربه تبارك وتعالى وهي مسألة خلاف بين السلف والخلف، وإن كان جمهور الصحابة بل كلهم مع عائشة (١) كما حكاه عثمان بن سعيد الدارمي إجماعاً للصحابة" ا.هـ (٢) .

وقد سبق الكلام في ذلك (٣) .

وجميع هذه المراتب ثبتت لنبينا محمد ﷺ وهذا من خصائصه (٤) .

يشكل إيراد ما سبق من أنواع الوحي من حديث عائشة – رضي الله عنها – السابق (٥) في تحديد حالات الوحي وحصرها في حالتين، وهذا

---

(١) أي في عدم الرؤية، كما هو رأي أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – .

(٢) زاد المعاد (١/٨٠).

(٣) انظر ص١٣٠ -١٣١.

(٤) نفي الشيخ محمد رشيد رضا – رحمه الله – أن تكون هذه المراتب جميعها تعد من الوحي التشريعي، وحصر الوحي التشريعي في ثلاث صور فقط الواردة في قوله تعالى: "وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً" الآية حيث قال: "وغير هذه الثلاثة من الوحي العام لا يعد من كلام الله التشريعي، والرؤيا الصادقة والإلهام مما وقع لغير الأنبياء" مجلة المنار ج٦ م٣٢ ص٤١٧. وهذه الأنواع ثبتت في الأحاديث الصحيحة كما سبق، ولا يمنع من اشتراكها ألا تعد من الوحي لأن ما يأتي النبي من الرؤيا أو الإلهام يعلم أنه وحي .. أما ما عدا الأنبياء فمعلوم أن ذلك يمنع أن تكون وحياً، ولو ادعى ذلك لعلم كذبه، وهو لا يسقط حكماً شرعياً، ولا يوجب مثله أيضاً وليس معصوماً، بل يعرض ما جاء به على الكتاب والسنة، فيعمل بما وافقتهما عما خالفهما.

(٥) حديث عائشة – رضي الله عنها – ص ٢٩٤.

يتعارض مع ما ثبت من الحالات الأخرى التي سبق بيانها وتفصيلها وقد أجيب عن ذلك بعدة أجوبة:

منها: إن ذكر الحالتين لا يقتضي الحصر إنما حملاً على الغالب.

ومنها: إن هذه الحالات الأخرى تقع نادراً، ومنها: إن التعدد إنما يعود إلى صفات الملائكة.

ومنها: إن هذه الحالات وقعت بعد السؤال.

ومنها: إنه لا تعارض بين هذه الحالات إذ صلصلة الجرس بالنسبة للرسول ﷺ ودوي النحل بالنسبة للحاضرين، وأما النفث في الروع فيمكن حمله على إحدى الحالتين، وأما الإلهام فلا يدخل في السؤال لعمومه، وكذلك الرؤيا الصالحة، فيترك فيها غير الأنبياء إذ هي جزء من النبوة من حديث الصدق كما سبق (١) وهذا القول الأخير هو أجمعها إذ أمكن به الجمع بين جميع الصور. والله أعلم (٢) وقال النووي: "مقصود السائل بيان ما يختص به النبي ﷺ ويخفى فلا يعرف إلا من جهته" ا.هـ (٣).

أما بالنسبة لوحي الإلهام والإرشاد، فهو عام ولا يختص بالأنبياء – عليهم صلوات الله وسلامه – وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [النحل:٦٨] الآية ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا

(١) انظر ص١٩٧ -١٩٩.

(٢) انظر فتح الباري (١/٢٧)، والعقد المنتظم في أقسام الوحي المنتظم ص٧ -٨.

(٣) شرح مسلم (١٥/٨٩)، وانظر مختصر السيرة لمحمد بن عبدالوهاب (٧٦ -٧٧)، ومناهل العرفان (١/٥٧)، والعقد المنظم في أقسام الوحي المعظم ص٤ وما بعدها، والرسل والرسالات (٥٩ -٦٥).

﴿رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص: ٧]. لأن من شرط النبوة الذكورة كما قال ابن كثير – رحمه الله – "هذا الوحي وحي إلهام وإرشاد كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨﴾ [النحل: ٦٨] الآية وليس بوحي نبوة كما زعمه ابن حزم، وغير واحد من المتكلمين بل الصحيح الأول كما حكاه أبو الحسن الأشعري(١) عن عقيدة أهل السنة والجماعة"ا.هـ(٢) ونفي نبوة النساء جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧﴾ [الأنبياء: ٧] فحصر النبوة في الرجال، والخلاف في ثلاث نسوة هن سارة زوجة إبراهيم – عليه السلام – وأم موسى، ومريم – عليهن السلام – والصحيح عدم ثبوت ذلك، لأن الرسالة والنبوة تستدعي الظهور، والبروز، ونشر الدعوة، والأنوثة بخلاف ذلك، إذ تقتضي التستر والحشمة، والرسالة والنبوة، تقتضي القوامة، فلو قامت بذلك المرأة لأصبحت قائمة على الرجال، وهذا خلاف الشرع، كما أن المرأة عرضة لما يعطلها عن هذه المهمات، وذلك بما يعتريها من حيض وحمل ونفاس .. ونحو ذلك وما يصاحب ذلك من متاعب وآلام واضطراب نفسي (٣) ومن الإلهام قوله

---

(١) علي بن إسماعيل بن إسحاق، أبو الحسن، مؤسس مذهب الأشاعرة، وكان من الأئمة المتكلمين المجتهدين ولد في البصرة، وتلقى مذهب المعتزلة وتقدم فيهم، ثم رجع وجاهر بخلافهم، توفي ببغداد سنة ٣٢٤هـ، من كتبه مقالات الإسلاميين، والإبانة في أصول الديانة وغيرهما، انظر الأعلام ٢٦٣/٤، والبداية والنهاية (٢١٧/١١).

(٢) البداية والنهاية (٢١٧/١١).

(٣) انظر البداية والنهاية (٢٢٤/١)، ولوامع الأنوار (٢٦٦/٢ -٢٦٧)، والعقد المنتظم في أقسام الوحي ص٨ -٩، والرسل والرسالات للأشقر ص٨٤ -٨٥.

تعالى: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [المائدة: ١١١].

وأما معناه قال صاحب اللسان "الإلهام أن يلقي الله في النفس أمراً يبعثه على الفعل أو الترك" (١).

وقال الإمام الشوكاني – رحمه الله – : "هو شيء يوقعه الله في روع من كتب له ذلك، فيلقيه إلى الناس فيكون مطابقاً للواقع، وليس من الكهانة، ولا من باب النجامة والرمل ولا من باب تلقين الشيطان .. (٢) ا.هـ.

والفرق بين الإلهام، والوحي، أن الوحي معصوم من الخطأ، أما بالنسبة للإلهام فليس معصوماً، فقد يقع وقد لا يقع (٣).

ومن الإلهام ما يجري على لسان عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – كما في الحديث الصحيح عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: "لقد كان فيمن قبلكم من الأمم ناس محدثون فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر" (٤) "والحديث إلهام خاص" (٥) ومنه أيضاً – ما وقع لوالد جابر بن عبدالله – رضي الله عنه – فيما روى البخاري عن جابر – رضي الله عنه – قال: "لما حضر أحد دعاني أبي من الليل فقال: ما أراني إلا مقتولاً في أول من يقتل من أصحاب النبي ﷺ وإني لا أترك

---

(١) لسان العرب (١٢/٥٥٥) مادة (لهم).

(٢) قطر الولي على حديث الولي ص٢٥٤، وانظر مدارج السالكين (١/٣٩، ٤٤ - ٤٥).

(٣) انظر تحقيق مشكاة المصابيح (٣/١٦٧٤).

(٤) رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – رقم: ٣٤٨٦ (٣/١٣٤٩)، رواه في كتاب الأنبياء باب: "أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم" رقم: ٣٢٨٢ (٣/١٢٧٩ - ١٢٨٠) عن أبي هريرة بنحوه.

(٥) مدارج السالكين (١/٤٥٤).

بعدي أعز عليَّ منك، غيرِ نفس رسول الله ﷺ وإن عليَّ دَيْناً، فاقض، واستوص بأخواتك خيراً فأصبحنا فكان أول قتيل، ودفن معه آخر في قبر، ثم لم تطب نفسي أن أتركه مع الآخر فاستخرجته بعد ستة أشهر فإذا هو كيوم وضعته هينة غير إذنه"[١].

وقيل: إن قوله هذا وجزمه إنما كان بناء على رؤيا رآها سابقاً، فظن وقوعها[٢].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأنبياء، باب: هل يخرج الميت من القبر واللحد لعلة رقم: ١٢٨٦ (١/٤٥٣).

(٢) انظر فتح الباري (٣/٢٥٦).

المبحث الثاني: شبه منكري الوحي والرد عليها:

إن من أخطر الوسائل للكيد للإسلام، وأهله، إنما يمكن في محاولة التشكيك في صحة الوحي، ونفي وقوعه، ولهذا كان هذا هو سبيل المشركين في السابق، وهو هدف المستشرقين وأذنابهم في الحاضر، وهم يحاولون بشتى الوسائل إثارة الشبه بين المسلمين في مصادره، ولاشك أن القرآن الكريم قد تصدى لكثير من شبههم وفندها، وفي هذه السورة الكريمة، ترد كثير من الشبهات التي أثارها المشركون، لرد رسالة محمد ﷺ وأستطيع القول: إن المحور الأساسي في جميع هذه الشبه هو دعواهم: "إن الوحي أمر نابع من نفس محمد ﷺ وفعله"، وبناء عليه تعددت شبههم وأقوالهم التي هي أوهى من بيت العنكبوت وأجملها فيما يلي:

الشبهة الأولى: دعوة السحر.

الشبهة الثانية: الزعم بأن ظاهرة الوحي نابعة من محمد ﷺ وتصوراته.

الشبهة الثالثة: دعوى الأخذ من الديانات السابقة كاليهودية والنصرانية، والمجوسية، والوثنية ..

الشبهة الرابعة: الزعم بأن ظاهرة الوحي ما هي إلا نتيجة لحالات عصبية مرضية، تعتري النبي ﷺ.

الشبهة الخامسة: الزعم بأن محمداً ﷺ كان شاكاً في الوحي، وأستعين بالله سبحانه وتعالى في رد هذه الشبه وتفنيدها.

الشبهة الأولى: دعوى السحر

ادعى كفار مكة بأن محمداً ﷺ ساحر، وبناء عليه فما جاء به هو من السحر قال الله جل وعلا: ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا

لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾ [يونس: ١ -٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ ﴾ [سبأ: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [يونس: ٧٦] وهو ديدن مكذبي الرسل من قبلهم قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٢] وقوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٠٩] وللرد على هذه الشبهة أبين الفروق بين النبي والساحر:

١ - إن الأنبياء والمرسلين تتنزل عليهم الملائكة قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٩٧] وقوله: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٠ -٢١١] أما السحرة وأضرابهم فتتنزل عليهم الشياطين والجن قال تعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٢١ -٢٢٢].

٢ - إن السحر مبناه على الظلم، والشرك، والكذب، على هذا فهو يعد من السيئات التي يبغضها الرب وينهى عنها، والأنبياء جاءوا بخلاف ذلك من الدعوة إلى التوحيد، والعدل، والصدق.

٣ - إن خوارق السحرة يمكن معارضتها وإبطالها من قبل السحرة ومن غيرهم، أما خوارق الأنبياء فلا يمكن لأحد أن يعارضهم، ولا يستطيع أحد أن يبطلها، ولهذا سحرة فرعون آمنوا بموسى بعد أن أيقنوا أن ما جاء به موسى عليه السلام ليس من جنس السحر.

٤ - إن كرامات اتباع الأنبياء دليل على صدق الأنبياء بخلاف خوارق السحرة فهي دليل على الساحر وعلى سحره ولا تتعداه.

٥ - إن هدف الساحر هو التخريب والإفساد في الأرض، أما الأنبياء فهم يدعون إلى العدل والإصلاح، وعبادة الله وحده لا شريك له.

٦ - إن السحرة والكهانة تنال بالكسب والتعلم، بخلاف النبوة.

٧ - إن خوارق السحرة والكهان مقدورة للجن والإنس بل والحيوان كالطير في الهواء، والمشي على الماء، بخلاف معجزات الأنبياء فلا يقدر عليها مخلوق كإنزال الكتب وتكليم موسى – عليه السلام – .. وغير ذلك.

٨ - الأنبياء – عليهم صلوات الله وسلامه – يصدق بعضهم بعضاً، أما السحرة فيكذب بعضهم بعضاً ويذم بعضهم بعضاً.

٩ - إن النبوة لو كانت تنال بالكسب لكان طريقها هو عبادة الله وحده لا شريك له والصدق والعدل وتزكية النفوس، بعكس السحر والكهانة فهي لا تنال إلا بالشرك بالله تعالى والكذب والزور والاحتيال.. وشتان بين الأمرين.

١٠ - إن هذه الأمور معروفة ومعتادة، ولها خواص مستلزمة لها، وهي خارقة لعادة سائر الناس دون الأنبياء [(١)].

ثم يقال لهم هل كان محمد – عليه الصلاة والسلام – معروفاً بالسحر والشعوذة قبل ذلك، حتى يتهم بأنه ساحر؟! وكان عقلاؤهم

---

(١) انظر النبوات ص٤٣ -٤٩، وانظر ص٤٣٩ -٤٤٩، والجواب الصحيح ٢١٤/١ وأيضاً الجواب الصحيح (٢٦٠/٤ -٢٦٢)، وإيثار الحق على الخلق، ص٢٠٤ - ٢١١.

يعترفون بذلك كما في حديث عتبة [١] بن ربيعة والنضر [٢] وغيرهما [٣] .

الشبهة الثانية: الزعم بأن ظاهرة الوحي نابعة من نفس محمد ﷺ وتصوراته:

وهي شبهة تثار في القديم، والحاضر، وقد تمسك المشركون بهذه الدعوى الباطلة، ولهذا جاء في سورة يونس – عليه السلام – الرد عليهم في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [يونس: ١٥ -١٦].

ويقول تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الطور: ٣٣ -٣٤].

وقد سار على ذلك المستشرقون، فنسبوا هذا الوحي، لمحمد ﷺ وتجاهلوا الحقيقة، وأعرضوا عن الحق الذي يعرفونه.

يقول جولد تسهير [١] : "وكان قد بلغ الأربعين من عمره – يقصد النبي محمد ﷺ - وأخذ يقضي وقته على ما تعود من الخلوة في

---

(١) عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، أبو الوليد: كبير قريش، وأحد سادتها في الجاهلية، كان موصوفاً بالرأي والحلم والفضل، خطيب نافذ القول .. أدرك الإسلام، وطغى فشهد بدراً مع المشركين، فأحاط به علي بن أبي طالب وحمزة وعبيدة بن الحارث فقتلوه (٤/٢٠٠).

(٢) النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف صاحب لواء المشركين ببدر كان من شجعان قريش ووجوهها، آذى الرسول - صلى الله عليه وسلم - كثيراً وهو ابن خالته قتل يوم بدر سنة ٢هـ.

(٣) انظر هذه الروايات في دلائل النبوة للبيهقي (٢/٢٠١ -٢٠٥).

الغيران المجاورة للمدينة حيث كان نهباً للأحلام القوية، والرؤى الدينية وتملكه شعور بأن الله يدعوه بقوة تزداد شيئاً فشيئاً ليذهب إلى قومه منذراً إياهم بما يؤدي بهم ضلالهم من الخسران المبين، وبكلمة واحدة، أحس بقوة لا يستطيع لها مقاومة تدفعه إلى أن يكون مربياً لشعبه، أي "منذره ومبشره" ا.هـ(٢).

والرد عليهم من خلال هذه الآيات من عدة أوجه.

الأول: في قوله تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس:١٥].

وهذا نص قاطع بأن ما نزل عليه من الوحي ليس من عنده، ولا يد له في وضعه: وصدق هذا يتبين من خلال:

١ - عجزهم عن الإتيان بمثله، مع تحديهم بذلك كما سيأتي بيانه(٣)، ولو كان من وضع البشر لأمكن مضاهاته، ومحمد ﷺ بشر من البشر، فكيف يقدر على ما عجز عنه البشر، فهو لا يقدر إلا على ما أقدره عليه ربه عز وجل من الآيات والبينات.

٢ - لو كان من وضع محمد ﷺ لكان الأولى به أن ينسبه إلى نفسه، وهو أعظم كتاب، ولقد كانت الحوادث تمر عليه — عليه الصلاة

==

(١) جولد تسهير (اجنتس) ولد سنة ١٨٥٠ في بلاد المجر من أسرة يهودية، درس في بودابست السنين الأولى، ثم ذهب إلى برلين، ثم انتقل إلى جامعة ليبتسيك وتتلمذ على يد فليشر وهو من كبار المستشرقين، ثم حصل على الدكتوراه عام ١٨٧٠م، أقام في القاهرة مدة ثم سافر إلى سوريا وفلسطين، عني بالدراسات العربية عامة والإسلامية خاصة، عين أستاذاً للغات السامية عام ١٨٩٤ في بودابست واستمر في بحوثه، ومؤتمراته الخاصة بالاستشراق حتى كانت وفاته سنة ١٩٢١ انظر موسوعة المستشرقين ١٩٧ -٢٠٣.

(٢) العقيدة والشريعة ص٧.

(٣) انظر ص٢٨٨ وما بعدها.

والسلام — فيستمر اليوم، واليومين، والشهر، وهو ينتظر فيها، كما في حادثة الإفك [١] وقصته مع اليهود الذين سألوه عن أصحاب الكهف والروح وغير ذلك [٢].

٣ - تنزيهه من الاختلاف والتفاوت، مع اشتماله على أنواع العلوم، ومع اختلاف موضوعاته، وتباينها، ومع ذلك نجد كمال الربط بين هذه الموضوعات المتفرقة، وهذا يدل على أنه من عند الله قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء: ٨٢].

٤ - إن قارئه لا يمله، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تبلى عجائبه وهذا لا يكون في كلام البشر [٣].

٥ - إننا نجد في القرآن عتاباً للنبي ﷺ في مثل قوله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ ﴾ [عبس: ١ -٢] وقوله: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [التوبة: ٤٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وهذا ينفي كون القرآن من وضعه [٤] ﷺ.

---

(١) كما روى البخاري في كتاب التفسير باب قوله تعالى: "لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا.." الآية رقم: ٤٤٧٣ (ج٤/١٧٧٤).

(٢) انظر ص٣١١ -٣١٢.

(٣) انظر إظهار الحق (٨١٩/٣ -٨٢٣).

(٤) انظر مناهل العرفان (٨٠/١).

٦ - لم يعرف من جميع ما ورد من الأخبار صحيحها وضعيفها أن محمداً – عليه الصلاة والسلام – كان يتطلع إلى النبوة، ويتوقع أن يكون هو النبي المنتظر.

٧ - إن حديث الوحي الصحيح، صريح بأن رسول الله ﷺ خاف على نفسه، عند نزول الوحي إليه في المرة الأولى، وهذا دليل على أنه باغته، ولم يكن معهوداً عنده[1].

الثاني قوله تعالى في سورة يونس: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦ ﴾ [يونس: ١٦].

وجه الدلالة يتبين من عدة أوجه:

منها: ما عرف من حاله ﷺ بأنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وهذا معلوم لديهم علماً يقينياً، وهل يمكن لأمي أن يأتي بهذا الكتاب المعجز؟!

ومنها: إن ذلك لم يصدر منه إلا بعد سن الأربعين، وهل سيخفى حاله كل هذه المدة، وهو الصادق الأمين، ثم يدعي النبوة كذباً بعد ذلك؟!!

ومنها: إن هذا الكتاب الذي جاء به، يحوي من الأخبار الماضية عن الأمم البائدة، ويحكي الأخبار الآتية، فأنى لمحمد ﷺ علم ذلك وهو الأمي الذي نشأ بمكة، بين قوم يعبدون الأوثان، وليس لهم علم، ولا كتاب، ولم يتسن له طلب العلم، ولا الاطلاع على الكتب السابقة، وهذا من أدلة صدقه ﷺ.

الثالث: في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [يونس: ١٦].

---

(١) انظر الوحي المحمدي، لمحمد رشيد رضا، ص١٢٣ -١٢٤.

وجه الدلالة إنه قد تبين لهم إن هذا الكتاب العظيم جاء به أمي لم يطالع كتاباً قبله، ولا تتلمذ على يد معلم قط، وهم يعلمون ذلك وليس ادعاء منه ﷺ ، وقد علموا أيضاً عجزهم عن الإتيان بمثله، فعلم بالضرورة أنه تنزيل من رب العالمين فإذا أنكروا ذلك وجحدوه كان هذا دليلاً على نقص العقل وسوء استخدامه (١) .

الوجه الرابع: في قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [يونس: ١٧] .

وجه الدلالة: إن القرآن الكريم لو كان من وضع محمد ﷺ لما كان في الدنيا أحدٌ أظلم لنفسه منه ﷺ إذا اختلق على الله الكذب، ولما كانت الدلائل والبينات تنفي ذلك دلَّ على أن هؤلاء المشركين أظلم الخلق بافتراءاتهم على الله ولردهم لكتابه وتكذيبهم لرسوله (٢) .

بل لقد شهد منصفوهم بأن هذا الوحي لا يمكن أن يكون من عند غير الله. يقول موريس بوكاي: "وهناك فرق جوهري بين المسيحية والإسلام فيما يتعلق بالكتب المقدسة، ونعني بذلك فقدان نصوص الوحي الثابت لدى المسيحية، في حين أن الإسلام لديه القرآن الذي هو وحي منزل وثابت معاً، فالقرآن هو الوحي الذي أنزله على محمد ﷺ عن طريق جبريل، وقد كتب فور نزوله، ويحفظه ويستظهره المؤمنون .." (٣) وهم أحياناً يصفونه بالعبقرية، والذكاء، والإصلاح الاجتماعي، ويقولون: إن ما تذكرونه من علوم القرآن ومعارفه وتشريعاته الكاملة لا يستقيم أن يكون وجهاً من وجوه الإعجاز، فهذا

---

(١) انظر تفسير الفخر الرازي (المجلد ١٧/ ٦١).
(٢) انظر تفسير الفخر الرازي المجلد (١٧/ ٦١).
(٣) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص١٠ -١١.

سولون اليوناني [١] وضع وحده قانوناً وافياً كان موضع التقدير والإجلال والطاعة وما قال أحد: إنه أتى بذلك معجزة ولا إنه صار بهذا التشريع نبياً [٢].

ونحن لو نظرنا إلى المجتمع الجاهلي لوجدناه بأمس الحاجة إلى المصلحين فأين محمد ﷺ مدة أربعين سنة وهو يعيش فيه، لم ينقل ناقل أنه وضع قانوناً ولا تشريعاً حتى جاءه الأمر من الله عز وجل [٣].

الشبهة الثالثة: دعوى الأخذ من الديانات السابقة

زعم عدد كبير من المستشرقين أن هذا الوحي الإلهي، تعلمه رسولنا ﷺ وأخذه من الديانات السابقة كاليهودية، والنصرانية والمجوسية [٤]، والوثنية، واستدلوا على ذلك بما يلي:

---

(١) أحد الفلاسفة اليونان في القرن السابع قبل المسيح ووالدته من أبناء بتراتوس آخر ملوك اثينا وكان من رجال المال ورجال الحرب وتولى في بلاده بعض الأعمال الإدارية والعسكرية وقيادة الجيش، وقد انتخب في سنة ٥٩٤ ق.م (أرخونا) أي رئيساً على الأمة بإجماع أحزابها كلهم وقلدوه سلطة مطلقة لتغيير ما شاء من نظم البلاد وقانونها الذي وضعه "زراكوت" من قبله فوضع لهم نظاماً جديداً قررت الحكومة والأمة اتخاذه دستوراً متبعاً عشر سنين .." الوحي المحمدي لمحمد رشيد رضا ص١٢٨ وانظر مجلة المنار ج٧ م٣٢ ص٤٢٩.

(٢) مناهل العرفان ٣٢٩/٢.

(٣) انظر مناهل العرفان ٣٢٩/٢ -٣٣٠، والوحي المحمدي ص١٢٨، ومجلة المنار ج٦ م٣٢ ص٤٢٨ -٤٢٩.

(٤) المجوسية: يقال لها الدين الأكبر، والملة العظمى، وهم يثبتون أصلين: النور وهو أزلي، والظلمة وهي محدثة وهما يقتسمان الخير والشر والنفع والضر والصلاح والفساد، ولهم اختلاف كبير في سبب حدوث الظلمة وهم يقولون: إن المبدأ الأول من الأشخاص: كيومرث، والنبي الثاني زردشت وهم فرق شتى منها: الكيومرثية والزَّروانية، والزردشتية، انظر الملل والنحل للشهرستاني (٢٣٣/١ وما بعدها)، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص١٣٤ وما بعدها.

١ - أوجه التشابه بين الإسلام وهذه الديانات.

٢ - أن اليهودية، والنصرانية وغيرهما من الديانات موجودة في جزيرة العرب.

٣ - وجود علاقات شخصية بين محمد ﷺ وبعض النصارى كورقة بن نوفل [١]، وبحيرا الراهب وغيرهما [٢].

يقول جولد تسهر: "لقد أفاد – يقصد النبي ﷺ - من تاريخ العهد القديم، وكان ذلك في أكثر الأحيان عن طريق قصص الأنبياء، ليذكّر على سبيل الإنذار والتمثيل بمصير الأمم السالفة، الذين سخروا من رسلهم الذين أرسلهم الله لهدايتهم ووقفوا في طريقهم" [٣] ا.هـ.

ويقول أيضاً: "لقد كان فيما مضى يعترف بأن الصوامع والبيع والصلوات تعتبر أمكنة عبادة حقيقية .. لكن الأمر تغير بعد هذا، كما صار رهبان المسيحيين وأحبار اليهود موضع مهاجمة منه، وقد كانوا في الواقع أساتذة له .." ا.هـ [٤].

(١) ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى من قريش: حكيم جاهلي، اعتزل الأوثان قبل الإسلام، وامتنع من أكل ذبائحها وتنصر، وقرأ كتب الأديان، وهو ابن عم خديجة زوج النبي صلى الله عليه وسلم صدق النبي صلى الله عليه وسلم وآمن به، سئل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يبعث يوم القيامة أمة وحده، انظر الإصابة (٣١٧/٦ -٣١٨)، وانظر الأعلام (١١٤/٨ -١١٥).

(٢) انظر آراء المستشرقين حول القرآن وتفسيره د. عمر رضوان (١٠٠/١، ١٠٤، ١١٣، ١٢٦ -١٢٧، ١٣٨).

(٣) العقيدة والشريعة، ص٩.

(٤) المرجع السابق ص١٣ -١٤ وانظر ص١٨.

وفي الأخذ من الوثنية الجاهلية يقول جولد: "وفيما يتعلق بشعائر الحج التي نظمها، أو على الأحرى احتفظ بها من بين تقاليد الوثنية العربية .." ا.هـ (١) وهم يهدفون في هذا إلى أمرين:

أحدهما: محاولة إثبات أن الإسلام ليس ديناً مستقلاً، وإنما هو مزيج من اليهودية، والنصرانية، وأن محمداً ﷺ لم يكن ليهتدي إلى هذا بفطرته، وهذا لا يكاد يغفله مستشرق تناول الحديث عن الإسلام (٢).

الثاني: الدعوة إلى النصرانية، وإنها الديانة السماوية الصحيحة.

الرد:

لقد ذكر الله عز وجل في القرآن الكريم إن مصدر القرآن هو الرب جل وعلا وأنه أنزله بعلمه قال تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾ [يونس: ٢] الآية فأضاف الوحي إلى نفسه سبحانه وتعالى وقال: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ [يونس: ١٥] الآية.

---

(١) المرجع السابق ص٢٣، ومن العجيب أن بعض المسلمين يحسنون الظن بهؤلاء المستشرقين، فمثلاً هذا المؤلف نجد أن المترجمين لكتابه يثنون عليه ويلقبونه "بالعلامة"!! ومن ذلك أيضاً قولهم: "ومما لا ريب فيه كذلك أنه بهذا التراث الذي خلفه، وبهذين الكتابين بصفة خاصة، يعتبر فيما نرى في المرتبة الأولى من المستشرقين، من أعظم من تناول الإسلام ومذاهبه وعلومه الأصلية بالدرس والبحث المستفيض، كما أنه لذلك أيضاً يعد من كبار المستشرقين الذين فهموا — بقدر ما وسعهم — الإسلام وروحه وتعاليمه ومذاهبه .." ا.هـ ولا أدري أي فهم للإسلام ذلك الذي فهمه وهو ينكر الوحي والقرآن ويزعم أنه مستمد من اليهودية والنصرانية ..!! وبهذا وحده يمكن أن يهدم الإسلام من أساسه فكيف وله من الشبهات، والافتراءات ما ملأ به كتابه هذا وغيره من مؤلفاته.

(٢) انظر الوحي المحمدي، د. عبدالجليل شلبي، ص١٩٩.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يونس: ٣٧ -٣٨].

وقبل الخوض في رد الشبهة أبين أن ردي لهذه الشبهة سوف يرتكز على دعامتين:

الأولى: نفي أن يكون ﷺ أخذ من علوم أهل الكتاب.

الثانية: بعد تقرير ذلك، يقارن بين ما جاء به محمد ﷺ من الوحي وبين ما عند أهل الكتاب من التكذيب والتحريف.

فأما لقاؤه ﷺ بعلماء أهل الكتاب وسفره إلى الشام مراراً فقد ثبت في السّير أنه ما رحل إلى الشام سوى مرتين، فأما الأولى فكانت مع عمه أبي طالب وهو طفل كما روى الترمذي – رحمه الله – وغيره عن أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه – قال: "خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه النبي ﷺ في أشياخ قريش فلما أشرفوا على الراهب هبطوا فخلوا رحالهم فخرج إليهم الراهب وكانوا قبل ذلك يمرون فلا يخرج إليهم ولا يلتفت (قال فهم يحلون رحالهم) فجعل يتخللهم الراهب حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ فقال هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، يبعثه الله رحمة للعالمين، فقال له أشياخ من قريش ما علمك؟ فقال إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا خرَّ ساجداً، ولا يسجدان إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة، ثم رجع فصنع لهم طعاماً فلما أتاهم به فكان هو في رعية الإبل فقال أرسلوا إليه فأقبل وعليه غمامة تظله فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة فلما جلس مال فيء الشجرة عليه فقال انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه، قال فبينما هو قائم

عليهم وهو يناشدهم ألا يذهبوا به إلى الروم فإن الروم إن رأوه عرفوه بالصفة فيقتلونه، فالتفت فإذا بسبعة قد أقبلوا من الروم فاستقبلهم فقال: ما جاء بكم؟ قالوا جئنا إن هذا النبي خارج في الشهر فلم يبق طريق إلا بعث إليه بأناس وإنا قد أخبرنا خبره بعثنا إلى طريقك هذا قال هل خلفكم أحد هو خير منكم قالوا إنما أخبره بطريقك هذا، قال أفرأيتم أمراً أراد اله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده؟ قالوا لا، قال فبايعوه وأقاموا معه، قال أنشدكم بالله أيكم وليه؟ قالوا أبو طالب فلم يزل يناشده حتى رده أبو طالب وبعث معه أبو بكر بلالاً وزوده الراهب من الكعك والزيت (١).

ولقد كان عمر النبي ﷺ في هذه الرحلة تسع سنين كما روى ذلك ابن جرير، وقيل: اثنتا عشرة سنة (٢).

وأما الرحلة الثانية فقد رواها ابن جرير — رحمه الله — وغيره بسنده قال: كانت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصي امرأة تاجرة، ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه بشيء تجعله منه، وكانت قريش قوماً تجاراً، فلما بلغها عن رسول الله

---

(١) رواه الترمذي في كتاب المناقب باب ما جاء في بدء نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ٣٦٢٤ (٢٤٣/٩ -٢٤٤) وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ا.هـ، ورواه ابن جرير بنحوه بطرق عدة في التاريخ (٣٦٣/٢ -٣٦٦)، وابن إسحاق السيرة (٢٣٦/١)، ورواه الحاكم في المستدرك (٦٧٢/٢) وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه" ا.هـ، ورواه البيهقي في الدلائل (٢٤/٢ -٢٩)، ورواه ابن سيد الناس في عيون الأثر (١٠٥/١ -١٠٨)، وقال الحافظ في الإصابة: الحديث رجاله ثقات، وليس منه منكر سوى اللفظ، فيحتمل أنها مدرجة فيه من حديث آخر وهما من أحد رواته" وقال ابن سيد الناس: "ليس في إسناد هذا الحديث إلا من خرج له في الصحيح .." عيون الأثر (١٠٨/١).

(٢) انظر تاريخ الأمم والملوك (٣٦٤/٢)، وعيون الأثر (١٠٥/١).

ﷺ ما بلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مالها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، مع غلام لها يقال له ميسرة، فقبله منها رسول الله ﷺ فخرج في مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة، حتى قدما الشام، فنزل رسول الله ﷺ في ظل شجرة قريباً من صومعة راهب من الرهبان، فأطلع رأسه إلى ميسرة فقال: من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ فقال له ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي، ثم باع رسول الله ﷺ سلعته التي خرج بها، واشترى ما أراد أن يشتري، ثم أقبل قافلاً إلى مكة، ومعه ميسرة، فكان ميسرة – فيما يزعمون – إذا كانت الهاجرة واشتد الحر يرى ملكين يظللانه من الشمس، وهو يسير على بعيره. فلما قدم مكة على خديجة بمالها، باعت ما جاء به فأضعفت، أو قريباً من ذلك، وحدثها ميسرة عن قول الراهب، وعما كان يرى من إظلال الملكين إياه، وكانت خديجة امرأة حازمة لبيبة شريفة، مع ما أراد الله بها من كرامته فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها، بعثت إلى رسول الله ﷺ فقالت له – فيما يزعمون – : يا ابن عم، إني قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك في قومك، وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك، ثم عرضت عليه نفسها .." الحديث [(١)] .

ومن خلال هذه الروايات يتبين أن رسول الله ﷺ لم يتعلم من أهل الكتاب شيئاً، والأدلة على ذلك ما يلي:

---

(١) تاريخ الأمم والملوك (٣٦٧/٢ -٣٦٨)، ورواه ابن إسحاق في السيرة، انظر سيرة ابن هشام (٢٤٤/٢ -٢٤٥) ورواه البيهقي في الدلائل (٦٥/٢ -٦٧)، وابن سيد الناس في عيون الأثر (١١٥/١ -١٢٠).

الأولى: إن رسول الله ﷺ عندما ذهب في المرة الأولى كان صغيراً مع عمه أبي طالبٍ وهو لا يفقه شيئاً من أمور أهل الكتاب، وفي المرة الثانية كان مشغولاً بالتجارة وفي كلا السفرتين كان معه شاهد، ففي الأولى عمه، وفي الثانية غلام خديجة – رضي الله عنها – ولو وقع شيء من ذلك لنقلاه لنا، واستفاض، كما إن القافلة بها عدد كبير من الرفاق الذين لا يخفى حال بعضهم عن بعض، فلو اعتزلهم محمد ﷺ ليطلب علم أهل الكتاب لشاع ذلك.

الثاني: إن بحيراً الراهب بشر بنبوة محمد ﷺ فلو أن محمداً ﷺ أخذ منه لم ينسب النبوة له، ولكان هو أولى بالنبوة والرسالة.

الثالث: إن مما يستحيل في العادة أن يبرز عالم في علم من العلوم، ما لم يكثر التراداد على العلماء والأخذ منهم، والصبر على تلقي العلم، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ لم يتردد على هؤلاء الأحبار والرهبان، ولا جالسهم، وهو أُمي لا يعرف القراءة ولا الكتابة، وهذا دليل قاطع على أن العلم الذي تعلمه والوحي الذي جاء به إنما هو من عند الله قطعاً وجزماً.

الرابع: أما بالنسبة لورقة بن نوفل، فحديثه في البخاري (١) دليل على نبوة محمد ﷺ إذ شهد له بالنبوة، وأن قومه سيخرجونه، فحصل ما قال، وهذا دليلٍ على صحة الرسالة، بل تأمل قوله "وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً" فهو يعلن المتابعة والنصرة، وهذا بناء على علمه السابق بصدق نبوة محمد ﷺ .

---

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الوحي باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رقم ٣(٥٠٤/١) عن عائشة – رضي الله عنها.

الخامس: قد دلت النصوص على أنه لا يوجد بين رسول الله ﷺ وبين ورقة بن نوفل أي صلة قبل الوحي، ولم يطرأ على بال محمد ﷺ أن يذهب إليه ويخبره، وإنما كان ذلك من اقتراح خديجة – رضي الله عنها – لعلمها بابن عمها وإن لديه علم الكتاب.

السادس: جاء في الحديث "ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي" فالنص دليل على أن موت ورقة كان سريعاً بعد نزول الوحي، بفترة وجيزة إذن فكيف أن لهذه الدعوة أن تستمر وتؤتي ثمارها على مدى خمسة عشر قرناً؟!

السابع: لم يؤثر عن ورقة أنه كان داعية إلى النصرانية، إنما المعروف أنه رجلاً كان حريصاً على معرفة دين الله الصحيح ليتعبد به، فاعتنق لذلك النصرانية.

الثامن: إننا نعلم شدة عداوة أهل الكتاب للنبي ﷺ وكتمانهم لأدلة نبوته عندهم، ومحاولتهم التشكيك والطعن في نبوته، فلو علموا شيئاً من ذلك لأظهروه.

الدليل التاسع: إن هذا لم يتم ولو تم لنقل لنا، وإذ لم ينقل لم يصح ادعاؤه، لأن الدعوى لابد لها من دليل، ولا دليل هنا بل الأدلة بخلافه.

الدليل العاشر: إن المتأمل لحياة العرب في مكة، يجد ذلك المجتمع الصغير، الذي لا يكاد يخفى بعضه على بعض، كما يلحظ اجتماعاتهم المستمرة في المسجد الحرام، فهل كان سيخفى أمر سفر محمد ﷺ إلى الشام وتكرار ذلك، وهو الشاب المعروف، الذي كان أهل مكة يعرفونه أيما معرفة ويودعونه أموالهم؟!!

الدليل الحادي عشر: هل يعقل أن يكون هذا الدين بكماله وتعاليمه، مستمداً من دين محرف [(١)] ، كتمه أهله، وحرفوه وأعرضوا عن تعاليمه، فكيف يلحق الكامل بالناقص؟

الدليل الثاني عشر: إن قصص الأنبياء عند أهل الكتاب في غاية من الوقاحة، إذ نسبوا إلى الأنبياء كثيراً من الفضائح التي يترفع عنها عامة الناس. ومن الأمثلة على ذلك، ما جاء في سفر التكوين، الإصحاح التاسع. ٢٠ - وابتدأ نوح يكون فلاحاً وغرس كرماً. ٢١ - وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه. ٢٢ - فأبصر حاماً أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أبيه وأخبر أخويه خارجاً. ٢٣ - فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشياً إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء، فلم يبصرا عورة أبيهما. ٢٤ - فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير. ٢٥ - فقال ملعون كنعان، عبدالعبيد يكون لإخوته [(٢)] .

وفي سفر التكوين أيضاً الإصحاح التاسع عشر، في ذكر قصة لوط – عليه السلام – . ٢٠ - وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه لأنه خاف أن يسكن في صوغر. فسكن في المغارة هو وابنتاه. ٢١ - وقالت البكر للصغيرة أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض. ٢٢ - هلم نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه، فنحيي من أبينا نسلاً. ٢٣ - فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة. ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. ٢٤ - وجدت في الغد البكر قالت للصغيرة إني قد

---

(١) انظر أمثلة التحريف، ص١٨٠ -١٨٣.

(٢) سفر التكوين الإصحاح التاسع الفقرة (٢٠ -٢٥).

اضطجعت البارحة مع أبي، نسقيه خمراً الليلة أيضاً فادخلي اضطجعي معه. فنحيي من أبينا نسلاً. ٢٦ - فحبلتا ابنتا لوط من أبيهما [١].

فهل يليق أن يصدر هذا من الأنبياء — عليهم صلوات الله وسلامه — وهذا غيض من فيض مما لديهم من ذلك [٢] — أخزاهم الله — وأين هذا من قصص القرآن الكريم وإن وجد بعض التشابه بين القصص، فمرد ذلك إلى أنها جميعاً وحي الله، ومع تحريفهم، وتبديلهم إلا أنها لا تزال فيها بقية باقية.

و"جولد تسهر" عندما ادعى ذلك لم يأت على ما ذكر مثالاً يبين صدق دعواه، ولهذا يحاول أهل الكتاب إثبات أن محمداً ﷺ كان يعرف القراءة والكتابة، وما شاع عن أميته عن صحيح، بل هو لإظهار معجزته، ونصوص الوحي ترد عليه قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[الأعراف: ١٥٧].

الدليل الثالث عشر: إنه قد علم حالة المجتمع الجاهلي قبل بعثة الرسول ﷺ وحالتهم السيئة التي يعيشونها، وفشو الجهل، وفساد الأخلاق، وفي هذا الوسط يبرز أحد الأفراد فيأتي بعلم الأولين والآخرين، ويشرع الشرائع، ويبين الأحكام، وهذا مما يستحيل في العادة، وفي ذلك إثبات صدق الوحي والرسالة.

---

(١) سفر التكوين الإصحاح التاسع عشر الفقرة (٢٠ - ٢٦).

(٢) للاستزادة انظر إظهار الحق (٣/٨٣٥ - ٨٣٦) والأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، د. علي عبدالواحد، ص٤٨ - ٦٢.

الدليل الرابع عشر: إن المشركين عندما راموا الطعن في النبوة والوحي، نسبوا هذا إلى رجل أعجمي يعمل حداداً، وهذا مبلغ السخافة والظرافة، وهذا يصور مدى مبلغ العداوة لنبي الأمة وخاتم المرسلين، ولهذا أنكر الله عز وجل ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل:١٠٣] ، ومع هذا فلم يقولوا: إنه تعلمه من علماء أهل الكتاب!!.

الدليل الخامس عشر: إن القطع بأن محمداً ﷺ لم يتلق ذلك من بشر يحصل على طريقين، الأول: طريق قومه ومجتمعه الذي عاش فيه وسبق بيان ذلك في الأدلة السابقة.

الثاني: وهذا لمن لم يعش في زمنه، وإنما سمع ذلك فعلمه بذلك من عدة طرق: منها: ما تواتر من أحواله، وسيرته الذاتية منذ مولده إلى وفاته ﷺ وكلها معلومة لدينا، فكيف خفي هذا الأمر مع أهميته، وظهر ما هو أقل منه.

ومنها: أنه ﷺ أخبر بأمور لم يكن يعلمها أهل الكتاب، ولا غيرهم كقصة عاد وثمود، وصالح، وإنزال المائدة، وإيمان امرأة فرعون، وكثير من تفاصيل سير الأنبياء، مما هو مجمل عند أهل الكتاب.

ومنها: ما علم من شدة العداوة له ﷺ من قبل قومه، ومن قبل أهل الكتاب، ولو وقع ذلك لقال قائلهم: "إنما تعلم ذلك منا وعن طريقنا".

ومنها: إن هذا الأمر مما تتوافر الدواعي على نقله، ولو كان هناك تواطؤ على كتمانه لعلمه المقربون منه ﷺ ، وهل يظن ظان أن هؤلاء الصحبة سيتحملون هذه المشاق، والعذاب، والهجرة، وترك الأوطان مع علمهم وتكذيبهم باطناً بهذا الرسول، وهو في الوقت نفسه لم

يعطهم مالاً، ولا جاهاً، ولا قصوراً بل أخرجهم من أوطانهم وأهليهم، ومعلوم أن الجبلة والفطرة تأبى أن تتبع كاذباً قد علم كذبه.

الدليل السادس عشر: ثبت في القرآن والسنة أن أهل الكتاب كانوا يسألون النبي ﷺ في الأمور الغيبية كما قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ ﴾ [الكهف: ٨٣].

وقوله: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٥].

وفي حديث عبدالله بن سلام — رضي الله عنه — عن أنس بن مالك — رضي الله عنه — قال: بلغ عبدالله بن سلام مقدم رسول الله ﷺ المدينة، فأتاه فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة، ما أول طعام يأكله أهل الجنة، ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه، ومن أي شيء ينزع إلى أخواله؟ فقال ﷺ: "خبرني بهن آنفاً جبريل"، قال: فقال عبدالله: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقال رسول الله ﷺ: "أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤها كان الشبه له، وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها". قال: أشهد أنك رسول الله.." (١) الحديث. ولو أخذ هذا منهم لما سألوه أولاً، ولفضحوا أمره ثانياً وعلمهم لها إنما أخذوه عن أنبيائهم، ولو تلقاه منهم لم يكن نبياً.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأنبياء باب: قوله تعالى: "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة" البقرة ٣٠ رقم ٣١٥١ (ج٣/١٢١١ -١٢١٢)، ورواه أيضاً في فضائل الصحابة، باب: كيف آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه رقم ٣٧٢٣ (ج٣/١٤٣٣) عن حميد به بنحوه.

الدليل السابع عشر: إن هذه الأنباء الغيبية التي جاء بها رسول الله ﷺ من أخبار الساعة والقيامة والحشر، وأخبار غزواته، وأنباء المستقبل التي كانت تقع كما أخبر ﷺ ووقعت في حياته، وبعد مماته، فإن قيل إن ذلك عند أهل الكتاب، قيل لهم: إن هذا دليل صدقه ﷺ، فإن هذه الأنباء ذكرت في كتبهم ونسبت إلى نبي، وهو هذا النبي الذي أخبرت به وبشرت به كتبهم.

الدليل الثامن عشر: إن المجتمع كان إما مشركاً، وإما كتابياً ولم يكن فيهم أحد يدعو إلى ما دعا إليه محمد ﷺ.

الدليل التاسع عشر: قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [العنكبوت:٤٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : "معلوم أن من يعلم من غيره إما أن يأخذ تلقيناً وحفظاً، وإما أن يأخذ من كتابه، وهو لم يكن يقرأ شيئاً من الكتب من حفظه، ولا يقرأ مكتوباً، والذي يأخذ من كتاب غيره، إما أن يقرأه، وإما أن ينسخه، وهو لم يكن يقرأ ولا ينسخ" ا.هـ (١).

الدليل العشرون:

إن كثيراً من آيات القرآن تحيل أن يكون محمداً ﷺ اقتبس من أهل الكتاب كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [آل عمران:١٨٧] وقوله: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ

(١) الجواب الصحيح (٣١/٤).

قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [المائدة: ١٥] وقوله: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ [المائدة: ١٩] وقوله: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [التوبة: ٣٠] وأمثال ذلك كثير.

يقول محمد رشيد رضا – رحمه الله – : "إن هذه المعلومات المحمدية التي تصورها هؤلاء المحللون لمسألة الوحي قليلة المواد، ضيقة النطاق عن أن تكون مصدراً لوحي القرآن. وإن القرآن لأعلى وأوسع وأكمل من كل ما كان يعرفه مثل بحيرا، ونسطور، وكل نصارى الشام، ونصارى الأرض ويهودها، دع الأعراب الذين كان يمر بهم النبي ﷺ بالطريق إلى الشام" ا.هـ (١).

وبالجملة فجميع ما سبق ذكره في إبطال كون اليهودية والنصرانية مصدر الوحي المحمدي هي أيضاً دليل على بطلان كون غير هذه العقائد مصدراً له، فإنه إذا بطل كون اليهودية والنصرانية مصدراً له، بطل من باب أولى أن تكون المجوسية، أو الوثنية أو غيرهما مصدراً له، فهو جاء يدعو إلى التوحيد، ونبذ الإشراك، وهذه الديانات قد علم فسادها وتحريفها بما ليس هذا مجاله (٢).

(١) الوحي المحمدي لمحمد رشيد رضا، ص١٢٦.
(٢) انظر فيما سبق: الجواب الصحيح (١٩٧/١)، (٢٥/٤ -٣١، ٥٤ -٦٣)، وإظهار الحق (٨٣٥/٣ -٨٣٦)، ومناهل العرفان (٣١٧/٢ -٣٢٤)، والوحي المحمدي لمحمد رشيد ==

الشبهة الرابعة: الزعم بأن ظاهرة الوحي ما هي إلا نتيجة لانفعالات عصبية تعتري النبي ﷺ فسرها بعضهم بالهستيريا وفسرها آخرون بمرض الصرع، وقالوا: إن أثرها ظاهري في مزاجه العصبي القلق [(١)] .

وهذه الشبهة قديمة قالها أقوام الرسل لرسلهم، حيث زعموا إن بهم مساً من الجنون قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝ ﴾ [الذاريات: ٥٢ -٥٣] .

وبطلان هذه الشبهة من وجوه:

الأول: مما سبق ذكره من طرق الوحي وأنواعه، لم تظهر لنا حاله من الحالات كان فيها الرسول ﷺ منفعلاً تبدو عليه آثار الاضطراب والقلق.

الثاني: قد ثبت علمياً أن المصروع تتعطل مداركه ولا تصبح لديه مقدرة على التفكير، والحفظ، بل هو في حالة إغماء تام، وتعطل لحركة الشعور [(٢)] ، وأين هذا من حال رسولنا الكريم ﷺ عند نزول الوحي عليه، وبعد انتهائه يخاطب أصحابه، ويخبرهم بما قاله جبريل – عليه السلام – دون أن يخطئ كلمة واحدة.

==

رضا (ص١٢٣ -١٢٦)، والوحي المحمدي د. عبدالجليل شلبي (ص٢٠١ -٢٠٢) ورد مفتريات على الإسلام، د. عبدالجليل شلبي (ص٧٨ -٨٣)، ووحي الله لمحمد عتر (ص١٣٦ -١٧٦) ورؤية إسلامية للاستشراق لأحمد غراب (ص٣١ -٣٦) وانظر آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره، د. عمر رضوان (١/ ٢٣٩ -٣٦٥) والوحي في الإسلام وإبطال الشبهات لعبدالله عبدالحي أبو بكر (٣٣٨ -٣٦٩)، "رسالة ماجستير، مكتوبة على الآلة الكاتبة، مقدمة في جامعة أم القرى".

(١) انظر رؤية إسلامية للاستشراق ص٣٨ وآراء المستشرقين حول القرآن (١/ ٣٩٨).

(٢) انظر دائرة معارف القرن العشرين (٥/ ٤٧٨ -٤٦٩).

الثالث: إن مرض "الهستريا" داء عصبي عضال، أكثر إصاباته في النساء ومن أعراضه شذوذ الخلق، وضيق في التنفس، واضطراب في الهضم، وقد يصل بصاحبه إلى حالة شلل موضعي، ثم إلى تشنج، ثم إلى إغماء، ثم إلى هذيان مصحوب بحركة واضطراب في اليدين والرجلين، وقفز من مكان إلى مكان.." [١] ووصف هذا المرض كافٍ في الجزم بأن حالات الوحي لا يمكن أن تلتبس بمثل هذه الأعراض، ولكنه التعصب المذموم.

الرابع: إن رسول الله ﷺ عاش بين قريش أربعين سنة، كان معروفاً فيها بالشجاعة، والصدق، والوفاء، والعقل، والرزانة، وكان كبار قريش ورؤساؤهم يطلبون منه القضاء بينهم عند التنازع، فكيف يكون من هذه صفته، مصاباً بهذا المرض العضال، الذي هو شبيه بالجنون.

ثم بالنظر والتأمل إلى ما جاء به من نصوص الوحي العظيم، وهذا التشريع الرباني المتكامل، وبناء تلك الدولة العظيمة، وهذا لا يمكن أن يكون صادراً ممن به مس من الجنون، ولاشك أنه وحي رب العالمين إلى قلب رسوله الصادق الأمين.

الخامس: إن قولهم هذا لا دليل عليه وسيرة الرسول ﷺ محفوظة منذ مولده إلى وفاته، ولا دليل فيها على زعمهم هذا!!

---

(١) مناهل العرفان (٧٤/١)، وانظر دائرة معارف القرن العشرين (٥٠٧/١٠ -٥١٠).

السادس: إن الواقع يكذب ذلك، فالمصروع، والمصاب بالهستيريا يلفظ ألفاظاً عشواء لا يعي ما يقول ولا يفهم منه، فأين هذا مما جاء به نبي الأمة ﷺ من نصوص الوحي الربانية [١] ؟!

الشبهة الخامسة: الزعم بأن محمداً ﷺ كان شاكاً في الوحي، كما نقل ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية عن أهل الكتاب [٢] رحمه الله، واستندوا إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [يونس: ٩٤] وقوله: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٢٤].

فأما الآية الأولى ففي تفسيرها عدة أقوال:

منها: إن المراد بالخطاب "للنبي ﷺ والمراد غيره، أي لست في شك ولكن غيره في شك" [٣] .

ومنها: إن المراد بالشك هنا ضيق الصدر، والمعنى إن ضاق صدرك بتكذيب المكذبين، واستدلوا بمعنى الشك في اللغة وإن أصله الضيق [٤] .

ومنها: إن الخطاب للنبي ﷺ ، ولكن ليس المراد أنه شاك فيما جاءه بل روى أئمة التابعين كالحسن وسعيد بن جبير وقتادة في تفسير هذه الآية قولهم: ما شك وما سأل [٥] .

---

(١) انظر مناهل العرفان (١/٧٤)، ووحي الله ص٢٠٥ -٢٠٦، وآراء المستشرقين حول القرآن وتفسيره (١/٣٩٨)، والوحي في الإسلام وإبطال الشبهات ٣٦٩ -٣٧٦.

(٢) انظر الجواب الصحيح (١/٣٣٤ -٣٤٠) وانظر (٢/٧٧).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٨/٣٨٢).

(٤) المرجع السابق ونفس الجزء والصفحة.

(٥) انظر جامع البيان (١١/١٦٨).

كما أنه ليس فيها دليل على وقوع السؤال، وإنما هذا الخطاب جاء على عادة العرب في مخاطباتهم كقول القائل: إن كنت مملوكي فانته إلى أمري، وقول القائل لابنه: إن كنت ابني فبرني، مع عدم شكه في بنوته[(١)] ، وليس فيها دليل أيضاً على وقوع الشك، فالأمر بالسؤال عند وجود الشك، ولا يعني ذلك أن عنده شكا [(٢)] وأيضاً الآية دليل على أن لدى أهل الكتاب ما يثبت صدقك فيما كذبك به المشركون، فموسى – عليه السلام – دعا لعبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، إذن فالدعوة إلى التوحيد ليست دعوة جديدة حتى يستنكرها المشركون قال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزخرف: ٤٥] وقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٥] .

كما أن أهل الكتاب يعلمون أن الرسل من قبل محمد عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام كانوا بشراً، ولم يكونوا ملائكة، كما زعم المشركون إن الرسل لا تكون إلا ملائكة وكان هذا من أسباب ردهم لدعوة محمد ﷺ قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٩٤ - ٩٥].

(١) انظر المرجع السابق (١١/١٦٩).

(٢) انظر مجموع الفتاوى (١٦/٣٢٥).

كما أن سؤال أهل الكتاب إنما هو لمعرفة الصفات والبشارات بنبوة محمد ﷺ (١) كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] .

وأما الآية الثانية: فليس فيها أي دليل على الشك، قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : "وهذا من الإنصاف في الخطاب الذي كل من سمعه من ولي وعدو قال لمن خوطب به: قد أنصفك صاحبك كما قال العادل الذي ظهر عدله للظالم الذي ظهر ظلمه: الظالم إما أنا وإما أنت، لا للشك في الأمر الظاهر، ولكن لبيان أن أحدنا ظاهر الظلم، وهو أنت لا أنا فإنه إذا قيل: أهل التوحيد الذين يعبدون الله على هدى، أو في ضلال مبين، وأهل الشرك الذين يعبدون ما لا يضر ولا ينفع على هدى أو في ضلال تبين أن أهل التوحيد على الهدى، وأهل الشرك على الضلال .." ا.هـ (٢) وقال القرطبي – رحمه الله – "المعنى أنتم الضالون حين أشركتم بالذي يرزقكم من السماوات والأرض .. و(أو) عند البصريين على بابها وليست للشك، ولكنها على ما تستعمله العرب في مثل هذا إذا لم يرد المخبر أن يبين وهو عالم بالمعنى" (٣) ا.هـ.

وجملة القول أن يقال: إن جميع هذه الشبهات ما هي إلا محاولة لتشويه صورة الإسلام الناصعة، وهي محاولات واهية، سرعان ما ينطفئ لهيبها، إذا سلطت عليها أضواء الحق.

---

(١) انظر الجواب الصحيح (١/٣٣٤ -٣٤٠).
(٢) الجواب الصحيح (١/٧٨).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٤/٢٩٩).

الفصل الثاني
في إثبات النبوات

المبحث الأول: دلائل النّـبوة

المبحث الأول: دلائل النبوة

الإيمان بالرسل هو الركن الرابع من أركان الإيمان الستة قال تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٦].
وقوله: ﴿ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٤].

وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾ [النساء: ١٣٦].

والنبوة في اللغة مشتقة من النبأ: وهو الخبر والجمع أنباء (١) "تقول نبأ ونَبَّأَ أي أخبر، ومنه أُخذَ النبي لأنه أنبأ عن الله تعالى وهو فعيل، بمعنى فاعل" (٢) وقد يأتي فعيل بمعنى مفعول لقوله تعالى: ﴿ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿٣﴾ ﴾ [التحريم: ٣] (٣) "وقيل: النبي مشتق من النَّبَاوة، وهي الشيء المرتفع" (٤) واشترط الراغب (٥) للخبر عندما يسمى نبأ أربعة شروط هي:

(١) لسان العرب (١/١٦٢).
(٢) الصحاح (١/٧٤).
(٣) انظر المفردات للراغب ص٤٨٢.
(٤) لسان العرب (١/١٦٣).
(٥) الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصفهاني .. المعروف بالراغب: أديب، من الحكماء العلماء، من أهل "أصبهان" سكن بغداد .. من كتبه محاضرات الأدباء، ط والذريعة إلى مكارم الشريعة ط، والمفردات وغيرهما توفي سنة٥٠٢هـ الأعلام (٢/٥٥).

١ - أن يكون خبراً.
٢ - أن يتضمن فائدة.
٣ - أن يحصل به علم أو غلبة ظن.
٤ - خلوه من الكذب بأن يصل حد التواتر [١] ، وهذه الشروط تنطبق جميعها على أخبار الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم، فيما يبلغون عن الله عز وجل من الوحي.

وأما الرسول فهو المرسل، مأخوذ من الإرسال، وأصله رَسَّل [٢] وهو "الانبعاث علي التؤدة ويقال ناقة رسلة سهلة السير، وإبل مراسيل منبعثة انبعاثاً سهلاً، ومنه الرسول المنبعث .." [٣] "والجمع على أرسل ورُسُل ورُسْل ورُسلاء" [٤] وقد يطلق الرسول على الجمع [٥] ، كما في قوله تعالى: ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦] والرسول هو الذي يتابع أخبار الذي بعثه [٦] .

أما التعريف الاصطلاحي للفظي النبوة والرسالة، فاختلف العلماء في اتفاقهما وترادفهما، أو تبيانهما على أقوال ذكرها الماوردي [٧] – رحمه الله – في أعلام النبوة فقال: "اختلف أهل العلم في الأنبياء

(١) انظر المفردات ص٤٨١.
(٢) انظر القاموس المحيط، ص١٣٠٠.
(٣) المفردات، ص١٩٥.
(٤) لسان العرب مادة (رَسَل) (٢٨٣/١١)، وانظر المفردات ص١٩٥.
(٥) انظر المفردات ص١٩٥.
(٦) لسان العرب (٢٨٤/١١).
(٧) "علي بن محمد بن حبيب، أبو الحسن الماوردي: أقضى قضاة عصره، من العلماء الباحثين، أصحاب التصانيف الكثيرة .. ولد في البصرة، وانتقل إلى بغداد .. وكان يميل إلى مذهب الاعتزال .. وفاته ببغداد سنة ٤٥٠" الأعلام (٣٢٧/٤) وانظر ميزان الاعتدال (١٥٥/٣).

والرسل على قولين: أحدهما أن الأنبياء والرسل واحد، فالنبي رسول والرسول نبي، والرسول مأخوذ من تحمل الرسالة، والنبي مأخوذ من النَبَأ، وهو الخبر إن همز، ومأخوذ من النُّبُوة إن لم يهمز، وهو الموضع المرتفع وهذا أشبه لأن محمداً ﷺ قد كان يخاطب بهما.

القول الثاني: أنهما يختلفان، لأن اختلاف الأسماء يدل على اختلاف المسميات والرسول أعلى منزلة من النبي ﷺ ولذلك سميت الملائكة رسلاً ولم يسموا أنبياء" [(١)] ا.هـ.

واختلف من قال بالتفريق بينهما في ذكر الفرق على أقوال عدة منها: "إن الرسول هو الذي تنزل عليه الملائكة بالوحي، والنبي هو الذي يوحى إليه في نومه" [(٢)] وقال الحليمي – رحمه الله – في تعريف النبوة "خبر خاص هو الذي يلزم الله عز وجل به أحداً من عباده فيميزه بإلقائه إليه عن غيره، ويقفه به على شريعته .. فإن انصاف إلى هذا التوفيق أمر تبليغه إلى الناس ودعائهم إليه، كان نبياً رسولاً .. فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولا .." [(٣)] .

والقول: أن النبي لا يؤمر بالتبليغ قول لا يتناسب مع ما جاءت به الأحاديث من تبليغ الأنبياء شرائع الله وبناء عليه، فهذا الفرق مردود لمخالفته الأحاديث الصحيحة [(٤)] .

ومنها ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – وهو أجمعها، حيث قال: ".. فالنبي هو الذي ينبئه الله، وهو ينبئ ما أنبأ الله

---

(١) أعلام النبوة ص٣٨، وانظر كتاب الفقه الأكبر مع شرحه لملا القاري، ص٥٣.
(٢) المرجع السابق، ص٣٨.
(٣) المنهاج في شعب الإيمان (١/٢٣٩)، وانظر الإعلام للقرطبي (٣/٢٣٨ -٢٣٩).
(٤) انظر الرسل والرسالات، ص١٤ -١٥.

به، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه، فهو رسول، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله، ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة، فهو نبي، وليس برسول" (١) وجميع هذه الأقوال متقاربة، وقول من قال بالتفريق هو الصواب إن شاء الله لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ [الحج:٥٢] فعطف النبي على الرسول والعطف يقتضي المغايرة ولقوله ﷺ للبراء بن عازب (٢) عندما قال: "اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت .. ورسولك، قال: "لا، ونبيك الذي أرسلت" (٣) حملاً للفظ على التأسيس لا التأكيد، وفي الحديث الصحيح النص على أن نوح – عليه السلام – أول رسول إلى أهل الأرض (٤) مع العلم أنه كان قبله أنبياء كآدم، وشيث، وإدريس – عليهم السلام – (٥).

ونستطيع أن نلخص الفروق بينهما فيما يلي:

(١) النبوات ص٢٨١، وانظر كتاب الإيمان لشيخ الإسلام، ص٦ -٧.

(٢) هو البراء بن الحارث بن عدي بن الأوس الأنصاري يكنى أبا عمارة .. له ولأبيه صحبة وهو الذي افتتح الري سنة ٢٤هـ وشهد مع علي الجمل وصفين وقتال الخوارج ونزل الكوفة ومات سنة ٧٢هـ وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم جملة من الأحاديث، (انظر الإصابة ١/١٤٧) و(الإعلام ٢/٤٦).

(٣) الحديث في البخاري كتاب الوضوء باب فضل من بات على الوضوء رقم ٢٤٤ ج(١/٩٧)، ورواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب: ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، رقم: ٢٧١٠ (ج٤/٢٠٨١ -٢٠٨٢) عن البراء أيضاً.

(٤) كما رواه البخاري في كتاب الأنبياء باب قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ الآية رقم: ٣١٦٢ (٣/١٢١٥ -١٢١٦) ومسلم في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم: ١٩٤ (١/١٨٤ -١٨٦).

(٥) انظر النبوات، ص٢٨١.

١ - إن الرسول يأتي بشريعة مستقلة عمن سبقه، بخلاف النبي الذي يكون تابعاً لشريعة رسول قبله.

٢ - إن بينهما عموماً من وجه وخصوصاً من وجه آخر، فكل رسول نبي وليس كل نبي رسول.

٣ - إن الرسالة أكمل من النبوة، إذ هي — أي الرسالة — نبوة وزيادة.

كما أنهما يجتمعان في أن كلاً من الرسول والنبي يوحى إليه، كما إن كليهما، اصطفاء وتشريف من الله عز وجل، ولا تنال بالكسب، والاجتهاد، كما إن كليهما قد ختم بسيد المرسلين محمد ﷺ وكلاهما مأموران أن بتبليغ الوحي وأما ما ذكره الماوردي في التفريق بين النبوة والرسالة ونقله عن قطرب [(١)] وهو: "إن الرسول هو المبعوث إلى أمة والنبي هو المحدث لا يبعث إلى أمة" فهو قول فاسد لأنه يفضي إلى رفع المحدث إلى درجة النبي، كما يفضي إلى القول بأن النبوة يمكن أن تنال بالكسب وهذا يخالف إجماع المسلمين، بل وحتى الملل الأخرى من اليهود والنصارى [(٢)]، والمحدث لا يصل إلى درجة الأنبياء والرسل كما جاء في الحديث عن أبي هريرة — رضي الله عنه — عن النبي ﷺ قال: "لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدثون، فإن يك من أمتي أحد فإنه عمر" وفي رواية أخرى "لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال، يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن من أمتي منهم أحد

---

(١) محمد بن المستنير بن أحمد، أبو علي، الشهير بقطرب: نحوي، عالم بالأدب واللغة، من أهل البصرة من الموالي، كان يرى رأي المعتزلة النظامية، ويقال إن سيبويه أستاذه لقبه بقطرب لمباكرته إياه في الأسحار، نزل بغداد مات عام ٢٠٦هـ، الأعلام (٩٥/٧) وانظر تاريخ بغداد (٢٩٨/٣).

(٢) انظر شرح العقيدة الأصفهانية، ص١٢٣.

فعمر" (١) والمحدث: الملهم، وقيل: الرجل الصادق الظن، وقيل: من يجري الحق على لسانه من غير قصد، وقيل من تكلمه الملائكة وقيل غير ذلك (٢). والإيمان بالرسل هو الاعتقاد الجازم والتصديق القلبي بأن الله عز وجل أرسل رسلاً دعوا إلى توحيد الله عز وجل ونبذ الشرك، وأنهم بلغوا ما أمرهم الله تعالى بتبليغه، من غير زيادة ولا نقصان، وأنهم معصومون من الخطأ فيما يبلغونه، وأن الله عز وجل أيدهم بآيات باهرات تدل على صدقهم، والإيمان بهم إجمالاً فيما لم يذكر وتفصيلاً فيمن ذكر في القرآن وهم خمسة وعشرون نبياً ذكر منهم ثمانية عشر نبياً في قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٣ -٨٦]. وأما السبعة الباقون فهم آدم — عليه السلام — وذكره الله في مواضع كثيرة من كتابه العزيز ومنها قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٣] وإدريس وذكره الله في قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ ﴾ [مريم: ٥٦]، وهود وصالح وشعيب وقد ذكر الله أخبارهم في كثير من سور القرآن العظيم وأيضاً ذا الكفل وقد ذكره الله تعالى في قوله: ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٥]. ونبينا محمد

(١) سبق تخريجه.
(٢) انظر فتح الباري (٦٢/٧).

ﷺ (١) كما إن الإيمان بالرسل يشمل الاعتراف بذلك باللسان، واتباعهم فيما يدعون إليه والإيمان بأن شريعة محمد ﷺ ناسخة لجميع الشرائع وأنه ﷺ خاتم الرسل والأنبياء، ورسالته عامة لجميع الإنس والجن.

قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ ﴾ [النساء: ١٥٠-١٥٢].

وجاء في حديث أبي ذر أن عدد الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، والرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر (٢) والحاجة إليه ماسة، وحاجة البشرية إليهم أشد من حاجتها إلى الطعام والشراب، بل أشد من حاجتها إلى الهواء الذي تتنفسه، وذلك لأنهم رسل كرام جاؤوا بما فيه صلاح العباد، من أطاعهم نجا، ومن خالفهم خسر، سبيلهم هي سبيل الرحمن، وحزبهم هو حزبه.

---

(١) انظر عقيدة المؤمن ص (٢٨٠ -٢٨١).

(٢) الحديث رواه أحمد في مسنده (٥/١٧٨، ١٧٩، ٢٦٥)، وقال ابن حجر – رحمه الله – : صححه ابن حبان ا.هـ فتح الباري (٦/٤١٦)، وقال القرطبي – رحمه الله – بعد أن ذكر هذا الحديث: "هذا أصح ما روي في ذلك، خرجه الآجري وأبو حاتم البستي في المسند الصحيح له" ا.هـ الجامع لأحكام القرآن (٦/١٩) والحديث ضعفه آخرون كالعراقي وغيره، انظر لوامع الأنوار (٢/٢٦٤).

دلائل النبوة:

وقد أيدهم الله تعالى بآيات بينات هي دلائل صدقهم إذ محال أن يؤيد الله من يدعي الكذب عليه، وفي سورة يونس – عليه السلام – نجد الحديث عن النبوة والأنبياء وآياتهم ففي بداية السورة قوله تعالى: ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ۝٢ ﴾ [يونس: ١ -٢]. .

وفي بيان مصير مكذبي الرسل يقول تعالى: ﴿ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ۝٤ ﴾ [يونس: ٤] وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠ ۞ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ۝١١ ﴾ [يونس: ٧ -١١].

وقوله: ﴿ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝١٣ ﴾ [يونس: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝١٧ ﴾ [يونس: ١٧].

وفي تعنت المشركين وطلبهم الآيات يقول تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [يونس: ٢٠].

وفي إثبات الرسل يقول جل وعلا: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [يونس: ٤٧].

وقوله: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [يونس: ٧٤].

إلى غير ذلك مما قصه الله في هذه السورة الكريمة من قصص الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه.

ومن دلائل النبوة التي وردت في السورة ما يلي:

أولاً: تأييد الله لرسله بالآيات والبراهين الدالة على صدقهم.

ثانياً: صفات الرسل وأخلاقهم وبيان الصدق فيما يدعون إليه.

ثالثاً: اتفاق دعوة الرسل.

رابعاً: نصر الله عز وجل لهم وإهلاك عدوهم.

خامساً: بشارة النبي السابق بالنبي اللاحق [(١)].

وأستعين بالله تعالى في بيانها وتفصيلها:

أولاً: تأييد الله لرسله بالآيات والبراهين الدالة على صدقهم

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [يونس: ١٣].

---

(١) انظر الرسل والرسالات للأشقر ص١١٩ -١٢٠.

وقوله: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [يونس: ٧٤ -٧٥].

وتسمى دلائل الأنبياء آية، وبينة، وبرهاناً، ومعجزة، والآية في اللغة "العلامة الظاهرة" (١) .

وأما البينة فهي بمعنى الإيضاح "بان بياناً: اتضح فهو بين .. وبَيَّنْتُه وتبينته وأبنته واستبينته: أوضحته وعرفته .." (٢) .

وأما البرهان فهو: "الحجة الفاصلة البينة، يقال: برهن، يبرهن برهنة إذا جاء بحجة قاطعة للدد (٣) الخصم، فهو مبرهن" (٤) وأما لفظ المعجزة فلم يرد في الكتاب ولا السنة، وهو مأخوذ من العجز "أعجزه الشيء فاته وفلانا: وجده عاجزاً، وصيره عاجزاً، والتعجيز: التثبيط والنسبة إلى العجز" (٥) قال شيخ الإسلام بن تيمية – رحمه الله – "ويسميها من يسميها من النظار معجزات، وتسمى دلائل النبوة، وأعلام النبوة ونحو ذلك.

(١) بصائر ذوي التمييز (٦٣/٢).
(٢) القاموس المحيط، ص١٥٢٦.
(٣) الألد: الخصم الجدل الشحيح الذي لا يزيغ إلى الحق، لسان العرب (٣٩٠/٣ - ٣٩١).
(٤) لسان العرب (٥١/١٣) مادة (رهن).
(٥) القاموس المحيط، ص٦٦٣.

وهذه الألفاظ إذا سميت بها آيات الأنبياء، كانت أدل على المقصود من لفظ المعجزات ولهذا لم يكن لفظ (المعجزات) موجوداً في الكتاب والسنة، وإنما فيه لفظ (الآية)، و(البينة)، و(البرهان) ا.هـ (١).

وقال القرطبي – رحمه الله – إن في تسميتها بالمعجزات تجوز، ثم قال: "إن المعجز على التحقيق إنما هو خالق العجز، وهذه الأسباب التي يقع العجز عندها تسمى معجزة، بالتوسع، وذلك من تسمية الشيء باسم غيره إذا جاوزه، أو كان معه بسبب" ا.هـ (٢).

أما تعريف هذه الآيات في الاصطلاح فقد كثر الاختلاف في تعريفها، وشروطها:

فعرفها القاضي عبدالجبار: "الفعل الذي يدل على صدق المدعي للنبوة وشبهه بأصل اللغة، هو أن البشر يعجزون عن الإتيان بما هذا سبيله فصار كأنه أعجزهم" ا.هـ واشترط لها أربعة شروط:

أحدها: أن يكون من جهة الله تعالى.

الثاني: أن يقع هذا الفعل بعد دعوى النبوة، فلو وقع قبلها لم يكن دلالة على الصدق.

الثالث: أن يقع مطابقاً لما ادعى.

الرابع: أن يكون خارقاً لعادة من دعاهم (٣).

ولهذا أنكر المعتزلة خوارق السحرة، إذ لا فرق بينها وبين آيات الأنبياء عندهم (٤).

---

(١) الجواب الصحيح (٦٧/٤).
(٢) الإعلام (٢٣٩/٢).
(٣) انظر المرجع السابق، ص٥٦٩ -٥٧١.
(٤) انظر المغني للقاضي عبدالجبار (٢٥٩/١٥ -٢٦٠).

وعرفها القاضي الباقلاني [١] بقوله: "الإعجاز إنما هو في إقدار الله سبحانه وتعالى لهم على ما يقدرهم عليه من هذه الأمور ومنع غيرهم منه وخرق العادة بتمكينهم من فعل كثير هذه الأجناس على وجه لم تجر العادة بالإقدار على مثله، حتى يختص بذلك كون المعجز في مقدورات القديم سبحانه التي ينفرد بها" ا.هـ [٢] واشترط لها شروطاً ظهرت في التعريف السابق وهي كما يلي:

١ - "أن تكون آياتهم من أفعال الله سبحانه وتعالى التي ينفرد بالقدرة عليها دون سائر خلقه .. أو بأن تكون من مقدوراته ومن الجنس الذي يقدر العباد على مثله إذا وقع منهم على وجه يخرق العادة.

٢ - أن يكون ذلك الشيء، مما يخرق العادة وينقضها.

٣ - أن يكون غير النبي ﷺ ممنوعاً من إظهار ذلك على يده على الوجه الذي ظهر عليه ودعا إلى معارضته مع كونه خارقاً للعادة.

٤ - أن يكون واقعاً مفعولاً عند تحدي الرسول ﷺ، بمثله وادعائه آية" [٣].

وقد اشترط هذه الشروط أيضاً بعض المتكلمين [٤].

فجعلوا الفرق بين آيات الأنبياء وخوارق غيرهم من السحرة، والكهان ونحوهم — هو خرق العادة، ودعوى النبوة، والتحدي، فلو

(١) محمد بن الطيب بن محمد، أبو بكر القاضي المعروف بابن الباقلاني، المتكلم على مذهب الأشعري من أهل البصرة سكن بغداد، وسمع بها الحديث، له تصانيف كثيرة في الرد على المخالفين من الرافضة، والمعتزلة، والجهمية والخوارج توفي سنة ٤٠٢هـ، تاريخ بغداد (٣٧٩/٥ - ٣٨١)، وانظر الأعلام (١٧٦/٦).

(٢) البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر، ص٣٥ - ٣٦.

(٣) المرجع السابق، ص٤٥ - ٤٦ (باختصار) والأرقام من وضعي.

(٤) انظر النبوات، ص٢٣٤.

ظهرت آية من تلك الآيات على يدي بشر، ولم يتحد، أو يدعي النبوة، لم تكن آية، فإن تحدى وادعى النبوة كانت آية، وعلى هذا فلا فرق بين الكاذب والصادق في دعوى النبوة.

والصحيح ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية، من أن آيات الأنبياء لا يشاركهم فيها غيرهم وعرفها بقوله: "آيات الأنبياء هي التي تعلم أنها مختصة بالأنبياء، وأنها مستلزمة لصدقهم، ولا تكون إلا مع صدقهم، وهي لابد أن تكون خارقة للعادة، خارجة عن قدرة الإنس والجن، ولا يمكن أحدٌ أن يعارضها، لكن كونها خارقة للعادة ولا تمكن معارضتها هو من لوازمها ليس هو حداً مطابقاً لها، والعلم بأنها مستلزمة لصدقهم قد يكون ضرورياً كانشقاق القمر، وجعل العصا حية، وخروج الناقة" ا.هـ [(١)].

وأما خرق العادة فلا يصح شرطاً لوجهين:

أحدهما: إن العادة أمر نسبي لا ينضبط، فقد يكون الأمر عادة عند قوم دون غيرهم.

الثاني: أن هذا لا يختص بالأنبياء، فقد يشاركهم فيه غيرهم، كالساحر مثلاً يأتي بما هو خارق لعادة من يشاهده ولا يستطيع الحاضرون معارضته، مع إن هذا الأمر ليس خارقاً لعادة السحرة أمثاله[(٢)]، كما أبطل شيخ الإسلام – رحمه الله – شرط من يقول إن الفرق هي دعوى النبوة وعدم المعارضة من أوجه:

---

(١) النبوات ص٣٠٨.

(٢) انظر المرجع السابق، ص٣٤، وانظر الجواب الصحيح (٢٦١/٤) وما بعدها.

أحدها: إنه إذا كان الفرق هو دعوى النبوة فقط فليس هناك حاجة إلى أن يقال: إن ما جاء به النبي جنسه غير مقدور عليه إلا من قبل الرب عز وجل، لأنه قد يشاركه فيه غيره من السحرة والكهان.

الثاني: إن آيات الأنبياء على قولهم هذا، لم تتميز بصفة تختص بها، إنما تكون آيةً إن اقترنت بدعوى النبوة، وإلا فلا، فالدليل والبرهان يكون دليلاً إن استدل به وإن لم يستدل به فليس دليلاً وهو باطل من وجوه منها: إن القول بمساواة آيات الأنبياء مع سحر السحرة وأضرابهم قول في غاية الفساد والبطلان.

ومنها: إن هذا القول يعد قدحاً في الأنبياء.

ومنها: إنه بناء على هذا القول، يمكن للساحر أن يدعي النبوة، إذ إن الدليل على النبوة أصبح مقدوراً للعبد.

الثالث: هناك من الأشخاص من ادعى النبوة كاذباً، وجرى على يديه بعض الخوارق، ولم يعارض، ومع ذلك عرف الناس كذبه، لم يصدقوه كما في مسيلمة الكذاب (١)، و الأسود العنسي (٢) .. وغيرهم.

---

(١) مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب الحنفي الوائلي، أبو ثمامة: متنبئ، من المعمرين .. ولد ونشأ باليمامة .. وتلقب في الجاهلية بالرحمن، عرف برحمان اليمامة، ادعى النبوة وأتى بكلام يضاهي به القرآن وحاربهم أبو بكر الصديق وقتل مسليمة سنة ١٢هـ انظر الأعلام (٢٢٦/٧)، وشذرات الذهب (٢٣/١).

(٢) "عيهلة بن كعب عوف العنسي المذحجي، ذو الخمار، متنبئ مشعوذ، من أهل اليمن، كان بطاشاً جباراً. أسلم يوم أسلمت اليمن، وارتد في أيام النبي صلى الله عليه وسلم فكان أول مرتد في الإسلام وادعى النبوة، ورأى قومه أعاجيب استهواهم بها .. وجاءت كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى من بقي على الإسلام في اليمن، بالتحريض على قتله فاغتاله أحدهم في خبر طويل (ورواه ابن الأثير، وكان قتله قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم – بشهر واحد ..) الأعلام (١١١/٥).

الرابع: إن قولهم هذا يلزم منه أن تكون آية النبي هو صرف الناس عن المعارضة سواء كان فعله خارقاً أو غير خارق.

الخامس: إنه يلزم منه أيضاً أن يقال في القرآن الكريم إنه بالإمكان الإتيان بمثله ممن لم يدع النبوة ويتحدى، أو يقال إن التحدي في الإتيان بمثله خاص بمن ادعى النبوة، وقس على ذلك سائر المعجزات، وهذا معلوم بطلانه (١).

السادس: إن آيات الأنبياء دليل وبرهان على صدقهم، ولا يشترط فيها الاستدلال بها أو التحدي، ومن أمثلة ذلك نبع الماء بين رسول الله ﷺ وتكثير الطعام، وغيرها إنما كان لحاجة المسلمين، ولم يتحد بها (٢).

وخوارق السحرة لا تشتبه بآيات الأنبياء لما بينها من الفروق، قال تعالى: ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾ [طه: ٦٩]. وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [يونس: ٧٦].

وقوله: ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [يونس: ٨١].

وقد سبق بيان الفرق بينهما (٣). وكذلك الكرامات بينها وبين آيات الأنبياء فروق منها:

١ - إن الكرامة لا تصل إلى درجة آيات الأنبياء، فهي أقل منها.

---

(١) انظر النبوات ص٦٣ -٧٣، وسيأتي الرد على المعتزلة في نفيهم الكرامات في الفصل الرابع من هذا الباب، إن شاء الله تعالى، انظر ص٣٦ -٧٣، وسيأتي الرد على المعتزلة في نفيهم الكرامات في الفصل الرابع من هذا الباب — إن شاء الله تعالى — انظر ص ٣٦٤، وما بعدها.

(٢) انظر النبوات، ص١٨٠.

(٣) انظر ص٢١٣ -٢١٤.

٢ - إن الكرامة من معجزات الأنبياء، ودليل على صدقهم، وإنما نال الشخص الكرامة بحسن اتباعه لطريق الأنبياء، وهو غير معصوم[١] .

٣ - إن الولي لا يدعي النبوة، ولو ادعاها لكان كذاباً زنديقاً ومحال أن تجري على يديه الآيات، بل هي أحوال شيطانية.

٤ - إن الكرامة قد تكون استدراجاً لصاحبها، بخلاف آيات الأنبياء فهي دليل على صدقهم ونبوتهم.

٥ - إن الكرامة لا يظهرها صاحبها في الغالب [٢] .

٦ - ليست شرطاً في إثبات النبوة.

٧ - لا تكون خارقة لعادة الصالحين، بل كثيراً ما تقع لأولياء الله في جميع الملل [٣] .

والآيات ليست وحدها دليلاً على النبوة، بل هي من دلائل النبوة[٤] ، وإنما النبوة تعلم من أمور أخرى ستأتي — إن شاء الله — وهي نوعان:

١ - جنس في نوع العلم.

٢ - جنس في نوع القدرة.

والرب تعالى يعطي من عباده من هذين الأمرين ما يشاء، وما يناله الأنبياء من العلم خارج عن مقدرة غيرهم من الإنس والجن، وكذلك القدرة [٥] .

ولهذا فآيات الأنبياء نوعان:

---

(١) انظر النبوات، ص١٩.

(٢) سيأتي — إن شاء الله — مزيد بيان في الفصل الرابع انظر ص٣٣٣ وما بعدها.

(٣) انظر النبوات، ص٤٤٣.

(٤) انظر شرح الرسالة الأصفهانية، ص٨٨ وما بعدها.

(٥) انظر النبوات، ص٢٣، وانظر مجموع الفتاوى (٣١٢/١١).

الأول: ما كان من باب العلم كالاطلاع على بعض أمور الغيب مثل ما أخبر به الرسول – صلى الله عليه وسلم – من أخبار، وعلوم تتعلق بأحداث مستقبلية حصلت في حياته وبعد مماته، ومثل ما أنبأ به من أنباء الأمم الهالكة، من ذلك أيضاً إخبار عيسى – عليه السلام – لقومه بما يأكلون، وبما يدخرون في بيوتهم .. إلى غير ذلك.

ثانياً: ما كان من باب القدرة:

مثل انشقاق البحر لموسى حينما ضربه بعصاه، وكتظليل الغمام، ومثل إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى لعيسى – عليه السلام – ومثل انشقاق القمر لنبينا محمد ﷺ وتكثر الطعام، ونبع الماء من بين أصابعه الشريفة .. الخ.

ومن الآيات ما مضى، ووصل إلينا خبره، كآيات الأنبياء – عليهم صلوات الله وسلامه – ومنها ما هو باق إلى قيام الساعة، كالقرآن الكريم، الذي هو معجزة خالدة، وآية باقية إلى قيام الساعة.

وكالعلم والإيمان الذي في أتباع محمد ﷺ ، وأيضاً ما يخرق من العادات للأولياء والصالحين من أتباعه – عليه الصلاة والسلام – وأيضاً علو هذا الدين وظهوره مهما حاول الأعداء إطفاء نوره، وإهلاك كل من ناوءه ورام الوقوف ضده [1] .

ثانياً: صفات الرسل وأخلاقهم وبيان الصدق فيما يدعون إليه:

إن المتأمل في حياة الرسل والأنبياء ودعواتهم، ليرى ما كانوا عليه من علو الهمة، والأمانة، والصدق، والترفع عن سفاسف الأمور، كما يرى ما جبلوا عليه من الحلم والصفح، والصبر على الشدائد وحفظ

(١) انظر الجواب الصحيح (٤/ ٧٠ -٧١).

العهد وهم بشر يأكلون، لكن الله اصطفاهم وشرفهم بالرسالة، قال تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾ [يونس: ٢]. وفي بيان الصدق فيما يبلغون، يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [يونس: ١٥]. وقوله تعالى: ﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [يونس: ٥٣].

والرسل – عليهم صلوات الله وسلامه – من أزهد الناس في متاع الدنيا، وعرضها الزائل، فهم لا يريدون على دعوتهم جزاءً ولا شكوراً، قال تعالى مبلغاً عن نوح – عليه السلام – : ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [هود: ٢٩]. ولا أدل على ذلك من تلك العروض السخية التي كانت قريش تعرضها على رسول الله ﷺ (١) رغبة منهم في استجابته لمطالبهم، وترك ما يدعو إليه.

والأنبياء – عليهم صلوات الله وسلامه – من أشد الناس بلاءً عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: قلت يا رسول الله، أي الناس أشد بلاءً، قال: "الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه

(١) انظر دلائل النبوة للبيهقي (٢/٢٠٢ -٢٠٤).

خطيئة" [١] فلو لم يكن الله اصطفاهم وكلفهم بهذا، أكانوا يتشجمون[٢] هذه الصعاب؟!! على الناس؟! ليكون ذلك سبباً إلى منافرتهم وقتالهم!!.

وخصائص النبوة أربعة:

الأول: الكمال الخَلقي والخُلقي: ويعني أن الرسول يكون من أكمل قومه خُلقاً وخَلقاً، ونسباً وعقلاً، فلم يأت نبي به عاهة أو بذاءة، أو دناءة في نسبه، وذلك لأنه رسول رب العالمين والرسول على قدر المرسل، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

الثاني: الفضيلة الإكرامية، ويقصد بها ما يكرمه الله عز وجل من الكرامات التي تقوي قلبه وتشحذ عزمه للقيام بهذه المهمة كما أيد الله موسى – عليه السلام – بأن أرسل معه هارون وزيراً، وحل عقدة من لسانه.

الثالث: إنزال الكتب عليهم، والكتب التي يأتي بها الرسل مشتملة على الهداية والنور.

الرابع: العصمة، المراد بها أنهم لا يقرون على الخطأ [٣] وهم معصومون فيما يبلغون عن الله تعالى إجماعاً [١] أما في غير ما يتعلق

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء رقم: ٢٤٠٠ (١٢٤/٧)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح) ا.هـ ورواه ابن ماجة في كتاب الزهد، باب الصبر على البلاء رقم: ٤٠٢٣ (١٣٣٤/٢) عن مصعب بن سعد، ورواه الإمام أحمد في مسنده (١٧٢/١) عن مصعب بنحوه، ورواه الدارمي باب: أشد الناس بلاء (٤١٢/٢) عن عاصم بنحوه، وانظر السلسلة الصحيحة حديث رقم: ١٤٣ (٥٣/١ -٥٤).

(٢) "جَشَمَ الأمر، بالكسر، يَجشَمُه وجشامةً وتجشَّمه: تكلَّفَه على مشقة" لسان العرب (١٠٠/١٢).

(٣) انظر مقدمة دلائل النبوة للأصبهاني، ص٣٤ -٣٦.

بالتبليغ ففيه خلاف، قال شيخ الإسلام – رحمه الله – : "وأما العصمة في غير ما يتعلق بتبليغ الرسالة فللناس فيه نزاع، هل هو ثابت بالعقل أو بالسمع؟ ومتنازعون في العصمة من الكبائر والصغائر أو من بعضها أم هل العصمة إنما هي في الإقرار عليها لا في فعلها؟ أم لا يجب القول بالعصمة إلا في التبليغ فقط؟ .." (٢) .

والذي عليه سلف الأمة وتشهد له الأدلة عصمتهم من الكبائر دون الصغائر، قال شيخ الإسلام – رحمه الله – "القول بأن الأنبياء معصومون من الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام، وجميع الطوائف، حتى إنه قول أكثر أهل الكلام .. وهو أيضاً قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء، بل لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة، والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول" (٣) ا.هـ.

ومن هنا فمن ادعى النبوة فسرعان ما يظهر عواره، ويتضح كذبه، حتى ولو جرت على يديه من الخوارق الشيطانية ما جرى، لأن سنة الله جارية في كشفهم، وهزيمتهم، وهناك من الفروق بين النبي والمتنبي، فروقٌ واضحة يدركها كل ذي بصيرة ومنها:

١ - ما يتعلق بالصفات: فصفات النبي هي الصدق، والنزاهة والدعوة إلى التوحيد، وصفات المتنبي الكذب، والخيانة، ولهذا لما

==

(١) انظر الشفا (٧٤٦/٢)، ومجموع الفتاوى (٢٩١/١٠)، ومنهاج السنة(٤٧٠/١ - ٤٧١) ولوامع الأنوار (٣٠٤/٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٩٢/١٠ -٢٩٣)، وانظر الشفا ٧٣٥/٢ وما بعدها، وانظر العقيدة الإسلامية وأسسها، ص٣٨٥ -٣٨٦.

(٣) مجموع الفتاوى (٣١٩/٤) وانظر للاستزادة مجموع الفتاوى (٢٩٣/١٠ -٣١٣).

ذهب أبو سفيان إلى الشام والتقى مع هرقل [١] ودار بينهما الحديث المعروف وفيه، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها. قال: ولم تمكن كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة .." الحديث [٢] فقريش كلهم لم يكونوا يشكون في صدقه ﷺ وكان يلقب بالصادق الأمين، فهل كان سيترك الكذب على الناس ثم يكذب على الله حاشاه!!

٢ - فيما يتعلق بالأخبار والأوامر والنواهي:

النبي لا يأتي إلا بما صح وتبين صدقه من الأخبار، ولو جاء بخبر وتبين كذبه، لرد خبره وعرف أنه ليس بنبي قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [يونس: ٣٧] وقوله: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧].

وقوله: ﴿ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الشورى: ٢٤].

وكذلك الأوامر والنواهي فهم لا يأمرون إلا بالحق، وبما فيه صلاح البشرية قال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا

---

(١) اسمه هرقل، ولقبه قيصر، ملك الروم، أرسل عليه الرسول صلى الله عليه وسلم دحية الكلبي ليدعوه للإسلام، فدعا البطارقة والقساوسة فاستشارهم، فأبوا الإسلام، فخاف على ملكه وبقي على النصرانية، انظر البداية والنهاية (١٤/٥).

(٢) رواه البخاري في كتاب بدء الوحي باب كيف بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رقم ٧ (٧/١٥ - ٩) ورواه مسلم في المغازي باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل، رقم ١٧٧٣ (١٣٩٣/٣ - ١٣٩٧).

تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام: ١٥١].

وتأمل هذا مع ما جاء به مسيلمة الكذاب من قوله والشاء وألوانها، وأعجبها السود ألبانها، والشاة السوداء واللبن الأبيض، إنه لعجب محض، وقد حرم المذق، فما لكم لا تمجعون [(١)] وقوله: "يا ضفدع ابنة ضفدع، نقي ما تنقين، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدرين" [(٢)].

فهل يشك في ذلك عاقل، وأي كلام هذا؟! وأي خبر؟! على ما فيه من سخف وركاكة، ولهذا روى ابن جرير أن أبا بكر الصديق لما قدم عليه وفد من بني حنيفة قال لهم: "سبحان الله! ويحكم إن هذا الكلام ما خرج من إل ولا بر فأين يذهب بكم!" [(٣)].

٣ - فيما يتعلق بالآيات:

فآيات الأنبياء لا يمكن معارضتها، ولا الإتيان بمثلها، بخلاف غيرهم ومدعي النبوة خوارقه من جنس خوارق السحرة والكهان، وهي تعارض وتبطل بالآيات القرآنية [(٤)] والله عز وجل لا يؤيد من كذب عليه، وأبطل شرائعه، ولهذا روي أنه كان إذا جيء لمسيلمة

(١) تاريخ الأمم والملوك (١٠٢/٤).
(٢) المرجع السابق ونفس الجزء والصفحة.
(٣) المرجع السابق (١١٨/٤).
(٤) انظر الجواب الصحيح (١٤٩/١ - ١٥٠).

الكذاب بالصبي فحنكه ومسح رأسه، قرع ولثغ [١] واستبان مهلكه. وتمضمض في بئر ليباركها فغارت وتوضأ في حائط فغادت يبابا [٢].

٤ - فيما يتعلق بالنصر والتأييد:

إن نصر الله لرسله وإهلاك عدوهم عادة مطردة، لجميع الرسل، فلم يأت نبي فيُكَذب إلا أعزه الله ونصره وأهلك عدوه.

أما مدعو النبوة فيقطعه، ويخذله، ويجعله عبرة للمعتبرين، فمتى رأينا متنبئاً نصره الله، وأبقى دعوته، والتاريخ شاهد على ذلك من أمثال خذلانه وإهلاكه جل وعلا لمسيلمة وطليحة الأسدي [٣]، وسجاح [٤] وغيرهم حتى عند أهل الكتاب يوجد عندهم أمثال هذا ففي سفر التثنية الإصحاح الثامن عشر "٢٠ - وأما النبي الذي يطغى فيتكلم باسمي كلاماً لم أوصه أن يتكلم به أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبي" وهذا دليل عليهم، إذ لو كانت رسالة محمد ﷺ، ادعاءً لما بقيت، وانتشرت هذا الانتشار، قال شيخ الإسلام —

---

(١) الألثغ: الذي لا يستطيع أن يتكلم بالراء، وقيل: هو الذي يجعل الراء غيناً أو لاماً.. وقيل هو الذي لا يبين الكلام .." لسان العرب (٤٤٨/٨).

(٢) انظر تفصيل هذه الروايات في تاريخ الأمم والملوك (١٠٣/٤ -١٠٤).

(٣) طليحة بن خويلد الأسدي، من أسد خزيمة: متنبئ، شجاع، من النصحاء، يقال له "طليحة الكذاب" كان من أشجع العرب، قدم وفد أسد خزيمة سنة تسع، وأسلموا، رجعوا ارتد طليحة، وادعى النبوة، قاتله أبو بكر الصديق، فلحق بالشام، ثم عاد بعد وفاة أبي بكر وأسلم وحسن إسلامه مات سنة ٢١هـ. انظر تهذيب الأسماءو اللغات (٢٥٤/١) والأعلام (٢٣٠/٣).

(٤) سجاح بنت الحارث بن سويد بن عقفان، التميمية، من بني يربوع أم صادر: متنبئة مشهورة. كانت شاعرة أديبة عارفة بالأخبار، رفيعة الشأن في قومها .. ادعت النبوة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وكانت في بني تغلب بالجزيرة .. فتبعها جمع من عشيرتها "تزوجها مسيلمة الكذاب ولما قتل، أسلمت وهاجرت إلى البصرة وتوفيت بها عام ٥٥هـ انظر الأعلام (٧٨/٣).

رحمه الله – : "وما من أحد ادعى النبوة من الكذابين إلا وقد شهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشياطين عليه ما ظهر لمن له أدنى تمييز.

وما من أحد ادعى النبوة من الصادقين إلا وقد ظهر عليه من العلم والصدق والبر وأنواع الخيرات ما ظهر لمن أدنى تمييز" ا.هـ [١] .

وبالجملة فإن صدق الأنبياء معلوم بالضرورة، وصدقهم يتبين من أوجه:

منها: إنهم أخبروا بعاقبة كل من خالفهم، وإن النصر والفوز الأخير لهم ولأتباعهم فكان كما قالوا.

ومنها: حصول الهلاك لأعدائهم هم كما علم بالتواتر من إهلاك قوم نوح بالطوفان، وتدمير فرعون وقومه.

ومنها: إن أحوالهم، وأخلاقهم، وما جاءوا به من الرحمة والخير، والإصلاح لا يمكن أن يصدر من كذاب متنبئ [٢] .

ثالثاً: اتفاق دعوة الرسل:

إن من دلائل النبوة اتفاق دعوة الرسل جميعاً إلى التوحيد وإخلاص العبادة لله عز وجل، مع تفاوت الأزمنة وتباعد الأمكنة، مما يدل على وحدة المصدر قال تعالى في سورة يونس عليه السلام: ﴿ **وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾** ﴾ [يونس: ٣٧].

وقوله: ﴿ **وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾** ﴾ [يونس: ١٩].

---

(١) شرح الأصفهانية ص٨٩.

(٢) انظر شرح العقيدة الطحاوية، ص١٢٠.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقوله: ﴿ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [فصلت: ١٤].

وهذا يدل على النبوة من عدة أوجه:

منها: أن جميع الرسل دعوا إلى التوحيد، وإخلاص العبادة لله وحده، دون سواه.

ومنها: أن هؤلاء الرسل تفاوتت أزمانهم، وتباعدت أمكنتهم، ومع هذا فالدعوة واحدة.

ومنها: أن الرسول المتأخر يخبر بخبر المتقدم، ويبشر بمن سيلحقه، وهذا دليل العلم والإحاطة بمن سبق، وبمن يلحق، وهذا لا يكون إلا بما أطلعهم الله تعالى.

رابعاً: نصر الله لرسله وإهلاك عدوهم:

قال تعالى في شأن نصرة رسله: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [يونس: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [يونس: ٨٨ -٨٩] الآيات إلى قوله: ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [يونس: ٩٣].

وقوله: ﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [يونس: ١٠٢ -١٠٣].

قال ابن كثير – رحمه الله – في تفسير قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، حقاً أوجبها الله على نفسه الكريمة كقوله: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام: ٥٤] ا.هـ (١).

فنصرة الله لرسله ومن أطاعه من المؤمنين، حقاً أوجبه الله على نفسه، وهو من دلائل نبوة الأنبياء "فهذا يدل مع صدق الأنبياء على الرغبة في اتباعهم والرهبة من مخالفتهم، ففيه العلم بصدقهم، والموعظة للخلق" (٢) ولهذا يقول تعالى في سورة الشعراء بعد كل قصة من قصص الأنبياء: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الشعراء: ٦٧ -٦٨] وقد لا يتحقق النصر بداية الأمر لحكمة أرادها الله بينها جل وعلا في قوله: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ

(١) تفسير ابن كثير (٣/٥٣٢).

(٢) الجواب الصحيح (٤/٢٧٤).

مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٩ -١٤٠] وفي قوله: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٦ - ١٦٧] وقوله: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وفي نصر الله لرسله، ومحق أعدائهم، دلائل على النبوة أيضاً من حيث إن الله تعالى أبقى هذه المعالم والآثار في الأرض حتى بلغ العلم بها مبلغ التواتر، كتواتر العلم بالطوفان، وتواتر العلم بدمار فرعون وقومه (١). قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ [الروم: ٩].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية — رحمه الله — : "فالعلم بأنه كان في الأرض من يقول بأنهم رسل الله وإن أقواماً اتبعوهم وإن أقواما خالفوهم، وإن الله نصر الرسل والمؤمنين وجعل العاقبة لهم، وعاقب أعداءهم هو من أظهر العلوم المتواترة وأجلاها، ونقل هذه الأمور أظهر وأوضح من نقل أخبار ملوك الفرس والعرب في جاهليتها، وأخبار اليونان وعلماء الطب والنجوم والفلسفة اليونانية" (٢).

---

(١) انظر شرح الأصفهانية، ص٩٩.

(٢) شرح الأصفهانية، ص١٠٣، وانظر شرح العقيدة الطحاوية، ص١١٩.

خامساً: بشارة النبي السابق بالنبي اللاحق:

كذلك من دلائل النبوة الدالة على صدقهم، تبشير الأنبياء السابقين بمن يأتي بعدهم من الأنبياء، وهذا دليل الصدق قال تعالى في سورة يونس – عليه السلام – : .

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [يونس: ٩٣ - ٩٤].

قال ابن كثير – رحمه الله – عند تفسير هذه الآية:

"أي أو ليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك إن العلماء من بني إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها.." ا.هـ (١)
وسيأتي بيان ذلك – إن شاء الله تعالى – (٢).

وتبشير النبي السابق بالنبي اللاحق لا يعني ذلك أن يذكره باسمه ومولده وقبيلته والسنة التي يخرج فيها، بل قد يكون الإخبار مجملاً يعرفه العوام، ويطلع عليه العلماء وسيأتي بيان ذلك – إن شاء الله تعالى – (٣).

---

(١) تفسير ابن كثير (٥/٢٠٦).
(٢) انظر إظهار الحق (٤/١٠٨٤).
(٣) انظر ص٣٠٨ وما بعدها.

المبحث الثاني: دعوات الرسل التي ذكرت في السورة

أولاً: دعوة نوح عليه السلام:

قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [يونس: ٧١ -٧٣] .

وقد جاء ذكره – عليه السلام – في مواضع متفرقة، وبأساليب مختلفة، في كثير من سور القرآن الكريم [(١)] وفيه أفردت سورة كاملة باسمه قصَّ الله فيها خبره "وهو نوح بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث [(٢)] " وثبت في حديث ابن عباس في الصحيح إنه كان بين آدم، ونوح – عليه السلام – عشرة قرون كلها على الإسلام [(٣)] .

قال ابن كثير: "فإن كان المراد بالقرن مائة سنة كما هو المتبادر عند كثير من الناس فبينهما ألف سنة لا محالة، لكن لا ينفي أن يكون أكثر، باعتبار ما قيد به ابن عباس بالإسلام إذ قد يكون بينهما قرون أخر

---

(١) في سورة الأعراف ويونس، وهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصافات والقمر ونوح.
(٢) عرائس المجالس للثعلبي، ص٥٤، وانظر البداية والنهاية (١/٩٣).
(٣) سبق تخريجه، ص٥٧.

متأخرة لم يكونوا على الإسلام، لكن حديث أبي أُمامة [١] يدل على الحصر في عشرة قرون وزادنا ابن عباس أنهم كلهم كانوا على الإسلام.." ا.هـ [٢] .

رسالته عليه السلام:

كان نوح – عليه السلام – أول الرسل، وليس كما قال بعض أهل العلم أن قبله أرسل رسل كآدم وإدريس وشيث [٣] ففي حديث الشفاعة الطويل وفيه: "فيقول بعض الناس: أبوكم آدم، فيأتونه فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، وأسكنك الجنة ألا تشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا؟ فيقول: ربي غضب غضباً لم يغضب قبل مثله ولا يغضب بعده مثله، ونهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض .." الحديث [٤] .

وهو نص صريح لا يقبل التأويل، والذين من قبله كانوا أنبياء، كما ورد في حديث أبي ذر رضي الله عنه [٥] .

---

(١) "صدي بن عجلان بن وهب ويقال ابن عمرو أبو أمامة الباهلي الصحابي، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن عمر وعثمان وعلي وأبي عبيدة .. وغيرهم .. سكن الشام .. قيل توفى سنة (٨٧)هـ" تهذيب التهذيب (٣٦٨/٤ -٣٦٩).

(٢) البداية والنهاية (٩٤/١).

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن (٢٣٢/٧)، وفتح الباري (٤٤٢/١١).

(٤) سبق تخريجه، ص٢٤٠.

(٥) سبق الكلام فيه وتخريجه، ص٢٤٢، والاستشهاد به هنا من باب الاستئناس، وإلا فقد صح حديث الشفاعة.

سبب بعثته:

بعث الله نوحاً – عليه السلام – بعد أن وقع الشرك، وعبدت الأصنام، وعظمت من دون الله عز وجل، بعد مضي عشرة قرون صالحة، قائمة بتوحيد الله وطاعته، وكان سبب ذلك ما رواه البخاري من حديث ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: "صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ودٌّ فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ. وأما يعوق فكانت لهمذان، وأما نسر فكانت لحمير، لآل ذي الكلاع. أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن أنصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت [١].

واختلف في الديانة التي كانوا عليها، فقيل: كانوا صابئة [٢] تبع لبيوراسب [٣] وقيل: إنهم كانوا مجمعون على فعل الفواحش

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الصابئة: ويقال لهم الصائبة، والصابئون، وكلها بمعنى واحد والصابئ هو التارك لدينه الذي شرع له إلى دين غيره، والصائبون سموا بذلك لأنهم فارقوا دين التوحيد وعبدوا النجوم وعظموها .. وكانوا في مبدأ أمرهم يسجدون للكواكب، لكن لما كانت الشمس قد تغيب أو تختفي .. لذلك اخترعوا صوراً للكواكب وسموها بأسماء الكواكب" المرشد الأمين إلى اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص١٤٣ (مطبوع ضمن اعتقادات فرق المسلمين والمشركين وانظر المرجع السابق، ص١٤٣ -١٣٤٤، وانظر الملل والنحل للشهرستاني (٢/٥ وما بعدها) ودائرة المعارف القرن العشرين (٥/٤٢٦) وما بعدها.

(٣) هو الازدهاق، والعرب تسميه الضحاك، واليمن تدعيه، وتزعم أنه من أنفسها وأنه الضحاك بن علوان بن عبيد بن عُرَيْج، وأنه ملك على مصر أخاه سنان بن علوان .. ==

والإعراض عن طاعة الله [1] والذي يظهر من الحديث أنهم وثنيون.

دعوته:

دعا نوح – عليه السلام – قومه إلى التوحيد، ومكث على هذا ألف سنة إلا خمسين عاماً، والقوم في إصرارهم وتكذيبهم، والمبالغة في إيذائه والسخرية منه كما قص الله عز وجل في كتابه العزيز. قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ﴾ [نوح: ٦ -٧].

ويقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ۝١٤ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٥ ﴾ [العنكبوت: ١٤ -١٥].

والمتأمل في الآيات القرآنية يلاحظ أن هناك عدة أسباب حالت دون إيمانهم بنبوة نوح – عليه السلام – .

منها: إنه بشر يأكل ويشرب، وكان ينبغي أن يكون ملكاً، قال تعالى: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾

==

وهو أول الفراعنة" واختلف أيضاً فيه على أقوال كثيرة، فقيل هو النمرود، الذي أحرق إبراهيم عليه السلام وقيل ملك ألف سنة، وكان عمره ألف سنة ومائة سنة، إلى أن خرج عليه أفريدون فقتله، انظر تاريخ الأمم والملوك (١/١٨٤ -١٩٠).

(١) انظر تاريخ الأمم والملوك (١/١٦٩).

[هود: ٢٧] الآية وقوله: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

ومنها: احتقارهم لأتباعه، لأنهم في أعينهم من أراذل القوم وأن إيمانهم كان اندفاعاً بلا روية ولا نظر. قال تعالى: ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [هود: ٢٧].

ومنها: ظنهم الفاسد بأن نوحا — عليه الصلاة والسلام — كان كاذباً، وهذا منهم ظن وليس بيقين ومع هذا اتبعوه [(١)] ، قال تعالى في الآية السابقة: ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ .

تحديه لقومه:

تحدى نوح — عليه السلام — قومه بخمسة أمور ذكرها الله في قوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ ﴾ [يونس: ٧١].

فبعد بيانه توكله على الله تعلى، وقوة هذا التوكل واليقين بنصر الله، وأنه لا يخشاهم، ولن يمنعه إيذاؤهم من الدعوة إلى الله تحداهم أبلغ التحدي وظهر ذلك في خمسة أمور:

الأول: قوله: ﴿ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ ﴾ ، وهو يشير إليهم بجمع جميع الأسباب الممكنة التي تعينهم على القضاء عليه.

---

(١) انظر جامع البيان (٢٦/١٢ -٧١، والبداية والنهاية (١٠٠/١ -١٠١).

الثاني: قوله: ﴿ وَشُرَكَآءَكُمْ ﴾ فلم يكف بهم على كثرتهم، بل وحتى الشركاء والآلهة التي يعبدونها من دون الله، ويعتقدون فيها الضر والنفع.

الثالث: في قوله: ﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ أي ولا تجعلوا أمركم عليكم ملتبساً بل افصلوا حالكم معي فإن كنتم محقون فاقضوا إلي ولا تنظرون (١).

الرابع: في قوله: ﴿ ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ ﴾.

الخامس: في قوله: ﴿ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ أي ولا تمهلون، وتعطوني فرصة للانتظار. وهذا أبلغ التحدي ولو لم يكن يعلم إن صدق توكله على الله سوف ينجيه، وأن الله لا يخذله، لما جاز له أن يطلب ذلك لأنه تعريض لنفسه للهلاك (٢)، ومع هذا التحدي والدعوة إلى المناجزة، ظهر عجزهم واندحارهم، وهذا من دلائل نبوته – عليه السلام –، ومن كمال توكله على الله.

ولما رأى نوح – عليه السلام – إصرارهم، واستكبارهم، ويئس من صلاحهم بل وحتى من صلاح ذريتهم، قال ابن كثير – رحمه الله –: "وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه وصاه فيما بينه وبينه ألا يؤمن بنوح أبدا ما عاش ودائماً ما بقي .." (٣) هناك دعا عليهم بالهلاك، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ۝٧٥ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۝٧٦ ﴾ [الصافات: ٧٥ -٧٦] وقوله: ﴿ وَقَالَ

(١) تفسير ابن كثير (٥١٦/٣).
(٢) انظر تفسير الفخر الرازي / ١٤٥، وجامع الرسائل، ص٩٦.
(٣) البداية والنهاية (١٠٢/١)، وانظر عرائس المجالس، ص٥٥.

نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [نوح: ٢٦-٢٧].

الطوفان:

وبعد أن دعا على قومه، واستجاب الله دعوته، أمره أن يصنع السفينة وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، وأهله ما عدا امرأته وولده اللذين أصرا على الكفر، وكذلك من آمن، ومن الطير، والبهائم، والسباع، زوجين من كل نوع، وروى أن أعلاها الطير، وأوسطها الناس وأسفلها السباع [(١)] واختلف في عدد من ركب معه، فقيل ثمانون، وقيل: اثنان وسبعون، وقيل: عشرة سوى الرجال وقيل غير ذلك [(٢)] ثم أذن الله للسماء فأمطرت مطراً عظيماً كأفواه القرب، وأمر الله الأرض أن تتفجر من جميع أرجائها، فالتقى الماء من السماء والأرض، وعم الطوفان وغرق سائر الخلق ما عدا من كان في السفينة [(٣)].

قال تعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [القمر: ١٠-١٣].

قال جماعة من المفسرين: "ارتفع الماء إلى أعلى جبل بالأرض خمسة عشر ذراعاً وهو الذي عند أهل الكتاب، وقيل ثمانين ذراعاً وعمَّ

---

(١) انظر تاريخ الأمم والملوك (١/١٠٢).

(٢) انظر تاريخ الأمم والملوك (١/١٧٨-١٧٩) وعرائس المجالس، ص٥٧ والبداية والنهاية (١/١٠٤).

(٣) انظر عرائس المجالس، ص٥٦-٥٧، والبداية والنهاية (١/١٠٥).

جميع الأرض طولها والعرض سهلها وحزنها وجبالها وقفارها ورمالها، ولم يبق على وجه الأرض ممن كان بها من الأحياء عين تطرف ولا صغير ولا كبير.." [(١)].

ثانياً: دعوة موسى عليه السلام

قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَـٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ
بِـَٔايَـٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ
عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا
جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَـٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّـٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا
وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا
بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ
ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ
مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾
وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ
إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ
لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ
ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ
تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ
ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ
بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾
وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت

(١) البداية والنهاية (١/١٠٥)، وجامع البيان (١٢/٣٧).

دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [يونس: ٩٠ -٩٣].

هو "موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم – عليهم السلام" (١) .

وقد قص الله خبره في كثير من سور القرآن، وفصلها، بما لم يذكر مثله نبي وقد نشأ وتربى في بيت فرعون، وهذا أبلغ في الإعجاز، حيث إن فرعون قد طغى وتجبر وقسم الناس إلى طوائف يستخدم البعض من شعب بني إسرائيل ويقتل البعض الآخر، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [القصص: ٤] . وكان سبب ذبحه للأولاد كما ذكر المؤرخون.

"إنه لما تقارب زمان موسى أتى منجمو فرعون وحظاته إليه فقالوا: تعلم أنا نجد في علمنا أن مولوداً من بني إسرائيل قد أظلك زمانه الذي يولد فيه، ويسلبك ملكك، ويغلبك على سلطانك، ويخرجك من

(١) البداية والنهاية (١/ ٢٢٢)، وانظر تاريخ الأمم والملوك (١/ ٣٦٤)، ومروج الذهب (١/ ٤٨).

أرضك، ويبدل دينك فلما قالوا له ذلك أمر بقتل كل مولود يولد من بني إسرائيل من الغلمان وأمر بالنساء يستحيين .." [(١)] .

فكانت إرادة الله النافذة، أن عاش موسى، ونشأ وتربى في بيت هذا الطاغية، وبعد أن كبر وترعرع، وبلغ مبلغ الرجال، قتل من القبط رجلاً، فتآمروا عليه ليقتلوه ففر إلى مدين كما حكى الله قصته بقوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [القصص: ١٥] وقوله: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [القصص: ٢٠ - ٢٤].

وتم له اللقاء بوالد الفتاتين وقد اختلف فيه فقيل: هو شعيب — عليه السلام — وقيل رجل مؤمن من قوم شعيب، وقيل: إنه ابن أخي شعيب — عليه السلام — وقيل عمه [(٢)] ولكن لا دليل على هذه الأقوال قال ابن جرير — رحمه الله — : "وهذا مما لا يدرك علمه إلا بخبر، ولا

(١) تاريخ الأمم والملوك (١/٣٦٦)، وانظر عرائس المجالس، ص١٦٧.
(٢) انظر هذه الأقوال في البداية والنهاية (١/٢٢٨)، وجامع البيان (١١/٦٢ -٦٣).

خبر بذلك تثبت حجته فلا قول في ذلك أولى بالصواب" ا.هـ [(١)] ومكث هناك أجيراً عشر سنوات، كما قد جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٢٧ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ۝٢٨﴾ [القصص: ٢٧ -٢٨].

وكما في الحديث عن سعيد بن جبير قال: "سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى قلت: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله، فقدمت فسألت ابن عباس فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله ﷺ إذا قال فعل" [(٢)].

دعوته – عليه السلام – لفرعون:

بعد أن قضى موسى – عليه السلام – الأجل سار بأهله متوجهاً إلى مصر، وكانت ليلة باردة شديدة الظلام، وضل الطريق عندها رأى ناراً في جانب الطور وهو الجبل الغربي في شبه جزيرة سيناء، وكانت هذه النار نوراً حقيقية، فذهب يستقصي الخبر [(٣)] كما قال تعالى: ﴿۞فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ۝٢٩ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي

(١) جامع البيان (١١/ ٦٢ -٦٣).
(٢) رواه البخاري في كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد، وفعله الحسن رقم: ٢٥٣٨ (ج٢/ ٩٥٣).
(٣) انظر عرائس المجالس، ص١٧٨ -١٧٩، والبداية والنهاية (١/ ٢٣٠).

ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [القصص: ٢٩ -٣١] .

ثم خاطبه الله تعالى وتقدس، بهذا **التكليف العظيم:** ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ ﴾ [طه: ١١ -١٤] .

وأرسل معه أخاه هارون – عليه السلام – وزيراً ومعيناً له، وأيده الله بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [يونس: ٧٥].

آيات موسى – عليه السلام:

١ – العصا: وقد جعلها الله تعالى حية تسعى، قال تعالى: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ [طه: ١٧ -٢٠].

٢ – اليد: قال تعالى: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ [النمل: ١٢] قال ابن كثير – رحمه الله –: "هاتان الآيتان وهما العصا واليد .. هما البرهان المشار إليهما في قوله: ﴿ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [القصص: ٣٢] .."[١] .

(١) البداية والنهاية (١/٢٣٢).

٣ -٤ - السنون وهو الجدب الذي أصاب آل فرعون، ونقص الأنفس والثمرات، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

٥ - الطوفان واختلف في المراد به فقيل: الماء روي عن ابن عباس — رضي الله عنه — والضحاك ومجاهد وقيل الموت روي عن عائشة ومجاهد وغيرهما، وقيل: كثرة المطر والريح وقيل: بل كان أمراً من الله طاف بهم روي عن ابن عباس — رضي الله عنهما — أيضاً، ورجحه ابن جرير — رحمه الله — وقال: "وإذا كان ذلك، جاز أن يكون الذي طاف بهم المطر الشديد، وجاز أن يكون الموت الذريع" ا.هـ [(١)] .

٦ - الجراد الذي سلط عليهم، فأكل أشجارهم وثمارهم [(٢)] .

٧ - القمل وقيل هي السوس الذي يخرج من الحنطة، وقيل: الدَّبَى وهو صغار الجراد الذي لا أجنحة له، وقيل البراغيث [(٣)] .

٨ - الضفادع: لبستهم حتى كانت تسقط في أطعمتهم وأوانيهم حتى إن أحدهم إذا فتح فمه لطعام أو شراب سقطت في فيه ضفدعة[(٤)] .

٩ - الدم: "فكان قد مزج ماءهم كله فلا يستقون من النيل شيئاً إلا وجدوه دماً عبيطاً ولا من نهر ولا بئر ولا شيء إلا كان دماً في الساعة الراهنة، وهذا كله لم ينل بني إسرائيل من ذلك شيء بالكلية، وهذا من تمام المعجزة الباهرة والحجة القاطعة" [(٥)] وقد ذكرت في قوله

---

(١) جامع البيان (٣٢/٩) وانظر ص٣٠ -٣١، وانظر عرائس المجالس، ص١٩٠، وقصص الأنبياء لابن كثير.
(٢) انظر عرائس المجالس، ص١٩٢.
(٣) انظر المرجع السابق ٣٢/٩ -٣٣، وقصص الأنبياء لابن كثير (٦٥/٢) (٦٥/٢).
(٤) البداية والنهاية (٢٤٨/١).
(٥) المرجع السابق ونفس الجزء والصفحة.

تعالى:
﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

اللقاء مع السحرة:

استمر فرعون في مكره، وتكذيبه، وإنكاره للرب جل وعلا، على الرغم مما ظهر له من الآيات السابقات قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل: ١٣ -١٤] وادعى أن ما جاء به موسى هو السحر، ولهذا جمع السحرة من جميع أطراف مملكته وحدد يوماً للقاء، وكانت بلاد مصر مملوءة بأمهر السحرة، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يونس: ٧٩] واختلف في عددهم فقيل: ثمانون، وقيل: سبعون ألفاً، وقيل بضعة وثلاثون ألفاً .. وقيل غير ذلك [(١)] .

والمقصود إن العدد كان كبيراً جداً، وكان هدف فرعون هو الانتصار على موسى – عليه السلام – ولقد وعد السحرة وأغراهم بالمكافآت والقرب منه ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [الأعراف: ١١٣ - ١١٤].

وعندما تقابلت الطائفتان قال السحرة لموسى – عليه السلام – إما أن تلقي، وإما أن نكون نحن الملقين، فأمرهم موسى – عليه السلام – بالإلقاء، فألقوا حبالهم وعصيهم وكانوا قد أودعوها مادة الزئبق،

(١) انظر عرائس المجالس، ص١٨٤ -١٨٧، والبداية والنهاية (١/ ٢٣٨).

وغيره من المواد، التي تجعل العصي تتحرك بنفسها، فأخذت العصي والحبال تتحرك وتضطرب بحركة عجيبة، غريبة، فسحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم [١] .

وظن السحرة أنهم منتصرون، فألقى موسى عصاه فلقفت كل سحرهم وبطل السحر، حيث إن آيات الأنبياء لا يمكن معارضتها بالسحر، لما علمنا من الفروق بينهما [٢] . قيل: إن عصا موسى – عليه السلام – تحولت إلى حية عظيمة، ذات عنق وشكل مخيف، وأخذت تبتلع حبالهم وعصيهم في حركة وسرعة بالغة [٣] .

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يونس: ٨٠ -٨٢] .

ولهذا كان السحرة أول من آمن به في ذلك اليوم، وكان إيمانهم عظيماً لما حصل لديهم من العلم واليقين بصدق موسى – عليه السلام – جعلهم هذا الإيمان يقفون سداً شامخاً أمام وعيد فرعون وتهديده قال تعالى: ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا

---

(١) انظر البداية والنهاية ٢٣٩/١، وانظر النبوات، ص٣٢ -٣٣.

(٢) انظر الفروق بين آيات الأنبياء وخوارق السحرة، ص٢١٣ -٢١٤.

(٣) انظر البداية والنهاية (٢٣٩/١).

تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾ [طه: ٧١ -٧٣].

١٠- إجابة الدعوة:

بعد أن قامت الحجج على فرعون، ونصر الله موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام، ورأى موسى – عليه السلام – إصرارهم، وعتوهم في الأرض دعا عليهم بما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [يونس: ٨٨].

فدعا عليهم أولاً: بالطمس على أموالهم

والطمس "الدروس والإمحاء .. وانطمس الشيء وتطمّس، أي امحى ودرس" [١] قال ابن جرير – رحمه الله – : "هذا دعاء من موسى، دعا الله على فرعون وملئه أن يغير أموالهم عن هيئتها، ويبدلها إلى غير الحال التي هي بها" ا.هـ [٢] وقيل صارت أموالهم حجارة، وقيل أهلكها وقيل أقوال أخرى [٣] والمعنى لا اختلاف فيه فقد تغيرت أموالهم عن حالتها المعتادة، وأصبحت مما لا يستفاد منه.

ثانياً: أشدد على قلوبهم:

---

(١) الصحاح (٩٤٤/٣)، وانظر بصائر ذوي التمييز (٥١٤/٣).
(٢) جامع البيان (١٥٧/١١).
(٣) انظر المرجع السابق نفس الجزء والصفحة، والبداية والنهاية (٢٥٢/١).

قال ابن جرير – رحمه الله – في معنى الآية: "اطبع على قلوبهم حتى لا تلين ولا تنشرح بالإيمان" (١) .

ثالثاً: "فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم" ولها تقديران الأول: أن تكون دعاء والتقدير: اللهم فلا يؤمنوا. الثاني: أن تكون في محل جزم جواب الأمر (٢) .

١١– إهلاك فرعون وجنوده في اليم:

عندما أذن الله تعالى لموسى – عليه السلام – وقومه أن يخرجوا من مصر، استعاروا حلياً من نساء القبط، وخرجوا حتى وصل بهم السير إلى ساحل البحر ونزلوا هناك، وكان فرعون قد جمع جنوده وأتبعهم بجنوده فلما عاينوه خافوا وقالوا لموسى إنا لمدركون (٣) فأمرهم بالتوكل على الله والاستعانة به قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الشعراء: ٦١ –٦٣].

وهذه من الآيات العظام لموسى – عليه الصلاة والسلام – حيث كان على البحر، البحر أمامه والعدو من خلفه، وبلغت القلوب الحناجر فحينئذ جاء الوحي بالأمر الإلهي بضرب البحر بعصاه، "فانفلق اثني عشر طريقاً لكل سبط طريق يسيرون فيه" (٤) ثم تبعهم فرعون بجنوده، وصور لمن معه بأن هذه كرامة له بأن انحسر له البحر ليدرك

---

(١) جامع البيان (١١/١٥٩ –١٦٠)، وسيأتي مزيد شرح وتوضيح لمعنى الطبع في الباب الخامس – إن شاء الله – .

(٢) انظر جامع البيان (١١/١٥٨).

(٣) انظر البداية والنهاية (١/٢٥٧).

(٤) البداية والنهاية (١/٢٥٣).

عبيده الآبقين. قال تعالى: ﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

[يونس: ٩٠ -٩٢].

مسألة عدم قبول إيمان فرعون:

قال الفخر الرازي – رحمه الله – : "أنه (أي فرعون) آمن ثلاث مرات أولها قوله: "آمنت" وثانيها قوله: "لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل" وثالثها قوله: "وأنا من المسلمين" فما السبب في عدم القبول.."ا.هـ (١).

---

(١) تفسير الفخر الرازي (١٧/ ١٦١).

وللعلماء في ذلك عدة أجوبة:

منها: لعدم نطقه بالشهادة التي هي لفظ مخصوص للإيمان ونسب للشافعي.

ومنها: إن السبب في عدم قبول إيمانه لأنه لم يقل (ورسوله) ولا ينفع الإيمان بالله إلا إذا اقترن بالإيمان برسوله.

ومنها: إن إيمان فرعون كان بعد أن عاين الهلاك، وبلغت الروح الحلقوم، وهنا لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل، ورجح هذا القول ابن العربي.

ومنها: إن جبريل – عليه السلام – كان يأخذ من حال البحر ويدسه في فيه مخافة أن يتمها فتدركه الرحمة [(١)] .

واستشكل هذا القول حيث إن معناه أن يكون جبريل يكره إيمانه ومعلوم إن كراهة الإيمان كفر، وأجيب بعدة أجوبة:

منها: عدم صحة الخبر.

ومنها: إنه إنما فعل ذلك غضباً، وهو يعلم إن ذلك لا ينفعه [(٢)] .

ومنها: إن المراد بإدراك الرحمة النجاة من الغرق أي الرحمة الدنيوية [(٣)] .

ومنها: إنه إنما قال ذلك وسيلة للنجاة من هذا العذاب الحاضر، فلم يتوفر فيها شرط الإخلاص.

وهناك أقوال أعرضت عنها لضعفها [(٤)] . ولا يشك في كفره إلا

---

(١) سبق ذكر هذا الحديث، ص١٦٩، وانظر هذه الأقوال في عارضة الأحوذي ١١/٢٦٩ - ٢٧٢.

(٢) انظر سنن الترمذي (٨/٢٦٩) الهامش.

(٣) انظر تفسير أبي السعود (٤/١٧٣).

(٤) انظر تفسير الفخر الرازي (١٧/١٦١ -١٦٢).

منافق زنديق (١) مثله، كما هو حال غلاة الصوفية (٢).

قال شيخ الإسلام – رحمه الله – : "كفر فرعون، وموته كافراً، وكونه من أهل النار هو مما علم بالاضطرار من دين المسلمين، بل ومن دين اليهود والنصارى، فإن أهل الملل الثلاث متفقون على أنه من أعظم الخلق كفراً، ولهذا كان المسلمون متفقين على أن من توقف في كفره، وكونه من أهل النار فإنه يجب أن يستتاب، فإن تاب وإلا قتل كافراً مرتداً، فضلاً عمن يقول: إنه مات مؤمناً" ا.هـ (٣).

---

(١) كما زعم ذلك جلال الدين الدّواني في كتابه المسمى "إيمان فرعون" تبعاً لسيده محيي الدين بن عربي، واستدل على ذلك بأدلة تدل على ضعف العلم وافقه بكتاب الله، وعلى تحريف الكلم عن مواضعه حيث يقول: (الحق أن الآية الكريمة مصرحة بالإيمان من غير مانع: منطوقاً ومفهوماً، فإن "لا" لنفي حكم الجنس، والخبر محذوف والتقدير: "آمنت بأنه" لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل) والمعنى: صدقت وتيقنت أنه لا معبود بالحق في الوجود إلا الله الذي آمنت به بنو إسرائيل .. فقد حصر إيمانه في المعبود بالحق – منطوقاً ومفهوماً – وأنه قال بقلبه، مصمماً على ذلك ونطق بلسانه. ا. هـ.
ص١٣ -١٤ ويستدل أيضاً بقوله تعالى: "آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين" ويقول "المعنى: ما عصيت الآن، بل جب إيمانك عصيانك، فيكون نفياً للقيد" ا.هـ ص١٦ وقد رد عليه علي القاري في رسالة سماها "فر العون من مدعي إيمان فرعون".

(٢) الصوفية: اختلف في أصل اشتقاق الكلمة فقيل: نسبة إلى أهل الصفة تلك الجماعة المسلمة من فقراء المسلمين التي كانت تسكن في مسجد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقيل: نسبة إلى الصوف لأن عادتهم جرت بلبسه، وقد كانوا في بداية نشأتهم يميلون إلى التجرد من الدنيا، والإقبال على العبادة والتبتل، ثم صار بعد ذلك إلحاداً وزندقة كما هو عند غلاة الصوفية كالحلاج وابن عربي وابن الفارض وغيرهم، انظر اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ومعه كتاب المرشد الأمين، ص١١٠ - ١١٧، وانظر دائرة معارف القرن العشرين (٥/٥٨٥ -٥٨٧).

(٣) جامع الرسائل، ص١٠٣ -١٠٤.

وقد نجى الله بدنه ليكون آية للعالمين ويقال: إن جثته لا تزال باقية إلى الآن، وإنه عثر عليها في نهاية القرن التاسع عشر وأنها الآن في المتحف المصري بالقاهرة في قاعة المومياءات [١].

١٢- تحقق ما وعد بني إسرائيل:

إن تحقق ما وعد موسى بني إسرائيل وهم قلة مستضعفون لمن أعظم الدلائل على نبوته، حيث أورثهم الله الأرض، وأهلك عدوهم، ومنَّ عليهم بالنصر قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٩٣** ﴾ [يونس: ٩٣].

وقد أيد الله عز وجل موسى – عليه السلام – بآيات أُخر مع بني إسرائيل كضربه الحجر بالعصا وخروج الماء منه، وكتضليل بني إسرائيل بالغمام، وكإنزال المن والسلوى وغير ذلك [٢].

ثالثاً: دعوة يونس بن متى – عليه السلام – :

وردت قصة يونس – عليه السلام – في القرآن الكريم في أربعة مواطن. الأول: في سورة يونس في قوله تعالى: ﴿ **فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝٩٨** ﴾ [يونس: ٩٨].

---

(١) ذكر ذلك موريس بوكاي في كتابه دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص٢٦٩ وعفيف طبارة في كتابه مع الأنبياء في القرآن، ص٢٤١.

(٢) للاستزادة من أخبار بني إسرائيل انظر تاريخ الأمم والملوك (١/٣٦٤) وما بعدها وعرائس المجالس ١٩٦ وما بعدها والبداية والنهاية (١/٢٥٦) وما بعدها ومع الأنبياء في القرآن لعفيف طبارة، ص٢٤٢ وما بعدها.

الثاني: في سورة الأنبياء في قوله تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٧ -٨٨].

والثالث: في سورة الصافات في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴿١٤٢﴾ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ﴿١٤٦﴾ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الصافات: ١٣٩ -١٤٨].

والرابع: في سورة القلم في قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴿٤٩﴾ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القلم: ٤٨ -٥٠].

وأما نسبه — عليه السلام — فجاءت تسميته في الأحاديث بيونس بن متى، وقيل: إن ذلك اسم أمه ونفى ابن حجر — رحمه الله — ذلك بقوله ووقع في تفسير عبدالرزاق (١) إنه اسم أمه، وهو مردود بما في حديث ابن عباس في هذا الباب وفيه قوله: "ونسبه إلى أبيه" (٢) فهذا أصح، ولم أقف في شيء من الأخبار على اتصال نسبه.

---

(١) عبدالرزاق بن همام بن نافع الإمام أبو بكر الحمير الصنعاني أحد الأعلام الثقات، ولد سنة ست وعشرين ومائة، صنف الجامع الكبير، ورحل إليه أحمد وإسحاق ويحيى وغيرهم، نسب إلى التشيع، مات سنة ٢٢١هـ، انظر ميزان الاعتدال (٢/٦٠٩ - ١١٤)، وتهذيب التهذيب (٦/٢٧٨).

(٢) انظر تخريج الحديث، ص٢٨٣.

وقد قيل: إنه كان في زمن ملوك الطوائف من الفرس [١].

دعوته:

بعث الله يونس بن متى عليه السلام إلى أهل نينوى من أرض الموصل ودعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك فأبوا قبول دعوته، فلما طال عليه أمرهم خرج من عندهم، وأنذرهم نزول العذاب بعد ثلاث [٢].

واختُلف في سبب خروجه على أقوال:

منها: إنه أُمر بالخروج إلى بني إسرائيل فلم يخرج ولم يقبل التكليف ثم خرج مغاضباً [٣] وهذا القول يحمل على من قال: إن رسالة يونس — عليه السلام — كانت بعد أن التقمه الحوت، وهو رأي ضعيف حيث إن دلالة القرآن في أنه بعث إليهم حيث يقول تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [الصافات: ١٣٩ -١٤٠] الآيات كما سيأتي:

ومنها: أنه دعا قومه، فلمّا لم يستجيبوا له خرج مغاضباً.

ومنها: إنه ظن حين وعده الله بعذابهم، إن ذلك واقع لا محالة، فلأجل هذا لم يصبر على دعوتهم، وهو الأقرب لحال الأنبياء.

---

(١) فتح الباري (٥٢٠/٦)، قال القرطبي: "يونس هو ذو النون، وهو ابن متىّ، وهو ابن العجوز التي نزل عليها إلياس، فاستخفى عندها من قومه ستة أشهر ويونس صبي يرضع، وكانت أم يونس تخدمه بنفسها وتؤانسه، ولا تدخر عنه كرامة تقدر عليها، ثم إن إلياس سئم ضيق البيوت فلحق بالجبال، ومات ابن المرأة يونس فخرجت في أثر إلياس فسألته أن يدعو الله لها لعله يحيى لها ولدها فتوضأ وصلى ودعا فأحيا الله يونس ابن متى بدعوة إلياس عليه السلام" ا.هـ (١٢١/١٥).

(٢) انظر البداية والنهاية (٢١٧/١).

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن (٣٣٠/١١).

ومنها: إن يونس عليه السلام كان وعد قومه بالعذاب فلما لم ينزل بهم خرج مستخفياً خوفاً من وصف بالكذب (١) ورجح هذا القول القرطبي (٢).

فلما ركب السفينة هاجت الريح، واشتد هيجان البحر بأهل السفينة، وقال أربابها، إن هذا لا يكون إلا لأن معكم عبدٌ آبق، فاستهموا فخرجت القرعة على يونس مراراً، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [الصافات: ١٤١] "يعني فكان من المسهومين المغلوبين" (٣) فالتقمه الحوت ويقال: إنه كان حوتاً عظيماً، ويقال إنه أمر ألا يأكل له لحماً ولا يهشم له عظماً (٤) واختلف في مقدار لبثه في بطن الحوت، فقيل: إنه لم يلبث إلا قليلاً ونسب إلى الشعبي والحسن.

وقيل: ثلاثة أيام نسب إلي مقاتل وقيل سبعة أيام وقيل شهراً وقيل أكثر من ذلك (٥) والصحيح إنه لا دليل على هذه الأقوال وليس في لفظ القرآن ما يشعر بتحديد العدد فالعلم عند الله في ذلك، وفي هذه الكربة في ظلمات البحر، وفي ظلمة بطن الحوت وفي ظلمة الليل دعا يونس عليه السلام ربه بدعوته المعروفة ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ فاستجاب الله له ونجّاه من الكرب، وذلك لأنه كان من العارفين، الذاكرين الله في الرخاء، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾. [الصافات: ١٤٣ -١٤٤].

---

(١) انظر عرائس المجالس، ص٤٠٧ -٤٠٩، وتفسير الفخر الرازي (١٦٤/٢٦).
(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن (٣٣١/١١).
(٣) جامع البيان (٩٨/٢٣).
(٤) انظر البداية والنهاية (٢١٧/١ -٢١٨).
(٥) انظر البداية والنهاية (٢١٨/١)، وتفسير الفخر الرازي (١٦٥/٢٦).

فألقاه الحوت وهو سقيم قال ابن جرير: "كالصبي المنفوس: لحم نيء" (١) وقيل: ضعيف البدن كهيئة الفرخ ليس عليه ريش (٢) وأنبت الله عليه شجرة من يقطين، وهو القرع (٣).

وفي إنباتها عليه ذكر العلماء لذلك حكماً:

منها: نعومته وكثرة ظله.

ومنها: لا يقربه الذباب.

ومنها: طيب ثمره، وفيه منافع صحية.

ومنها: إنه يؤكل نياً ومطبوخاً وبقشره وببذره (٤).

وأما قومه فإنه بعد أن فارقهم، وتحققوا نزول العذاب، سارعوا إلى التوبة والإنابة وندموا على ما كان منهم، ولبسوا المسوح وفرقوا بين البهائم، وأولادها، ورفعوا الأكف إلى الله ضارعة بزوال العذاب، وكانوا قد رأوا العذاب مقبلاً عليهم كقطع الليل المظلم فقبل الله توبتهم، و رفع عنهم عذابه وهذا قول جماهير السلف والخلف (٥) قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾ [يونس: ٩٨].

قال ابن كثير: "وقد اختلف المفسرون هل ينفعهم هذا الإيمان في الدار الآخرة فينقذهم من العذاب الأخروي كما أنقذهم من العذاب الدنيوي على قولين الأظهر من السياق نعم والله أعلم كما قال تعالى —

---

(١) جامع البيان (٢٣/١٠١).

(٢) انظر البداية والنهاية (١/٢٢٠).

(٣) "أي الدباء" انظر جامع البيان (٢٣/١٠٢)، والبداية والنهاية (١/٢٢٠).

(٤) انظر البداية والنهاية (١/٢٢٠).

(٥) انظر جامع البيان (٢٣/١٠٤ -١٠٥)، والبداية والنهاية (١/٢١٧).

لما آمنوا – وقال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝١٤٧ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝١٤٨ ﴾ [الصافات: ١٤٧ -١٤٨] وهذا المتاع إلى حين لا ينفي أن يكون معه غيره من رفع العذاب الأخروي" ا.هـ (١).

ويرد إشكال على القول بقبول توبتهم – وهو ما دل عليه الدليل – في قبولها بعد أن عاينوا العذاب مع عدم قبولها من فرعون كما سبق بيانه (٢).

وأجيب على ذلك بعدة أجوبة:

قيل: "إن فرعون إنما تاب بعد أن شاهد العذاب، وأما قوم يونس فإنهم تابوا قبل ذلك، فإنهم لما ظهرت لهم أمارات دلت على قرب العذاب تابوا" (٣) ورجح هذا القول القرطبي – رحمه الله – وعلق عليه بقوله: "المعاينة التي لا تنفع التوبة معها هي التلبس بالعذاب كقصة فرعون، ولهذا جاء بقصة قوم يونس على إثر قصة فرعون لأنه آمن حين رأى العذاب فلم ينفعه ذلك، وقوم يونس تابوا قبل ذلك، ويعضد هذا قوله عليه السلام: "إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر" (٤)

(١) البداية والنهاية (١/ ٢١٧).
(٢) انظر ص ٢٧٥ – ٢٧٦.
(٣) تفسير الفخر الرازي (١٧/ ١٧٢).
(٤) رواه الترمذي في كتاب الدعوات باب: "باب التوبة مفتوح قبل الغرغرة" من حديث ابن عمر – رضي الله عنه – رقم: ٣٥٣١ (٩/ ١٩٢) وقال: "هذا حديث حسن غريب" ا.هـ، ورواه ابن ماجة في كتاب الزهد باب: ذكر التوبة رقم: ٤٢٥٣ (٢/ ١٤٢٠)، رواه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ١٣٢) رواه من طريق أخرى (٣/ ٤٢٥) وقال عنها الهيثمي في مجمع الزوائد "رجاله رجال الصحيح غير عبدالرحمن وهو ثقة" ا.هـ (١٠/ ١٩٧).

والغرغرة الحشرجة وذلك هو حال التلبس بالموت، وأما قبل ذلك فلا والله أعلم.[(١)] ا.هـ.

ويمكن القول أيضاً إن فرعون لم تكن توبته بإخلاص وأما قوم يونس فقد ظهر منهم صدق التوبة والإنابة كما إنهم لم يبلغوا في العتو والتجبر ما بلغ فرعون الذي ادعى الربوبية، وقيل: إن الله استثناهم من أهل القرى في قبول توبتهم بعد نزول العذاب [(٢)] كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ﴾ [يونس: ٩٨].

واختُلف في إرسال يونس عليه السلام إليهم هل كان حبسه في بطن الحوت أم بعد على ثلاثة أقوال:

الأول: أنه أُرسل إلى قومه قبل أن يبتلعه الحوت، ونسب ابن كثير هذا القول لمجاهد – رحمهما الله – ورجحه القرطبي.

الثاني: إنه إنما أُرسل إليهم بعد خروجه من بطن الحوت، روي عن ابن عباس [(٣)] وإن سبب خروجه هو عدم قبوله الأمر بالخروج إلى بني إسرائيل.

الثالث: أنه أرسل قوم آخرين بعد أن خرج من بطن الحوت [(٤)].

والراجح – والله تعالى أعلم – القول الأول، للأدلة الآتية:

١ - قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ ﴾ [الصافات: ١٣٩].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٣٨٤/٨).

(٢) انظر جامع البيان (١٧١/١١).

(٣) الأثر رواه ابن جرير في التفسير (١٠٥/٢٣) قال القرطبي فيه "ليس له طريق إلا عن شهر بن حوشب" الجامع لأحكام القرآن (١٢٢/١٥) وقال ابن حجر في التقريب، ص٢٦٩، "صدوق كثير الإرسال والأوهام" ا.هـ وقال الذهبي "قال أبو حاتم: ليس هو بدون أبي الزبير، ولا يحتج به وقال أبو زرعة: لا بأس به، عن ابن عون قال: إن شهراً تركوه" ميزان الاعتدال (٢٨٣/٢).

(٤) انظر تفسير البغوي (٤٣/٤) وتفسير الفخر الرازي (١٦٦/٢٦) وتفسير ابن كثير (٣٧/٦).

٢ - أنه يمكن القول إنه رجع إلى قومه بعد نجاته، وأُرسل إليهم ثانية فآمنوا به وصدقوه [١].

(١) انظر تفسير ابن كثير (٦/٣٧).

فضل يونس – عليه السلام:

يونس عليه السلام من الرسل الكرام، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [الصافات: ١٣٩] وذكره الله في جملة الرسل والأنبياء الذين ذكرهم في سورة النساء والأنعام (١).

قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ ﴾[النساء: ١٦٣]

وقوله: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٣] الآيات إلى قوله: ﴿ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٦].

وروى البخاري عن ابن عباس – رضي الله عنهما – عن النبي ﷺ قال: "ما ينبغي لعبد أن يقول: إني خير من يونس بن متّى" ونسبه إلى أبيه (٢).

وللعلماء في هذا الحديث أقوال منها ما ذكره الإمام النووي – رحمه الله – وغيره:

أحدهما: أنه ﷺ قال هذا قبل أن يعلم أنه أفضل من يونس – عليه السلام – فلما علم ذلك قال أنا سيد ولد آدم ولم يقل هنا يونس أفضل منه أو من غيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه.

الثاني: أنه ﷺ قال هذا زجراً عن أن يتخيل أحد من الجاهلين شيئاً من حط مرتبة يونس ﷺ من أجل ما في القرآن العزيز من قصته، قال

---

(١) انظر البداية والنهاية (١/٢٢١).

(٢) رواه البخاري كتاب الأنبياء باب قول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ رقم ٣٢٣٢ (٣/١٢٥٤) ورواه مسلم في الفضائل، باب ذكر يونس عليه السلام رقم ٢٣٧٦ (٤/١٨٤٦) عن شعبة به.

العلماء وما جرى ليونس ﷺ لم يحطه من النبوة مثقال ذرة.."ا.هـ[١].

وهناك قول ثالث ذكره ابن حجر – رحمه الله – وهو أن قوله هذا عليه الصلاة والسلام تواضعاً منه وهو يعلم أنه سيد الخلق [٢].

وقيل: "إن النهي عن التفضيل في النبوة نفسها وذلك قد لا يتصور فيها بل في خصائصها وتوابعها" [٣].

وقيل: إن هذا نهي عام يشمل الكل فلا ينبغي لمسلم أن يقول أنا خير من يونس بن متى [٤].

(١) شرح مسلم (١٣٢/١٥).
(٢) فتح الباري (٥٢١/٦)، وانظر البداية والنهاية (٢٩١/١).
(٣) لوامع الأنوار (٢٩٨/٢).
(٤) انظر شرح العقيدة الطحاوية، ص١٢٩.

الفصل الثالث

في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم

وفيه مبحثان:

الأول: إثبات نبوته **صلى الله عليه وسلم**

الثاني: عموم رسالته **صلى الله عليه وسلم**

المبحث الأول: إثبات نبوة محمد ﷺ :

إن ثبوت نبوة محمد ﷺ من الأمور التي لا تحتاج إلى جدال، لأن جحدها إنكار للربوبية والألوهية، بل إنكار للكتب والشرائع وإنكار لنبوة جميع الأنبياء من قبله، وبيان ذلك إن تلك العقائد لم تعرف على الوجه الصحيح إلا عن طريقه ﷺ كما إن جميع الرسل قبله بشروا بنبوته فيلزم من تكذيبه، تكذيب الرسل من قبله، وهو عليه الصلاة والسلام جاء بالآيات الباهرات، والدلائل العظام على نبوته، مما لم يأت به نبي قبله، فإذا نتفت نبوته مع وضوحها، كان الانتفاء لغيرها من باب أولى (١) .

وفي هذه السورة المباركة نجد أن إثبات النبوة جاء واضحاً في كثير من آياتها وقد حددتها في النقاط التالية :

أولاً : تأييده بالمعجزات العظيمة ، وأعظمها القرآن.

ثانياً : إثبات نبوته ﷺ من خلال النظر في أحواله ﷺ قبل البعثة وبعدها.

ثالثاً : إثبات نبوته ﷺ من خلال ما أخبر به من قصص الأنبياء وأخبار السابقين.

رابعاً : إ ثبات نبوته ﷺ بإثبات وجود جنس الأنبياء ابتداء.

خامساً : بعثته في زمن كان الناس بأشد الحاجة إلى رسول.

سادساً : البشارة بنبوة محمد ﷺ في الكتب السابقة وإليك التفصيل :

أولاً: تأييده بالمعجزات العظيمة، وأعظمها القرآن الكريم:

لقد أيد الله نبينا محمد ﷺ بالمعجزات العظام التي لم يجمعها لنبي

---

(١) انظر هداية الحيارى، ص٣٥٩ -٣٦٥.

قبله قط، بل قال بعض العلماء: إن الرسول ﷺ قد أوتي من الفضائل والمعجزات ما أعطيه جميع الأنبياء (١).

وقال الحليمي — رحمه الله — : "ذكر بعض أهل العلم إن أعلام نبوته تبلغ ألفاً" ا.هـ (٢).

ومن أعظم آياته القرآن العظيم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وفي الصحيحين عن أبي هريرة — رضي الله عنه — قال: قال النبي ﷺ : "ما من الأنبياء نبي إلا أُعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنّما كان الذي أُوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة" (٣).

قال الذهبي — رحمه الله — معلقاً على هذا الحديث: "قلت هذه المعجزة العظمى وهي (القرآن) فإن النبي من الأنبياء عليهم السلام كان يأتي بالآية وتنقضي بموته، فقلَّ لذلك من يتبعه، وكثر أتباع نبينا ﷺ لكون معجزته الكبرى باقية من بعده، فيؤمن بالله ورسوله كثير ممن

---

(١) انظر دلائل النبوة لأبي نعيم (٥٨٧/٢)، وانظر الشفا (٥٢٣/١ -٥٢٥).

(٢) المنهاج في شعب الإيمان (٢٦٣/١)، وقال ابن حجر — رحمه الله — : "وذكر النووي في مقدمة مسلم أن معجزات النبي صلى الله عليه وسلم تزيد على ألف ومائتين وقال البيهقي في "المدخل" بلغت ألفاً وقال الزاهدي من الحنفية: ظهر على يديه ألف معجزة وقيل ثلاثة آلاف" ا.هـ، فتح الباري (٦٧٤/٦).

(٣) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن باب كيف نزول الوحي وأول ما نزل رقم ٤٦٩٦ (١٩٠٥/٤)، ورواه أيضاً في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: "بعثت بجوامع الكلم" رقم ٦٨٤٦ (٢٦٥٤/٦)، ورواه مسلم في كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم رقم ٢٣٩ (١٣٤/١).

يسمع القرآن على مر الأزمان، ولهذا قال: فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة" ا.هـ [١].

وذكر ابن حجر – رحمه الله – لهذا الحديث عدة معان منها:

إن القرآن هو المعجزة العظمى التي تحدى بها الرسول ﷺ العرب والعجم، وهي خاصة به، وليس المراد أنه لم يؤت غيرها.

ومنها: إن هذا القرآن ليس له مثل، بخلاف غيره من المعجزات.

ومنها: إن كل نبي قبله يأتي بمعجزة، إنما يكون مثلها حصل لغيره من الأنبياء عليهم السلام.

أما النبي محمد صلى الله عليه وسلم فلم يؤت غيره مثله.

ومنها: إن معجزات الأنبياء – عليهم السلام – انقرضت بانقراض أعصارهم، أما معجزة القرآن الكريم فهي باقية ودائمة.

وذكر أقوالاً أُخرى ثم عقب بقوله – رحمه الله – : "ويمكن نظم هذه الأقوال كلها في كلام واحد فإن محصلها لا ينافي بعضه بعضاً"ا.هـ [٢].

وقد جاء التحدي في القرآن الكريم في عدة آيات من كتاب الله العزيز:

الأول في قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٣ -٢٤].

ففي قوله تعالى: ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٣] تحد ظاهر، ثم في قوله تعالى: ﴿ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣] تحدٍ ثان وأيضاً في قوله تعالى: "فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار .."

---

(١) السيرة للذهبي، ص٢٨٦.

(٢) فتح الباري (٦٢٣/٨).

الآية تحد ثالث، مع اشتماله على الخبر عن المستقبل بعجزهم فكان كما أخبر، وهذا لا يمكن الجزم به إلا ممن يعلم السر وأخفى، فدلَّ على أن هذا قوله الثاني [(١)] في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يونس: ٣٧ -٣٨].

ففي هاتين الآيتين وقع التحدي في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾، فلم يستطع بشر أن يأتي بمثله، وفي قوله تعالى: ﴿ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ وهذا قمة التحدي.

الثالث: في قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [هود: ١٣ -١٤].

الرابع: في قوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٨].

فهذا لا يمكن صدوره من مخلوق، إذ مبناه على علم ما سيكون، ولاسيما من نبي يدعو قومه إلى عبادة الله جل وعلا، وإثبات صدقه، مع تكذيبهم له، ووصفه بالكذب، فعُلم أن ذلك من عند الرب سبحانه وتعالى.

---

(١) انظر إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم لأحمد الزيدي ث٢٢، ولوامع الأنوار (١/١٧١ - ١٧٢).

الخامس: في قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القصص: ٤٩ -٥٠].

ففي قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ تحدٍ وفي قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ تحدٍ ثان، إذ هو تقريع وزجر لهم بتركهم الاستجابة مع عجزهم، وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ تحد ثالث.

السادس: في قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الطور:٣٣-٣٤].

وهذه الآيات مما وقع فيها التحدي ظاهراً جلياً، وأما ما وقع فيه التحدي ضمناً فكثيرة جداً [(١)]، وهذا بمجموعه يقوي الدوافع، ويشحذ الهمم [(٢)].

ومع ذلك عجزوا ومما يدل على عجزهم أمران:

الأول: أنهم لو استطاعوا ذلك لنقل، واستفاض، لأنه مما تتوافر الدواعي على نقله، ولا يصح أن يقال: عروض ولم ينقل، لأن ذلك مما لا يمكن كتمانه، علاوة على أن ذلك يمكن أن يقال في آية كل نبي، وعليه تبطل جميع آيات الأنبياء.

---

(١) كما في يونس آية ٤٢ -٤٣، والرعد: آية ٣١، والعنكبوت آية ٥١، الحشر: آية ٢١، ويونس آية ٤٢ -٤٣، الرعد، آية ٣١.

(٢) انظر إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم لأحمد الزيدي، ص٢٢ -٢٥.

الثاني: إنهم لو استطاعوا معارضته، لكان في ذلك حجة لهم في إبطال رسالته، ولما احتاجوا مع ذلك إلى سفك الدماء، وإزهاق الأرواح وبذل الأموال، وسبي الذرية.

ولو لم يتيقن عليه الصلاة والسلام بعجزهم، لما تحداهم به، لاسيما وهم أمم كثيرة، وهم أهل الفصاحة والبلاغة، فدل ذلك على يقينه إن ذلك مما لا يكون في استطاعتهم (١).

قال بعض العلماء: "ذكر أدلة نبوة محمد ﷺ من الكتاب العزيز، والكتاب العزيز كله دليل على صدق رسالته بل كل سورة منه دليل عليه لمكان العجز عن الإتيان بمثلها .. فإذن تبلغ أدلة التعجيز منه مبلغاً يزيد على الألف دليل وهذا من أسرار الكتاب العزيز، وعجائب التنزيل" ا.هـ (٢).

وللعلماء أقوال كثيرة في أوجه إعجاز القرآن أجملها فيما يلي (٣):

---

(١) انظر إعجاز القرآن للباقلاني، ص٤٣، وأعلام النبوة للماوردي، ص٧١، وشمائل الرسول لابن كثير، ص١٢٧.
قال الباقلاني: وقد ادعى قوم أن ابن المقفع عارض القرآن، وإنما فزعوا إلى الدرة اليتيمة، وهما كتابان: أحدهما يتضمن حكماً منقولة، توجد عند حكماء كل أمة .. فليس فيها شيء بديع من لفظ ولا معنى، والآخر في شيء من الديار، وقد تهوَّس فيه مما لا يخفى على متأمل، وكتابه الذي بيناه في الحِكَم، منسوخ من كتاب بزر جمهر في الحكمة فأي صنع له في ذلك وأي فضيلة حازها؟ وبعد، فليس يوجد له كتاب يدَّعي مدع أنه عارض فيه القرآن، بل يزعمون أنه اشتغل بذلك مدة، ثم فرق ما جمع واستحيا لنفسه من إظهاره .." ا.هـ، إعجاز القرآن، ص٥٦.

(٢) رسالة استخراج الجدال من القرآن الكريم لابن الحنبلي ضمن الرسائل المنيرية (٥٤/٣).

(٣) انظر إعجاز القرآن للباقلاني (٥٧ -٦٦)، وإثبات نبوته صلى الله عليه وسلم لأبي الحسين الزيدي وانظر أعلام النبوة للماوردي (٥٨ -٨٣) والشفا (٣٥٨/١ -٣٩٦) والإعلام للقرطبي (٣٢٣/٣ -٣٤٧)، والشمائل لابن كثير ص(١٢٦ -١٣٥) والبرهان في علوم القرآن للزركشي (٩٠/٢ -١١٧)، وبصائر ذوي التمييز =

أولاً: إعجازه من حيث البيان والبلاغة، وعجيب التأليف وتتبين.

١ - من حيث الجملة، فهو مباين للمألوف من كلام البشر، على اختلاف أوجه نظمه.

٢ - إنه ليس للعرب كلام بهذا الطول مع تلك البلاغة والبيان، بل كل ما ينسب إلى شعرائهم وفصائحهم كلمات معدودة وحكم يسيرة، ولهذا قد يبرز أحدهم في فن ولا يبرز في فن آخر، ثم هذه الجمل اليسيرة قد تعارض وقد يظهر فيها الخلل، وعدم الانسجام، أما القرآن العظيم فمع طوله فهو متناسب في أرقى مراتب الفصاحة في جميع سوره وآياته.

٣ - عجيب نظمه، وتآلف أجزائه، مع اختلاف موضوعاته، ففيه الوعد والوعيد، والترهيب والترغيب، وفيه القصص والسير، وفيه التشريع والأحكام، ومع هذا لا تنافر ولا اختلاف.

٤ - كثرة المعاني مع الإيجاز، وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٩] قال الفيروزابادي[1] – رحمه الله – هذه أربع كلمات وستة عشر حرفاً تتضمن ما ينيف على ألف ألف مسألة، قد تصدى لبيانها علماء

==

(٦٥/١)، والإتقان للسيوطي (٢٥٢/٢ -٢٧٠)، وإعجاز القرآن للرافعي، ص٥٦ وما بعدها، ومباحث في علوم القرآن للشيخ مناع القطان، ص٢٥٧ -٢٧٥.

(١) محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر، أبو طاهر مجد الدين الشيرازي الفيروز ابادي: من أئمة اللغة والأدب ولد بكارزين .. من أعمال شيراز، وانتقل إلى العراق وجال في مصر والشام، ودخل بلاد الروم والهند، كان مرجع عصره في اللغة والحديث والتفسير وتوفي في زبيد (سنة ٨١٧)، أشهر كتبه "القاموس المحيط"، الأعلام (١٤٦/٧ -١٤٧).

الشريعة .. حتى بلغوا أُلوفاً من المجلدات، ولم يبلغوا بعد كنهها وغايتها"ا.هـ (١).

وتأمل قوله تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وتأمل قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] . "فإنها جامعة لجميع مكارم الأخلاق"(٢).

الثاني: ما اشتمل عليه من الإخبار بأمور الغيب، مما لا يمكن لبشر الاطلاع عليه من مثل قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الروم: ١ -٣] فوقع كما أخبر.

وقوله: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الفتح: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الصف: ٩] ، فتحقق ما وعد به جل وتعالى رسوله فظهر هذا الدين على سائر الأديان.

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر: ٤٤ -٤٥] فكان ذلك يوم بدر.

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [البقرة: ٩٤] فلم يتمنه أحد، فظهرت معجزته وبانت حجته عليه الصلاة والسلام والحمد لله رب العالمين.

---

(١) بصائر ذوي التمييز (١/ ٦٩).
(٢) بصائر ذوي التمييز (١/ ٧١).

الثالث: ما احتوى عليه من أخبار الأمم البائدة، وقصصهم مما لا يمكن العلم به، ولا يوجد منه إلا أخبار يسيرة، عند بعض علماء أهل الكتاب على ما فيها من تحريف، ونقص، ونسبة الأفعال المشينة إلى الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه [1] قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [يوسف: ٣] .

وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٢].

وقوله: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف: ١١١].

وقوله: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [هود: ٤٩] .

الرابع: ما تضمنه من الإخبار بما تكنه الضمائر كما في قوله تعالى: ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا ﴾ [آل عمران: ١٢٢] .

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ ﴾ [المجادلة: ٨] .

وقوله تعالى: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [البقرة: ٩٥] .

الخامس: المهابة والخشية التي تلحق بالقلوب عند تلاوته، تأثيره في النفوس، وعدم الملل من ترداده وتكراره، لهذا كان السبب في إسلام عدد من الصحابة عندما سمعوه.

---

(١) سبق بيان شبهة بعض المستشرقين بزعمهم أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - تعلم من أهل الكتاب، ص ٢٢٠ وما بعدها.

قال تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر:٢١] ، وقوله: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ [الزمر:٢٣] .

السادس: الإعجاز في تشريعاته، وأحكامه، التي فاقت جميع النظم والقوانين.

السابع: حفظ الله تعالى له، فلا يمكن لبشر أن يزيد فيه أو ينقص ولو رام ذلك مخلوق، لانكشف ذلك للعيان من سائر الناس.

الثامن: إعجازه العلمي، وهذا يظهر من خلال دعوته للإنسان بالنظر والتأمل، وحثه على التفكير في خلق الله، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يونس:١٠١]. وقوله تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات:٢٠ -٢١].

يقول موريس بوكاي: "لقد أذهلتني دقة بعض التفاصيل الخاصة بهذه "الظواهر" وهي تفاصيل لا يمكن أن تدرك إلا في النص الأصلي، أذهلتني مطابقتها للمفاهيم التي نملكها اليوم عن نفس هذه "الظواهر" والتي لم يكن ممكناً لأي إنسان في عصر محمد أن يكوّن عنها أدنى فكرة.." ا.هـ (١) ويقول أيضاً: "وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث"ا.هـ(٢).

---

(١) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص١٤٤ -١٤٥.
(٢) المرجع السابق، ص١٣.

وعدَّ بعض العلماء [١] الصرفة نوعاً من الإعجاز، وهذا لا يصح حيث إن الصرفة ليست إعجازاً، أما القول بالصرفة فقد قال به بعض المتكلمين ومن أشهر من عرف عنه هذا القول النظام [٢] من المعتزلة حيث زعم "أن نظم القرآن وحسن تأليف كلماته ليس بمعجزة للنبي ﷺ ولا دلالة على صدقه في دعواه النبوة، وإنما وجه الدلالة منه على صدقه ما فيه من الإخبار عن الغيوب، فأما نظم القرآن وحسن تأليف آياته فإن العباد قادرون على مثله وعلى ما هو أحسن منه في النظم والتأليف.."[٣].

وأبو المعالي الجويني [٤]، وبعض القدرية، وابن حزم الأندلسي[٥].

ومعنى هذا القول إبطال الإعجاز في النظم والتأليف والفصاحة والبلاغة، والزعم بأن عجز العرب عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن لأن قُدَرهم سلبت، ولأنهم صرفوا عن ذلك الأمر والقائلين بهذا القول على رأيين:

---

(١) كأبي القاسم التيمي في كتاب الحجة على تارك المحجة (١/٣٥٠)، وكذلك أبو الحسين الزيدي في كتاب إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ص٢٨، حيث قال: "ويكفي في آية واحدة من آيات التحدي أن يقرع أسماعهم فكيف يصح أن يقال: إنها لم تبلغهم، إلا أن يكون الله تعالى صرفهم عن سماعها ولئن جاز ذلك، فالصرف من عظيم المعجزات" ا.هـ وكذلك الرماني كما نقله السيوطي في الإتقان (٢/٢٦٣).

(٢) إبراهيم بن سيار بن هانئ البصري، أبو إسحاق النظّام: من أئمة المعتزلة تبحر في علوم الفلسفة واطلع على أكثر ما كتبه رجالها، وانفرد بآراء خاصة تابعته فيها فرقة من المعتزلة سميت "النظامية" وقد ألفت كتباً خاصة للرد على النظام فيها تكفير وتضليل.." توفي سنة ٢٣١هـ، الأعلام للزركلي (١/٤٣)، وانظر تاريخ بغداد (٦/٩٧)، والفرق بين الفرق للبغدادي، ص١١٣.

(٣) الفرق بين الفرق ص١٢٨، وانظر الانتصار للخياط، ص٦٨.

(٤) انظر العقيدة النظامية، ص٧٣ -٧٤، حيث صرح بهذا الرأي.

(٥) انظر الفصل في الملل والنحل (٣/٢٧ -٢٩).

الأول: أن العرب صرفوا عن المعارضة بصارف خارج عنهم، فلم تكن لديهم قدرة على معارضة القرآن، وهذا قول النظام.

الثاني: أن الله سبحانه وتعالى، سلب العرب علومهم، ومواهبهم في الفصاحة والبلاغة والبيان (١).

وهذا القول من أضعف الأقوال وأفسدها كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – (٢) ويظهر بطلان وفساد هذا القول في الأوجه التالية:

الأول: إن الله تعالى قال: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء:٨٨] ولو كان الإعجاز بالصرفة، لكان لا فائدة من اجتماعهم، إذ هو بمثابة اجتماع الموتى، إذ قد سلبوا جميعاً القدرة على المعارضة.

الثاني: إن إثبات هذا القول يلزم منه ألا يكون القرآن معجزاً، بل يكون المعجز هو الله عز وجل، ومعلوم أن الإجماع منعقد على إعجاز القرآن قبل ظهور القول بالصرفة كما نص على ذلك السيوطي (٣) والقرطبي (٤) – رحمهما الله – وغيرهم.

الثالث: كما يلزم من هذا القول أن يزول الإعجاز بزوال زمن التحدي وهذا خلاف الإجماع (٥).

---

(١) انظر أعلام النبوة للماوردي، ص٧٢، ومباحث في إعجاز القرآن لمصطفى مسلم، ص٥٧.
(٢) انظر الجواب الصحيح (٤/٧٥).
(٣) انظر الإتقان (٢/٢٥٥ -٢٥٦)، والخصائص الكبرى (١/١٩٤).
(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن (١/٦٦).
(٥) انظر الإتقان (٢/٢٥٥ -٢٥٦).

الرابع: لو صح هذا القول، لوجد من أشعار العرب السابقة ما يضاهي القرآن، وهذا لم يكن [1].

الخامس: إنه يلزم منه أن يكون القرآن الكريم كسائر الكلام لا مزية له عليها بشيء، غير أنه لا يمكن معارضته، لأن الله عز وجل صرف قدرة العباد على ذلك.

السادس: إن الله عز وجل وصف القرآن بأوصاف لا يمكن أن يوصف بها غيره، كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ ﴾ [الرعد: ٣١] الآية وقوله: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزمر: ٢٣]. وغير ذلك فدل على أن القرآن معجز بذاته.

السابع: أنه ينبغي بناء على قولهم هذا أن يكون القرآن الكريم في أقل مراتب الفصاحة والبلاغة، حتى يكون العجز عن الإتيان بمثله أبلغ في التحدي.

الثامن: ما ثبت بالتواتر بأن الدواعي لمعارضة القرآن موجودة، والهمم متحفزة إلى المعارضة، مع ما في نفوسهم من شدة العداوة لمحمد عليه الصلاة والسلام، والقرآن تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله، ولو سلبت قدرهم وعلومهم لظهر لهم ذلك، ولجاز لهم أن يدّعوا أن هذا سحر ولقالوا كنا نستطيع ذلك ولكن حلت بيننا وبينه بسحرك.

---

(١) انظر إعجاز القرآن للباقلاني، ص(٥٢ -٥٣)، وص١٧٥ -١٩٦، وانظر لوامع الأنوار (١/١٧٤).

التاسع: إن هذا القول يعود أصله إلى أقوال البراهمة [١].

العاشر: إن القول بالصرفة ينفي أن يكون للقرآن بذاته إعجازاً، ومعلوم أن معجزات الأنبياء السابقين كانت معجزة بذاتها، فلم يقدر أحد أن يعارضها أو يأتي بمثلها، فهل يعقل أن تكون معجزة محمد ﷺ الخالدة أقل قدراً مما سبقها من معجزات الأنبياء؟!

الحادي عشر: إن هذا القول يشبه القول: إن القرآن سحر يؤثر، حيث إن غاية كلا القولين أن إعجازه أمر خارج عنه.

الثاني عشر: ما ثبت من الروايات الكثيرة من تأثرهم ببلاغة ونظم القرآن بذاته، ولقد كان سماع القرآن الكريم سبب إسلام عدد منهم كعمر بن الخطاب – رضي الله عنه وأرضاه – وغيره.

---

(١) كما ذكر الشيخ محمد أبو زهرة – رحمه الله – حيث قال: يقول في ذلك أبو الريحان البيروني في كتابه، ما للهند من مقولة مقبولة في العقل مرذ وله ما نصه: "أن خاصتهم يقولون في مقدورهم أن يأتوا بأمثالها، ولكنهم ممنوعون من ذلك احتراماً لها" ا.هـ.
ثم عقب بقوله: "ولم يبين البيروني وجه المنع أهو منع تكليفي يسبقه الإيمان بهذه الكتب، أم هو منع تكويني بمعنى أن برهما صرفهم بمقتضى التكوين عن يأتوا بمثلها، والأخير هو الظاهر لأنه هو الذي يتفق مع قول جمهور علمائهم، وما اشتهروا من أن القول بالصرفة نبع في واديهم" ا.هـ، القرآن المعجزة الكبرى، ص٧٩.
والبرهمية: ديانة من ديانات الهند القديمة، وهم يعتقدون وحدة الوجود والتناسخ أي عودة الأرواح إلى الأجساد في الدنيا، وهم يقدسون البقر ويحرمون ذبحها لاعتقادهم أن الأرواح الطاهرة تحل فيها، ويقدسون الثعابين والتماسيح، ومن عوائدهم إحراق موتاهم، ومن كتبهم المقدسة "الفيدا" و"منافا دار ماساسترا" و"ماهاباراتا" و"رميانا" و"دبور أنا" و"الفيدا" يحتوي فقط على البرهمية الأولى، وأما البورأنا فيمثلها مختلطة بالتثليث والعقائد الخاصة بالإله فيشنو.
انظر دائرة معارف القرن العشرين (١٥٩/٢) وما بعدها.

الثالث عشر: لو قيل: إن إعجاز الكفار عن المعارضة كان لصارف ثبط عزائمهم وعاق قدرهم البيانية لنقل ذلك، ولكان من المشركين تظاهر بذلك، وادعاء بأنه ذلك في الإمكان، فلما لم يحصل منهم اجتماع أو تواطؤ على المعارضة دل على بطلان هذا القول.

الرابع عشر: يلزم من هذا القول أن تنقص مقدرة العرب البيانية، عما كانوا عليه في الجاهلية، وينزل مستوى الشعر والنثر عما كان عليه، وهذا غير واقع.

الخامس عشر: إن مثار إعجابهم، هو القرآن نفسه، بما حوى من ضروب الإعجاز، ولم يكن إعجابهم لعدم المعارضة [1] وبعد أن تبين لنا بطلان القول بالصرفة، نعود للحديث عن إعجاز القرآن، فأقول: إنه من خلال تلك الوجوه مجتمعة، تظهر جوانب الإعجاز، ولا ينبغي القول: إن الإعجاز حصل بنوع دون سواه، لأن التحدي صريح في الإتيان بمثل القرآن [2] وجميع هذه الأوجه قد اشتمل عليها القرآن.

---

(١) انظر إعجاز القرآن للباقلاني (٥٣ -٥٤)، الشفا (١/٣٧٣، ٥٣٠)، وأعلام النبوة للماوردي، ص٧٢ وما بعدها، والرسالة الشافية في وجوه الإعجاز للجرجاني (ص٦١١ -٦١٦)، والبداية والنهاية (٦/٨١)، والجواب الصحيح (٤/٧٥) والإتقان (٢/٢٥٥ -٢٥٦)، والخصائص الكبرى (١/١٩٤)، ولوامع الأنوار (١/١٧٤)، وإعجاز القرآن للرافعي ٥٣ -٥٤، ١٤٦ وما بعدها، والمعجزة الكبرى لمحمد أبو زهرة ٧٩ -٨٥، ومناهل العرفان (٢/٣١٠ -٣١٢) و(١/٢١٠ - ٢١٦)، وإظهار الحق (٣/٧٩٨ -٨٠٠)، ومباحث في إعجاز القرآن، ص٥٧ - ٦٢.

(٢) ذكر الشيخ محمد أبو زهرة – رحمه الله – إن التحدي للعرب كان في الإتيان بمثل المنهج البياني للقرآن!!
حيث يقول: ".. ولكن نرى أن الله تعالى تحدى العرب أن يأتوا بمثله ولو مفترى، فكان التحدي للعرب ابتداء بالمنهج البياني للقرآن، وهو الذي استرعى ألبابهم ولعله لم تكن بلغت مداركهم العقلية والقانونية أن يعرفوا مدى ما في أحكام القرآن من تنظيم سليم =

قال الزركشي (١) – رحمه الله – : "قول أهل التحقيق: إن الإعجاز وقع بجميع ما سبق من الأقوال لا بكل واحد عن انفراده، فإنه جمع كله، فلا معنى لنسبته إلى واحد منها بمفرده مع اشتماله على الجميع، بل وغير ذلك مما لم يسبق" ا.هـ (٢).

وفي كثرة هذه الأوجه رد على زعم أن التحدي لا يكون إلا لمن هو في درجة من الصحافة، إذ إن الأوجه يشترك في إدراكها العام والخاص (٣).

وهذا العجز يشمل الإنس والجن، فإن قيل: كيف لنا معرفة عجز الجن؟!

فالجواب في عدة أوجه:

منها: إن الله عز وجل أخبر بعجز الجن والإنس جميعاً مع اتحادهما، فالافتراق من باب أولى.

ومنها: إنه قد رويت أشعار للجن، وقد حفظت وهي لا تتجاوز ما عند الإنس، بل قد تضعف عنها.

ومنها: ما ذكره الله في القرآن من تعجب الجن لهذا القرآن في قوله: **﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا**

==

للمجتمع.." ا.هـ. المعجزة الكبرى، ص٩٥، وانظر ص٩٤، وقوله هذا ما هو إلا دليل عليه، بل هو مخالف للآية (فليأتوا بحديث مثله) وهذا يشمل القرآن كله.

(١) بدر الدين أبو عبدالله محمد بن بهادر بن عبدالله المصري الزركشي الشافعي الإمام العلامة المصنف المحرر ولد سنة خمس وأربعين وسبعمائة، كان فقيهاً أصولياً أديباً فاضلاً توفي بمصر، سنة ٧٩٤ شذرات الذهب (٦/٣٣٥) وانظر الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (٣/٣٩٧ -٣٩٨).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٢/١٠٦).

(٣) انظر الإعلام للقرطبي (٣/٣٢٦).

﴿كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩ -٣٠] وقوله: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾﴾ [الجن: ١].

ومن خلال هذه الأوجه يتبين عجزهم [(١)].

وأما آياته، وبياناته ﷺ غير القرآن فهي كثيرة، وقد أفردت فيها المصنفات الكثيرة، ومن ذلك: انشقاق القمر، وتكثير الطعام القليل، وانقياد الشجر وشهادته على نبوته ﷺ وحنين الجذع، وتسبيح الحصى في كفه الشريفة ﷺ واستجابة دعائه في كثير من المواطن، وتكليم البهائم والسباع، وسجودها له وتسليم الأحجار والأشجار عليه، ونبع الماء من بين أصابعه وقتال الملائكة معه يوم بدر، وما جرى لأتباعه من الكرامات التي هي دليل على نبوته ﷺ وغير ذلك كثير ولو لا خشية الإطالة لسردت الأحاديث والآثار في ذلك [(٢)].

وقد نقل عن بعض المتأخرين [(٣)] إنكار هذه المعجزات، والزعم بأن معجزته ﷺ خاصة في القرآن، وهذا القول يفضي إلى إنكار السنة

---

(١) انظر إعجاز القرآن للباقلاني، ص٦٥، والمنهاج في شعب الإيمان (١/ ٢٨٣)، وانظر البرهان في علوم القرآن (٢/ ١١١).

(٢) انظر دلائل النبوة للفريابي، ودلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني، ودلائل النبوة للبيهقي، والشفا للقاضي عياض، والوفا لابن الجوزي، والشمائل لابن كثير، والخصائص الكبرى للسيوطي، والصحيح المسند من دلائل النبوة لمقبل الوادعي.

(٣) من أمثال هيكل في كتابه حياة محمد، ومحمد رشيد رضا في الوحي المحمدي، وقبلها محمد عبده وتبعهم سليمان إبراهيم في كتابه محمد رسول الله حيث يقول: "ولقد آثرنا بالاتفاق مع نصوص القرآن، وبالاتفاق مع علماء الإسلام للصدر الأول، ومع أصحاب الفكر الحر من المعاصرين كالشيخ محمد عبده الذائع الصيت، أن نضرب صفحاً عن جميع الخوارق التي نسبت إلى النبي العربي بعد زمن طويل من وفاته، والتي يبدو أن في نسبتها إليه ما يسلبه سيماه الحقيقية" ا.هـ، ص٥٤.

والطعن فيها، وهذا سبيل إلى إنكار أحكام الشريعة وتفاصيل الأحكام، إذ من روى لنا هذه المعجزات، هو الذي روى لنا الأحكام، لاسيما مع ما عُلم من اهتمام العلماء الأجلاء في تدقيق النصوص وتمحيصها، والحكم على الأسانيد وكثير منها قد تواتر نقله وقد نص على تواترها عدد من الأئمة كشيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – حيث قال: "ومنها ما هو متواتر يعلمه العامة والخاصة كنبع الماء من أصابعه، وتكثير الطعام، وحنين الجذع ونحو ذلك فإن كلا من ذلك تواترت به الأخبار، واستفاضت ونقلته الأمة جيلاً بعد جيل، وخلفاً عن سلف فما من طبقة من طبقات الأمة إلا وهذه الآيات منقولة مشهورة مستفيضة فيها"ا.هـ[(١)] .

ونصَّ على تواترها – أيضاً – ابن حجر حيث قال – رحمه الله –: "ومجموع ذلك يفيد القطع بأنه ظهر على يده ﷺ من خوارق العادات شيء كثير، كما يقطع بجود حاتم، وشجاعة علي، وإن كانت أفراد ذلك ظنية وردت مورد الآحاد مع أن كثيراً من المعجزات النبوية قد اشتهر وانتشر ورواه العدد الكثير، والجم الغفير، وأفاد الكثير من القطع عند أهل العلم بالآثار، والعناية بالسير والأخبار .. بل لوادعٍ مدعٍ أن غالب هذه الوقائع مفيدة للقطع بطريق نظري لما كان مستبعداً.." ا.هـ[(٢)] .

ثانياً: إثبات نبوته ﷺ من خلال النظر في أحواله ﷺ وصفاته قبل البعثة وبعدها:

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ

(١) الجواب الصحيح (٤/٢٢٧).
(٢) فتح الباري (٦/٦٧٣ -٦٧٤)، وانظر الرد عليهم مفصلاً في كتاب القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون "بكامله للشيخ مصطفى حبري.

نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [يونس: ١٥ -١٧].

وفي هذه الآيات إثبات النبوة من عدة أوجه:

الوجه الأول: إنه عليه الصلاة والسلام جاء بالآيات البينات والعلامات الواضحات، التي لا يمتري فيها إلا معاند مكابر.

الوجه الثاني: إن هذا القرآن هو من عند الله والأدلة على ذلك:

١ - إن النبي ﷺ أخبر بذلك وهو الصادق الأمين الذي لم يؤثر عنه كذبه، وما كان يلقب إلا بالصادق، فهل يليق به أن يكذب على الله.

٢ - إن هذا القرآن لو كان من عنده لكان الأولى به أن ينسبه لنفسه(١).

الوجه الثالث: نشأته في قوم أميين، وهو أمي أيضاً لا يعرف الكتابة ولا القراءة ثم مكث على هذا الحال أربعين سنة، ثم جاء بهذا الوحي وهذا العلم وهذا قاطع بصحة نبوته وصدقه.

الوجه الرابع: أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن قبل بعثته طالباً لشيء من هذه العلوم، ولا متردداً على أحد مما ينسب إليه العلم، وهذا معروف عند جميع أهل مكة قال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [يونس: ١٦].

---

(١) قد سبق القول في ذلك مفصلاً في جواب الشبهة الثانية من شبه منكري الوحي.

الوجه الخامس: أنه ﷺ تحمل في سبيل تبليغ دعوة الله الكثير من الصعاب، والمحن، فلم يغيره هذا عن منهجه وبقي ثابتاً، حتى أظهر الله دينه، ولو كان كاذباً لظهر فشله، وخذلانه.

الوجه السادس: إن أخلاقه وصفاته، معروفة قبل البعثة، فلم يؤثر عنه قبيح قط، بل هو الصادق، الأمين، فكيف يلتبس أمره بأمر السحرة، والكهنة، الذين هم من أخبث الناس سيرة، وأرذلهم أخلاقاً[(١)] : .

عن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما هممت بقبيح مما كان أهل الجاهلية يهمّون بها إلا مرتين، الدَّهر، كلتاهما يعصمني الله عز وجل منها: قلتُ ليلةً لفتى من قريش بأعلى مكة في أغنام لأهلنا نرعاها: انظر غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان، قال: نعم، فخرجت فجئت أدنى دار من دور مكة، سمعت غناءً وضرب دفوف وزمراً، فقلت: ما هذا؟ قالوا: فلان تزوج فلانة، لرجل من قريش تزوج امرأة من قريش، فلهوت بذلك الغناء وبذلك الصوت حتى غلبتني عيني، فما أيقظني إلا مسُّ الشمس فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ فأخبرته، ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ففعل، فخرجت، فسمعت مثل ذلك، فقيل لي مثل ما قيل لي، فلهوت بما سمعت حتى غلبتني عيني، فما أيقظني إلا مس الشمس ثم رجعت إلى صاحبي، فقال لي ما فعلت فقلت: ما

(١) انظر إيثار الحق على الخلق، ص٢٣٥ -٢٤١.

فعلت شيئاً، قال رسول الله ﷺ فوالله ما هممت بعدهما بسوء مما يعمل أهل الجاهلية حتى أكرمني الله عز وجل بنبوته" (١) .

وعن عبدالله بن عمر – رضي الله عنه – عن رسول الله ﷺ أنه لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح، وذلك قبل أن ينزل على رسول الله ﷺ الوحي فقدم إلى رسول الله ﷺ سفرة فيها لحم، فأبى أن يأكل منها، ثم قال: إني لا آكل ما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلا مما ذُكر اسم الله عليه" (٢) .

ثالثاً: إثبات نبوته ﷺ من خلال ما أخبر به من قصص الأنبياء وأخبار السابقين:

قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ﴾ [يونس: ٧١] .

وقوله: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ [يونس: ٧٤] .

وقوله: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [يونس: ٧٥].

وغيرها من قصص القرآن مما بيّن الله أخبارهم من الأنبياء وغيرهم كأصحاب الكهف، ومريم عليها السلام، والخضر عليه السلام،

---

(١) رواه أبو نعيم في دلائل النبوة (١/١٨٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد "رواه البزار ورجاله ثقات" ا.هـ (٨/٢٢٦).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٧/١٩٦ -١٩٧) ط، دار العارف، قال الشيخ أحمد شاكر: "إسناد صحيح" ا.هـ (٧/١٩٦)، ورواه أيضاً عن ابن عمر رضي الله عنه (٣/١١٦ - ١١٧).

والذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وقصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها وقد بينت في جواب الشبهة الثالثة[١] إن رسول الله ﷺ لم يتعلم هذا من أهل الكتاب، بل كل ما عندهم في هذا محرف، وفيه نسبة أعمال لا تليق بالأنبياء من محض افتراءاتهم على أنبياء الله.

فلو لم يكن محمد ﷺ نبياً مؤيداً من عند الله هل كان يستطيع أن يأتي بمثل هذه القصص، وهو الأمي الذي لم يتعلم قط؟!.

(١) انظر ص ٢٢٠ -٢٣٢.

رابعاً: إثبات نبوته ﷺ بإثبات وجود جنس الأنبياء ابتداء:

قال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [يونس:٤٧] وقوله تعالى بعد أن قصَّ قصة نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [يونس:٣٧] ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [يونس:٧٤] وقوله: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [يونس:٩٤].

وقوله: ﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [يونس:١٠٢ -١٠٣].

ويقول تعالى في سورةٍ أخرى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ ﴾ [النساء:١٦٣] وقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجر:١٠].

وقوله: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ [فصلت:٤٣]. وقوله: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾ [المزمل:١٥ -١٦].

فقصص هؤلاء الأنبياء معروفة، وآثارهم قائمة، وكثيرون من أهل الكتاب يؤمنون بنبوة الأنبياء قبل محمد ﷺ وهؤلاء الرسل جميعاً من جنس واحد أولاً.

وثانياً: إن نبوته ﷺ أوضح ممن قبله كما سبق البيان.

ثالثاً: إن إنكار نبوته يؤدي إلى إنكار نبوة من سبقه من الأنبياء لأن العلم بهم إنما كان عن طريقه.

رابعاً: إنه قد علم اتفاق الأنبياء فيما يدعون إليه، من غير تواطؤ ولهذا قال ورقة بن نوفل [(١)] عندما جاءته خديجة رضي الله عنها وأرضاها وذكرت له قصة رسول الله ﷺ عند بدء نزول الوحي عليه فقال: ".. هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى، يا ليتني فيها جذع، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: "أو مخرجي هم"، قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً. الحديث [(٢)].

فإذا علم ذلك ثبتت نبوته ﷺ ولهذا أسلم مشركو العرب، لما ظهر من دلائل صدقه عليه الصلاة والسلام [(٣)].

---

(١) ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى من قصي القرشي الأسدي، من قريش حكيم جاهلي، اعتزل الأوثان قبل الإسلام، وامتنع من أكل ذبائحها وتنصر، وقرأ كتب الأديان، أدرك أوائل عصر النبوة، ولم يدرك الدعوة، وهو ابن عم خديجة أم المؤمنين، ذكره الطبري والبغوي وابن قانع وابن السكن وغيرهم في الصحابة، انظر الإصابة (٣١٧/٦ -٣١٨) وانظر الأعلام (١١٤/٨ -١١٥).

(٢) سبق تخريجه، ص٢٢٦.

(٣) انظر النبوات، ص٣٤ -٣٥، وص٥١، وشرح العقيدة الأصفهانية ١٥٢ -١٥٣ والفوائد ص١٩.

خامساً: من الأدلة على ثبوت نبوته، بعثته في زمن كان الناس بأشد الحاجة إلى رسول:

ومن يتأمل حال المجتمع الجاهلي آنذاك، يعلم علماً يقيناً أن الناس كانوا بأمس الحاجة إلى من يهديهم ويبصرهم سواء السبيل فكانت عبادة الأوثان والأحجار، والنار، والكواكب، قال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يونس: ١٨].

علاوة على ما فشا من انحلال خلقي، كالزنى ووأد البنات، وقتل النفس التي حرم الله، وقطيعة الأرحام، والربا .. الخ.

فجاء النبي الخاتم لينقذ الناس من الظلمات إلى النور قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ [الجمعة: ٢].

فرحمة الله بعباده تقتضي ألا يترك الناس هملاً بلا دين، وهذا من رحمته وليس واجباً عليه كما يزعم المعتزلة (١).

---

(١) يزعم المعتزلة أن بعثة الرسل عليهم صلوات الله وسلامه واجب على الله تعالى كما ذكر القاضي عبدالجبار في شرح الأصول الخمسة: "قد تقرر في كل عاقل وجوب دفع الضرر عن النفس، وثبت أيضاً أن ما يدعو إلى الواجب ويصرف عن القبيح فإنه واجب لا محالة، وما يصرف عن الواجب ويدعو إلى القبيح فهو قبيح لا محالة إذ صح هذا، وكنا نجوز أن يكون في الأفعال ما إذا فعلناه كنا عند ذلك أقرب إلى أداء الواجبات واجتناب المقبحات، وفيها ما إذا فعلناه كنا بالعكس من ذلك ولم يكن في قوة العقل ما يعرف به ذلك ويفصل بين ما هو مصلحة ولطف وبين ما لا يكون كذلك، فلابد من أن يعرفنا الله تعالى حال هذه الأفعال كي لا يكون عائداً بالنقص ==

سادساً: البشارة بنبوة محمد ﷺ في الكتب السابقة:

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [يونس: ٩٣ -٩٤].

وفي هذه الآيات الكريمة من سورة يونس عليه السلام الإشارة إلى التبشير بنبوة محمد ﷺ عند أهل الكتاب، وهم يعرفون ذلك ويقرّبه المنصفون منهم.

قال ابن جرير – رحمه الله – عند تفسير هذه الآية:

"فإن كنت يا محمد في شك من حقيقة ما أخبرناك وأُنزل إليك من أن بني إسرائيل لم يختلفوا في نبوتك قبل أن تبعث رسولاً إلى خلقه، لأنهم يجدون عندهم مكتوباً ويعرفونك بالصفة التي أنت بها موصوف في كتابهم في التوراة والإنجيل" ا.هـ (١).

وقال ابن كثير – رحمه الله – عند تفسير هذه الآية: "وهذا فيه تثبيت للأمة وإعلام لهم أن صفة نبيهم – صلى الله عليه وسلم – موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب" ا.هـ (٢).

==

على غرضه بالتكيف، ولهذه الجملة قال مشايخنا: إن البعثة متى حسنت وجبت، على معنى أنها متى لم تجب قبحت لا محالة" ا.هـ، ص٥٦٤. وهذا باطل، لأن إيجاب أمر على الرب تعالى ينافي مشيئته وقدرته وهو المالك لكل شيء، وانظر الرد عليهم في كتاب المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها، ص٢٠٥.

(١) جامع البيان (١١/١٦٧).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/٥٢٩).

وفي النص على ذكره يقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وفي إسلام كثير من الأحبار والرهبان، دليل على صدق نبوته إذا قد أيقنوا بصدقه، وصحة ما جاء به، روى البخاري في إسلام عبدالله بن سلام عن أنس - رضي الله عنه - قال: بلغ عبدالله بن سلام مقدم رسول الله ﷺ المدينة فأتاه فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة، وما أول طعام يأكله أهل الجنة، ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه، ومن أيِّ شيء ينزع إلى أخواله؟ فقال رسول الله ﷺ: "خبرني بهن آنفاً جبريل" قال: فقال عبدالله: ذلك عدو اليهود من الملائكة، فقال رسول الله ﷺ: "أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أوَّلُ طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وأما الشبه في الولد: فإن الرَّجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها" قال: أشهد أنك رسول الله، ثم قال: يا رسول الله، إنَّ اليهود قوم بهت، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك، فجاءت اليهود ودخل عبدالله البيت، فقال رسول الله ﷺ: "أيُّ رجل فيكم عبدالسلام بن سلام" قال أعلمنا وابن أعلمنا وأخيرنا وابن أخيرنا، فقال رسول الله ﷺ: "أفرأيتم إن أسلم عبدالله" قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبدالله إليهم فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله،

فقالوا: شرنا، وابن شرنا، ووقعوا فيه" [١] .

ولأن إثبات نبوته ﷺ مع من ينكر هذه الروايات ولا يثق بصحتها فكان لزاماً عليَّ أن أُبين ذلك من كتبهم، ففيها نصوص صريحة على البشارة بنبوته ﷺ على الرغم من تحريفهم لها وكتمانهم للحق الذي فيها، وهذا يتضح من خلال ما كتب عن علمائهم الذين أسلموا حيث إنهم عرفوا النبي ﷺ بصفته واسمه الصريح، مما لا يوجد في كتبهم المتوافرة الآن.

قال أبو نعيم [٢] في الدلائل: "ونعوته وصفاته في الكتب المنزلة، وعند الرهابنة والأساقفة والأحبار من أهل الكتابين مستفيض، وكانوا يرجعون في أمر بعثته وإرساله إلى علم متيقن كالضروري لتبشير الأنبياء في أمر بعثته وإرساله إلى علم متيقن كالضروري لتبشير الأنبياء صلوات الله عليهم به وبإرساله، وإيصائهم أمتهم بتصديقه إن أدركته وما كانت في أيديهم من الكتب والعهود المتقدمة المتواترة عن آبائهم" ا.هـ [٣] .

ومما يثبت ذكره ﷺ في كتبهم:

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأنبياء باب قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠] رقم ٣١٥١ (ج٣/١٢١١ -١٢١٢)، ورواه في كتاب فضائل الصحابة باب هجرة النبي – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه إلى المدينة رقم: ٣٦٩٩ (٣/١٤٢٣ -١٤٢٤هـ) بأطول منه، ورواه في الكتاب نفسه باب كيف آخى النبي – صلى الله عليه وسلم – رقم: ٣٧٢٣ (٣/١٤٢٣) بنحوه، ورواه البيهقي في الدلائل (٢/٥٢٦ -٥٢٧) وغيرهما.

(٢) أحمد بن عبدالله بن أحمد الحافظ أبو نعيم الأصبهاني، أحد الأعلام، صدوق تكلم فيه بلا حجة، ولد ومات في أصبهان، من تصانيفه "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" وغيره مات سنة ٤٣٠هـ، انظر ميزان الاعتدال (١/١١١)، الأعلام (١/١٥٧).

(٣) دلائل النبوة (١/٨٩).

١ - إن كثيراً من أنبياء بني إسرائيل كعيسى وإشعيا ودانيال، وغيرهم قد أخبروا عن حوادث صغيرة كحوادث أرض آدوم ومصر نينوى، وحادثة بخت نصر، وغيرها، وهم إذا ذكروا مثل هذه الحوادث الصغيرة، فهل يعقل ألا يذكروا خروج محمد ﷺ وهو النبي العظيم الذي أحيا الله عز وجل على يديه أمماً كانوا أشبه بالبهائم الضّالة فأصبحوا قادة وعظماء ؟!

٢ - إن أهل الكتاب عند ترجمتهم لنص ما يعمدون إلى الاسم فيترجمونه، ويضعون مكانه معناه، وهذا يوهم ويوقع في لبس شديد، والأمثلة على ذلك من كتبهم كثيرة (١) ، وكذلك فعلوا في اسم النبي ﷺ.

٣ - إنهم أخذوا أكثر عقائدهم من بولس النصراني (٢) ، وهم يعتمدون عليه في أقوالهم ويعدونه أحد الحواريين، وهو عند معاشر المسلمين رجل مخادع، غَيَّر دين الله، ودعا إلى التثليث، فأقواله عندنا مردودة (٣) .

ومن النصوص التي وردت في كتبهم ما يلي:

عند اليهود: الأول: ما جاء في سفر التثنية، الإصحاح الثالث والثلاثون.

---

(١) أوردها رحمت الله الهندي في إظهار الحق (١٠٩٧/٤ -١١٠٨).

(٢) اسمه الأصلي شاول، ولد في طرطوس وتربى في أورشليم، وجاء عنه أنه من الفريسيين يهودي اعتنق النصرانية نفاقاً، حيث كان في بداية حياته من أشد الناس عداوة للمسيحيين وقد حاول الاتصال بتلاميذ المسيح عليه السلام، ثم أخذ في إنشاء الكنائس وإلقاء الخطب والمواعظ، وتأليف الرسائل التي اعتمد عليها النصارى بعده، وهي مليئة بالكفر والشرك والدعوة إلى التثليث، انظر محاضرات في النصرانية، ص٧٠ -٧٦.

(٣) انظر إظهار الحق (١٠٠٠/٤ -١١١٥).

٢ - جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من ساعير وتلألأ من جبل فاران واتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم [١] .

ومعنى "مجيء الله من طور سيناء إنزاله التوراة على موسى من طور سيناء وكذلك يجب أن يكون إشراقه من ساعير إنزاله الإنجيل على المسيح.

وكان المسيح من ساعير – أرض الخليل بقرية تدعى "الناصرة" وباسمها سمي من اتبعه نصارى" [٢] ، وأما استعلانه من جبال فاران فالمراد به إنزال القرآن على محمد ﷺ في جبال فاران، وهي مكة، وهذا ما يعتقده المسلمون وأهل الكتاب بلا خلاف في ذلك [٣] .

وإثبات ذلك أيضاً ما جاء في سفر التكوين الإصحاح الحادي والثلاثين عند ذكر قصة إسماعيل عليه السلام.

"٢٠ وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية وكان ينمو رامي قوس. ٢١ - وسكن في برية فاران، وأخذت له أمّه زوجة من أرض مصر" [٤] .

ومعلوم قطعاً بأن إسماعيل عليه الصلاة والسلام نشأ في مكة، وهذا دليل واضح لا يستطيع أهل الكتاب رده.

وأما الاستعلاء فهو بمعنى الظهور، والارتفاع مأخوذ من علا يعلو علواً [١] . والله عز وجل قد أظهر دين الإسلام، ومكنّ لنبيه من العلو والرفعة ما لم يحصل لنبي قبله.

---

(١) سفر التثنية الإصحاح الثالث والثلاثون الفقرة (٢).

(٢) الجواب الصحيح (٢/٣٠٠)، وانظر نبوة محمد – صلى الله عليه وسلم – في الكتاب المقدس ص٦٢ -٦٣.

(٣) انظر الجواب الصحيح (٢/٣٠٠).

(٤) سفر التكوين الإصحاح الحادي والثلاثون الفقرة (٢٠ -٢١).

ومن هنا فتكون الإشارة بالتلألؤ من فاران، يعني ظهور نبي من ولد إسماعيل في (فاران) جبل في مكة وفي هذا بشارة بنبوة محمد ﷺ.

يقول ابن كثير – رحمه الله – : "واستعلى أي ظهر وعلا أمره من جبال فاران، وهي جبال الحجاز بلا خلاف، ولم يكن ذلك إلا على لسان محمد ﷺ.

فذكر تعالى هذه الأماكن الثلاثة على الترتيب الوقوعي .. ولما أقسم تعالى بهذه الأماكن الثلاثة ذكر الفاضل أولا، ثم الأفضل منه، ثم الأفضل منه، فقال تعالى: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ ﴾ [التين: ١] والمراد بها محلة بيت المقدس، حيث كان عيسى عليه السلام: ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ ﴾ وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى ﴿ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ ﴾ وهو البلد الذي ابتعث منه محمداً ﷺ " ا.هـ(٢).

الثاني: ما جاء في سفر التثنية الإصحاح الثامن عشر. ١٧ - قال لي الرب قد أحسنوا في ما تكلموا. ١٨ - أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك واجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به. ١٩ - ويكون إن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه. ٢٠ - وأما النبي الذي يطغى فيتكلم باسمي كلاماً لم أوصه إن يتكلم به أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى يموت ذلك النبي. ٢١ - وإن قلت في قلبك كيف نعرف الكلام الذي لم يتكلم به الرب. ٢٢ - فما تكلم به النبي باسم الرب ولم يحدث ولم يصر فهو الكلام الذي لم يتكلم به الرب بل بطغيان تكلم به النبي فلا تخف منه" (٣).

==

(١) انظر الصحاح (٦/٢٤٣٤ -٢٤٣٩).

(٢) شمائل الرسول، ص٣٤٧، وانظر جامع البيان ٣٠/٢٣٨ وما بعدها، وانظر تفسير ابن كثير (٧/٣٢٣ -٣٢٤).

(٣) سفر التثنية الإصحاح الثامن عشر الفقرة ١٧ -٢٢.

والنص السابق فيه دلالة على أن النبي الآتي هو مثل موسى – عليه السلام – ولم يأت في بني إسرائيل نبي مثل موسى [(١)] والنص على ذلك في سفر التثنية في الإصحاح الرابع والثلاثين حيث فيه ما نصه "١٠ - ولم يقم نبي في إسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجهاً لوجه. ١١ - في جميع الآيات والعجائب التي أرسله الرب ليعملها في الأرض مصر بفرعون وبجميع عبيده وكل أرضه. ١٢ - وفي كل اليد الشديدة وكل المخاوف العظيمة التي صنعها موسى أمام أعين جميع إسرائيل [(٢)] .

وبهذا يبطل القول: إنها بشارة بيوشع – عليه السلام – أو عيسى – عليه السلام – .

وأما الدلالة الثانية من النص فهي قوله "مثلك" ومشابهة الرسول ﷺ لموسى عليه السلام واضحة من حيث:

١ - كون كل منهما عبدالله ورسوله، وكون كل منهما صاحبي شريعة مشتملة على الشرائع والأحكام ولكل منهما والدان وأزواج وذرية .. وأمرا بالجهاد [(٣)] .

٢ - إن كل منهما قد أتى بمعجزات باهرة، وتحدى طواغيت الكفر، ومع هذا حفظهما الله، ونجاهما من القوم الكافرين.

٣ - حارب كل منهما أعداءه فنجاه الله منهم.

---

(١) انظر نبوة محمد في الكتاب المقدس، ص٥٠.

(٢) سفر التثنية الإصحاح الرابع والثلاثون الفقرة ١٠ -١٢.

(٣) انظر إظهار الحق ٤/١١٢٢ -١١٢٣، وماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد لأحمد ديدات، ص١٨ -٢٩.

الدلالة الثالثة: قوله: "من وسط إخوتهم"، وإخوة بني إسرائيل، هم أولاد إسماعيل، ولا يصح أن يقال إنهم بنو إسرائيل حيث لو كان هذا المراد لقال من أنفسهم (١).

الدلالة الرابعة: قوله: "اجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به" وهذا دليل على إنزال القرآن، الذي هو كلام الله، على نبينا محمد ﷺ فبلغه أكمل تبليغ ولم يكتم منه شيئاً، وهذا يبطل قول اليهود إنها بشارة بيوشع عليه السلام لأنه لم يكن صاحب شريعة مستقلة بل كان تابعاً لشريعة موسى عليه السلام.

الدلالة الخامسة: قوله: "وأما النبي الذي يطغى فيتكلم باسمي كلاماً لم أوصه أن يتكلم به أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبي .."الخ وفي هذا بيان لحال المتنبئ على الله بما لم يقله، وأنه يقتل، وبيّن علامة النبي الصادق من الكاذب، فلو لم يكن محمد ﷺ صادقاً هل كان سيبقى دينه، ويعلو على الأديان مدة أربعة عشر قرناً وأربعمائة وألف عام، مع صدق ما أخبر به من أخبار الغيب التي وقعت بعد وفاته بسنين؟! وقد سلّم الكثير من علماء اليهود لعلمهم بصدقه وأعرض البعض بغياً وحسداً (٢).

الثالثة: في الزبور الخامس والأربعين: ١ - فاض قلبي بكلام صالح، متكلم أنا بإنشائي للملك لساني قلم كاتب ماهر، ٢ - أنت أبرع جمالاً من بني البشر.

---

(١) انظر الوَفَا بأحوال المصطفى صلى الله عليه وسلم، والإعلام للقرطبي (٣/٢٦٤) وإظهار الحق (٤/١١١٨ -١١٢٠).
(٢) انظر إظهار الحق (٤/١١٢٤ -١١٢٥).

انسكبت النعمة على شفتيك لذلك باركك الله إلى الأبد. ٣ - تقلد سيفك على فخذك أيها الجبار جلالك وبهاءك. ٤ - وبجلالك اقتحم، اركب من أجل الحق والدعة والبرفتريك يمينك مخاوف نبلك المسنونة في قلب أعداء الملك، شعوب تحتك يسقطون. ٦ - كرسيك يا الله إلى دهر الدهور.

قضيب استقامة قضيب ملكك. ٧ - احببت البر وأبغضت الإثم من أجل ذلك مسحك الله إلهك بدهن الابتهاج أكثر من رفقائك. ٨ - كل ثيابك مروعود وسليخه، من قصور العاج سرتك الأوتار. ٩ - بنات ملوك بين حظايتك، جعلت الملكة عن يمينك بذهب أوفير" (١) .

ومن الأمور المسلمة عند أهل الكتاب، إن داود عليه السلام، بشّر بنبي يأتي من بعده وذكر أوصافه المتقدمة، وزعم النصارى أنه المسيح عيسى عليه السلام، وهي في الحقيقة والواقع منطبقة على نبينا محمد ﷺ (٢) وبيان ذلك ما يلي:

أولاً: ما ورد من ذكر صفاته ﷺ فقد كان من أحسن الناس وجهاً كما في الصحيحين عن البراء قال: "كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً، وأحسنهم خلقاً ليس بالطويل البائن ولا بالقصير" (٣) .

---

(١) الزبور الخامس والأربعون الفقرة ١ -٩.

(٢) انظر إظهار الحق (١١٤٤/٤).

(٣) رواه البخاري في كتاب المناقب باب: صفة النبي — صلى الله عليه وسلم، رقم: ٣٣٥٦(١٣٠٣/٣)، ورواه مسلم في كتاب الفضائل باب صفة النبي — صلى الله عليه وسلم رقم ٢٣٣٧(١٨١٨/٤ -١٨١٩) عن إسحاق بن منصور به بلفظ (الذاهب) بن لـ (البائن).

وكذلك تقلد السيف فلا أحد تقلد السيف وجاهد بعد داود عليه السلام سوى محمد ﷺ وهو الذي تهاوت الأمم تحت قدميه ودخلت في دينه أفواجاً [(١)] .

وكذلك قوله: "أحببت البر وأبغضت الإثم" فهذه من صفات رسول الله ﷺ .

أيضاً قوله "بنات الملوك بين حظايتك"، وبالفعل فقد صارت بنات الملوك خادمات للمسلمين وذلك بعد انهيار فارس والروم ومن هؤلاء شهر بانوبنت يزدجر [(٢)] كسرى، فارس، فقد كانت تحت الحسن بن علي – رضي الله عنهما.

وهذه الأوصاف كلها لا تنطبق على عيسى عليه السلام كما يزعم النصارى حيث إنه لم يؤمر بالجهاد بل أمر بإغماد السيف في إنجيل يوحنا الإصحاح الثامن عشر:

"١١ - فقال يسوع البطرس اجعل سيفك في الغمد" [(٣)] .

ولم تصر إليه بنات الملوك، ولم تحمل إليه الهدايا، بل صلب على زعم النصارى، وأهانوه [(٤)] .

الرابعة: في الإصحاح الرابع والخمسين من كتاب أشعياء ونصها:

"١ - ترنمي أيتها العاقر التي لم تلد أشيدي بالترنم أيتها التي لم تمخض لأن بني المستوحشة أكثر من بني ذات البعل قال الرب. ٢ - لإنك تمتدين إلى اليمين وإلى اليسار ويرث نسلك أمما ويعمر مدناً ضرباً.

---

(١) انظر الجواب الصحيح (٣١٨/٣ -٣١٩).

(٢) "يزدجر آخر ملوك الأكاسرة وفي أيامه فتح العرب بلاده وقتل يزدجر سنة (١١) في خلافة عثمان بن عفان وفتح المسلمون بلاد العجم" دائرة معارف القرن العشرين (١٨٠/٧).

(٣) إنجيل يوحنا الإصحاح الثامن عشر الفقرة (١١).

(٤) انظر إظهار الحق (١١٥٠/٤ -١١٥٣).

٤ - لا تخافي لأنك لا تخزين – ولا تخجلي لأنك لا تستحين، فإنك تنسين خزي صباك وعار ترملك لا تذكرينه بعد" [١] .

والدلالة في النص على عدة أوجه:

الوجه الأول: قوله "ترنمي أيتها العاقر التي لم تلد"، والعاقر هي مكة المكرمة، وليست (أورشليم) على زعم أهل الكتاب، لأن مكة لم يظهر فيها نبي من بعد إسماعيل – عليه السلام – بخلاف أورشليم التي ظهر فيها عدة أنبياء، وتشبيه مكة بالمرأة العاقر وهي التي لم يولد لها لهذا السبب [٢] .

الوجه الثاني: قوله "لأن بني المستوحشة أكثر من بني ذات البعل".

فأهل الكتاب يطلقون لفظ بني المستوحشة على أولاد هاجر – عليها السلام – لأنها سكنت في البر وأخرجت، أما ذات البعل فيقصدون بها سارة عليها السلام.

وهذا النص وجد في كتبهم كما هو في سفر التكوين الإصحاح السادس عشر.

"١١ - وقال لها ملاك الرب هاأنت حبلى فتلدين ابناً، وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك. ١٢ - وأنه يكون إنساناً وحشياً، يده على كل واحد ويد كل واحد عليه، وأمام جميع إخوته يسكن" [٣] .

---

(١) كتاب: إشعياء الإصحاح الرابع والخمسون الفقرات ١ -٤.

(٢) انظر الإعلام للقرطبي (٢٧٨/٣ -٢٧٩)، والجواب الصحيح (٣٢٧/٣)، وإظهار الحق (١١٦٠/٤)، وانظر نبوة محمد في الكتاب المقدس، ص٧٧.

(٣) سفر التكوين الإصحاح السادس عشر الفقرة ١١ -١٢.

فهذا خطاب لمكة المكرمة، بأنها ستحوذ على الفضيلة، والشرف، وسيكون خروج خاتم النبيين منها [١] .

الخامسة [٢] : ما جاء في إنجيل يوحنا في الإصحاح الرابع عشر (١٥ - إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي. ١٦ - وأنا أطلب من الأب فيعطيكم معزياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد. ١٧ - روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه، وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ويكون فيكم" [٣] .

وفي الإصحاح الخامس عشر "٢٦ - ومتى جاء المعزي الذي سأُرسِله أنا إليكم من الأب روح الحق الذي من عند الأب فهو يشهد لي.

٢٧ - وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معي من الابتداء" [٤] .

وفي الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا "٢٦ - وأما المعزي الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم" [٥] .

وفي الإصحاح السادس عشر من إنجيل يوحنا "٧ - لكني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن انطلق لأنه إن لم انطلق يأتيكم المعزي، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم.

---

(١) انظر إظهار الحق (٤/١١٦٠ -١١٦١).

(٢) وهذه من بشارات العهد الجديد والمراد به الأناجيل الأربعة (متى – مرقس – ولوقا – ويوحنا) والأسفار الملحقة بها أما ما سبق فهو من العهد القديم عند أهل الكتاب (التوراة) وأسفار الأنبياء.

(٣) إنجيل يوحنا الإصحاح الرابع عشر الفقرات ١٥ -١٧.

(٤) إنجيل يوحنا الإصحاح الخامس عشر الفقرة ٢٦ -٢٧.

(٥) إنجيل يوحنا الإصحاح الرابع عشر الفقرة ٢٦.

٨ - ومتى جاء ذلك يبكت العالم على خطيه وعلى برٍ وعلى دينونه" (١) .

وفي طبعات أخرى جاء بدل لفظ (المعزي) لفظ (فار قليط) (٢) .

وجميع هذه النصوص تبشر برسول يأتي من بعد المسيح، والنصارى يزعمون أنه قد جاء ولهم تفسيرات باطلة حيث يقولون الأقانيم ثلاثة الأب، والابن والروح القدس، وهذا المعزي الذي أتى هو الأقنوم الثالث (٣) .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – :

"وقد اختلف فيه، فمن النصارى من قال: هو روح نزلت على الحواريين، وقد يقولون: إنه ألسن نارية نزلت من السماء على التلاميذ، ولهذا يقول من خبر أحوال النصارى: أنه لم ير أحد منهم يحسن تحقيق مجيء هذا الفار قليط الموعود به.

منهم من يزعم أنه المسيح نفسه، لكونه جاء بعد الصلب بأربعين يوماً .." ا.هـ (٤) .

والذي عليه المسلمون أنه بشارة ببعثة خاتم الأنبياء محمد ﷺ والأدلة على صحة هذا ما يلي:

١ - أن روح القدس لم تنزل على الأنبياء قبل المسيح وبعده، وهذه الصفات لا تنطبق عليها، ولم تسم بهذا الاسم، كما أنَّ ما بشر به المسيح أمر عظيم.

---

(١) إنجيل يوحنا الإصحاح السادس عشر الفقرات ٧ -٨.

(٢) انظر إظهار الحق (١١٨٥/٤) أما الطبعة التي اعتمدت على النقل منها فكان اللفظ (المعزي) وهذا يعود إلى ما سبق بيانه من ترجمة النصارى للأسماء.

(٣) انظر نبوة محمد – صلى الله عليه وسلم – في الكتاب المقدس، ص٩٨ -٩٩.

(٤) الجواب الصحيح (٩/٤).

٢ - إن قوله: "فيعطيكم معزياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد" فكلمة (آخر) تدل على أن هناك آخر قد سبقه مثله، وهذه الصفات تنطبق على رجل مشاهد للعيان، وليست روحاً لا ترى.

كما أن قوله "ليمكث معكم إلى الأبد" معلوم أنه لم يرد ذاته، بل هذا ينطبق على من يبقى ويدوم وتكون رسالته خاتمة الشرائع.

٣ - قوله: "إن لم أنطلق لا يأتيكم" وهذا يدل على أنه لا يأتي إلا بعد المسيح عيسى – عليه السلام – وهذا يبطل قول من قال: إنه المسيح نفسه.

٤ - قوله: "ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطية" والرسول محمد ﷺ قد وبخ العالم على الخطيئة من كفر وشرك وعصيان، وأنكر التثليث، ودعا إلى التوحيد، وبيّن ما لله عز وجل من أسماء وصفات تليق بذاته، لا كما يقول أهل الكتاب، وبيّن ما يجب له من أنواع العبادة وفصَّلَ أمور الآخرة، بشكل لم يسبق إليه نبي قبله.

٥ - قوله: "فهو يشهد لي، وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معي من الابتداء".

وتصديق ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ [الصف: ٦].

والرسول – صلى الله عليه وسلم – قد صدق المسيح، ونزهه عما افترى عليه أهل الباطل وما نسبت إليه اليهود، كما إنه نزهه من غلو النصارى، وقال فيه الحق الذي وصفه الله عز وجل به (١).

(١) انظر الجواب الصحيح (١٧/٩/٤)، وإظهار الحق (١١٩١/٤ -١١٩٨).

٦ - أما ما جاء في معنى (الفار قليط) و(المعزي) فجميع المصادر فسرته بأن معناه يدور حول الحمد فقال القرطبي – رحمه الله – (البار قليط) بالرومية: هو محمد بالعربية ا.هـ [١].

وقيل هو الحامد والحماد وهو أحمد، وهو محمد وكلها مشتقة من الحمد [٢] لأن "اسم أحمد .. ينطق "بيركليت" في اللغة العبرانية "بيركليتوس" في اللغة اليونانية، والمسيح عليه السلام نطق اسم أحمد ﷺ بالعبرانية واليونانية" [٣]، فحولت إلى فار قليط، وقيل معناه: المخلص وادعى النصارى إن اللفظ اليوناني هو "باراكلي طوس" ومعناه: المعزي، والوكيل المعين، وهي على كلا المعنيين دليل على الإشارة بنبوة نبينا محمد ﷺ فعلى الأول: معناها محمد وأمته الحمادون الذين يحمدون الله في السراء والضراء.

وعلى المعنى الثاني: هو المعز الذي أعز الله به أهل التوحيد والإيمان، وهو المخلص الذي جاء بشريعة الهدى والاستقامة، فخلص الناس من ربقة الشرك والعبودية لغير الله [٤].

السادسة: ما جاء في الإصحاح الرابع من إنجيل متّى (١٧ - من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرر ويقول توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السماوات) وقوله: (٢٣ - وكان يسوع يطوف كل الجليل يعلم في مجامعهم ويكرز ببشارة الملكوت ويشفي كل مرض وكل ضعف في الشعب) [٥].

---

(١) الإعلام (٢/٢٥٥).
(٢) انظر الجواب الصحيح (٤/١٦).
(٣) نبوة محمد – صلى الله عليه وسلم – في الكتاب المقدس، ص٩٨.
(٤) انظر الجواب الصحيح (٤/١٦) وإظهار الحق (٤/١١٩٠).
(٥) إنجيل متّى الإصحاح الرابع الفقرة (١٧).

وفي الإصحاح الثالث من إنجيل متّى (١ - وفي تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز في برية اليهود، ٢ - قائلاً توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السماوات) (١) .

وفي الإصحاح العاشر — أيضاً — من إنجيل متّى يوصي المسيح عليه السلام بتلاميذه بقوله: (٧ - وفيما أنتم ذاهبون أكرزوا قائلين: إنه قد اقترب ملكوت السماوات) (٢) .

فالبشارة بملكوت السماء جاءت من عيسى عليه السلام — ومن يحيى — عليه السلام — ومن الحواريين، فدل ذلك على إن هذا الملكوت ليس في زمن أحد منهم، لأنهم بشروا به كلهم، فدل ذلك على أن المراد به هو البشارة بنبوة محمد ﷺ ولفظ الملكوت يدل على ثلاثة أمور:

١ - أنه يكون في صورة السلطان، والهيمنة.

٢ - إن القتل يكون على من خالفه.

٣ - إنه شريعة ربانية حيث اللفظ "ملكوت السماء" يشعر بذلك.

وكل هذا منطبق على رسالة وشريعة محمد ﷺ (٣) .

هذه بعض النصوص التي فيها النص على البشارة بنبي الإسلام محمد ﷺ وهناك المزيد ولكن خشيت الإطالة (٤) .

وهذا يعطينا يقيناً، بأن أهل الكتاب يعلمون أنه النبي الخاتم، وصفته عندهم أبلغ من هذا ولكنهم يكتمون الحق كما وصفهم الله عز

---

(١) إنجيل متّي الإصحاح الثالث الفقرة (٢٣).
(٢) إنجيل متّي الإصحاح العاشر الفقرة (٧).
(٣) انظر إظهار الحق (١١٧٤/٤ -١١٧٥).
(٤) للاستزادة انظر كتاب الإعلام، للقرطبي، (٢٦٣/٣ -٢٨٠)، والجواب الصحيح (٢٧٥/٣ -٣٣٢)، (٣/٤ -٢١)، وإظهار الحق (١١١٦/٤ -١١٨٥).

وجل بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٦].

المبحث الثاني:

عموم رسالة محمد ﷺ :

إن عموم رسالة نبينا محمد ﷺ من الأمور المتفق عليها في عقيدة المسلمين، بل "كونه مبعوثاً إلى الناس كافة معلوم من دين الإسلام بالضرورة" (١) فهو عليه الصلاة والسلام رسول إلى كافة الإنس والجن قال تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [سبأ: ٢٨] .

وفي سورة يونس عليه السلام نصَّ تعالى، على عالمية الرسالة في قوله تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ ﴾ [يونس: ٢] . وقوله: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يونس: ١٠٨] ، فدل ذلك على أنه منذر لجنس الناس، وليس ذلك خاصاً بالعرب وحدهم، وإن كانوا هم أول من بلغهم (٢) ولو لم يكن رسولاً إلى الناس جميعاً لما دعا اليهود والنصارى إلى الإقرار برسالته، والإيمان بما جاء به فلما أبوا قاتلهم، وسفك دماءهم، واستحل أموالهم، فكل من آمن برسالته، وجب عليه الإيمان بعمومها وإلا كان متناقضاً، إذ يلزم من ذلك تكذيب

---

(١) شرح الطحاوية، ص١٣٤.
(٢) انظر النبوات، ص٢٦٨.

النبي ﷺ فيما قال، وفيما فعل [(١)] وفي الحديث عن أبي هريرة — رضي الله عنه — عن رسول الله ﷺ أنه قال: "والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثمَّ يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلت به، إلا كان من أصحاب النار" [(٢)].

وأما كون رسالته ﷺ تعم الجن فلقوله تعالى: ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ [الأحقاف: ٣١].

قال شيخ الإسلام — رحمه الله — : "يجب على الإنسان أن يعلم أن الله عز وجل أرسل محمداً ﷺ إلى جميع الثقلين: الإنس والجن، وأوجب عليهم الإيمان به وبما جاء به وطاعته .. وهذا أصل متفق عليه بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين، وسائر طوائف المسلمين: أهل السنة والجماعة، وغيرهم، لم يخالف أحد، أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فهم مقرون بهم كإقرار المسلمين، وإن وجد فيهم من ينكر ذلك .." ا.هـ [(٣)].

واختلف في كون ذلك خاصاً بالنبي ﷺ أم شاركه أحد من الأنبياء؟ والاختلاف في نوح عليه السلام.

قال القرطبي — رحمه الله — عند تفسير قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝ ﴾ [الفرقان: ١] "العالمين" هنا الإنس والجن، لأن النبي ﷺ قد كان رسولاً إليهما، ونذيراً لهما،

---

(١) انظر الجواب الصحيح (١/١٦٦).

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس رقم ١٥٣(١/١٣٤)، وأخرجه ابن سيد الناس في عيون الأثر عن أبي موسى الأشعري — رضي الله عنه (١/١٦٦) بنحوه.

(٣) مجموع الفتاوى (١٩/ ٩ -١٠).

وأنه خاتم الأنبياء، ولم يكن غيره عام للرسالة إلا نوح فإنه عمَّ برسالته جميع الإنس بعد الطوفان، لأنه بدأ به الخلق" ا.هـ (١).

وهذا يتعارض مع الحديث الصحيح عن جابر بن عبدالله: أن النبي ﷺ قال: "أُعطيت خمساً، لم يعطهن أحدٌ قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة"(٢).

والآيات التي تنص على خصوص رسالة نوح عليه السلام كقوله تعالى: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يونس: ٧١] الآية وقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩﴾ [الأعراف: ٥٩] وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢٥﴾ [هود: ٢٥].

وهذا يُشكل أيضاً من حديث الشفاعة السابق وفيه يقول: "آئتوا نوحاً أول رسول بعثه الله" (٣).

ومع إغراق الله عز وجل لأهل الأرض جميعاً، ولو لم يكن مبعوثاً إليهم لما أُهلكوا جميعاً.

وأجيب عن ذلك بعدة أجوبة:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (ج١٣/٢).

(٢) رواه البخاري في كتاب التيمم رقم ٣٢٨ (١٢٨/١)، ورواه في كتاب المساجد باب قول النبي – صلى الله عليه وسلم – جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً رقم ٤٢٧ (١٦٨/١) عن جابر رضي الله عنه بنحوه.

(٣) سبق تخريجه.

منها: إن عموم رسالة نوح عليه السلام ليس من أصل البعثة ابتداء وإنما هو بعد الطوفان، أما عموم رسالة نبينا محمد ﷺ فمن أصل البعثة.

ومنها: إن وجود نوح – عليه السلام – لا يمنع وجود غيره من الأنبياء، ودعوة نوح – عليه السلام – شملت الكل لتكذيبهم، واعترض عليه: بأن هذا لم ينقل.

ومنها: إن خصوصية نبينا محمد ﷺ بذلك، لكون رسالته باقية إلى قيام الساعة، بخلاف غيره (١).

ومنها: أنه يحتمل أن تكون رسالة نوح – عليه السلام – خاصة ولكن سمع بها بقية الناس فتمادوا على الشرك فشملهم العذاب.

وأرجح الأقوال ما ذكره ابن حجر – رحمه الله – "بأن بعثته (أي نوح) إلى أهل الأرض باعتبار الواقع لصدق أنهم قومه بخلاف عموم بعثة نبينا محمد ﷺ لقومه ولغير قومه" (٢) وشملت الإنس والجن في حياته وبعد مماته، لموافقته للأدلة، واجتماعها عليه.

ولا ينافي عموم الرسالة، كون القرآن أُنزل بلغة العرب للأسباب التالية:

أولاً: إنَّ جميع الكتب السابقة أنزلت باللسان الذي ينطق به النبي المرسل وإن قيل: إنها خاصة، فنقول نزول القرآن بلغة العرب ليتم فهمه من قبلهم أولاً، ثم يمكن نقله إلى الأقوام الآخرين، إما عن طريق الترجمة، وإما بأن يتعلموا ذلك اللسان، وهذا مقدور عليه وليس تكليفاً لما لا يطاق.

---

(١) انظر فتح الباري (٥٢٠/١ -٥٢١).
(٢) فتح الباري (٤٤٢/١١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : "والقرآن تجوز ترجمة معانيه لمن لا يعرف العربية باتفاق العلماء" ا.هـ [١] .

ثانياً : إنَّ فهم كل آية من القرآن ليس واجباً على كل مسلم ، وإنما يجب معرفة ما أمره الله به ليفعله ، ومعرفة ما نهاه ليجتنبه بأي لغة كانت.

ثالثاً : إن العجم من يهود ونصارى ومشركين فيهم من يعرف اللسان العربي ويتقنه وإن لم يكن عربياً [٢] .

---

(١) الجواب الصحيح (١/١٩٠).

(٢) انظر المرجع السابق (١/١٨٩ -١٩٥).

الفصل الرابع

في الولايـة

وفيه مبحثان:

الأول: معنى الولاية وصفات الأولياء.

الثاني: منهج أهل السنة في إثبات الولاية والرد على المخالفين

المبحث الأول: معنى الولاية وصفات الأولياء:

إن ولاية الله تعالى لا تنال براحة الجسد، والانكباب على الشهوات المحرمة، والانصراف عن الآخرة، إنما ولاية الله تعالى من أعظم الأمور التي تتطلع لها نفوس الصالحين من عباده، ولهذا فهم متفاوتون فيها فمنهم السابق، ومنهم المقتصد، ومنهم الظالم لنفسه.

وفي سورة يونس عليه السلام ذكر الله تعالى ما أعد لأوليائه في الآخرة من عظيم الجزاء، وفي الدنيا من الحياة الطيبة، وذكر صفاتهم، وأعمالهم – كما سيأتي بيانه إن شاء الله – ، قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يونس: ٦٢ -٦٤].

وعلى ضوء هذه الآية الكريمة سيكون البحث – إن شاء الله – فابدأ بتعريف الولاية.

معنى الولاية:

في اللغة: مشتقة من (وَلِي) والاه، يواليه، موالاة، وهو ضد العدو "وأوليته أنا: أدنيته، وكل مما يليك: مما يقربك .. وولى الأمر وتولاه، وهو وليه ومولاه" (١) . ويقال "تولاه اتخذه وليا" (٢) ويقال "بينهما ولاء .. أي قرابة" (٣) .

ومن هنا نلاحظ أن معانيها تدور حول: القرب، والمحبة، والدنو،

---

(١) بصائر ذوي التمييز (٥/ ٢٨٠).
(٢) لسان العرب (١٥/ ٤١١) مادة (ولى).
(٣) المرجع السابق (١٥/ ٤١٠).

والقرابة، والرب، والملك، والعصبة، والناصر، والحليف [١] .

وقد اختلف علماء العربية في فتح (الواو) وكسرها، فقيل ولاية، وقيل وَلاية وفرقوا بينهما: فقيل: "الوِلاَية بالكسر: السلطان.." [٢] وقيل "الوَلايَة بالفتح المصدر، والوِلايَة بالكسر الاسم .. لا أنه اسم لما توليته وقمت به فإذا أرادوا المصدر فتحوا" [٣] .

وقيل: "الوِلاَية تشعر بالتدبير والقدرة والفعل .." [٤] .

وقيل: "الوَلاية بالفتح، في النسب والنصرة والمعتق" [٥] .

وقال الراغب: "الوِلاية النّصرة، والوَلاية تولي الأمر" [٦] .

وقيل: إن الفتح والكسر سواء وهما لغتان [٧] .

وبهذه المعاني جاءت مادة "ولى" في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧] أي "ناصرهم ومعينهم، وقيل محبهم، وقيل متولي أمورهم لا يكلهم إلى غيره" [٨] .

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت: ٣٤]

---

(١) انظر الصحاح (٢٥٢٨/٦ - ٢٥٣١)، والنهاية في غريب الحديث (٢٢٧/٥ - ٢٣٠)، ولسان العرب (٤٠٦/١٥ - ٤١١)، والقاموس المحيط ص١٧٣٢، وبصائر ذوي التمييز (٢٨٠/٥ - ٢٨٤).

(٢) الصحاح (٢٥٣٠/٦).

(٣) المرجع السابق ونفس الجزء والصفحة.

(٤) النهاية في غريب الحديث (٢٢٧/٥).

(٥) المرجع السابق (٢٢٨/٥).

(٦) المفردات، ص٥٣٣.

(٧) انظر لسان العرب (٤٠٧/١٥).

(٨) معالم التنزيل (٢٤١/١).

أي "كالصديق والقريب" (١) .

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٦٢] .

أي "المالك الذي يتولى أمورهم .." (٢) .

والآيات في هذا كثيرة جداً، يصعب استيفاؤها.

في الاصطلاح:

عرفها شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – بقوله: "ولي الله من ولاه بالموافقة في محبوباته ومرضياته وتقرب إليه بما أمر به من طاعته" (٣) ا.هـ.

وعرفها ابن القيم – رحمه الله – بقوله: "أولياء الرحمن هم المخلصون لربهم، المحكمون لرسوله في الحرم والحل الذين يخالفون غيره لسنته، ولا يخالفون سنته لغيرها، فلا يبتدعون ولا يدعون إلى بدعة، ولا يتحيزون إلى فئة غير الله ورسوله وأصحابه، ولا يتخذون دينهم لهواً ولعباً، ولا يستحبون سماع الشيطان على سماع القرآن .." (٤) ا.هـ.

وقال شارح الطحاوية، في تعريف الولاية: "هي عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابه ومساخطه، ليست بكثرة صوم ولا صلاة، ولا تحذق ولا رياضة" (٥) ا.هـ.

وعرفها ابن رجب الحنبلي – رحمه الله – بقوله: "أولياء الله هم الذين يتقربون إليه بما يقربهم منه، وأعداؤه الذين أبعدهم منه بأعمالهم

---

(١) المرجع السابق (٤/١١٥).

(٢) المرجع السابق (٢/١٠٣).

(٣) مجموع الفتاوى (١١/٦٢)، وانظر الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ص٩.

(٤) الروح، ص٣٤٨.

(٥) شرح العقيدة الطحاوية، ص٣٩٨.

المقتضية لطردهم" (١) .

وقال ابن حجر – رحمه الله – : "المراد بولي الله العالم بالله، المواظب على طاعته المخلص في عبادته" ا.هـ (٢) .

وجميع هذه الأقوال متحدة المعنى، وإن اختلفت العبارات، إذ هي تجتمع على أن ولي الله هو المتبع لما أمر الله به، التارك لما نهى الله عنه.

وقد أجمل شيخ الإسلام في تعريف الولاية بقوله: "أولياء الله هم الذين يتبعون رضاه بفعل المأمور، وترك المحظور، والصبر على المقدور"ا.هـ (٣) .

أنواع الولاية:

الولاية أنواع كثيرة – منها: موالاة الله لعبده بالنصرة والتأييد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧] الآية.

ومنها: ولاية العبد لربه، وهي متمثلة في الطاعة والانقياد التام.

والفرق بينهما وبين ما قبلها، إن موالاة الرب لعبده موالاة نصر وتأييد من غير حاجة ولا احتياج قال تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾ ﴾ [الإسراء: ١١١] .

أما موالاة العبد لربه فهي موالاة حاجة، وفقر، فلا غنى للعبد عن ربه عز وجل (٤) .

(١) جامع العلوم والحكم (٢/٣٣٥).
(٢) فتح الباري (١١/٣٥٠).
(٣) مجموع الفتاوى (١/٨٥).
(٤) انظر عقيدة المؤمن، ص١٧٤.

ومنها ولاية المؤمنين بعضهم لبعض كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [الأنفال: ٧٢] وقوله: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٧١].

وهذه الولاية مستمدة من ولاية العبد لربه، إذ منشأ هذه الولاية إنما هو اتباع ما أمر الله تعالى به من محبة المؤمنين بعضهم لبعض وتعاونهم على البر والتقوى، ونصرة بعضهم لبعض.

ومنها: ولاية الكافرين بعضهم لبعض كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [الأنفال: ٧٣].

ومنها: ولاية الشيطان للكافرين كما في قوله تعالى: ﴿ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٧٦]. وهاتان الولايتان موالاة لا تجدي على أصحابها نفعاً بل هي وبال عليهم، ويوم القيامة يتخلى بعضهم عن بعض، ويلعن بعضهم بعضاً [(١)].

صفات أولياء الله:

لقد ذكر الله جل وعلى صفات أوليائه في عدد من الآيات الكريمات، وكذلك ذكرها رسوله ﷺ في عدد من الأحاديث، فمن القرآن قوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٣] وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل: ١٢٨].

---

(١) انظر الفرقان، ص(٦ - ٧)، وبصائر ذوي التمييز (٥/٢٨١).

وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾ [الزمر: ١٧ -١٨]

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾. [فصلت: ٣٠].

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأُعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته" (١).

وعن سعيد بن جبير قال: قيل يا رسول الله من أولياء الله؟ قال: "الذين إذا رؤوا ذكر الله" (٢).

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق باب التواضع رقم: ٦١٣٧ (ج٥/٢٣٨٤ -٢٣٨٥)، ورواه البيهقي عن محمد من عثمان به بدون زيادة "وما ترددت عن شيء أنا فاعله .." الحديث السنن الكبرى (٣٤٦/٣) ورواه البغوي في شرح السنة رقم: ١٢٤٨ عن البخاري به (١٩/٥).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في الأولياء، ص٣٨، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد عن ابن عباس فذكره وقال: "رواه البزار عن شيخه علي بن حرب الرازي ولم أعرفه، وبقية رجاله وثقوا، وعن عبدالله يعني ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الناس مفاتيح لذكر الله إذا رؤوا ذكر الله" رواه الطبراني وفيه عمرو بن القاسم ولم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح" ا.هـ (٧٨/١٠). ورواه أبو نعيم في الحلية (٦/١) من طريق أخرى مرسلاً عن سعيد بن جبير. وصححه العلامة الشيخ =

ومن هنا فأول صفات أولياء الله تعالى الإيمان بالله تعالى ومن لم تتحقق فيه هذه الصفة فهو عدو لله تعالى.

والإيمان في اللغة: التصديق، قال صاحب اللسان: "الإيمان فهو مصدر آمن يؤمن إيماناً، فهو مؤمن، واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم: أن الإيمان معناه التصديق" (١).

هذا من حيث اللغة أما في الشرع فهو أعم من ذلك إذ هو تصديق بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالجوارح، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية (٢)، وهذا ما عليه سلف الأمة وأئمتها.

قال ابن أبي عاصم – رحمه الله –: "باب في الإرجاء والمرجئة والإيمان قول وعمل .." (٣) ا.هـ.

وقال عبدالله بن الإمام أحمد – رحمهما الله تعالى – سمعت أبي وسئل عن الإرجاء فقال: "نحن نقول الإيمان قول وعمل يزيد وينقص إذا زنى وشرب الخمر نقص إيمانه" (٤).

وقال أبو بكر بن أبي شيبة – رحمه الله –: "الإيمان عندنا قول وعمل، ويزيد وينقص" (٥).

==

ناصر الدين الألباني من حديث ابن عباس عند ابن صاعد، وأبي نعيم، والديلمي. انظر صحيح الجامع رقم ٢٥٨٧ (١/٥٠٥) وحسنه من رواية الحكيم عن ابن عباس انظر صحيح الجامع رقم: ٢٥٥٧ (١/٥٠٠).

(١) لسان العرب (١٣/٢٣) مادة (امن).

(٢) انظر مجموع الفتاوى (٧/١٤٣ -١٤٤)، و(٧/١٧١).

(٣) السنة لابن أبي عاصم (٢/٤٦١).

(٤) السنة للإمام عبدالله، ص٨١.

(٥) كتاب الإيمان، ص٤٦ (مطبوع ضمن أربع رسائل بتحقيق الشيخ الألباني).

وقال الآجري – رحمه الله – : "الذي عليه علماء المسلمين أن الإيمان واجب على جميع الخلق، وهو تصديق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح" (١) .

وقال أيضاً: "فإذا كملت فيه هذه الثلاث الخصال: كان مؤمناً، دلَّ على ذلك الكتاب والسنة، وقول علماء المسلمين (٢) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : "الإيمان إذا كان قولاً بلا عمل فهو كفر، وإذا كان قولاً وعملاً بلا نية فهو نفاق، وإذا كان قولاً وعملاً ونية بلا سنة فهو بدعة" (٣) .

والأدلة على ذلك أكثر من أن تحصى، قال تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦] .

وهذا في فرض القول باللسان، وفي عمل الجوارح قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۩ ﴾ [السجدة: ١٥] "فنفي الإيمان عن غير هؤلاء فمن كان إذا ذكّر بالقرآن لا يفعل ما فرضه عليه من السجود لم يكن من المؤمنين" (٤) .

---

(١) الشريعة، ص١١٩.
(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة.
(٣) مجموع الفتاوى (١٧١/٧).
(٤) الإيمان لابن تيمية، ص١٥٢.

وعلى زيادة الإيمان ونقصانه قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ﴾ [الأنفال: ٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية — رحمه الله — : "وهذه زيادة إذا تليت عليهم الآيات أي وقت تليت، ليس هو تصديقهم بها عند النزول، وهذا أمر يجده المؤمن إذا تليت عليه الآيات زاد في قلب بفهم القرآن ومعرفة معانيه من علم الإيمان ما لم يكن، فزاد علمه بالله ومحبته لطاعته، وهذه زيادة الإيمان" (١) والأدلة كثيراً جداً، ويطول بسطها (٢).

والإيمان يشمل الإيمان بأركان الإيمان الستة، وهي الإيمان بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

الصفة الثانية: التقوى:

"وهي مشتقة من الوقاية، وهي حفظ الشيء مما يؤذيه، ويضره، يقال وقاه وقياً، ووقاية وواقيه: صانه .." (٣).

وقد جاءت في القرآن "بمعنى الخوف والخشية، وبمعنى الطاعة والعبادة، وبمعنى ترك المعصية والزلة، وبمعنى التوحيد والشهادة، وبمعنى الإخلاص" (٤).

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٢٨/٧).

(٢) انظر الإيمان لابن أبي عبيد، ص٥٣ -٦٦، ضمن الرسائل الأربع بتحقيق الألباني، وشرح أصول الاعتقاد (٨١٢/٤ وما بعدها، وانظر ٨٩٠/٥ وما بعدها)، ومجموع الفتاوى (١١٦/٧) وما بعدها، وكتاب الإيمان لابن تيمية بكامله، وانظر فتح الباري (٦٠/١ -٦٢)، ومعارج القبول (٦٤٢/٢ -٦٥٤).

(٣) بصائر ذوي التمييز (٢٩٩/٢).

(٤) المرجع السابق (٣٠٠/٢) باختصار وتصرف.

وقيل في تعريف التقي: "من إذا قال قال لله، ومن إذا عمل عمل لله" (١).

وقيل: "المتقون الذين نزع الله عن قلوبهم حب الشهوات" (٢) ا.هـ.

وعن ابن عمر: لا يبلغ العبد حقيقة التقوى حتى يدع ما حاك في الصدر(٣).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : "والتقوى: اسم يجمع حقوق الله وحقوق العباد" (٤) وقال أيضاً: "التقوى أن يعمل الرجل بطاعة الله على نور من الله يرجو رحمة الله، وأن يترك معصية الله على نور من الله يخاف عذاب الله" (٥) ا.هـ.

وفي الحديث عن أبي هريرة – رضي الله عنه – : قال: "سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال تقوى الله وحسن الخلق، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال الفم والفرج" (٦).

وقد علق السعادة بالإيمان والتقوى في عدة مواضع، كقوله لما ذكر السحر: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٠٣].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٦١/١).

(٢) المرجع السابق ونفس الجزء والصفحة.

(٣) ذكره البخاري في كتاب الإيمان معلقاً بصيغة الجزم باب قول النبي – صلى الله عليه وسلم – بني الإسلام على خمس (١١/١).

(٤) مجموع الفتاوى (٦٥٨/١٠).

(٥) المرجع السابق (٤٣٣/١٠).

(٦) رواه الترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق رقم ٢٠٠٥ (٢١٤/٦) وقال: "هذا حديث صحيح غريب" ا.هـ، ورواه ابن ماجة في كتاب الزهد باب ذكر الذنوب رقم: ٤٢٤٦، (ج١٤١٨/٢) عن عبدالله بن إدريس به بنحوه.

وقوله عن يوسف – عليه السلام – : ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝ ﴾ [يوسف: ٥٦ –٥٧] (١) .

والتقوى لها مراتب أدناها ترك الإشراك بالله، وأعلاها فعل المندوبات وترك المكروهات، وبينما فعل الواجبات، وترك المحرمات والمشتبهات والكمال ترك الفضول وما لا يعني (٢) .

ومن هنا نرى أن صفتي الإيمان والتقوى، جامعة لجميع الصفات، فمن حقق هاتين الصفتين فقد كمل إيمانه، وبقدر النقص في تحقيقهما ينقص الإيمان، ولهذا فأولياء الله تعالى ليسوا بمرتبة واحدة، بل هم متفاوتون تبعاً لتفاضل الإيمان والتقوى عندهم، فمنهم السابق ومنهم المقتصد، ومنهم الظالم لنفسه، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ۝ ﴾ [فاطر: ٣٢] .

وقوله تعالى: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَـٰثَةً ۝ فَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ ۝ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝ ﴾ [الواقعة: ٧ –١١] .

فأما السابق بالخيرات فهؤلاء قوم سارعوا بالطاعة، وتركوا ما حرم الله تعالى عليهم، وتقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض، وتورعوا عن المكروهات، وتركوا فضول المباحات، فهؤلاء في أعلى درجات الجنان، وهم الأنبياء والرسل، والصديقون والشهداء والصالحون، ممن أطاع الله

---

(١) النبوات، ص٢٥.

(٢) اانظر جامع العلوم والحكم (١/٣٩٩)، والفوائد لابن القيم، ص٦٥ –٦٦.

وسار على منهاج النبوة، وهم أيضاً يتفاوتون في درجاتهم وسابقيتهم وأعلاهم الأنبياء والرسل.

وأما المقتصدون فهم أصحاب اليمين، المتقربون إلى الله بالفرائض، وجميع ما أمرهم به جل وتعالى، التاركون لما حرم الله.

وأما الظالم لنفسه فهو من معه طاعة، وعنده معصية، فولاية الله له بقدر ما معه من إيمان، وهذا التقسيم الثلاثي خاص بأمة محمد ﷺ أما التقسيم إلى السابقين، وأصحاب اليمين فهو عام لجميع الأمم.

وهذا بصفة عامة، أما عند التخصيص فأفضل الأولياء الأنبياء، وأفضلهم المرسلون وأفضل المرسلين أولو العزم، وأفضلهم محمد ﷺ وأفضل هذه الأمة أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي [1].

واختلف العلماء فيمن قام به الإيمان والتقوى، مع علم الله تعالى بارتداده، هل يكون ولياً لله في حال إيمانه وتقواه على قولين:

الأول: اشتراط سلامة العاقبة لمن كان ولياً لله.

الثاني: بعدم اشتراطها وهو قول كثير من أهل الحديث، وبعض الأشاعرة والتحقيق في هذه المسألة كما هو رأي شيخ الإسلام ابن تيمية — رحمه الله —.

إن من علم الله عز وجل أنه يموت على الإيمان والتقوى، تعلقت به محبة الله وولايته، أزلاً وأبداً، لأن علم الله القديم الأزلي لا يتغير، وكذلك من علم الله عز وجل يحب ما قام به أولاً من إيمان وتقوى، وكذلك المؤمن لو سبق إيمانه كفر ورده وشرك ونفاق، فالرب جل وعلا يبغض ما قام به أولاً.

(١) انظر مجموع الفتاوى (١١/٢٣)، (١٠/٧ -٨)، والفرقان (ص١٠) و(١٨ -٢٣)، وجامع العلوم والحكم (٢/٣٣٥ -٣٣٧)، وطريق الهجرتين، ص٣١٣ وما بعدها.

والأدلة على ذلك اتفاق الأمة على أن من آمن ثم ارتد، لم يكن إيمانه فاسداً، إذ لو كان كذلك، للزم فساد أنكحته المتقدمة، وتحريم ذبائحه، وفساد عباداته من صلاة وحج، ولو وجب على من ائتم به في صلاة إعادتها وهذا خلاف ما ثبت في الكتاب والسنة والإجماع.

ويلزم من خلافه أيضاً القول بصحة معاملة وعبادة من سبق عليه الكفر في حال كفره، وهذا خلاف الإجماع كما تقدم [(١)].

وقد وعد الله تعالى أولياءه بالبشارة في قوله تعالى: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يونس: ٦٤].

واختلف في معنى البشر هذه على عدة أقوال:

فقيل البشرى الرؤيا الصالحة كما ورد في الحديث أن رجلاً سأل عبادة عن قوله تعالى: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [يونس: ٦٤] فقال ما سألني عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ عنها، فقال ما سألني عنها غيرك منذ أُنزلت، هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له"[(٢)].

وعن أبي هريرة — رضي الله عنه — قال: "سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لم يبق من النبوة إلا المبشرات" قالوا: وما المبشرات؟ قال: "الرؤيا الصالحة" [(٣)].

---

(١) انظر مجموع الرسائل والمسائل (١/ ٥١ -٥٢).

(٢) رواه الترمذي في كتاب التفسير باب تفسير سورة يونس رقم ٣١٠٥ (٨/ ٢٦٧ - ٢٦٨)، وقال: "هذا حديث حسن" ا.هـ (٧/ ٤٧)، ورواه ابن أبي عاصم في السنة رقم ٤٨٧ (١/ ٢١٣ -٢١٤) من طريق أخرى عن عبادة رضي الله عنه بأطول منه وصححه الألباني رحمه الله.

(٣) رواه البخاري كتاب التعبير باب: المبشرات رقم: ٦٥٨٩ (٦/ ٢٥٦٤)، وهو في الموطأ برقم ١٧٣٩ ص٦٨١ عن عطاء بن يسار بأطول منه، ورواه أبو داود من طريق أخرى ==

وقيل البشرى: ثناء الناس عليه (١).

وفي الحديث عن أبي ذر قال: قيل لرسول الله ﷺ: "أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير، ويحمده الناس عليه؟ "تلك عاجل بشرى المؤمن" (٢).

وقيل البشرى إجراء الكرامات على يديه.

وقيل: استجابة الدعاء لما في الحديث "ولئن سألني لأُعطينه" (٣)

وقيل: البشارة لأولياء الله عند نزول الموت بهم قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ .[فصلت: ٣٠] .

وقيل البشارة بما أعده الله لهم في الآخرة من النعيم المقيم قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ [البقرة: ٢٥] .

وجميع ما سبق يختص بالبشارة في الحياة الدنيا، وأما البشرى في الآخرة، فهو دخول الجنان، وحلول الرضوان (٤).

==

عن أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه، كتاب الأدب باب ما جاء في الرؤيا رقم: ٥٠١٧ (٢/٧٢٣).

(١) انظر مجموع الفتاوى (١/٨).

(٢) رواه مسلم كتاب البر والصلة باب: إذا أثنى على الصالح فهي بشرى ولا تضره رقم: ٢٦٤٢ (٤/٢٠٣٤) ورواه ابن ماجة في كتاب الزهد باب الثناء الحسن رقم: ٤٢٢٥ (٢/١٤١٢) عن أبي عمران الجوني به بنحوه، ورواه أحمد في المسند (٥/١٥٦، ١٥٧، ١٦٨) عن أبي عمران به بنحوه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر جامع البيان (١١/١٣٣ -١٣٨)، والجامع لأحكام القرآن (٨/٢٥٨ -٢٥٩)، وتفسير ابن كثير (٣/٥١٢ -٥١٤).

ولا منافاة بين جميع الأقوال، إذ هي تجتمع لعباد الله الصالحين، فيرون ما يبشرهم من الرؤيا الصالحة، ويكتب الله لهم القبول في الأرض لحبه إياهم، ويجري على أيديهم الكرامات، ويستجيب دعاءهم، وتتنزل الملائكة عليهم عند الموت تبشرهم بما لهم عند الله من عظيم الجزاء.

المبحث الثاني:

منهج أهل السنة في إثبات الولاية والرد على المخالفين

مما سبق إيراده من تعريف الولاية وذكر صفات الأولياء يظهر لنا منهج أهل السنة في الولاية ومنهجهم قائم على إثبات الولاية، وأن الولي ليس بمعصوم من الكبائر ولا الصغائر ولا الكفر الذي تعقبه التوبة.

بل يجري عليه الخطأ والصواب، وأن ولي الله الحق متبع لسنة رسول الله ﷺ، لا يملك حق التشريع والحكم، وأن الله عز وجل يجري على أيدي أوليائه كرامات وليس إجراؤها شرطاً في ثبوت الولاية، بل قد تجري على يديه إما لحاجته إليها وإما لإثبات صدقه، وإما لتثبيته، ولا ينبغي له أن يدعيها ولا يقطع بكونها كرامة لاحتمال أن تكون استدراجاً [(١)].

ولا تجزم لأحد من البشر بثبوت ولاية، ما لم يرد في ذلك نص بل نرجو للمحسن ونخاف على المسيء، وأنه قد تجتمع في الشخص الواحد ولاية من وجه وعداوة من وجه آخر، قال شيخ الإسلام ابن تيمية — رحمه الله — : "وليس لله ولي إلا من اتبعه باطناً وظاهراً فصدقه فيما

(١) انظر لوامع الأنوار (٢/٣٩٣)، والرسائل والمسائل لشيخ الإسلام ابن تيمية، ص٥٤ ومجموع الفتاوى (١٠/٦٦ -٦٧).

أخبر به من الغيوب والتزم طاعته فيما فرض على الخلق من أداء الواجبات وترك المحرمات، فمن لم يكن له مصدقاً فيما أخبر به ملتزماً طاعته فيما أوجب وأمرٍ به في الأمور الباطنة التي في القلوب والأعمال الظاهرة .. لم يكن مؤمناً فضلاً عن أن يكون ولياً لله" ا.هـ (١) وقال شارح الطحاوية: "ويجتمع في المؤمن ولاية من وجه وعداوة من وجه كما قد يكون فيه كفر وإيمان وشرك وتوحيد، وتقوى وفجور، ونفاق وإيمان"(٢) ولعل مقصوده بالكفر والشرك، الذي لا يخرج عن الملة، ويقول الإمام الشوكاني – رحمه الله – : "فحق على الولي وإن بلغ في الولاية إلى أعلى مقام وأرفع مكان، أن يكون مقتدياً بالكتاب والسنة وازناً لأفعاله، وأقواله بميزان هذه الشريعة المطهرة" إلى أن قال: "ومن خالف هذا مما يطلق عليه اسم الولي فليس من أولياء الله عز وجل" ا.هـ (٣) .

وقال أيضاً: "واعلم أن أولياء الله غير الأنبياء ليسوا بمعصومين، بل يجوز عليهم ما يجوز على سائر عباد الله المؤمنين، فإذا وقع ذلك فلا يخرجهم عن كونهم أولياء لله" (٤) ا.هـ وليس لأولياء الله ميزة تميزهم عن غيرهم بنحو لباس، أو شعر وإنما يتميزون بأعمالهم، وصفاتهم الموافقة لما في الكتاب والسنة (٥) .

المخالفون لأهل السنة في الولاية والرد عليهم:

أولاً: الشيعة:

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٤٣١).
(٢) شرح العقيدة الطحاوية، ص٣٥٨، ط المكتب الإسلامي.
(٣) قطر الولي على حديث الولي، ث٢٥٠ -٢٥١.
(٤) المرجع السابق ص٢٤٨.
(٥) انظر الفرقان، ص٢٨.

خالف الشريعة أهل السنة والجماعة في الولاية، وغلوا غلوا كبيراً في الأئمة فادعوا لهم العصمة، وفضلوهم على الأنبياء والرسل — صلوات الله عليهم وسلامه — وقالوا بنزول الوحي إليهم مباشرة دون وساطة ملك، ونسبوا لهم التصرف في الكون، وخلعوا عليهم صفات الألوهية وأن بأيديهم النفع والضر، وقالوا: "إن الإمام يتعين بالنص من النبي، ولا يجوز لنبي إغفال النص علي خليفته وتفويض الأمر إلى اختيار الأمة، وأن يكون الإمام معصوماً عن الكبائر والصغائر .." (١)

ويقول الطبرسي (٢) في تفسيره عند تفسير قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤] (٣) .

"استدل أصحابنا بهذه الآية على أن الإمام لا يكون إلا معصوماً عن القبائح لأن الله سبحانه نفى أن ينال عهده الذي هو الإمامة ظالم ومن ليس بمعصوم فقد يكون ظالماً إمّا لنفسه وإما لغيره.." ا.هـ (٤) وفي تفضيل الأئمة على الأنبياء والرسل يروى الكليني (٥) عن أبي جعفر (٦)

---

(١) الشيعة والحاكمون لمحمد جواد مغنية، ص١٢ -١٣.

(٢) الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي، مفسر، محقق لغوي من الشيعة الإمامية، نسبته إلى طبرستان، توفي سنة ٥٤٨هـ من كتبه "مجمع البيان في تفسير القرآن" و"جوامع الجامع" وغيرهما.

(٣) انظر الأعلام (١٤٨/٥).

(٤) مجمع البيان في تفسير القرآن (٣٨٠/١).

(٥) محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني، من شيوخ الشيعة الإمامية، من أهل كلين (بالري) توفي ببغداد سنة ٣٢٩هـ من كتبه "الكافي في علم الدين" و"رسائل الأئمة" وغيرهما انظر الأعلام (١٤٥/٧).

(٦) محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو جعفر الباقر، زين العابدين: خامس الأئمة الاثني عشر عند الإمامية كان زاهداً عابداً عالماً وقال ابن بكار: "كان يقال لمحمد باقر العلم" ا.هـ، ينسب إليه الشيعة أقوال هو منها براء وتوفي سنة ١١٤، انظر تهذيب التهذيب (٣١١/٩ -٣١٣) والأعلام (٢٧٠/٦).

– عليه السلام – قال: سمعته يقول: "إن الله اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبياً واتخذه نبياً قبل أن يتخذ رسولاً.

واتخذه رسولا من قبل أن يتخذه خليلاً واتخذه خليلاً قبل أن يتخذه إماماً فلما جمع له هذه الأشياء – وقبض يده قال له: يا إبراهيم إني جاعلك للناس إماما فمن عظمها في عين إبراهيم – عليه السلام – قال: يا رب ومن ذريتي، قال: لا ينال عهدي الظالمين" (١) ويروى – أيضاً – عن أبي عبدالله (٢) – عليه السلام – قوله: "ورب الكعبة ورب البنية – ثلاث مرات - لو كنت بين موسى والخضر – عليهما السلام – لأخبرتهما إني أعلم منهما ولأنبأتهما بما ليس في أيديهما، لأن موسى والخضر – عليهما السلام – أعطيا علم ما كان ولم يعطيا علم ما يكون وما هو كائن حتى تقوم الساعة وقد ورثناه من رسول الله ﷺ وراثة"(٣).

ثانياً: الصوفية:

وكذلك الصوفية ساروا على منهج الشيعة في الغلو في الأولياء (٤) والاعتقاد أن بيدهم النفع والضر، وأنهم معصومون من الصغائر

---

(١) الأصول من الكافي كتاب الحجة باب طبقات الأنبياء والرسل والأئمة (١/١٧٥).

(٢) جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين، أبو عبدالله، الملقب بالصادق: سادس الأئمة الاثني عشرية عند الإمامية كان من أجلاء التابعين، وله منزلة في العلم أخذ منه جماعة من العلماء، توفي بالمدينة سنة ١٤٨هـ، انظر حلية الأولياء (٣/١٩٢ -١٩٣) والأعلام (١/٢٦٠ -٢٦١).

(٣) الأصول من الكافي، باب: إن الأئمة عليهم السلام يعلمون ما كان وما يكون وأنه لا يخفى عليهم شيء (١/٢٦٠ -٢٦١).

(٤) ذهب كثير من المحققين والباحثين إلى أن عقيدة الصوفية مأخوذة من عقيدة الرافضة، انظر مجموع الفتاوى (١١/٤٣٩) والصفدية ص٢٦٢، والتصوف المنشأ والمصادر ص١٦٢، وولاية الله والطريق إليها، ص(٧٠ -١٠٧) والصوفية معتقداً ومسلكاً ص١٠١.

والكبائر مطلقاً وهم يعبرون عن العصمة أحياناً (بالحفظ) [(١)] يقول القشيري [(٢)] : "الولي له معنيان: أحدهما: فعيل بمعنى مفعول، وهو من يتولى الله سبحانه أمره، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٦] فلا يكله إلى نفسه لحظة، بل يتولى الحق سبحانه رعايته، والثاني: فعيل مبالغة من الفاعل، وهو الذي يتولى عبادة الله وطاعته، فعبادته تجري على التوالي من غير أن يتخللها عصيان" ا.هـ [(٣)] ويقول – أيضاً: "ومن شرط الولي: أن يكون محفوظاً، كما أنَّ من شرط النبي أن يكون معصوماً" ا.هـ [(٤)] وقالوا بختم الولاية كما ختمت النبوة.

يقول ابن عربي [(٥)] : "وليس هذا العلم إلا لخاتم الرسل، وخاتم الأولياء وما يراه أحد من الأنبياء والرسل إلا من مشكاة الرسول الخاتم حتى إن الرسل لا يرونه – متى رأوه – إلا من مشكاة خاتم الأولياء:

---

(١) انظر مختار الصحاح، ص١٨٤، والتصوف المنشأ والمصادر، ص ٢٠٤ -٢٠٨ وولاية الله والطريق إليها، ص٧٥ -٧٧.

(٢) عبدالكريم بن هوازن بن عبدالملك ابن طلحة النيسابوري القشيري، من بني قشير ابن كعب، أقام بنيسابور ومات فيها سنة ٤٦٥هـ قال الخطيب: "كان يعرف الأصول على مذهب الأشعري، والفروع على مذهب الشافعي" أخذ التصوف عن أستاذه أبي علي الدّقاق، من كتبه "الرسالة القشيرية" وكتاب "لطائف الإشارات" وغيرهما، انظر تاريخ بغداد (٨٣/١١) وطبقات الشافعية (١٥٣/٥ -١٦٢) والأعلام (٥٧/٤).

(٣) الرسالة القشيرية (٥٢٠/٢).

(٤) المرجع السابق (٥٢١/٢).

(٥) أبو بكر محيي الدين محمد بن علي بن محمد الحاتمي الطائي الأندلسي ابن عربي، فيلسوف ومن أئمة القائلين بوحدة الوجود، أفتى كثير من العلماء بكفره فحبس فسعى في خلاصة علي بن فتح البجائي، واستقر في دمشق حتى توفي فيها سنة ٦٣٨هـ له مؤلفات كثيرة مليئة بالكفر والزندقة منها الفتوحات المكية وفصوص الحكم ومفاتيح الغيب، وغيرها، انظر شذرات الذهب (١٩٠/٥ -٢٠٢) والأعلام (٢٨١/٦ - ٢٨٢) ومصرع التصوف، ص١٥٠ وما بعدها.

فإن الرسالة والنبوة – أعني نبوة التشريع ورسالته – تنقطعان، والولاية لا تنقطع أبداً فالمرسلون، من كونهم أولياء لا يرون ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء، فكيف من دونهم من الأولياء؟ وإن كان خاتم الأولياء تابعاً في الحكم لما جاء به خاتم الرسل من التشريع فذلك لا يقدح في مقامه ولا يناقض ما ذهبنا إليه، فإنه من وجه يكون أنزل كما إنه من وجه يكون أعلى" اهـ (١) ويزعمون أن الملائكة وأرواح الأنبياء تكلمهم، يقول الغزالي "ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات حتى إنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتاً، ويقتبسون منهم فوائد" (٢).

وللأولياء عندهم طبقات ومراتب:

"القطبية الكبرى هي مرتبة قطب الأقطاب، وهو باطن نبوة محمد ﷺ فلا يكون إلا لورثته، لاختصاصه، عليه السلام بالأكملية فلا يكون خاتم الولاية وقطب الأقطاب إلا على باطن خاتم النبوة.

---

(١) فصوص الحكم، ص٦٢، وانظر ص٦٣ حيث يشبه نفسه بلبنة الذهب ويجعل النبي صلى الله عليه وسلم لبنة فضة، أخزاه الله، وانظر أيضاً، ص١٣٥.

(٢) المنقذ من الضلال، ص١٤٥، وممن سار ذلك من المتأخرين عبدالله سراج الدين يقول في كتابه "الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها" ص١١٠ -١١١، وأما الاجتماع يقظة بأهل البرزخ والاطلاع على أحوالهم يقظة بالنسبة لغير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإن ذلك لا يناله إلا من أكرمه الله تعالى من عباده الصالحين، ومن ذلك إكرام الله تعالى لبعض أوليائه بالاجتماع يقظة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذهم عنه صنوفاً من البشائر والمعارف والمواهب الإلهية، ثم ساق قصة حصلت لعبدالقادر الجيلاني تفيض كذباً وافتراءً ثم قال أيضاً: "وقد ذكر الشيخ سراج الدين أيضاً في ترجمة الشيخ خليفة بن موسى النهر ملكي أنه كثير الرؤية لسيدنا رسول الله ﷺ يقظة ومناماً" اهـ، ص١١١.

والغوث هو القطب حين ما يلجأ إليه ويؤخذه منه ولا يسمى في غير ذلك الوقت غوثاً" (١) والإمامان هما الشخصان اللذان أحدهما عن يمين الغوث.

أي القطب – ونظره في الملكوت، والآخر .. عن يساره، ونظره في الملك، وهو أعلى من صاحبه وهو الذي يخلف القطب، والأوتاد هم الرجال الأربعة الذين هم على منازل الجهات الأربع من العالم، بهم يحفظ الله تعالى الخلق، لكونهم محال نظره من العالم، والبدلاء سبعة رجال لا يسافر أحد عن موضعه إلا ويترك جسداً في صورته فيه بحيث لا يعرف أحد إنه فقد، والنجباء هم الأربعون القائمون بإصلاح أمور الناس وحمل أثقالهم المتصرفون في حقوق الخلق لا غير.

والنقباء هم الذين تحققوا بالاسم الباطن، فأشرفوا على بواطن الناس واستخرجوا خفايا الضماير، لانكشاف الساتر عن وجه السرائر..الخ" (٢) .

وفي صفة خاتم الأولياء يقول الحكيم الترمذي (٣) المستحق لذلك رجل يشبه أباه وهو أعجمي، هو نسق في خلقه، وهو ربعة من

---

(١) انظر أيضاً في تعريف الغوث التعريفات للجرجاني، ص١٦٩، وص٢٦٦.

(٢) كتاب نص النصوص لحيدر الآملي مخطوط مكتبة مجلس الأمة، طهران، ملحق رقم (١٩ -٩١ -٩٦) نقلاً عن ختم الولاية للحكيم الترمذي، ص(٥٠٤ -٥٠٥) وانظر الفتوحات الملكية لابن عربي (٢٤٣) وما بعدها.

(٣) محمد بن علي بن الحسن بن بشر أبو عبدالله الحكيم الترمذي، صوفي، قال السلمي: نفوه من ترمذ وأخرجوه منها، وشهدوا عليه بالكفر، وذلك بسبب تصنيفه كتاب "ختم الولاية" وكتاب "علل الشريعة" توفي نحو عام ٣٢٠هـ انظر ترجمته في حلية الأولياء (٢٣٣/١٠) وانظر طبقات الشافعية (٢٤٥/٢ -٢٤٦)، والأعلام (٢٧٢/٦).

الرجال، ختم به دورة الملك، وتختم به الولاية .." "وكما إن الله ختم بمحمد ﷺ نبوة الشرائع كذلك ختم الله بالختم المحمدي للولاية .." ا.هـ[١] ويقول أيضاً: "هذا الولي يسير به الله تعالى على طريق محمد ﷺ بنبوته مختوماً بختم الله، فكما كان محمد ﷺ حجة على الأنبياء فكذلك يصير هذا الولي حجة على الأولياء" ا.هـ [٢] .

ثالثاً: المعتزلة:

وأما المعتزلة فخالفوا أهل السنة في إثبات الكرامات، وقالوا: "إنها لا تظهر إلا على مدعي الرسالة، لكي يُعرف بها صدقه بما تحمّله من مصالح الأمة" [٣] وشبهتهم في ذلك أنه لو صح وقوعها لأدى ذلك إلى التباس الولي بالنبي [٤] ونسب هذا القول إلى بعض الأشاعرة [٥] وقال به ابن حزم الظاهري — رحمه الله — .

---

(١) ختم الأولياء، ص١٦١.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٢٢.

(٣) المغني (٢٤٤/١٥).

(٤) انظر المرجع السابق (٢٤١/١٥ -٢٤٦).

(٥) نسب ذلك إلى أبي إسحاق الإسفراييني وأبي محمد بن أبي زيد وقال شيخ الإسلام "ولكن كأنه في الحكاية عنهما غلطاً وإنما أرادوا الفرق بين الجنسين" ا.هـ، النبوات، ص١٦، وانظر ص٤٢٣ وقال السبكي "ويزداد تعجبي عند نسبة إنكارها إلى الأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني، على أن نسبة إنكارها إليه على الإطلاق كذب عليه، والذي ذكره الرجل في مصنفاته أن الكرامات لا تبلغ مبلغ خرق العادة" ا.هـ، طبقات الشافعية (٣١٥/٢) وخالف السبكي قوله هذا في الطبقات الوسطى فقال "ومن غرائبه: أنه كان ينكر كرامات الأولياء"ا.هـ حاشية الطبقات الكبرى (٢٦٠/٤).

ودليله في إنكارها أنه "لو جاز أن يأتي بهذا الأمر أحد سواهم – أي الأنبياء – لما كان فيه دليل" [(١)] وقال أيضاً "إن الله عز وجل يسمى هذه الخوارق آيات والآيات لا تكون إلا للأنبياء بلا خلاف" [(٢)] . ا.هـ.

الرد على المخالفين:

أما بالنسبة لما عليه الشيعة فبطلانه ظاهر بلا خفاء، قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : "وأما عصمة الأئمة فلم يقل بها إلا كما قال الإمامية والإسماعيلية [(٣)] وناهيك بقول لم يوافقهم عليه إلا الملاحدة المنافقون الذين شيوخهم الكبار أكفر من اليهود والنصارى والمشركين" [(٤)] ا.هـ.

والشيعة الإمامية أول من قال بالعصمة لغير الأنبياء [(٥)] وهم يزعمون أنهم أخذوا هذا القول عن أئمة أهل البيت وهذا باطل من وجوه:

الأول: أن هذا مخالف لما أُثر عن أئمة البيت رحمهم الله جميعاً ورضي عنهم.

الثاني: أن الشيعة الإمامية مخالفون لعقائد أهل بيت رسول الله ﷺ في الصفات والقدر والإمامة وغيرها من مسائل الدين.

---

(١) الأصول والفروع، ص١٣٢.

(٢) المرجع السابق، ص١٣٣.

(٣) الإسماعيلية: ينتسبون لإسماعيل بن جعفر، واختلفوا في موته فمنهم من قال بموته، ومنهم من قال: إنه لم يمت وإنما أظهر موته تقية، ومن أشهر ألقابهم الباطنية وسموا بذلك لقولهم بأن لكل ظاهر باطنا، ومن ألقابهم القرامطة، والمزدكية وهم من فرق الشيعة الغلاة وقد خلطوا كلامهم بآراء الفلاسفة وصنفوا في ذلك المصنفات، انظر الملل والنحل للشهرستاني (١/١٩١ وما بعدها).

(٤) منهاج السنة (٣/٣٨٤).

(٥) انظر جامع الرسائل لابن تيمية، ص٢٦٤.

الثالث: أنهم مختلفون كثيراً فيما بينهم، فأي مذهب هو الصحيح وأي معصوم منهم هو الأصوب للأخذ برأيه.

الرابع: إن أقوالهم هذه لا أسانيد لها، لإثبات صحة نسبة القول إلى الإمام والحكم عليه بالصحة أو البطلان كما هو منهج أهل السنة [١].

كما أن ما ادعاه هؤلاء من العصمة والوصاية وغيرهما دعوى مجردة من الدليل وما جاء من الأدلة عندهم فهي لا تخلو من أمرين الأول: استدلالهم بالنص الصحيح على غير وجهه وتأويلهم إياه تأويلات باطلة.

الثاني: وضعهم الأحاديث التي تؤيد مذهبهم وزعمهم أن هذا منقول عن النبي ﷺ [٢]. وإن كان مقصود الرافضة بأن هؤلاء الأئمة لديهم من العلم والدين، ما يؤهلهم أن يكونوا أئمة مطاعين، فهذا ليس قاصراً عليهم بل في الأئمة من سواهم كثير، ممن نفع الله بعلمه وممن نقلوا الأحاديث والآثار رواية ودراية، والأئمة عندهم لا تخلو حالهم من حالتين: الأولى: أن يكون الإمام موجوداً، وهذا تعترف به أهل السنة وتعتقد علمه وفضله، لكن لا تقول بعصمته كما أنها تأتم به وبغيره من العلماء والأئمة من غير آل البيت، ولا تفضل واحداً منهم على ما أجمعت الأمة على تفضيله كأبي بكر، و عمر وعثمان.

الثاني: إمام معدوم في السرداب لا يُرى، ولا تعلم حاله، ويقوم بالولاية عنه فاسق أو كافر أو ظالم فهذا تنكره أهل السنة، وتخالف مدعيه [٣].

---

(١) انظر منهاج السنة (١٦/٤ -١٩).
(٢) وقد سبق إيراد بعضها.
(٣) انظر المرجع السابق (١٠٣/٤ -١١٩).

وما استدلوا به على عصمة الأئمة من قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٤].

لا دليل فيها على عصمة الأئمة من وجوه:

الأول: أنهم يرمون في تأويل هذه الآية، بهذا التأويل نفي صحة ولاية أبي بكر وعمر وعثمان – رضي الله عنهم أجمعين – مع ثبوتها بإجماع الصحابة وغيرهم في ذلك العصر مع جلالتهم، وسابقيتهم في الإسلام، وعليه فقولهم مردود لفساد أصله وليس في الآية نص على تعيين إمام معين، فقولهم هذا تعسف.

الثاني: أن العلماء قد اختلفوا "في العهد الذي لا يناله الظالمون" فقيل: هو النبوة، وقيل: دين الله، وقيل الإمامة [١]، والجزم بقول واحد، لابد فيه من إقامة الدليل.

الثالث: لا اختلاف في أن الظالم لا يمكن أن يكون إماماً يقتدى به، ولكن على قول الرافضة يصبح جميع أفراد الأمة عدا الرافضة وأئمتهم – ظالمين، وهذا قول لم يقل به أحد.

الرابع: إن بين لفظ "الظلم" ولفظ "العصمة" اختلافاً وتبايناً ولا يلزم من انتفاء العصمة، ثبوت الظلم، وإلا لكانت الأمم غير الأنبياء ظالمين.

الخامس: إن ثبوت العصمة لبشر، أمر يتنافى مع الطبيعة البشرية، ولا يمكن الجزم به لأحد، ما لم يدل على ذلك دليل قطعي [٢] والعصمة لم تثبت لبشر غير الأنبياء – عليهم صلوات الله وسلامه – وهذه العصمة فيما يبلغون عن الله تعالى، ولو ثبتت لأحد كان أحق بها عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – وقد شهد له رسول الله ﷺ بأنه من

---

(١) انظر جامع البيان (١/٥٣٠ -٥٣٢).

(٢) انظر الإمامة عند الجعفرية لعلي أحمد السالوس من ص٤٧ -٥٢.

المحدثين كما سبق في قوله ﷺ : "لقد كان فيمن قبلكم من الأمم ناس محدثون فإن يك في أمتي أحدٌ فإنه عمر" [(١)] .

وأن الشيطان يفر من طريقه، ومن ذلك فهو يخطئ ويصيب، ويراجعه أصحابه ويرجع إلى أقوالهم قال شيخ الإسلام ابن تيمة — رضي الله عنه — : "وهذا الذي ذكرته من أن أولياء الله يجب عليهم الاعتصام بالكتاب والسنة، وإنه ليس فيهم معصوم يسوغ له أو لغيره اتباع ما يقع في قلبه من دون اعتبار بالكتاب والسنة، وهو مما اتفق عليه أولياء الله عز وجل ومن خالف في هذا فليس من أولياء الله سبحانه الذين أمر الله باتباعهم، بل إما أن يكون كافراً وإما أن يكون مفرطاً في الجهل" ا.هـ [(٢)] ومما يرد عليهم به أيضاً : أن الله وصف الأولياء بالإيمان، والتقوى وفي آية أخرى وصفهم بالتقوى مع وقوعهم بعض السيئات فدل على أن تقواهم لا تمنع من وقوع بعض الآثام لعدم العصمة [(٣)] قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

[الزمر: ٣٣ -٣٥] .

وهذا الغلو، أوقعهم في الشرك الأكبر — والعياذ بالله — إذ أصبحوا يتبركون بهم ويستشفعون بهم، ويقدمون لقبورهم القرابين، ويعتقدون أن بيدهم النفع والضر بل زاد شركهم عن شرك أهل الجاهلية [(٤)]

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر مجموع الرسائل والمسائل لابن تيمية (١/٥٣).

(٣) انظر مجموع الرسائل والمسائل (١/٥٤).

(٤) انظر تطهير الاعتقاد للشوكاني، ص٢٦ -٣٣.

الإسفراييني [١] : "واعلم أن هذه المقاتلة [٢] التي رويناها عن الروافض ليست مما يستدل على فسادها، فإن العاقل ببديهة العقل يعلم فسادها وينكر عليها، فلا يمكن أن تحمل منهم هذه المقالات إلا على أنهم قصدوا بها إظهار ما كانوا يضمرونه من الإلحاد والشر بموالاة قوم من أشراف أهل البيت، وإلا فليس لهم دليل يعتمدون عليه" ا.هـ [٣] .

أما التصوف فلم يعرف إلا بعد القرون الثلاثة الأول [٤] ومن هنا فهو بدعة منكرة، وطريقة مستحدثة وهو معول هدم في جسم الأمة الإسلامية، ولننظر إلى حال السلف الصالح فمن سار على نهجهم فهو ولي، ومن خالف ذلك فليس بولي وما عليه غلاة الصوفية من بدع وغلو – شابهوا فيه الرافضة – مخالف تماماً لما كان عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين.

والشيعة والصوفية بهذا قد جعلوا الولاية قصراً لطائفة مخصوصة تنتقل إليهم بالوراثة والنسب ولا حق لغيرهم فيها.

وما هم عليه من تفضيل الأولياء على الأنبياء، أمر منكر، وهو شر من قول اليهود والنصارى، وهو الكفر الصريح، فقد عُلم عقلاً أن المتأخر يأخذ من المتقدم، وهم جعلوا الولي هو الذي يستفيد منه المتقدم

---

(١) شهفور بن طاهر بن محمد الإسفراييني، أبو المظفر، فقيه أصولي، مفسر صنف التفسير الكبير وصنف في الأصول، توفي سنة ٤٧١هـ، انظر طبقات الشافعية (١١/٥) والأعلام (١٧٩/٣).

(٢) كذا بالأصل ولعل المراد (المقالة).

(٣) التبصير في الدين، ص٤٠.

(٤) انظر رسالة الصوفية والفقراء لشيخ الإسلام ابن تيمية، ص١٣.

وهو النبي [١] وهذا القول مخالف لما أجمعت عليه الأمة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية — رحمه الله.

"وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أولياء الله تعالى على أن الأنبياء أفضل من الأولياء الذين ليسوا بأنبياء .." ا.هـ [٢] وتفضيلهم الولي على النبي بأمرين:

الأول: تلقيه للوحي مباشرة بدون وساطة ملك، فيقول قائلهم: "مكثت ثلاثين سنة ما يسمع لساني إلا من سري ثم تغيرت الحال فمكثت ثلاثين سنة لا يسمع سري إلا من ربي" [٣].

الثاني: كمال الدين على يديه [٤] وكفر من قال بذلك ظاهراً، قال شارح الطحاوية — رحمه الله — : "وكفر ابن عربي وأمثاله فوق كفر القائلين: ﴿ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١٢٤] ولكن ابن عربي وأمثاله منافقون زنادقة، اتحادية في الدرك الأسفل من النار .." ا.هـ [٥] ومما يرد به عليهم حديث أنس — رضي الله عنه — قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: هذان سيدا، كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين، إلا النبيين والمرسلين لا تخبرهما يا علي" [٦] فلم

---

(١) انظر مجموع الرسائل والمسائل لابن تيمية، ص٢٠٥ -٢٠٦.

(٢) الفرقان، ص٤٥.

(٣) الرسالة القشيرية (٢/٦٨٢) والقائل أبو الحارث الأولاشي.

(٤) انظر مجموع الرسائل والمسائل لابن تيمية (٤/٧٢) وهذه الصوفية، ص١٢٩.

(٥) شرح العقيدة الطحاوية، ص٤٩٤ ط المكتب الإسلامي.

(٦) رواه الترمذي في كتاب المناقب باب "أبو بكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة إلا النبيين" رقم: ٣٦٦٦ (ج٩/٢٧١) وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. ا.هـ، ورواه من طرق أخرى في الباب نفسه عن علي — رضي الله عنه — رقم ٣٦٦٥، ٣٦٦٧، ورواه ابن ماجة عن علي — رضي الله عنه — بنحوه وزاد "مادما حيين" في المقدمة باب فضائل ==

يفضلهما عليه الصلاة والسلام على الأنبياء والمرسلين، مع عظيم مكانتهما ومنزلتهما في الدين – رضي الله عنهما وأرضاهما [(١)] .

وبالنسبة لهذا الوحي الذي ينزل عليهم – على حد زعمهم – هل هو موافق لما في الكتاب والسنة أم مخالف لهما، فإن كان موافقاً فلا حاجة لنا به، وإن كان في الأحكام عُدَّ نسخاً لهذا الدين [(٢)] وهذا خلاف ما أجمع عليه الأمة من تمام هذا الدين وكماله، وختم الرسالات بنبوة محمد ﷺ ، وهم يعتقدون ذلك وقولهم هذا أشد قبحاً من فعل أهل الكتاب الذين يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يقولون هو من عند الله، كما ذكر الله تعالى عنهم ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [البقرة: ٧٩] فهؤلاء الصوفية – أخزاهم الله – كتبوا كتب الكفر والزندقة، ثم زعموا أنها وحي منزل عليهم أنفسهم من عند الله تعالى[(٣)] .

وما ما ذكروه وما أثبتوه من طبقات الأولياء، فهي أسماء لم ترد في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ لا بإسناد صحيح ولا ضعيف عدا لفظ الأبدال فقد ورد فيه أحاديث حكم المحققون من أهل السنة بوضعها [(٤)] .

==

أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – رقم: ٩٥ (٣٦/١)، ورواه أحمد في مسنده عن علي – رضي الله عنه – (٨٠/١١) بنحوه وزاد "وشبابها".

(١) انظر مجموع الفتاوى (٣٦٥/١١).

(٢) انظر عقيدة ختم النبوة، ص١٦٣، وانظر ص١٤٨ وما بعدها، انظر مجموع الرسائل والمسائل (٥٠/٤ -٥١).

(٣) انظر مجموع الرسائل والمسائل لابن تيمية (٥٠/٤ -٥١).

(٤) انظر الأولياء لابن أبي الدنيا، ص٣٤ ص٦٥ -٦٦ (التحقيق) وانظر الفرقان ص١٢ -١٣، وانظر تحقيق أحمد شاكر – رحمه الله – للمسند رقم ١٦٩ (٨٩٨/٢) وانظر سلسلة الأحاديث الضعيفة للعلامة الألباني رقم ٩٣٥ رقم: ٩٣١ ==

قال شيخ الإسلام – رحمه الله – : "كل حديث يروى عن النبي ﷺ في عدة الأولياء والأبدال والنقباء والنجباء والأوتاد والأقطاب، فليس في ذلك شيء صحيح عن النبي ﷺ ولم ينطق السلف بشيء من هذه الألفاظ إلا بلفظ "الإبدال" وروي فيه حديث إنهم أربعون رجلا وأنهم بالشام، وهو في المسند من حديث علي – كرم الله وجهه – وهو حديث منقطع ليس بثابت" ا.هـ (١) ، ولا شك أن هذا لا يمكن أن يخفى على نبينا محمد ﷺ ، وكيف لا يخبر به الأمة؟ وهذا مما يعلم قطعاً بكذبه، ولم يكن في زمنه أفضل منه ﷺ ولا من أصحابه، فأين كان هؤلاء الأقطاب والأوتاد والنقباء..؟! وإن زعموا أنهم جاءوا بعده فأين كانوا؟! وما الدليل على وجودهم من الكتاب والسنة والإجماع (٢) ؟

قال شيخ الإسلام: "فأما لفظ الغوث والغياث فلا يستحقه إلا الله فهو غياث المستغيثين، فلا يجوز لأحد الاستغاثة بغيره، لا بملك مقرب، ولا نبي مرسل" (٣) ا.هـ وقال أيضاً "فالغرض أن هذه الأسماء تارة تفسر بمعانٍ باطلة بالكتاب والسنة وإجماع السلف، مثل تفسير بعضهم "الغوث" هو الذي يغيث الله به أهل الأرض في رزقهم ونصرهم، فإن هذا نظير ما تقوله النصارى في الباب وهو معدوم العين والأثر شبيه بحال المنتظر الذي دخل السرداب من نحو أربعمائة وأربعين سنة" (٤) ا.هـ ولفظ (القطب) يمكن إطلاقه على كل من دار عليه أمر من الدين أو الدنيا

==

(٣٣٩/٢ -٣٤١) وقال الألباني – رحمه الله – : "واعلم أن أحاديث الأبدال لا يصح منها شيء وكلها معلولة، وبعضها أشد ضعفاً من بعض" ا.هـ (٣٣٩/٢).

(١) الفرقان ص١٢.

(٢) انظر مجموع الفتاوى (٤٣٥/١١ -٤٣٩).

(٣) المرجع السابق (٤٣٧/١١).

(٤) المرجع السابق (٤٤٢/١١).

فيسمى قطباً ذلك الأمر ومداره، وليس من شرطه أن يتفرد بذلك الأمر بل قد يشركه غيره وكذلك لفظ (الوتد) إن كان يقصد به أنه شخص يثبت الإيمان في القلوب وكذلك العلم، كما تثبت الأوتاد الجبال فهذا معنى حق، وهو للعلماء الأفذاذ وهم كثير، وليسوا محصورين في عدد معين.

وكذلك لفظ (البدل) وتخصيصهم بالشام باطل، فإن العلم والإيمان كان بالحجاز واليمن قبل الشام، وكانت الشام بلاد كفر حتى فتحها المسلمون، ولو كانت خاصة بالابدال لكانت أفضل من غيرها من بلاد الله (١).

كما أن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [يونس: ٣].

فله سبحانه التدبير، والخلق .. والأمر، وما عليه منحرفو الصوفية مخالف تماماً لذلك، فهم المدبرون، ولهم تصرف العبادة، بل إن تعلقهم بالأولياء بعد موتهم، أشد من تعلقهم به في حياتهم إذ تقام حول أضرحتهم النذور، ويتوسل بهم ويستشفع بهم من دون الله تعالى (٢) وهذا من أبعد الضلال ولو كان لأحد من البشر ذلك لكان لرسول الله ﷺ، فقد حصل بعد موته خلاف بين الصحابة ومنازعات، فلماذا لم يفصل بينهم، وهو أفضل الخلق عليه الصلاة والسلام، وبيده لواء

(١) انظر مجموع الفتاوى (١١/ ٤٤٠ -٤٤٢).

(٢) يقول الإمام الشوكاني – رحمه الله – : "فأهل العراق والهند يدعون: عبدالقادر الجيلاني وأهل التهائم لهم في كل بيت يهتفون باسمه يقولون: يا زيلعي، يا ابن العجيل وأهل مكة وأهل الطائف: يا ابن عباس، وأهل مصر يا رفاعي، يا بدوي" ا.هـ تطهير الاعتقاد، ص٢٤.

الحمد وله المقام المحمود يحمده عليه الأولون والآخرون، ومع ذلك فهو بعد موته منقطع عن الدنيا لا يملك لأحد نفعاً ولا ضراً، فهل يكون هؤلاء الزنادقة أفضل منه عليه الصلاة والسلام؟! [١] ولاشك إن اغترار هؤلاء الجهلة بهؤلاء الأولياء — في زعمهم — ناتج عما يرونه منهم من خوارق وهمية، كالطير في الهواء، أو المشي على الماء، أو إخبار بمال مسروق أو حصول طعام أو ماء في مفازة، أو نحو ذلك من الأمور التي يغتر بها الجهلة لأنها خوارق شيطانية، تساعدهم بها فسقة الجن والشياطين وهي تقع كثيراً للكفار والمشركين وأهل الكتاب والمنافقين [٢] قال شيخ الإسلام — رحمه الله — : "اتفق أولياء الله على أن الرجل لو طار في الهواء أو مشى على الماء لم يغتر به حتى ينظر متابعته لرسول الله ﷺ وموافقته لأمره ونهيه" ا.هـ [٣] .

ومن صفات هؤلاء التي تميزهم عن صفات أولياء الرحمن:

١ - "المباشرة للنجاسات والخبائث التي يحبها الشيطان.
٢ - أكل الحيات والعقارب، والزنابير، وآذان الكلاب.
٣ - دعاء غير الله والاستغاثة به.
٤ - لا يتوضأون ولا يصلون الصلوات المفروضات.
٥ - أن يأوي إلى المزابل والمواضع النجسة أو مقابر الكفار.
٦ - كراهيته لسماع القرآن، وإقباله على سماع الأغاني والأشعار"[٤] .

---

(١) انظر هذه هي الصوفية عبدالرحمن الوكيل، ص١١٠.
(٢) انظر الفرقان، ص٣٩.
(٣) المرجع السابق، ص٣٩.
(٤) المرجع السابق، ص٤١ (باختصار وتصرف) وانظر مجموع الفتاوى (١٠/٤٣٤ -٤٣٥).

فمن كانت هذه صفاته، أو فيه بعضها، فحاشا لله أن يكون ولياً له، وغالب أولياء الصوفية هذه صفاتهم.

قال شيخ الإسلام – رحمه الله – : "فمن اعتقد أن هؤلاء أولياء الله فهو كافر مرتد عن الإسلام باتفاق أئمة الإسلام، ولو كان نفسه زاهداً عابداً .." ا.هـ [(١)] .

أما ما ادعاه الحكيم الترمذي من ختم الولاية وسار على نهجه أئمة الصوفية من بعده فهو قول باطل وبطلانه يظهر من عدة أوجه:

الأول: أن ذلك أفضى بعدد من الزنادقة إلى ادعاء ختم الولاية لنفسه كابن عربي الذي يقول بعد ذكر رؤياه بمكة عندما رأى الكعبة مبنية بلبن فضة وذهب، ثم يعقب عليها بقوله: "وقلت متأولاً: إني في الاتباع في صنفي، كرسول الله ﷺ في الأنبياء عليهم السلام وعسى أن أكون ممن ختم الله الولاية بي وما ذلك على الله بعزيز" ا.هـ [(٢)] وغيره [(٣)] اعتقاداً منهم أن خاتم الأولياء أفضل الأولياء كما كان خاتم الأنبياء أفضلهم وغفلوا عن أنه لو لم يدل الدليل على أفضليته ﷺ لم يكن أفضلهم.

الثاني: إن أفضل هذه الأمة بعد نبيها محمد ﷺ السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار وأفضلهم أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي ثم الستة الباقون من العشرة المبشرين بالجنة – رضي الله عنهم أجمعين، وزمنهم أفضل القرون كما في حديث عمران بن حصين –

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٤٣٥).

(٢) الفتوحات المكية (٥/٦٨ -٦٩) وانظر الصلة بين التصوف والتشيع، ص٤٧٣.

(٣) كابن حمويه، ومن المتأخرين محمد عثمان الميرغني ت١٢٦٨هـ وأحمد التيجاني، ت١٢٣٠هـ، انظر مجموع الفتاوى (١١/٤٤٤)، والفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، ص٢٦٠ -٢٦٧.

رضي الله عنه – "خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، قال عمران لا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثاً.." الحديث (١) .

الثالث: إن خاتم الأولياء هو آخر مؤمن تقي يتوفاه الله وليس بأفضل الأولياء ولا مزية له على أحد (٢) .

الرابع: "اتفقت طوائف السنة والشيعة على أن أفضل هذه الأمة بعد نبيها واحد من الخلفاء، ولا يكون من بعد الصحابة أفضل من الصحابة.

وأفضل أولياء الله تعالى أعظمهم معرفة بما جاء به الرسول، واتباعاً له" (٣) .

الخامس: إن تفضلهم لهذا الولي الخاتم على خاتم الرسل، باعتبار أنه يأخذ عن الله مباشرة، وهذا قول باطل من وجوه عدة:

فمنها: أن ما يأخذونه بدون وساطة النبي ﷺ أمر لا يوثق به، ولا يعتمد عليه، بل لابد من عرضه على الكتاب والسنة فإن وافقها عمل به، وإلا رمي به عرض الحائط.

ومنها: أن أفضل أولياء هذه الأمة من الملهمين الذين يجري الحق على لسانه عمر بن الخطاب، فهو من المحدثين في هذه الأمة، ومع ذلك

---

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة: باب فضائل أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – ورضي الله عنهم، رقم: ٣٤٥٠ (١٣٣٥/٣) ورواه في كتاب الشهادات، باب: لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، رقم: ٢٥٠٨ (٩٣٨/٢) عن شعبة به بنحوه ورواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب: فضل الصحابة ثم الذين يلونهم، رقم: ٢٠٣٥ (١٩٦٤/٤) عن شعبة به بنحوه.

(٢) انظر مجموع الفتاوى (٤٤٤/١١) وجامع الرسائل ص٢٠٥ -٢٠٦.

(٣) الفرقان ص٤٧، وانظر الصفدية، ص٢٤٧ -٢٤٨.

فكل ما يرد عليه يعرض على الكتاب والسنة، ولم يكن مع ذلك أفضل الأمة، بل كان أبو بكر الصديق — رضي الله عنهما أفضل منه [(١)] .

ومنها: إنه لا يمكن لولي من الأولياء أن يساوي نبياً — فضلاً عن أن يكون أفضل منه — لما بينهما من الفروق الظاهرة للعيان ومنها:

١ - ثبوت العصمة للنبي بخلاف الولي.

٢ - وجوب الإيمان بكل ما جاءت به الأنبياء بلا استثناء قال تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٦].

٣ - إن من سب نبياً من الأنبياء أو كفر به وبما جاء به، قتل مرتداً بلا خلاف، وهذا بخلاف من سب ولياً فلا يكفر بذلك، ولا يجب قتله، بل من غلا منهم، وفضلهم على الأنبياء أو ساواهم به كفر بذلك ويستتاب[(٢)] .

السادس: إن القول بختم الولاية يلزم منه انقطاع الأولياء، بعد ذلك الولي، ويصبح من بعده إن جاء بعده أحد — كلهم أعداء لله، وهذا لا يمكن أن يجزم به بشر [(٣)] وأما الرد على المعتزلة في إنكارهم الكرامات،

---

(١) انظر الصفدية، ص٢٥٣ -٢٥٤، وانظر مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية (٥٣/١) وانظر الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، ص٢٥٨.

(٢) انظر الصفدية، ص٢٥٥ -٢٦٢.

(٣) مما يثير العجب أن د. عبدالفتاح بركة صاحب كتاب "الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية" نقل أقوال الحكيم الترمذي ورأى مبلغ ما وصل فيها من ضلال، ثم يعقب على ذلك بقوله: "ولقد نجد أن الحكيم الترمذي يقف في مناقشته هذه على أرض صلبة، سواء على أساس من أصول مذهبه أو على أساس من النصوص القرآنية ==

وجميع الخوارق، عدا آيات الأنبياء ومعجزاتهم، فهذا في الحقيقة إنكار للواقع وتكذيب بالمحسوسات، ونقول لهم:

أولاً: إن هذا خلاف الأدلة الصحيحة من الكتاب والسنة، والإجماع علاوة على ما سبق من أن هذا مكابرة للعقل وإنكار للحس.

فأما القرآن ففي قوله في شأن مريم عليها السلام: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًا ۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٧].

قال ابن كثير – رحمه الله – : "فيه دلالة على كرامات الأولياء، وفي السنة لهذا نظائر كثيرة" ا.هـ (1) وفي أصحاب الكهف يقول تعالى: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الكهف: ٩ -١١]

==

الكريمة والنبوية الشريفة، بحيث لا نكاد نجد ما يقابلها أو يردها، ولكن ما يؤيدها أو يتساوق معها وهذه الفكرة – على كل حال – فكرة تقف في وجه المغالاة التي تجعل من رؤوس أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ورضي عنهم، قمماً تعجز البشر أن يصلوا إليها أو إلى مستواها .." ا.هـ، ص٣٨٤ ولا أدري ما هي الأرض الصلبة التي وقف عليها الترمذي، وما هي النصوص القرآنية التي تنص على أن للأولياء خاتم هو أفضل الأولياء، بل يساوي الأنبياء في درجته.

وأصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لا يمكن أن يفضلهم أحد، وفي الحديث الصحيح عند البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحدٍ ذهباً، ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه" البخاري في فضائل الصحابة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لو كنت متخذاً خليلا" رقم: ٣٤٧٠ (١٣٤٣/٣) ومسلم في فضائل الصحابة، باب: تحريم سب الصحابة – رضي الله عنهم – رقم: ٢٥٤٠.

(١) تفسير ابن كثير (٣٣/٢).

وفي سورة النمل يقول تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل: ٣٨ -٤٠].

وفي الآيات بيان ما أكرم الله به هذا الرجل الذي عنده علم من الكتاب، إذ أحضر لسليمان عرش بلقيس ملكة اليمن، قبل ارتداد الطرف، وهذا كرامة له، وقد اختُلف في اسمه فقيل: إنه بليخا وقيل: آصف كاتب سليمان، وقيل كان صديقاً يعلم الاسم الأعظم وهناك أقوال أخرى (١).

وأما السنة فقد تواترت في ذلك (٢) ومن ذلك حديث صاحب الحديقة عن أبي هريرة — رضي الله عنه — أن النبي ﷺ قال: "بينا رجل بفلاة من الأرض، فسمع صوتاً في سحابة، اسق حديقة فلان، فتنحى ذلك السحاب، فأفرغ ماءه في حرة فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله .." الحديث (٣).

(١) انظر جامع البيان (١٩/١٦٢ -١٦٣)، وكرامات أولياء الله عز وجل للألكائي، ص٧١ -٧٤.

(٢) قال ابن الديبع: "وقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة والأخبار والآثار التي ملأت الآفاق، فضاقت عن حصرها الأوراق على وقوع كرامات الأولياء: في كل عصر وزمان" ا.هـ، حدائق الأنوار ومطالع الأسرار (١٤/١٨٤) وانظر لوامع الأنوار (٢/٣٩٤).

(٣) رواه مسلم كتاب الزهد والرقائق، باب: الصدقة على المساكين رقم: ٢٩٨٤ (٤/٢٢٨٨).

وروى البخاري عن أنس – رضي الله عنه – : "أنَّ رجلين خرجا من عند النبي ﷺ في ليلة مظلمة، وإذا نور بين أيديهما حتى تفرقا، فتفرق النور معهما"، وفي رواية عن أنس أيضاً: "كان أسيد بن حضير وعباد بن بشر عند النبي ﷺ .." (١).

وفي حديث عبدالرحمن بن أبي بكر – رضي الله عنهما – قال: "جاء أبو بكر بضيف له أو بأضياف له، فأمسى عند النبي ﷺ فلما جاء، قالت أُمي: احتبست عن ضيفك أو أضيافك – الليلة، قال: ما عشيتهم؟ فقالت: عرضنا عليه، أو: عليهم فأبوا، أو فأبى فغضب أبو بكر، فسب وجدَّع، وحلف لا يطعمه، فاختبأت أنا، فقال: يا غنثر(٢)، فحلفت المرأة لا تطعمه حتى يطعمه فحلف الضيف أو الأضياف ألا يطعمه أو يطعمونه حتى يطعمه، فقال أبو بكر: كان هذه من الشيطان، فدعا بالطعام، فأكل وأكلوا، فجعلوا لا يرفعون لقمة إلا ربا من أسفلها أكثر منها، فقال: يا أُخت بني فراس، ما هذا؟ فقالت: وقرة عيني، إنها الآن لأكثر قبل أن نأكل، فأكلوا، وبعث بها إلى النبي ﷺ ، فذكر أنه أكل منها" (٣) إلى غير ذلك من الأحاديث والآثار التي

---

(١) البخاري في كتاب فضائل الصحابة باب: منقبة أسيد بن حضير وعباد بن بشر – رضي الله عنهما – رقم: ٣٥٩٤ (٣/١٣٨٤ -١٣٨٥)، ورواه أيضاً في كتاب المساجد، باب: إدخال البعير في المسجد للعلة رقم: ٤٥٣ (١/١٧٧) عن قتادة به بنحوه.

(٢) هو الثقيل الوخم وقيل الجاهل من الغثارة: (الجهل)، النهاية في غريب الحديث (٣/٣٨٩).

(٣) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب: قول الضيف لصاحبه : لا آكل حتى تأكل رقم: ٥٧٩٠ (٥/٢٢٧٤ -٢٢٧٥) ورواه في كتاب مواقيت الصلاة، باب: السمر مع الضيف و الأهل رقم ٥٧٧ (١/٢١٦ -٢١٧) عن سليمان بأطول منه.

يطول المقام في سردها [١] وأما الإجماع فقد أجمع أهل السنة على ثبوت كرامات الأولياء، وأنها حق [٢] .

الثاني: أن الشبهة التي تمسكوا بها، لا دليل فيها، لأن الولي لا يدعي النبوة ولا يتحدى، ولو فعل ذلك لكان متنبئاً كذاباً [٣] .

ثم هذه الكرامات لا تصل إلى درجة آيات الأنبياء قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – : "أما الصالحون الذين يدعون إلى طريق الأنبياء لا يخرجون عنها فتلك خوارقهم من معجزات الأنبياء فإنهم يقولون نحن إنما جعل لنا هذا باتباع الأنبياء، فهؤلاء إذا قدر أنه جرى على يد أحدهم ما هو من جنسٍ ما جرى للأنبياء، فهذه الأمور هي مؤكدة لآيات الأنبياء، وهي أيضاً من معجزاتهم بمنزلة ما تقدمهم من الإرهاص، ومع هذا فالأولياء دون الأنبياء والمرسلين، فلا تبلغ كرامات أحد قط إلى مثل معجزات المرسلين .." ا.هـ [٤] .

الثالث: إن من شرط ظهور الكرامة، أن يتصف صاحبها بما سبق بيانه من صفات الأولياء وهو من آمن واتقى، فلا تظهر على مخالف لشرع الله، مرتكب لمحارمه، ولو ظهر على يده شيء من الخوارق لم تكن كرامة بل خوارق شيطانية من جنس أفعال السحرة والكهنة، إذن

---

(١) انظر كرامات أولياء الله للالكائي، وانظر دلائل النبوة للأصبهاني (٤٩٨/٢ -٥٠٧) وانظر الاعتقاد للبيهقي (١٨٩ -١٩٥) وانظر الفرقان، ص٧٢ وما بعدها، وانظر مشكاة المصابيح (١٦٧٤/٣) وما بعدها، وانظر طبقات الشافعية للسبكي (٣٢٢/٢ - ٣٣٤).

(٢) انظر شرح مسلم (١٠٨/١٦) وانظر حدائق الأنوار ومطالع الأسرار (١٨٣/١).

(٣) انظر شرح العقيدة الطحاوية، ص٤٩٨، ط. المكتب الإسلامي.

(٤) النبوات، ص١٩.

فلا التباس بين النبي والولي لأن الولي الصادق يكون داعياً إلى تصديق النبي [١] .

الرابع: أن ما ذكروه من اشتباه الولي بالنبي — على حد زعمهم — يمكن وقوعه لو لم تكن النبوة قد ختمت بسيد المرسلين، وبما أنها قد ختمت بسيد المرسلين فلا اشتباه، ولا يبقى لهذا البحث متعلق في هذه الأمة وإنما في الأمم السابقة [٢] .

ومن هنا بطلت شبهتهم، وظهر فسادها كما ذكر ذلك الإمام السفاريني — رحمه الله — بقوله: "مع هذه الأدلة المتواترة، والوقائع المتكاثرة، فالإنكار لها مكابرة غير منظور إليه، ولا معول عليه وزعمهم أن الخوارق لو جاز ظهورها من الأولياء لالتبس النبي بغيره، باطل المأخذ غير صالح للتمسك به والتعويل عليه والالتفات له والمصير إليه حتى ولو لم تكن الأدلة بكرامات الأولياء طافحة والعيان والبيان والبراهين بها واضحة، فكيف والأدلة القرآنية والسنن النبوية والآثار السلفية والمشاهدات العيانية أكثر من أن تحصى وأجل وأعظم من أن تستقصى" ا.هـ [٣] .

(١) انظر مجموع الفتاوى (١٦٨/١ -١٧٩) وطبقات الشافعية (٣١٩/٢ -٣٢٠).
(٢) طبقات الشافعية (٣٢٠/٢ -٣٢١).
(٣) لوامع الأنوار (٣٩٤/٢ -٣٩٥).

الباب الرابع

في اليوم الآخر وفيه فصلان

الفصل الأول: في البعث والجزاء

الفصل الثاني: مشاهد يوم القيامة كما وردت
في السورة.

الفصل الأول
في البعـث والجــزاء

تمهيد:

إن الإيمان باليوم الآخر، وما اشتمل عليه من أهوال ومشاهد، ابتداءً بحياة البرزخ إلى ما بعد ذلك من بعث، وحشر، وحساب، وجنة، ونار ..، ضرورة حتمية، إذ هو من مقتضيات الإيمان بحكمة الله تعالى وعدله قال تعالى: ﴿ **أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴿٢١﴾ ﴾ [الجاثية: ٢١] .

والعاقل يرى في هذه الحياة، الطائعين القائمين بما أمر الله به وافترض عليهم، وبالمقابل يرى المكذبين لأمر الله المعرضين عن أوامره، ومع هذا فقد لا يحصل أحدٌ منهم على جزائه في الدنيا، وحكمة الله تعالى تأبى أن تجعلهما متساويين: ﴿ **أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ** ﴿٣٥﴾ **مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ** ﴿٣٦﴾ ﴾ [القلم: ٣٥ -٣٦].

والمتأمل لهذا الكون العظيم، بما اشتمل عليه من دلائل الربوبية والألوهية، يعلم علماً يقينياً بأن هذا لم يخلق عبثاً ولا سدى [(١)] .

قال تعالى: ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ** ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون: ١١٥] .

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص٤٦٣ وما بعدها، والعقيدة الإسلامية وأسسها، ص٦٢١ -٣٢٧.

والإيمان باليوم الآخر من الإيمان بالغيب الذي مدح الله تعالى المتصفين به في قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾ [البقرة: ١ -٣] .

واليوم الآخر عالم آخر فيه أمور عظيمة، وأهوال جسيمة، لا ينجو منها إلا من نجاه الله فأسعده بطاعته، ولهذا كثرت أسماؤه وتعددت في القرآن الكريم، فمنها يوم البعث، ويوم الجمع، ويوم الفزع الأكبر، ويوم التناد، ويوم الدين، ويوم الحسرة، يوم الفصل، الواقعة، والحاقة، والطامة، ويوم الحشر .. إلخ (١) .

والحديث عنه متشعب الأطراف، طويل الذيول، وحديثي عنه سيكون – إن شاء الله – مقتصراً على ما جاء في سورة يونس عليه السلام، وأبدأ بموضوع "البعث والجزاء".

تعريف البعث:

البعث في اللغة: الإرسال يقال: "بعثه وابتعثه بمعنىً، أي أرسله، فانبعث" (٢) .

ويأتي بمعنى الإسراع يقال: "انبعث في السير أي أسرع" (٣) .

---

(١) انظر التذكرة للقرطبي، ص٢١٤، وفتح الباري (٤٠٣/١١) وقال ابن حجر – رحمه الله – : "جمعها الغزالي ثم القرطبي فبلغت ثمانين اسماً" اهـ، وقيل: إنما كثرت أسماؤه لتعدد أحواله وتغيرها فسمي كل حال بما يناسبه، وهناك أقوال أخرى، انظر لوامع الأنوار (١٦٨/٢ -١٦٩).

(٢) الصحاح (٢٧٣/١)، وانظر لسان العرب (١١٦/٢)، والقاموس المحيط ص ٢١١.

(٣) لسان العرب (١١٧/٢).

ويأتي بمعنى الإحياء بعد الموت [١] ، ويأتي بمعنى الإثارة ، والنشر ، والتحريك [٢] .

أما في اصطلاح الشرع :

فيراد به البعث بعد الموت ، بإحياء الأجساد ، وعودة الأرواح إليها ، وذلك بعد النفخ في الصور ، النفخة الثانية.

قال ابن كثير – رحمه الله – : "البعث وهو المعاد ، وقيام الأرواح ، والأجساد يوم القيامة" [٣] .

وقال الشيخ عبدالعزيز السلمان – حفظه الله – في تعريف البعث هو : "إعادة الأبدان وإدخال الأرواح فيها فيخرجون من الأجداث أحياء مهطعين إلى الداعي" ا.هـ [٤] .

وهذه التعاريف تدل على اشتمال البعث على بعث الأجساد والأرواح ، إذ المعاد الجسماني هو: "المتبادر عند الإطلاق، ويجب الإيمان به واعتقاده ويكفر منكره" [٥] .

وأيضاً تعاد هذه الأبدان ، بأعيانها وأعراضها قال القرطبي – رحمه الله – : "وعند أهل السنة أن تلك الأجساد الدنياوية تعاد بأعيانها وأعراضها بلا خلاف بينهم" [٦] .

وقال ابن حزم – رحمه الله – : "أجمع جميع المسلمين على أن الله تعالى يبعث الأجساد يوم القيامة ، فيرد إليها أرواحها" ا.هـ [١] .

---

(١) انظر المرجع السابق ، وانظر الصحاح (٢٧٣/١).
(٢) انظر الصحاح (٢٧٣/١).
(٣) تفسير ابن كثير (٦١٤/٤).
(٤) الكواشف الجلية عن معاني الواسطية ، ص٧٨ -٧٩.
(٥) الكواكب الدرية لشرح الدرة المصنية محمد بن مانع ، ص٦٥.
(٦) التذكرة ، ص١٨٢.

بل معاد الأجساد أمر متفق عليه عند أصحاب الملل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية — رحمه الله — : "ومعاد الأبدان متفق عليه عند المسلمين واليهود والنصارى" ا.هـ [٢] .

وقال صاحب المواقف: "أجمع أهل الملل عن آخرهم على جوازه ووقوعه" ا.هـ [٣] .

واختلف أهل الكلام هل الإعادة عن عدم، أم عن تفريق على قولين:

الأول: إن الإعادة عن عدم، بمعنى أن الأجساد تعدم، ثم تعاد خلقاً آخر.

الثاني: إن الإعادة عن تفريق، بمعنى أن أجزاء الميت تتفرق، ثم يجمعها الله تعالى بعد ذلك، وينفخ فيها الروح، وقال به بعض المعتزلة[٤].

ورجحه القرطبي [٥] ، ومال إليه شيخ الإسلام ابن تيمية [٦] ، وتلميذه ابن القيم [٧] ، وتوقف فيه الأيجي [٨] — رحمهم الله — .

==

(١) الأصول والفروع، ص١٦.

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨٤/٤)، وانظر أيضاً (٢٦٢/٤، ٣١٣ -٣١٥)، وتفسير الرازي (٧/١٧) ويقظة أولي الاعتبار، ص٢٣ وما بعدها، ولم يخالف إلا فرقة الصدوقيين من النصارى كما ذكر ذلك الأشقر في اليوم الآخر، ص (٩٢ -٩٤) وقولهم في الإصحاح الثاني والعشرين من إنجيل متى فقرة ٢٣.

(٣) المواقف، ص٣٧٢.

(٤) انظر الأربعين في أصول الدين للرازي ٢٨٤ -٢٨٦، والمواقف، ص٣٧٣ -٣٧٤، وشرح الطحاوية، ص٤٧٠، وتحفة المريد شرح جوهرة التوحيد، ص١٧١.

(٥) انظر التذكرة ، ص١٧٨ -١٧٩.

(٦) انظر مجموع الفتاوى (١٧٩/١٧).

(٧) انظر الفوائد ١٥ -١٦.

(٨) انظر المواقف ٣٧٣ -٣٧٤.

واختلفوا أيضاً هل المبعوث الجسم الأول بعينه، أو غيره على قولين أيضاً [(١)] .

والذي عليه سلف الأمة أن الأجساد تستحيل تراباً كما كانت [(٢)] ، عدا عجب الذنب [(٣)] كما في الحديث عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: "كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب، منه خلق وفيه يركب" [(٤)] ، وهذه الاستحالة ليست أمراً مستحيلاً فها هي النطفة تستحيل علقة، ثم مضغة، ثم تكتمل بشراً سوياً، وكذلك في أثناء حياته فهو يبدأ طفلاً ثم شاباً، ثم كهلاً، وهكذا الإعادة، يعاد الخلق بعد أن استحالوا تراباً [(٥)] .

والقول بأن المبعوث جسم آخر، أو خلق جديد، قول باطل، ويدل على بطلانه عدة أمور:

الأول: ما دلَّ عليه الحديث السابق، ولقوله ﷺ في الحديث الصحيح "كان رجل يسرف على نفسه، فلما حضره الموت قال لبنيه: إذا أنا مت فأحرقوني، ثم اطحنوني، ثم ذروني في الريح، فوالله لئن قدر علي ربي ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً، فلما مات فعل به ذلك،

---

(١) انظر روح المعاني للألوسي (٢٣/٥٧ -٦١).

(٢) يستثنى من ذلك أجساد الأنبياء والشهداء ونحوهم ممن خصهم الدليل، انظر حديث جابر – رضي الله عنه – ص٢١١.

(٣) عجب الذنب هو العظم الذي في أسفل الصلب عند العجز، وهو العسيب من الدَّواب، النهاية في غريب الحديث (٣/١٨٤).

(٤) رواه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ما بين النفختين، رقم: ٢٩٥٥ (٤/٢٢٧١)، ورواه أبو داود في كتاب السنة، باب: ذكر البعث والصور رقم ٤٧٤٣ (٢/٦٤٩) عن أبي الزناد به بنحوه، ورواه النسائي في السنن في كتاب الجنائز باب أرواح المؤمنين رقم ٢٠٧٧ (٤/١١١ -١١٢) به.

(٥) انظر شرح العقيدة الطحاوية، ص٤٧١.

فأمر الله الأرض، فقال: ا جمعي ما فيك منه، ففعلت، فإذا هو قائم، فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رب خشيت، فغفر له" (١).

الثاني: إن قولهم هذا قوي شبهة الفلاسفة في نفي المعاد الجسماني، حيث أن الله تعالى يخلق جسماً آخر تتنعم فيه الروح أو تتعذب، فهي — أي الروح — المقصودة بالعذاب أو النعيم.

الثالث: إن الإعادة التي ذكرها الله تعالى في كتابه، هي الإعادة التي فهمها المسلمون والمشركون، وهي تقتضي إعادة المخلوق من المادة التي استحال منها بعد فنائه، من الفرق بين النشأة الأولى والثانية، والجسد هو الأول بعينه (٢).

الرابع: إن هذا القول لو كان صحيحاً، لم يكن هناك ما يدعو الكفار إلى التعجب وإنكار البعث، لأنهم يرون خلق البشر يوماً بعد يوم ماثلاً للعيان، وإنما إنكارهم وتعجبهم أن تعود تلك الأجسام والأرواح كما كانت قال تعالى: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الصافات: ١٦].

الخامس: إن هذا القول يلزم منه، ألا يسمى البعث بهذا الاسم، وإنما يسمى خلقاً جديداً، وهذا باطل (٣).

ومع اتفاق الشرائع على الإخبار بالبعث تأكيده، فقد أنكره قوم، وتأوله آخرون على المعاد الروحاني، دون الجسماني، اعتماداً على

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأنبياء، باب: "أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم" رقم: ٣٢٩٤ (١٢٨٣/٣) عن أبي هريرة ورواه مسلم في كتاب التوبة، باب سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه رقم: ٢٧٥٦ (٢١٠٩/٤ -١٠) عن أبي هريرة — رضي الله عنه — بنحوه.

(٢) انظر مجموع الفتاوى (٢٤٦/١٧).

(٣) انظر الفوائد، ص١٥ -١٦.

استحالة ذلك في عقولهم القاصرة، والخلاصة أنَّ الناس في البعث على أربع طوائف:

الأول: إثبات المعاد للبدن والروح جميعاً، وهو قول سلف الأمة من الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم، بل على ذلك أيضاً اتفق المسلمون، وغيرهم من أهل الملل كاليهود والنصارى، كما سبق بيان ذلك (١).

الثاني: إنكار المعاد للأبدان والأرواح، كما هو اعتقاد مشركي العرب، واليونان والهند، وهو مذكور في القرآن.

الثالث: قول من يثبت المعاد للأبدان فقط، ونسب شيخ الإسلام — رحمه الله — هذا القول إلى كثير من المتكلمين من الجهمية والمعتزلة.

الرابع: المعاد للأرواح فقط دون الأبدان وهو قول الفلاسفة أتباع أرسطو (٢) من أمثال ابن سينا (٣)، والفارابي (٤)، وغيرهما من

---

(١) انظر ص٣٦٦ -٣٦٨.

(٢) هو أشهر فلاسفة اليونان الأقدمين، لقب بأمير الفلسفة، ولد سنة (٣٨٤) ق.م وتوفي سنة (٣٢٢) ق.م، ذهب إلى أثينا في عصر ازدهار الفلسفة، وكان شيخها أفلاطون فالتحق به حوالي عشرين سنة ثم اعتزله فجأة، مما كان مسوغاً لنقد أعدائه وطعنهم، يلقب بالمعلم الأول، وله مؤلفات كثيرة في الإلهيات والطبيعيات، انظر دائرة معارف القرن العشرين (١/١٦٤ -١٦٩).

(٣) الحسين بن عبدالله بن سينا أبو علي فيلسوف، أصله من بلخ، ولد في إحدى قرى بخارى سنة ٣٧٠هـ، وكانت وفاته سنة ٤٣٨هـ، أظهر الإسلام، وأبطن الإلحاد والزندقة، قال ابن القيم — رحمه الله — : "وكان ابن سينا، كما أخبر عن نفسه قال: أنا وأبي من أهل دعوة الحاكم، فكان من القرامطة، الذين لا يؤمنون بمبدأ ولا معاد، ولا ربٍ خالق، ولا رسول، مبعوث جاء من عند الله" ا.هـ، إغاثة اللهفان (٢/٨٠) له مؤلفات كثيرة مليئة بالكفر والزندقة منها (المعاد) و(الشفا) و(القانون) وغيرها، انظر الأعلام للزركلي (٢/٢٤١ -٢٤٢).

(٤) محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ، أبو نصر الفارابي، يلقب بالمعلم الثاني، من الفلاسفة المنتسبين للإسلام ولد في فاراب سنة ٢٦٠، نشأ في بغداد وألف فيها معظم ==

المنافقين، والصابئين، والمجوس، والباطنية [١] ... [٢].

وقد صرح ابن سينا وغيره من الفلاسفة بإنكار البعث الجسماني، وإن كان نُقل عن ابن سينا أقوال بإثباته لكن لا يعول عليها للأسباب التالية:

١ - تصريحه بنفي البعث الجسماني في مصنفاته، وخاصة في الرسالة الأضحوية كما سيأتي.

٢ - إن هذا الأمر من الخطورة بمكان، إذ هو إنكار ما ثبت عند المسلمين، بالسمع والعقل والفطرة، فلو رجع عن ذلك الأمر لصرَّح بنقض رأيه السابق.

٣ - إنه من الباطنية، الذين يظهرون غير ما يبطنون، فقد يكون تصريحه هذا نفاقاً وتقية كما ذكر ذلك ابن القيم [٣] — رحمه الله — .

ومن تصريحه بنفي المعاد قوله: "فإذا أبطل أن يكون المعاد للبدن وحده، وبطل أن يكون للبدن والنفس جميعاً وبطل أن يكون للنفس على سبيل التناسخ فالمعاد إذن للنفس وحدها على ما تقرر" [٤].

==

كتبه، ومن مؤلفاته (الفصوص)، و"آراء أهل المدينة الفاضلة" وغيرهما، توفي بدمشق سنة ٣٣٩هـ، انظر الأعلام للزركلي (٢٠/٧).

(١) الباطنية: فرقة إباحية مؤسسها ميمون بن ديصان المعروف بالقداح يدعي أنه من ولد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، لهم صلة بالمجوس، لا يعترفون باليوم الآخر ولازم قولهم إبطال الشريعة وسقوط التكاليف وهم فرق شتى منها الصباحية والناصرية والقرامطة البابكية .. الخ، انظر اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص١١٨ -١٢٥.

(٢) انظر الجواب الصحيح (٩٦/٤٠ -١٠٠)، ومجموع الفتاوى (٣١٣/٤٠ -٣١٥) والمواقف ٣٧١ -٣٧٤، والقيامة الكبرى ٧٢/٧١.

(٣) انظر إغاثة اللهفان (٣٨٠/٢).

(٤) الأضحوية في أمر المعاد، ص١٢٦، للاستزادة من آراء الفلاسفة وشبههم والرد عليها انظر رسالة الدكتوراه في "البعث عند الفلاسفة" للشيخ عبدالكريم

==

الشبه التي تمسك بها منكرو البعث :

تمسك منكرو البعث بشبه ثلاث كلها باطلة :

الأولى : أن الميت إذا مات تفتتت أجزاؤه ، واختلطت بالتراب على وجه لا يمكن تمييزه وقالوا "أنت إذا تأملت وتدبرت ، ظهر لك أن الغالب على ظاهر التربة المعمورة جثث الموتى المتربة ، وقد حرق فيها وزرع ، وتكون منها الأغذية ، وتغذّى بالأغذية جثث أخرى ، فأنى يمكن بعث مادة كانت حاملة لصورتي إنسانين في وقتين لهما جميعاً في وقت واحد ، بلا قسمة" (١) .

الثاني : إن البعث لا علاقة له بالقدرة.

الثالث : إن البعث والحشر أمر لا فائدة منه ، ولا تقتضيه الحكمة والحكمة بقاء النوع الإنساني وتجدده (٢) .

وهناك شبه أخرى ، أعرضت عنها لأنها تعود إلى ما سبق (٣) .

وهذا الضلال منشؤه القياس الفاسد ، فقد قاسوا بعقولهم قدرة الرب تعالى بقدرة البشر ، فاعتقدوا استحالة ذلك ، ولهذا نجد أن القرآن الكريم في تقريره لقضية البعث ، يركز على ثلاثة أصول :

الأول : تقرير كمال العلم ، قال تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ

==

الحميدي ، ص١٦٨ -٣٧٤. واليوم الآخر في اليهودية والمسيحية والإسلام ص٣١٧ وما بعدها.

(١) الأضحوية في أمر المعاد لابن سينا ، ص٥٧.

(٢) انظر الفوائد ، ص١٥ -١٦ ، وانظر المواقف ، ص٣٧٣.

(٣) انظر رسالة "البعث عند الفلاسفة" للشيخ عبدالكريم الحميدي ، ص٣٢٦ -٣٣٢.

وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ [يونس: ٦١] وهذه الآية جاءت بعد الآيات التي فيها إثبات البعث.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يس: ٧٨ -٧٩].

الثاني: تقرير كمال القدرة كما في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس: ٨١ -٨٢].

الثالث: تقرير كمال الحكمة قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون: ١١٥] وقوله: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ ﴾ [القيامة: ٣٦] ..(١).

وأدلة إثبات البعث والرد على منكريه كثيرة جداً، منها ما يتعلق بالإمكان ومنها ما يتعلق بالوقوع كما قصه الله تعالى علينا في القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

وقوله تعالى: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

---

(١) انظر الفوائد، ص١٦ -١٧، وانظر تفسير الرازي (١٧/ ٢٧).

وقوله تعالى في شأن أصحاب الكهف: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ [الكهف: ١٩].

وغير ذلك وبيان ذلك في مواطنه [(١)] ، وقد تعددت أساليب القرآن الكريم وتنوعت طرقه في إثبات قضية البعث، بل لم يتناول القرآن الكريم – بعد الإيمان بالله – أمراً من أمور العقيدة أبلغ مما تناول أمر البعث وسأقتصر على الأدلة التي اشتملت عليها هذه السورة الكريمة، ومن خلال هذه الأدلة يأتي الرد على منكري البعث، وبالله التوفيق ومنه أستمد العون.

الدليل الأول: ما ورد في السورة الكريمة، من تأكيد هذه القضية بتعدد الأساليب، وتنوعها ومن ذلك:

١ - نفي الشك عن وقوع البعث، بحيث يصبح قضية مسلّمة، لا جدال فيها قال تعالى: ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ [يونس: ٤].

٢ - توبيخ المكذبين بالبعث، وبيان حالهم يوم القيامة، وما هم فيه من الذل والندامة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٨ ﴾ [يونس: ٧ -٨] .

وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٣ ﴾ [يونس: ٢٣].

---

(١) انظر المواقف للايجي، ص٣٧١ -٣٧٣، وتفسير الرازي (١٧/١٧ -٢٦)، ودرء تعارض العقل والنقل (٣٢/١ -٣٨) ومجموع الفتاوى (٢٤٦/١٧ -٢٦١)، والفوائد ص١٥ -١٧، وشرح العقيدة الطحاوية، ص٤٦٣ -٤٧٢.

وقوله: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [يونس: ٤٥ -٤٦].

وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [يونس: ٦٩ -٧٠].

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [يونس: ٩٦ -٩٧].

وهذه الآيات وغيرها فيها من الوعيد، والتهديد، وبيان حال المكذبين ما من شأنه أن يوقظ القلب الغافل، للإيمان بالله تعالى واليوم الآخر.

٣ - بيان عجز الآلهة عن إعادة الخلق، فدل ذلك على أن من مقتضى الكمال لله تعالى القدرة على إعادة الخلق بعد موتهم.

قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [يونس: ٣٤].

ويقول تعالى في سورة الفرقان: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٣].

٤ - ما ورد ذكره في القرآن الكريم والسنة النبوية مما يعقب البعث من حشر وعرض وحساب وجزاء وجنة ونار كل ذلك من أدلة البعث، إذ لا يمكن حصول ذلك إلا بالبعث، وعلى هذا فمنكر البعث، لابد أن يكون منكراً لكل هذه العقائد.

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [يونس: ٢٨ - ٣٠].

ويقول تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [يونس: ٤٥].

وغير ذلك من الآيات الكثيرة، التي تبين ما بعد البعث من أهوال مما يصعب حصره واستقصاؤه.

٥- الإنذار من عذاب الآخرة:

إذ المؤمن يعمل الصالحات امتثالاً لما أمره الله به، وتأهباً ليوم البعث والنشور، وهو في تلك الحال موعود بالجنة، وعليه فهو ناج، أما الكافر فهو مُعرضٌ عن أمر الله تعالى، مستكبر عن عبادته، والله تعالى قد توعده وأنذره، فتبين أن الاحتياط – وهذا على سبيل التنزل مع الخصم – هو الإيمان بالمعاد، إذ غاية ما في الباب فوات بعض اللذات الجسدية، والعاقل لا يأبه لها لعدة أسباب:

١ - أن في الحلال غنية وكفاية عن الحرام.

٢ - زوالها وسرعة انقطاعها.

٣ - أن هذه اللذات تشترك معه في الالتذاذ بها سائر البهائم، والمخلوقات وعليه فليست غاية [١].

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [يونس: ٢٣].

ويقول تعالى في سورة النساء: ﴿ وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [النساء: ٣٩].

٦- الإخبار عن قرب موعده:

كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [يونس: ٤٨ - ٥٠].

قال ابن كثير - رحمه الله - : "وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة كقوله: ﴿ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٣] ا.هـ [٢].

ويقول تعالى في سورة المعارج: ﴿ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ﴿٧﴾ ﴾ [المعارج: ٥ - ٧].

٧- أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بالإقسام على وقوعه [٣]:

قال تعالى: ﴿ ۞ وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ

---

(١) انظر تفسير الرازي (١٧/ ٢٥)، وكتاب اليوم الآخر بين اليهودية والنصرانية والإسلام، ص٤١٢ - ٤١٣.
(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٠٦).
(٣) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٥٠٨).

أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [يونس: ٥٣] .

ونظير ذلك في سورتي سبأ والتغابن في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ ﴾ [سبأ: ٣] .

وقوله: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾ [التغابن: ٧] .

الدليل الثاني: الاستدلال ببدء الخلق على إعادته، فمن بدأ الخلق من العدم فهو قادر على الإعادة قال تعالى: ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [يونس: ٤] الآية.

ويقول تعالى في سورة الحج: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ ﴾ [الحج: ٥] الآية.

وبيان وجه الاستدلال على بدء الخلق بإعادته أن الإنسان يمر في خلقه بعدة مراحل:

المرحلة الأولى: كونه تراباً، إذ إن أصل الإنسان آدم عليه السلام، وقد خلقه الله تعالى من تراب.

المرحلة الثانية: كونه نطفة وهو الماء اليسير، الذي هو ناتج من الأغذية التي يتناولها الشخص، ثم يحفظها الله ويودعها في الرحم.

المرحلة الثالثة: كونه علقة وهي قطعة الدم الجامد، فقد كانت ماءً ثم تحولت إلى قطعة دم عالقة بجدار الرحم، ومعلوم ما بين الماء والدم من تفاوت.

المرحلة الرابعة: كونه مضغة وهي القطعة من اللحم قدر ما يمضغ[١].

المرحلة الخامسة: خروجه طفلاً كامل الأعضاء.

المرحلة السادسة: بلوغه سن الشباب والقوة والفتوة، بعد الضعف.

المرحلة السابعة: عودته ببلوغه سن الشيخوخة والعجز، فتعود تلك القوة ضعفاً وربما بلغ سناً لا يعلم فيها شيئاً كما قال تعالى: ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ [الحج: ٥].

ولاشك أن من قدر على ذلك، قادر على الإعادة، إذ هي من باب أولى[٢].

قال ابن القيم — رحمه الله — : "خلق الإنسان فإنه من أعظم الأدلة على التوحيد والمعاد، وأي دليل أوضح من تركيب هذه الصورة الآدمية بأعضائها وقواها وصفاتها، وما فيها من اللحم والعظم والعروق والأعصاب والعلوم والإرادات والصناعات كل ذلك من نطفة ماء"ا.هـ[٣].

الدليل الثالث: إن حكمة الرب تعالى وعدله تقتضي أن البعث والجزاء:

قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

---

(١) النهاية في غريب الحديث (٤/٣٣٩).

(٢) انظر تفسير الرازي (١٧/٢٦)، وانظر الصواعق المرسلة (٢/٤٧٣ -٤٧٥، ٤٨٠).

(٣) الفوائد، ص٢١.

وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [يونس: ٤].

فالله تعالى خلق العباد وأمرهم ونهاهم، ووعدهم على امتثال أوامره وتوعدهم على ترك الأمر، فلو لم يكن هناك بعث وجزاء لكان هذا الأمر والنهي والوعد والوعيد عبثاً، وهذا ينزه عنه البارئ جل وعلا.

قال ابن القيم – رحمه الله – : "لهذا كان الصواب أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرع، وأن كمال الرب تعالى، وكمال أسمائه وصفاته تقتضيه وتوجبه .." (١) ا.هـ.

"فلو لم يكن للإنسان عاقبة ينتهي إليها غير هذه الحياة الخسيسة المملوءة نصباً وهماً وحزناً ولا يكون بعدها حال مغبوطة لكان أخس الحيوانات أحسن حالاً من الإنسان" (٢) .

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [يونس: ١٣].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [يونس: ٤٤].

ويقول تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الحجر: ٩٢ -٩٣].

ويقول جل ذكره: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

---

(١) الفوائد، ص١٧.

(٢) تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين للراغب الأصفهاني، ص١٩٨.

□[القصص: ٨٤].

الدليل الرابع: نفي أن يكون الله تعالى خلق الخلق عبثاً:

والقول بإنكار البعث، يؤدي إلى ذلك:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝ ﴾ [يونس: ٦ -٨].

فغفلتهم عن آيات الله تعالى الكونية، وعظيم خلقه الذي يستحيل أن يخلقه عبثاً، جعلهم يركنون إلى الحياة الدنيا، وينسون البعث والجزاء، ولهذا قال تعالى مشيراً إلى ذلك في سورة ق بعد أن ذكر إنكارهم للبعث: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝ ﴾.

[ق: ٦ -٨].

الدليل الخامس: إحياء الأرض الميتة بالنبات:

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ ﴾ [يونس: ٢٤].

ويقول تعالى في سورة الأعراف: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ ﴾ [الأعراف: ٥٧].

ويقول تعالى في سورة الحج: ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۞ ﴾ [الحج: ٥ -٦].

وبيان دلالة إحياء الأرض على البعث تتبين من خلال ما يلي:

أولاً: صعود الماء إلى السماء ثم نزوله على هيئة مطر، دليل القدرة، إذ الماء ثقيل بطبعه، وصعوده إلى أعلى خلاف المألوف، فمن قدر على تغيير طبيعة الماء، فهو قادر على أن يعيد الحياة إلى الجسم الذي بلي، وأصبح ترابا.

ثانياً: إن الماء بعد تبخره تتفرق أجزاؤه، ثم يجمعها الرب عز وجل مرة أخرى فتنزل مجتمعة، فمن جمعها فلا شك أنه قادر على جمع ما تفرق من أجزاء الإنسان بعد موته.

ثالثاً: إن خروج النبات من الأرض، إنما هو لحاجة العباد إليه في معاشهم، وكذلك تسيير السحاب والرياح إنما هو لمصلحة العباد، فكذلك بعثهم وحشرهم إنما هو لمصلحتهم، ولمجازاتهم بما عملوا، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

رابعاً: إن إنكارهم للبعث ناتج عن قصور إدراكهم عن إعادة الإنسان بعد موته، وبعد أن أصبح رميماً، فلفت الحق جل وعلا أنظارهم إلى الأرض اليابسة فهي أشد جموداً وخموداً، ومع ذلك تفتقت بالنبات الأخضر وأينعت أطرافها، وعادت لها الحياة والنمو، فكذلك الإنسان [(١)].

(١) انظر اليوم الآخر في اليهودية والنصرانية والإسلام، تأليف، د. فرج الله عبدالباري، ص٣٩٧ وانظر محمد المثل الأعلى، تأليف أحمد جاد المولى، ص١٤٨ -١٤٩.

الدليل السادس: الاستدلال على البعث بوقوع المتضادات، وخلق الله تعالى لها [(١)] :

قال تعالى: ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٥٦﴾ [يونس: ٥٦].

ويقول تعالى في سورة النجم: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝٤٣ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۝٤٤ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝٤٥﴾[النجم: ٤٣ - ٤٥].

فالذي أمات بعد الحياة، قادر على الإحياء بعد الممات، وهذا ظاهر الدلالة.

وكذلك خلقه تعالى للمتضادات، فيه دليل على وقوع البعث، إذ إن منكريه يستبعدون عودة الحياة إلى عظام قد بليت وأصبحت رفاتاً.

الدليل السابع: التنبيه بخلق الأعلى على الأدنى:

ومن ذلك لفت النظر إلى خلق السماوات والأرض، وخلق الأفلاك والكواكب، على ما اشتملت عليه من العظمة التي تعلو على خلق الإنسان أضعافاً مضاعفة، ولهذا عقب الله تعالى بعد ذكره لخلق السماوات والأرض في ستة أيام، بقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [يونس: ٤].

ويقول جل ذكره: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٥ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٥٦﴾ [يونس: ٥٥ -٥٦].

ويقول أيضاً: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝١٠١﴾ [يونس: ١٠١].

ويقول تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن

(١) انظر مناهج الجدل في القرآن الكريم، د. زاهر الألمعي، ص٣١٧.

يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾ [يس: ٨١] .

وبيّن شيخ الإسلام – رحمه الله – إمكان الاستدلال بالدليل العقلي على البعث من خلال هذه الأدلة بقوله: "الإنسان يعلم الإمكان الخارجي تارة بعلمه بوجود الشيء وتارة بعلمه بوجود نظيره، وتارة بعلمه بوجود ما الشيء أولى بالوجود منه، فإن وجود الشيء دليل على أن ما هو دونه أولى بالإمكان منه، ثم إنه إذا تبين كون الشيء ممكناً فلابد من بيان قدرة الرب على ذلك (١) ا.هـ.

ثم أثبت – رحمه الله – البعث على ضوء هذا الاستدلال إذ خلق السماوات والأرض أبلغ من خلق الإنسان: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر: ٥٧] .

وكذلك البدء أشق من الإعادة: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم: ٢٧] .

وهذه الأمور موجودة، ومعلومة.

وكونه – أي البعث – ممكناً لأنه داخل في القدرة الربانية، فثبت صحة الاستدلال عليه بالدليل العقلي (٢) .

وبهذه الأدلة مجتمعة، وغيرها مما ورد في القرآن الكريم، تبطل دعاوي منكري البعث والنشور.

وننتقل بعد ذلك إلى الحديث عما يعقب البعث من أهوال يوم القيامة.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٣٢/٣١/١).
(٢) انظر درء تعارض العقل والنقل (٣٢/١ -٣٤).

الفصـل الثـاني
مشاهد يوم القيامة كما وردت في السورة

إن تصوير يوم القيامة بأهواله، وأحداثه العظام، أمر ظاهر في السور المكية كما سبق بيانه [(١)] ، والصورة إنما تكتمل بتصوير جميع مشاهده التي اشتملت عليها النصوص، وبما أن الحديث في هذا البحث مقتصرٌ على ما جاء في سورة يونس عليه السلام، لذا أقتصر على ما جاء فيها وهي كما يلي:

أولاً: الحشر.

ثانياً: الجنة والنار.

أولاً: الحشـر:

تعريفه: الحشر لغة: الجمع يقال "حشرهم يحشرهم حشراً: جمعهم" [(٢)] وسمي بهذا الاسم لأنه تجتمع فيه الخلائق [(٣)] .

وفي اصطلاح الشرع: جمع الخلائق، وسوقهم إلى أرض المحشر بما فيهم المكلف وغير المكلف من البهائم والوحوش على القول الصحيح وذلك لفصل القضاء [(٤)] .

قال تعالى: ﴿ **وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾** ﴾ [يونس:٢٨] الآيات وقال تعالى: ﴿ **وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ**

---

(١) انظر، ص ١ -٩.

(٢) لسان العرب (١٩٠/٤) مادة "حشر".

(٣) انظر الصحاح (٦٣٠/٢)، وانظر لسان العرب (١٩٠/٤).

(٤) انظر تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد، ص١٧٠.

﴿ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [يونس: ٤٥].

وبناء على هاتين الآيتين اللتين وردتا في سورة يونس عليه السلام أتكلم عن بعض المسائل المتعلقة بالحشر وهي:

١ - صفة أرض الحشر.
٢ - أنواع الحشر.
٣ - عموم الحشر للثقلين والبهائم والوحوش.
٤ - أحوال أهل المحشر.
٥ - أهوال يوم الحشر.

١- صفة أرض المحشر:

جاء في الصحيحين عن سهل بن سعد قال: سمعت النبي ﷺ يقول: "يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقرصة نقي" قال سهل أو غيره: "ليس فيها معلم لأحد" (١).

"والعُفْرة: بياض ليس بالنَّاصع، ولكن كلون عَفَر الأرض، وهو وجهها" (٢).

وأورد ابن حجر ـ رحمه الله ـ أقوالاً أخرى، فقيل: العفر بياض يضرب إلى الحمرة، وقيل: المراد خالصة البياض، وقيل شديدة البياض، ورجح القول الأول، وقال "الأول هو المعتمد" ا.هـ (٣).

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق باب: يقبض الله الأرض يوم القيامة رقم ٦١٥٦ (٥/٢٣٩٠)، واللفظ له، ورواه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب: في البعث والنشور وصفة الأرض يوم القيامة رقم: ٢٧٩٠ (٤/٢١٥٠) عن سهل بن سعد به.

(٢) النهاية في غريب الحديث (٣/٢٦١).

(٣) انظر فتح الباري (١١/٣٨٢ -٣٨٣).

النَّقي "يعني الخبز الحوّاري" (١).

وقيل "الدقيق النقي من الغش والنخال" (٢).

والمراد من الحديث أنهم يحشرون يوم القيامة على أرض بيضاء مستوية، كالخبزة المصنوعة من نقّى الدقيق، ليس في هذه الأرض علامة لأحد، ولا بناء، ولا أثر (٣).

واختلف في الأرض التي يحشر عليها الخلائق، هل هي نفس الأرض التي عاشوا عليها أم تبدل بأرض غيرها على قولين:

الأول: أنها هي الأرض، ولكن تتغير صفاتها، فتذهب آكامها وجبالها، وتصبح أرضاً مستوية ممدودة كمدَّ الأديم وقد روي هذا عن ابن عباس — رضي الله عنهما —.

الثاني: أن الأرض تبدل، بأرض أخرى لم تجر عليها مظالم، ولا سفك دماء، ولم تعمل فيها خطيئة، روي هذا القول عن علي وابن مسعود وأنس بن مالك وابن عباس ومجاهد — رضي الله عنهم أجمعين — ورجحه ابن جرير (٤) والقرطبي (٥).

واختلفوا في هذا التبديل فقيل: تبدل الأرض بأرض بيضاء نقية لم يعمل فيها خطيئة كما دل عليه حديث البخاري السابق.

(١) النهاية في غريب الحديث (٣/٢٦١).

(٢) فتح الباري (١١/٣٨٣) ونسبه للخطابي.

(٣) انظر فتح الباري (١١/٣٨٣).

(٤) انظر جامع البيان (١٣/٢٥٤).

(٥) انظر الجامع لأحكام القرآن (٩/٣٨٣)، وانظر التذكرة، ص٢٠٣.

وقيل: تبدل بأرض نار، وقيل: أرض من فضة، وقيل: أرض من خبزة بيضاء (١).

والراجع والله أعلم، القول الثاني:

لقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [إبراهيم:٤٨].

ولدلالة الحديث الصحيح "يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس فيها معلم لأحد" (٢).

ويدل على ذلك أيضاً سؤال عائشة – رضي الله عنها – قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله عز وجل: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله؟ فقال: "على الصراط" (٣).

فلو لم يكن التبديل للأرض، غير الأرض لم يكن لهذا السؤال فائدة.

أما ما ورد من تبديل صفات الأرض، بتسيير الجبال، ونسفها، وتكوير الشمس وخسف القمر، وغير ذلك، إنما هو عند النفخ في الصور وقبل الحشر وهذا لأرض الدنيا، ولأن الرب تعالى يتجلى في

---

(١) انظر جامع البيان (١٣/٢٤٩ -٢٥٤)، وانظر زاد المسير (٤/٣٧٧)، وانظر تفسير ابن كثير (٤/١٤٧ -١٤٨) وانظر فتح الباري (١١/٣٨٣ -٤٨٣).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب البعث والنشور، وصفة الأرض يوم القيامة رقم: ٢٧٩١ (٤/٢١٥٠)، ورواه الترمذي في كتاب التفسير باب تفسير سورة إبراهيم رقم: ٣١٢٠ (٨/٨٠) عن داود بن أبي هند به، بنحوه، ورواه ابن ماجة في كتاب الزهد، باب ذكر البعث رقم: ٤٢٧٨ (٢/١٤٣٠) به.

ذلك اليوم، فناسب تجليه على أرض تليق بعظمته لم تجر عليها المعاصي، والخطايا [١].

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن (٩/٣٨٣)، وانظر فتح الباري (١١/٣٨٣ -٣٨٤).

٢- أنواع الحشر:

ذكر العلماء [١] أربعة أنواع للحشر، اثنان في الدنيا، واثنان في الآخرة، فأما اللذان في الدنيا فالأول المذكور في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ [الحشر:٢] .

وهم يهود بني النَضير، عندما أجلاهم رسول الله ﷺ من ديارهم إلى الشام [٢] ، وهو خاص بهم، وعارض ابن حجر – رحمه الله – على ذلك بقوله: "ليس حشراً مستقلاً، فإن المراد حشر كلٍ موجود يومئذ والأول إنما وقع لفرقة مخصوصة وقد وقع نظيره مراراً، تخرج طائفة من بلدها بغير اختيارها إلى جهة الشام، كما وقع لبني أمية أول ما تولى ابن الزبير الخلافة، فأخرجهم من المدينة إلى جهة الشام، ولم يعد ذلك أحدٌ حشراً [٣] ا.هـ.

وتعقبه السفاريني – رحمه الله – بقوله: "والجواب عن ذلك بأن المراد ما سمي حشراً على لسان الشارع وقد سمى الله ذلك حشراً"ا.هـ[٤].

الثاني: ما جاء في الأحاديث التي فيها ذكر أشراط الساعة ومنها الحديث عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: "يحشر الناس على ثلاث طرائق: راغبين راهبين، اثنتان على بعير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، وتحشر بقيتهم النار،

---

(١) انظر التذكرة، ص١٩٨ وما بعدها، وانظر فتح الباري (٣٨٦/١١ -٣٨٩)، وانظر تحفة المريد، ص١٧٠.

(٢) انظر جامع البيان (٢٧/٢٨ -٢٨).

(٣) فتح الباري (٣٨٦/١١).

(٤) لوامع الأنوار (١٥٥/٢).

تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا وتمسي معهم حيث أمسوا" [١] .

وفي حديث أنس بن مالك — رضي الله عنه — في مسائل عبدالله بن سلام لما أسلم وفيه "أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب .." [٢] وغير ذلك من الأحاديث.

واختلف العلماء في هذا الحشر هل هو في الدنيا أو في الآخرة على قولين:

الأول: إن ذلك الحشر في الآخرة، ومال إليه الحليمي [٣] وجزم به الغزالي قاله ابن حجر [٤] ، واستدلوا بأدلة منها:

١ - أن قوله في الحديث (راغبين راهبين) لا يستقيم في الحشر إلى بلاد الشام لأن الناس إما راغبين، وإما راهبين، وإما راغبين راهبين.

وحملوا الحديث "يحشر الناس على ثلاثة طرائق .." الحديث، على تقسيم العباد يوم القيامة، إلى مؤمن تقي، ومؤمن مخلط، وفاجر [٥] .

٢ - أن الحشر إذا أطلق إنما يراد به الحشر من القبور ما لم يخصه دليل.

٣ - أنه ليس لنا أن نحكم بتسليط النار على أحد في الدنيا من غير دليل.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب: كيف الحشر رقم: ٦١٥٧ (٥/٢٣٩٠)، ورواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب: فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة رقم: ٢٨٦١ (٤/٢١٩٥) عن وهيب به.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر المنهاج من شعب الإيمان (١/٤٤١ -٤٤٤).

(٤) انظر فتح الباري (١١/٣٨٧).

(٥) انظر المنهاج (١/٤٤٢).

٤ - ما ورد في بعض طرق الحديث زيادة لفظ "يوم القيامة" وزعم بعضهم أن هذه الزيادة في البخاري [١] .

الثاني: أن ذلك الحشر في الدنيا عقيب قيام الساعة، ورجحه القرطبي [٢] وابن كثير [٣] ، وابن حجر [٤] ، والسفاريني [٥] ، وغيرهم.

واستدلوا بما يلي:

١ - قوله ﷺ في الحديث السابق "تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا" [٦] وهذه الأوصاف مختصة بالدنيا.

٢ - ثبوت الأدلة في حشر الناس إلى الشام ومنها حديث أبي هريرة السابق ومنها ما رواه مسلم عن حذيفة بن أسيد قال: كان النبي ﷺ في غرفة ونحن أسفل منه، فاطَّلع إلينا فقال "ما تذكرون؟" قلنا: الساعة، قال: "إن الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف في جزيرة العرب، والدخان، والدَّجَّال ودابة الأرض، ويأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها، ونار تخرج من قعرة عدن ترحَلُ الناس" وفي رواية بلفظ "وآخر ذلك نار تخرج من اليمن، تطرد الناس إلى محشرهم" [٧] .

---

(١) انظر المرجع السابق ونفس الجزء والصفحة.
(٢) انظر التذكرة، ص٢٠٠.
(٣) انظر النهاية في الفتن والملاحم (١/ ١٤٥).
(٤) انظر فتح الباري (١١/ ٣٨٧).
(٥) انظر لوامع الأنوار (١/ ١٥٧).
(٦) سبق ذكره وتخريجه.
(٧) رواه مسلم في كتاب الفتن وأشر الساعة باب: في الآيات التي تكون قبل الساعة رقم ٢٩٠١ (٤/ ٢٢٦) ورواه الترمذي، في كتاب الفتن باب ما جاء في الخسف رقم: ٢١٨٤ (٦/ ٣٤٥) عن فرات القزار به بنحوه، ورواه ابن ماجة في كتاب الفتن، باب الآيات رقم: ٤٠٥٥ (/١٣٤٧) عن فرات به بنحوه.

وهذا القول الراجح والله أعلم – لثبوت الأدلة، ورجحانها في الدلالة على أن الحشر في الدنيا عقيب قيامة الساعة، إذ إن ما ورد من التعاقب على الأبعرة، وبيع الحديقة للحصول على الراحلة وغير ذلك، لا يكون في الآخرة، حيث إنهم يحشرون يوم القيامة حفاة، عراة غرلا.

أما ما استدلوا به من كون الحشر إذا أطلق في الشرع يراد به الحشر من القبور ما لم يقم عليه دليل، فقد قام الدليل كما سبق.

وأما قولهم إنه ليس لأحد الحكم بتسليط النار على أحد في الدنيا ما لم يقم عليه دليل.

فالجواب عليه من وجهين:

أ - إن هذه النار ليس نار الآخرة.

ب - إنه قد يكون المراد بالنار هنا، الفتنة كما في قوله تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ ﴾ [المائدة: ٦٤] ، ونسبة الحشر إليها سببية، فعند انتشارها تكون سبباً للحشر إلى الشام والفرار من الفتنة.

وأما حملهم حديث أبي هريرة على تقسيم الناس يوم القيامة فلا دليل عليه.

وأما استدلالهم بورود لفظ "يوم القيامة" في بعض طرق الحديث، فأجاب عنه ابن حجر – رحمه الله – بقوله: "لم أقف في شيء من طرق الحديث الذي أخرجه البخاري على لفظ "يوم القيامة" لا في صحيحه ولا في غيره، وكذا هو عند مسلم، والإسماعيلي وغيرهم، وليس فيه يوم القيامة، وهو مؤول بأن المراد بذلك أن يوم القيامة يعقب ذلك فيكون من مجاز المجاورة، ويتعين ذلك لما وقع فيه أن الظهر يقل لما يلقى عليه من الآفة، وأن الرجل يشتري الشارف الواحد بالحديقة المعجبة،

فإن ذلك ظاهر جداً في أنه من أحوال الدنيا" ا.هـ [١] .

الثالث: الحشر إلى أرض المحشر، بعد البعث من القبور، وسيأتي تفصيله وبيان أحوال الناس فيه – إن شاء الله – [٢] .

الرابع: الحشر إما إلى الجنة وإما إلى النار، كما في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ ﴾ [مريم: ٨٥ -٨٦].

قال القرطبي – رحمه الله – أي ركباناً على النجب، وقيل على الأعمال [٣] ا.هـ.

وفي حشر الكافرين إلى النار يقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [الفرقان: ٣٤] .

وقوله: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩٧] .

قال ابن كثير – رحمه الله – : "وذلك حين يؤمر بهم إلى النار، من مقام الحشر" [٤] ا.هـ.

٣- عموم الحشر للثقلين والبهائم والوحوش:

---

(١) فتح الباري (١١/٣٨٩)، وانظر فيما سبق التذكرة، ص(١٩٨ -٢٠٠)، وانظر النهاية في الفتن والملاحم (١/١٤٥)، وانظر فتح الباري (١١/٣٨٦ -٣٨٩)، وانظر لوامع الأنوار (٢/١٥٥ -١٥٧).

(٢) انظر ص٣٩٦ وما بعدها.

(٣) التذكرة، ص٢٠١.

(٤) النهاية في الفتن والملاحم (١/١٤٦).

وعلى أرض المحشر يحشر الله تعالى الخلائق، من الإنس، والجن، وهذا لا خلاف فيه، وأما حشر البهائم والوحوش، فاختلف فيه العلماء على قولين:

الأول: بأنها تحشر جميعاً، وهو قول أبي ذر، وأبي هريرة، وعمرو بن العاص وابن عباس والحسن وغيرهم [(١)] ورجحه ابن جرير[(٢)]، والقرطبي [(٣)]، وذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية [(٤)]، وابن كثير [(٥)] — رحمه الله تعالى — واستدلوا بعدة أدلة منها:

١ - قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.
[الأنعام: ٣٨].

٢ - قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ ﴾ [التكوير: ٥].

٣ - قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الشورى: ٢٩].

قال شيخ الإسلام: "وحرف (إذا) إنما يكون لما يأتي لا محالة"[(٦)] ا.هـ.

أيضاً استدلوا بالأحاديث الدالة على القصاص بين البهائم، ومنها حديث أبي هريرة — رضي الله عنه — أنه رسول الله ﷺ قال: "لتؤدُّن

---

(١) انظر جامع البيان (١٨٨/٧ -١٨٩)، وانظر التذكرة ٢٧٣.
(٢) انظر جامع البيان (١٨٩/٧).
(٣) انظر التذكرة (٢٧٣).
(٤) انظر مجموع الفتاوى (٢٤٨/٤).
(٥) انظر النهاية في الفتن والملاحم (٢٣٤/٢).
(٦) مجموع الفتاوى (٢٤٨/٤).

الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء [١] من الشاة القرناء"[٢] .

قال شيخ الإسلام – رحمه الله – : "والأحاديث في ذلك مشهورة، فإن الله عز وجل يوم القيامة يحشر البهائم ويقتص لبعضها من بعض، ثم يقول لها: كوني تراباً، فتصير تراباً، فيقول الكافر حينئذ: ﴿ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴾ [النبأ: ٤٠] ا.هـ [٣] .

القول الثاني: من قال بعدم الحشر للبهائم، وأن معنى حشرها موتها روى عن ابن عباس في رواية عنه، والضحاك [٤] .

ومال إليه الآلوسي [٥] .

ودليلهم أن هذه البهائم لا تعقل، ولا تفقه وليست مكلفة لقوله تعالى: ﴿ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤] .

فهي ليست أهلاً للكرامة، فلا فائدة من حشرها [٦] .

والراجح – والله تعالى أعلم – القول الأول، لدلالة الكتاب، والسنة، واللغة، وأقوال السلف.

---

(١) "هي التي لا قرن لها" النهاية في غريب الحديث (١/ ٢٨٤).

(٢) رواه مسلم في كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم رقم: ٢٥٨٢ (٤/١٩٩٧)، ورواه أحمد في مسنده (١٢/١٩٣)، ط، دار المعارف بمصر عن العلاء به بنحوه. ورواه الترمذي في كتاب صفة القيامة باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص رقم ٢٤٢٢ (٧/١٣٨) عن العلاء به.

(٣) انظر الفتاوى (٤/٢٤٨).

(٤) انظر جامع البيان (٧/١٨٨) وانظر (٣٠/٦٧) وانظر زاد المسير (٣/٣٦)، وانظر التذكرة، ص٢٧٣.

(٥) انظر روح المعاني (٣٠/٥١ -٥٢).

(٦) انظر التذكرة، ص٢٧٤.

وأما قولهم: إنها لا تفقه، ولا تعقل، فلا فائدة من حشرها، فهو قول مردود لعدة أوجه:

منها: إن هذا القول مخالف لما ثبت من الأدلة، وهو قياس بالعقل لا يقوى رد الأدلة الصحيحة على حشر هذه البهائم ومنها: أن الحشر في اللغة هو الجمع، والله تعالى قد ذكر أنه يحشر البهائم، فدلَّ ذلك على جمعهما يوم القيامة، حيث لم يرد تخصيص للحشر هنا بحشر الموت وإنما عم فدل على العموم ولا يصار إلى تخصيصه ما لم يقم دليل (١).

ومنها: إن البهائم لديها إدراك، وحضور، ومشاهدة، بل قد جاء في الآيات أنها تسجد لله تعالى وتسبح له، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج: ١٨]. وقال تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وإذا كانت الجمادات تشهد يوم القيامة بما عمل عليها، كشهادة الأرض، على الخلائق يوم القيامة بما عملوا عليها كما جاء في تفسير (٢) قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ ﴾ [الزلزلة: ٤] فيكون حشر البهائم من باب أولى، وقد قيل إن حشرها لكي تشهد على ما عمله ابن آدم(٣).

---

(١) انظر جامع البيان (١٨٩/٧).

(٢) كما روى الترمذي عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: "قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (يومئذ تحدث أخبارها) قال: أتدرون ما أخبارها؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال فإن أخبارهم أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها تقول عمل يوم كذا كذا وكذا فهذه أخبارها" وقال الترمذي: وهذا حديث حسن صحيح غريب" اهـ (٨٠/٩ -٨١).

(٣) انظر التذكرة ص(٢٧٥ -٢٧٧).

٤- أحوال أهل المحشر:

جاء في الأحاديث أن الناس يحشرون حفاة، عراة، غرلاً [(١)] كما جاء عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: قال رسول الله ﷺ: "تحشرون حفاة عراة غرلاً" قالت عائشة: فقلت يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: الأمر أشد من أن يهمهم ذلك"[(٢)].

ويعارض هذا الحديث الذي روي عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – أنه لما حضره الموت دعا بثياب جدد فلبسها ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الميت يبعث في ثيابه التي يموت فيها" [(٣)].

وأجيب عن ذلك بعدة أجوبة:

الأول: قيل: إن حديث أبي سعيد خاص بالشهداء، فهم الذين يبعثون في ثيابهم، وأما غيرهم فيبعثون عراة حفاة غرلا، لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام: ٩٤].

الثاني: أن المراد بالثياب في الحديث الأعمال، قال تعالى: ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف: ٢٦].

---

(١) "الغرلُ" جمل الأغرل، وهو الأقلف والغرلة: القلفة النهاية في غريب الحديث (٣/٣٦٢).

(٢) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب: كيف الحشر رقم: ٦١٦٢ (٥/٢٣٩١)، ورواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها، باب: فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، رقم ٢٨٥٩ (٤/١٩٤) عن حاتم بن أبي صفيرة به، بنحوه.

(٣) رواه أبو داود في كتاب الجنائز، باب ما يستحب من تطهير ثياب الميت عند الموت رقم ٣١١٤ (٢/٢٠٧)، ورواه الحاكم في المستدرك رقم: ١٢٦٠ (١/٤٩٠ -٤٩١) عن ابن أبي مريم به، وقال "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه" ا.هـ ووافقه الذهبي في التلخيص.

الثالث: أن لباسهم يكون عند خروجهم من القبور، فإذا وصلوا أرض المحشر تناثرت عنهم الثياب، وصاروا عراة.

الرابع: أن الخلق يكسون، فتكون كسوة كل إنسان من جنس ما يموت فيه (١).

ثم يكون أول من يكسى إبراهيم عليه السلام كما جاء في الحديث الصحيح (٢).

والحكمة والله تعالى أعلم في أولويته – عليه السلام – قيل: لشدة خوفه من الله عز وجل، فعجل له بالكسوة ليطمئن قلبه.

وقيل: لأنه أول من أمر بلبس السراويل زيادة في الستر.

وقيل: لأنه عندما أُلقي في النار جرد من ثيابه أمام الناس، وكان ذلك في الله فجوزي على ذلك بأن كان أول من يكسى يوم القيامة، ورجحه القرطبي (٣).

وقال بعض العلماء أن أول من يكسى نبينا محمد ﷺ وإبراهيم عليه الصلاة والسلام أول من يكسى من سائر الخلق غير نبينا محمد ﷺ (٤).

وقال ابن حجر – رحمه الله – : "يحتمل أن يكون نبينا عليه الصلاة والسلام خرج من قبره في ثيابه التي مات فيها والحلة التي يكساها حينئذ

---

(١) انظر شعب الإيمان (٢/٢١٧ -٢١٨)، وانظر التذكرة، ص٢١٠، وانظر النهاية في الفتن والملاحم ١٠/١٦٢ -١٦٣)، وانظر فتح الباري (١١/٣٩١)، وانظر لوامع الأنوار (٢/١٦٧).

(٢) كما روى البخاري في كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: "واتخذ الله إبراهيم خليلاً" النساء: الآية ١٢٥، رقم ٣١٧١ (٣/١٢٢٢) عن ابن عباس – رضي الله عنهما – ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها رقم: ٢٨٦٠ (٤/٢١٩٤).

(٣) انظر التذكرة، ص٢٠٩، وانظر فتح الباري (١١/٣٩٢).

(٤) انظر فتح الباري (١١/٣٩٢)، وانظر الإيمان بعوالم الآخرة، ص١٤٥.

من حلل الجنة حلة الكرامة بقرينة إجلاسه على الكرسي عند ساق العرش، فتكون أولية إبراهيم في الكسوة بالنسبة لبقية الخلق.ا.هـ [١] .

وهذا خلاف الظاهر من الحديث، إذ لفظ الحديث يفيد العموم "أول الخلائق".

ولو ثبت هذا، لنقل واستفاض لأنه من خصائص نبينا محمد ﷺ ولما جاء في بعض الأحاديث قوله عليه الصلاة والسلام: "فيكون أول من يكسى إبراهيم يقول الله تعالى: "اكسوا خليلي فيؤتى بريطتين [٢] بيضاوين من رياض الجنة، ثم أكسى على إثره ثم أقوم عن يمين الله مقاماً يغبطني الأولون والآخرون" [٣] .

ويمكن القول: إن نبينا – عليه الصلاة والسلام – عُوِّض عن تأخير الحلة، بنفاستها كما ذكر ذلك الحليمي [٤] .

ويحشر الكافرون على وجوههم، إذلالاً لهم، وزيادة في تبكيتهم، لتكبرهم عن السجود في الدنيا، عن أنس بن مالك – رضي الله عنه –: أن رجلاً قال: يا نبي الله، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: "أليس الذي أمشاه على رجلين في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة" [٥] ، وهذا تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [الفرقان: ٣٤].

---

(١) فتح الباري (١١/٣٩٢).

(٢) الرَّيطة: كل ملاءة ليست بلفقين، وقيل كل ثوب رقيق لَيِّن" ا.هـ النهاية في غريب الحديث (٢/٢٨٩).

(٣) رواه أحمد في مسنده (١/٣٩٨ -٣٩٩)، ورواه الدارمي في مسنده رقم ٢٨٠٠ (٢/٤١٩).

(٤) انظر المنهاج (١/٤٤٦).

(٥) رواه البخاري كتاب التفسير باب قوله تعالى: "الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم" الآية، رقم: ٤٤٨٢ (٤/١٧٨٤)، ورواه أيضاً في كتاب الرقاق باب: كيف ==

وأما المتكبرون فيحشرون أمثال الذر – والعياذ بالله – كما روى الترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: "يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل في كل مكان، فيساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس تعلوهم نار الأنيار يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال" (١).

٥- أهوال يوم الحشر:

وفي ذلك اليوم تشتد الأهوال، ويعظم الخطب، ويود الكافر أن له ملك ما في الأرض ليفتدي به من سوء العذاب: ﴿ **وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ** ﴿٢﴾ ﴾ [الحج: ٢].

وتدنو الشمس من الرؤوس، ويرتفع العرق كما روى مسلم عن المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "تُدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل".

قال سُليم بن عامر (٢): فوالله ما أدري ما يعني بالميل؟ أمسافة الأرض أم الميل الذي تكتحل به العين؟

==

الحشر رقم ٦١٥٨ (٥/٢٣٩٠ -٢٣٩١) ورواه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب: يحشر الكافر على وجهه رقم: ٢٨٠٦ (٤/٢١٦١) عن يونس بن محمد به بلفظ (رجليه).

(١) رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة باب المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر رقم: ٢٤٩٤ (٧/١٨٦) وقال: "هذا حديث حسن صحيح" ا.هـ. ورواه أحمد في المسند (٢/١٧٩) عن ابن عجلان به بنحوه.

(٢) أحد رواة الحديث وهو: سليم بن عامر الكلاعي من التابعين، وقيل إنه أدرك النبي – صلى الله عليه وسلم – مات سنة ١٣٠هـ، انظر تهذيب التهذيب (٤/١٤٦ -١٤٧).

قال: "فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً" (١) .

وفي هذا اليوم العظيم يفر المرء من أخيه، والولد من والديه، والصاحب من صاحبته وكل يقول نفسي نفسي.

ويطول ذلك اليوم، ولهذا فهم عند البعث يظنون أنهم ما لبثوا إلا ساعة من نهار، وذلك قياساً على يوم الحشر (٢) .

كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [يونس: ٤٥] .

وهذا الطول بالنسبة لغير المؤمنين، أما المؤمنون فيخفف عليهم كما جاء ذلك في الأحاديث (٣) ، ومنها ما رواه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال: قيل لرسول الله يوما كان مقداره خمسين ألف سنة ما أطول هذا اليوم، فقال رسول الله ﷺ : "والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا"(٤).

ويؤيد صحة ما سبق ما رواه ابن جرير – رحمه الله – عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ ﴾ [المعارج: ٤] .

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب: صفة يوم القيامة رقم: ٢٨٦٤ (٤/٢١٩٦).
(٢) انظر القيامة الكبرى، ص٩٨.
(٣) انظر مجمع الزوائد باب خفة يوم القيامة على المؤمنين (١٠/٣٣٧).
(٤) رواه أحمد في المسند (٣/٩٥)، ط المكتب الإسلامي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد "رواه أحمد وأبو يعلى وإسناده حسن على ضعف في رواية" ا.هـ (١٠/٣٣٧).

قال: "فهذا يوم القيامة، جعل الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة" (١) .

وقال القرطبي – رحمه الله – : وهذا القول أحسن ما قيل في الآية إن شاء الله (٢) .

ومن شدة الأهوال يتسارع الخلق إلى الأنبياء يطلبون منهم الشفاعة في فصل القضاء، وفيه يقوم نبينا محمد ﷺ مقاماً يغبطه عليه الأولون والآخرون، وهو المقام المحمود.

ثم يفصل الرب تعالى بين خلقه بشفاعة نبينا محمد ﷺ ويقضي بينهم بالقسط، قال تعالى: ﴿ **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** ﴿٤٧﴾ ﴾ [يونس: ٤٧] .

وأول الأمم يقضى بينهم، أمة محمد ﷺ لشرف نبيها ﷺ كما في الصحيحين عن حذيفة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ (٣) : "أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا، فهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا، الأولون يوم القيامة المقضي لهم قبل الخلائق" (٤) .

ثانياً: الجنة والنار

---

(١) رواه ابن جرير في تفسير (٢٩/٧١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٨/٢٨٢).

(٣) انظر النهاية في الفتن والملاحم (٢/٢٣٦ -٢٣٧).

(٤) رواه مسلم في كتاب الجمعة باب هداية الأمة ليوم الجمعة رقم ٨٥٦ (٢/٥٨٦) واللفظ له ورواه البخاري في كتاب الجمعة، باب فرض الجمعة رقم ٨٣٦ (١/٢٩٩) عن أبي هريرة، بنحوه، وليس فيه لفظ "والأولون يوم القيامة المقضي لهم قبل الخلائق".

ويشمل الحديث عنهما ما يلي:

١ - نعيم أهل الجنة، وحال أهلها.

٢ - عذاب أهل النار، وحال أهلها.

٣ - أبدية الجنة والنار.

١- نعيم أهل الجنة وحال أهلها:

بعد البعث والحشر، والحساب، والجزاء ينقسم الناس إلى فريقين فريق في الجنة، وفريق في السعير، فأما أهل الجنة ففي نعيم دائم، يقول تعالى في سورة يونس عليه السلام مبينا نعيمهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [يونس: ٩ -١٠].

قال ابن جرير – رحمه الله – في قوله تعالى: "تجري من تحتهم الأنهار في جنّاتِ النّعيم"، فإن قال قائل: وكيف قيل تجري من تحتهم الأنهار، وإنما وصف جل ثناؤه أنهار الجنة في سائر القرآن أنها تجري تحت الجنات، وكيف يمكن الأنهار أن تجري من تحتهم إلا أن يكونوا فوق أرضها، والأنهار تجري من تحت أرضها، وليس ذلك من صفة أنهار الجنة، لأن صفتها أن تجري على وجه الأرض في غير أخاديد؟ قيل: إن معنى ذلك .. تجري من دونهم الأنهار إلى ما بين أيديهم في بساتين النعيم، وذلك نظير قوله تعالى: ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ ﴾ [مريم: ٢٤] ومعلوم أن لم يجعل السري تحتها وهي عليه قاعدة .. وإنما عني به جعل دونها: بين يديها .." ا.هـ [(١)].

ويقول تعالى في وصف حال أهل الجنة: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [يونس: ٢٦].

وتستقبل الملائكة المؤمنين بالحفاوة، والسلام، والبشرى قال تعالى:

---

(١) جامع البيان (١١/٨٩).

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس: ٢] .

وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾ .
[يونس: ٦٣ -٦٤] .

ونعيم الجنة لا يمكن وصفه، ففيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، روى أبو هريرة — رضي الله عنه — قال: قال رسول الله ﷺ : "قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين: ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر"، فاقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة: ١٧] (١) ومن أعظم نعيم أهل الجنة رؤية الله تعالى كما جاء ذلك في تفسير قوله تعالى من سورة يونس: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ .. ﴾ [يونس: ٢٦] فالزيادة هي الرؤية وقد سبق تفصيل ذلك (٢) ، جعلنا الله من أهلها بمنه وكرمه.

ولهذا كان من أسمائها دار السلام، لأنها سلمت من كل الآفات، والأكدار والمنغصات، وسلم أهلها من العيوب والنقائص، وتعظيماً لها إذا اشتق لها البارئ سبحانه اسماً من أسمائه (السلام)، ولكثرة ما فيها من التحية والسلام (٣) وقال تعالى: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ

---

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة رقم: ٣٠٧٢ (٣/١١٨٥)، ورواه مسلم في كتاب الجنّة وصفة نعيمها في مقدمته رقم: ٢٨٢٤ (٤/٢١٧٤) عن سفيان به.
(٢) انظر ص ١٢٤ وما بعدها.
(٣) انظر حادي الأرواح، ص٩٠، وانظر الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس، ص٥٢.

وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌۚ ﴾ [يونس: ١٠] ، ويقول تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾ ﴾ [يونس: ٢٥] .

ومن أسماء الجنة التي وردت في السورة - أيضاً - (قدم صدق) قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ ﴾ [يونس: ٢] .

ونظير ذلك تسميتها (بمقعد صدق) قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقْتَدِرِۭ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القمر: ٥٤ -٥٥] .

قال ابن القيم - رحمه الله - : "سمى جنته مقعد صدق لحصول كل ما يراد من المقعد الحسن فيها ما يقال: مودة صادقة، إذا كانت ثابتة تامة .." (١) .

٢- عذاب أهل النار وحال أهلها:

وما أهل النار - أعاذنا الله منها - فهم في عذاب دائم، يقول تعالى مبينا خزيهم، وصفاتهم قبل نزول العذاب بهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [يونس: ٧ -٨] .

وفي بيان حالهم يوم القيامة يقول تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [يونس: ٢٧].

وقوله: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [يونس: ٥٢] .

---

(١) حادي الأرواح، ص٩٠، وللاستزادة من حال أهل الجنة انظر صفة الجنة لأبي نعيم الأصبهاني، وانظر كتب الحديث التي أفردت لذلك أبواباً كالبخاري ومسلم وغيرهما.

وفي بيان حسرتهم، وندمهم يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [يونس: ٥٤].

وفي الحديث عن أنس يرفعه: "أن الله يقول لأهون أهل النار عذاباً: لو أن لك ما في الأرض من شيء كنت تفتدي به؟ قال: نعم، قال: فقد سألتك ما هو أهون من هذا وأنت في صلب آدم: ألا تشرك بي فأبيت إلا الشرك"(١).

وتعظم أبدانهم للعذاب كما في الحديث عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: "ضرس الكافر، أو ناب الكافر، مثل أُحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاث"(٢).

وهم متفاوتون في العذاب، وذلك بحسب كفرهم، وإفسادهم قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [النحل: ٨٨].

وكذلك عصاة المؤمنين عذابهم متفاوت، فمنهم من يشتد عذابه، إما لوجود حسنات ماحية، أو يغفر الله تعالى له بعض ذنوبه، وهذا فيمن دخل النار منهم(٣).

والجنة، والنار بما فيهما من النعيم، والعذاب، مخلوقتان الآن، معدتان لأصحابهما، كما دل عليه القرآن، وتواترت به السنة، وكما هو اعتقاد أهل السنة والجماعة(١).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء رقم ٢٨٥١ (٢١٨٩/٤)، ورواه الترمذي في كتاب صفة جهنم، باب ما جاء في عظم أهل النار، رقم ٢٥٨٠ (٢٤٩/٧ -٢٥٠) عن أبي هريرة – رضي الله عنه – بنحوه وزاد "وإن مجلسه من جهنم كما بين مكة والمدينة".

(٣) انظر التخويف من النار لابن رجب، ص١٤١ -١٤٢.

قال ابن كثير – رحمه الله – : "والجنة والنار موجودتان الآن، معدتان لأصحابهما، كما نطق بذلك القرآن؟ وتواترت بذلك الأخبار عن رسول الله ﷺ وهذا اعتقاد أهل السنة والجماعة، وهي السنة المثلى إلى قيام الساعة" (٢).

٣– أبدية الجنة والنار:

قال تعالى في سورة يونس في بيان خلود الجنة: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [يونس: ٢٦].

وفي خلود النار يقول تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [يونس: ٢٧].

وقوله: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [يونس: ٥٢].

أي ذوقوا العذاب الدائم الذي لا ينقطع جزاء كفركم وعنادكم.

وفي أبدية الجنة والنار عدة أقوال منها ما يتعلق بالجنة والنار معاً، ومنها ما يختص بالنار، فأما ما يتعلق بهما ففيه أربعة أقوال.

الأول: ما اتفق (٣) عليه سلف الأمة، من أهل السنة والجماعة، وهو

==

(١) انظر مقالات الإسلاميين ص٢٩٦، والشريعة ٣٨٧ –٣٩٥ وانظر حادي الأرواح، ص١١، والحجة في بيان المحجة (٤٧٢/١ –٤٧٤) والنهاية في الفتن والملاحم (٤١٦/٢)، وشرح العقيدة الطحاوية، ص٤٨٤ واللآلئ البهية في شرح لامية شيخ الإسلام، ص٨٠، ومشكاة المصابيح (١٥٨٦/٣) وما بعدها.

(٢) النهاية في الفتن والملاحم (٤١٦/٢).

(٣) انظر الفصل في الملل والنحل (١٤٥/٤) وانظر مجموع الفتاوى (٣٠٧/١٨)، وانظر شرح الطحاوية، ص٤٩٠، وانظر رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار، ص٨٦.

القول بخلود الجنة والنار، وأبديتهما، وأن نعيم الجنة دائم لا ينقطع.

وكذا عذاب النار دائم، وأن أهل النار من الكفار والمشركين خالدون فيها أبداً، وأما أهل الكبائر من عصاة المؤمنين ممن دخلها، فهم يخرجون منها إذا شاء الله، ويدخلون الجنة برحمة أرحم الراحمين.

الثاني: القول بفناء الجنة والنار، وفناء أهلهما، وهذا القول تفرد به الجهم بن صفوان، ودليله أن ما ثبت حدوثه استحال بقاؤه، وأبديته[(١)] ، ولقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] .

الثالث: القول بفناء حركات أهل الجنة، وأهل النار، وأنهم يأتي عليهم زمان يصبحون بمنزلة الجماد، الذي لا حركة له، ولا استلذاذ له بالنعيم، ولا إحساس له بالعذاب، وهو قول محمد بن الهذيل العلاف [(٢)] ، وهذا بناء على قولهم "بامتناع حوادث لا نهاية لها".

الرابع: القول بخروج أهل الجنة، وأهل النار ونسبه ابن حزم — رحمه الله — إلى بعض الروافض.

وأما ما يختص بالنار فقط ففيه — علاوة على ما سبق — أربعة أقوال:

---

(١) انظر مقالات الإسلاميين، ص٢٧٩، وانظر الفرق بين الفرق ص١٩٩، وانظر الملل والنحل (١/ ٨٧ -٨٨).

(٢) محمد بن الهذيل بن عبدالله بن مكحول البصري أبو الهذيل العلاف، من شيوخ المعتزلة، فارق إجماع المسلمين ورد نص كتاب الله وجحد صفات الله، له مقالات في الاعتزال ومجالس ومناظرات، توفي سنة ٢٣٥هـ، انظر ترجمته في تاريخ بغداد (٣/٣٦٦)، لسان الميزان (٥/٤١٣ -٤١٤)، الأعلام (٧/١٣١).

الأول: القول بخلود النار، فمن دخلها لا يخرج منها، حتى ولو كان من عصاة الموحدين، وهو قول الخوارج [١]، والمعتزلة.

قال القاضي عبدالجبار الهمذاني: "الفاسق يخلد في النار، ويعذب فيها أبد الآبدين ودهر الداهرين" ا.هـ [٢].

واستدلوا بعموم الوعيد [٣].

الثاني: قول الاتحادية [٤]، وزعيمهم ابن عربي الطائي وهو أن أصحاب النار تنقلب طبيعتهم إلى طبيعة نارية تتلذذ بالعذاب.

الثالث: قول من يقول، أن أهل النار يتعذبون فيها مدة معينة ثم يخرجون، ويخلفهم آخرون، وهذا القول حكاه الله جل وعلا عن اليهود في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ .

[البقرة: ٨٠] .

الرابع: القول بفناء النار، ومال إلى هذا القول ابن القيم – رحمه الله – ونُسب إلى شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله، وسيأتي بيان صحة نسبة هذا القول إليهما [٥].

---

(١) انظر مقالات الإسلاميين ص٩٦، وقد استثنى أبو الحسن الأشعري، فرقة النجدات، أصحاب نجدة بن عامر الحنفي.

(٢) شرح الأصول الخمسة، ص٦٦٦.

(٣) انظر رسائل العدل والتوحيد (١٥٤/١).

(٤) الاتحادية: هم أصحاب القول بوحدة الوجود، وأن الله تعالى هو عين هذا العالم، وزعيم هؤلاء ابن عربي الضال وقد سبقت ترجمته، وابن الفارض ت٥٧٦، وانظر لسان الميزان (٣١٧/٤)، وانظر شذرات الذهب (١٩٠/٥ -٢٠٢) وانظر الأعلام (٢٨١/٦ -٢٨٢) وانظر مصرع التصوف، ص١٥٠ وما بعدها.

(٥) انظر فيما سبق الفصل في الملل والنحل (١٤٥/٤ -١٤٨)، وانظر حادي الأرواح (٣٢٣ -٣٣١).

واستدلوا: بالآيات التي فيها تعليق بقائهم في النار بالمشيئة كقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [هود: ١٠٦ -١٠٧] .

واستدلوا أيضاً بقوله تعالى: ﴿ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [النبأ: ٢٣] .

قالوا: "فهذا صريح في وعيد الكفار المكذبين بآياته، ولا يقدر الأبد بهذه الأحقاب ولا غيرها، كما لا يقدر به القديم" (١) .

واستدلوا أيضاً ببعض الآثار عن عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — قال: "لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج (٢) ، لكان لهم على ذلك وقت يخرجون فيه" (٣) .

ونحو ذلك روي عن ابن مسعود وأبي هريرة، وأبي سعيد الخدري وغيرهم — رضي الله عنهم أجمعين — وسيأتي بيان ما فيها (٤) .

واستدلوا من العقل أيضاً فقالوا: "الجنة موجب رحمته ورضاه والنار من غضبه وسخطه، ورحمته تعالى تغلب غضبه، وتسبقه كما جاء في الصحيح من حديث أبي هريرة — رضي الله عنه — عن النبي ﷺ أنه قال: "لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده موضوع على العرش أن رحمتي تغلب غضبي" (٥) وإذا كان رضاه قد سبق غضبه،

---

(١) حادي الأرواح ص٣٣٧.

(٢) "جمع عالج، وهو ما تراكم من الرمل ودخل بعضه في بعض" النهاية في غريب الحديث (٢٨٧/٣).

(٣) قال الألباني — رحمه الله — : "ضعيف لأنه من رواية الحسن قال: قال عمر: والحسن لم يدرك عمر — رضي الله عنه — " ا.هـ، حاشية شرح الطحاوية، ص٤٢٨ ط، المكتب الإسلامي.

(٤) انظر، ص٤١٩ وما بعدها.

(٥) سبق تخريجه.

وهو يغلبه كان التسوية بين ما هو من موجب رضاه، وما هو من موجب غضبه ممتنعاً" (١) .

ولهم أدلة أخرى (٢) .

والقول الحق هو القول الأول وهو ما عليه أهل السنة، والأدلة على ذلك من الإجماع، ومن الكتاب، والسنة.

قال ابن حزم – رحمه الله – : "اتفقت الأمة كلها برها وفاجرها – حاشا ابن صفوان وأبي الهذيل محمد بن الهذيل العلاف العبدي البصري – على أن الجنة لا فناء لنعيمها، والنار لا فناء لعذابها، وأن أهلها خالدون أبد الأبد فيها إلى ما لا نهاية .." ا.هـ (٣) .

وقال السبكي – رحمه الله – : "أجمع المسلمون على اعتقاد ذلك "أي خلود أهل النار وتلقوه خلفاً عن سلف عن نبيهم ﷺ وهو مركوز في فطرة المسلمين معلوم من الدين بالضرورة بل وسائر الملل غير المسلمين .." ا.هـ (٤) .

ونقل الإجماع – أيضاً – ابن تيمية (٥) ، والسفاريني (٦) ، وغيرهم (٧) .

وأما الكتاب فالآيات قطعية الدلالة على ذلك، كثيرة يصعب حصرها منها ما سبق ذكره في سورة يونس، ومنها أيضاً قوله تعالى:

---

(١) حادي الأرواح، ص٣٤٣.

(٢) انظر المرجع السابق، ص(٣٣١ -٣٦٣)، وانظر شفاء العليل (٤٢٣ -٤٣٦) وانظر مختصر الصواعق (٣٥٥/١) وما بعدها.

(٣) الأصول والفروع، ص٤٣.

(٤) الاعتبار ببقاء الجنة والنار، ص٦٧.

(٥) انظر مجموع الفتاوى (٣٠٧/١٨).

(٦) انظر لوامع الأنوار (٢٣٤/٢).

(٧) انظر يقظة أولي الاعتبار لصديق حسن خان، ص٣٩، وانظر روح المعاني (١٤٦/١٢).

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ ﴾ [الأحزاب:٦٤-٦٥] ، وقوله: ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ أي غير مقطوع.

وأما السنة المتواترة، فمنها حديث ذبح الموت، كما في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري — رضي الله عنه — قال: قال رسول الله ﷺ : "يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فينادي منادٍ: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم ينادي يا أهل النار فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون؟ فيقولون نعم، وكلهم قد رآه فيذبح ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ ﴾ [مريم: ٣٩]"(١) .

وكذا العقل دلَّ على ذلك، إذ إن النار جزاء الكفر، وهذا الكفر دائم لا نهاية له، فناسب أن يكون العذاب دائماً بلا انقطاع.

والنار لا تطهرهم إذ قد أخبر الله عز وجل بأنهم لو ردوا إلى هذه الحياة لعادوا لكفرهم وعنادهم، فهم إذن مخلدون في النار أبد الآباد، وكذلك أهل الجنة خالدون في الجنة أبد الآباد (٢) .

أما قول الجهم بن صفوان، وقول أبي الهذيل العلاف، فهما قولان مردودان لما سبق من الأدلة، ولهذا حكم السلف بكفر الجهمية (٣) .

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب "وأنذرهم يوم الحسرة" رقم ٤٤٥٣(١٧٦٠/٤)، ورواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب: النار يدخلها الجبارون ..، رقم ٢٨٤٩ (٢١٨٨/٤) عن الأعمش به، بنحوه.

(٢) انظر حادي الأرواح، ص٣٣٩.

(٣) انظر السنة للإمام عبدالله بن أحمد، ص٢٠، وانظر ص٢١٢.

وقول العلاف أشنع من قول الجهم، لأن مؤدى قول الجهم أن الله يفني الجنة والنار، ولكنه لا يزال قادراً على خلق مثلهما، أما قول العلاف فمؤداه أن الله عز وجل في تلك الحال، لا يقدر على تحريك ساكن ولا تسكين متحرك، ولا إماتة، ولا إحياء تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً [(١)] .

وأما الاستدلال بقوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص: ٨٨] .

فلا دليل فيه إذ هو إما من العام المراد به الخصوص، أو من العام المخصوص وهو محتج به بالإجماع [(٢)] ، وقد اتفق العلماء على أن هناك ثمانية أشياء مستثناة من هذا العموم وهي الجنة، والنار والعرش، والكرسي، واللوح، والقلم، وعجب الذنب والأرواح [(٣)] .

ومثل هذا القول قول من يقول بخروج أهل الجنة وأهل النار.

وأما ما عليه الخوارج والمعتزلة، من القول بتخليد العصاة في النار[(٤)]، فهو قول باطل لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨] وغيرها من الآيات، فقد خص الله تعالى الشرك بعدم المغفرة وعلق ما سواه من الذنوب بالمشيئة، فما شاء تعالى غفره، وما شاء تعالى عذّب عليه.

---

(١) انظر الفرق بين الفرق ١٠٢ -١٠٣.

(٢) انظر مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ٦٠).

(٣) انظر مجموع الفتاوى (١٨/ ٣٠٧).

(٤) مع اختلافهما في الحكم عليه في الدنيا، فهو عند الخوارج كافر، وأما المعتزلة فهو عندهم في منزلة بين منزلتين، انظر مجموع الفتاوى (٧/ ٤٨٤).

ولما ثبت من الأحاديث المتواترة [١] في خروجهم من النار، ودخولهم الجنة، كأحاديث الشفاعة [٢]، وغيرها.

وآيات الوعيد قد يتخلف موجبها، لعدة أسباب منها:

١ - التوبة الصادقة، وهذا لا خلاف فيه.

٢ - الحسنات الكثيرة، والاستغفار.

٣ - وقوع المصائب المكفرة.

٤ - العذاب في القبر، وشدة أهوال يوم القيامة.

٥ - الشفاعة للمذنبين، ممن رضي الله عنه، وأذن له بالشفاعة.

٦ - مغفرة الله تعالى للعبد وتجاوزه عنه برحمته، بلا سبب من العبد[٣].

وأما قول الاتحادية – قبحهم الله – فتصوره كافٍ في بطلانه، إذ هو إنكار للحس ومكابرة للعقل.

وكذلك قول اليهود فهو قول بلا دليل ولا برهان وقد كذّبهم الله في دعواهم هذه، وطالبهم بالبرهان على ذلك.

قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

[البقرة: ٨٠].

---

(١) انظر التخويف من النار، ص١٦٥، وانظر مجموع الفتاوى (٤٨٤/٧)، وانظر (١٨٤/١١).

(٢) انظر في الشفاعة النهاية في الفتن والملاحم (٣١٢/٢) وما بعدها، وانظر شرح العقيدة الطحاوية ٢٢٣ -٢٣١، وانظر فتح الباري (٤٣٣/١١ -٤٣٦).

(٣) انظر مجموع الفتاوى (٤٨٧/٧ -٥٠١)، و(١٨٥/١١)، (٣٧٥/٢٤).

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ [البقرة: ١١١].

وجميع هذه الأقوال منسوبة إلى المبتدعة، وأهل الكفر والضلال، وعندهم من البدع غيرها كثير الذي يهمنا من هذه الأقوال من القول الأخير، وهو القول بفناء النار، إذ قد نُسب إلى السلف، كما ذكر ذلك شارح الطحاوية (١)، وغيره، وهم في الحقيقة منه براء، إذ هو من أقوال الجهمية، ولم يثبت عن أحد من السلف (٢) كما سيأتي بيانه، وليس عندهم في هذه المسألة إلا قول واحد وهو أبدية النار وعدم فنائها كما سبق بيان ذلك.

فأما ما استدل به من يقول بفناء النار فقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴾.
[هود: ١٠٦ - ١٠٧].

فأما قوله تعالى: ﴿ مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [هود: ١٠٧]، فيجاب عنه بأمرين:

الأول: إن السماوات والأرض المذكورة، المقصود بها سماوات الآخرة وأرضها وهي أبدية باقية على الدوام، واختار هذا ابن كثير – رحمه الله –.

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية، ص٤٩٤.
(٢) انظر رفع الأستار في إبطال أدلة من قال بفناء النار ص١١٦.

الثاني: إن هذا جار على أسلوب العرب، إذا أرادوا الإخبار عن شيء ودوامه، قالوا – على سبيل المثال – لا آتيك ما دامت السماوات والأرض أو ما اختلف الليل والنهار، وما سمر لنا سمير، ونحو ذلك[(١)].

وأما الاستثناء المذكور في قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

وقوله في الآية السابقة: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾.

فالجواب عنه من عدة أوجه:

الأول: إن هذا الاستثناء جاء أيضاً في حق أصحاب الجنة، ومع ذلك فلم يقل أحد من أهل السنة أن الجنة تفنى، وإنما حملوا المتشابه على الحكم، فمثل ذلك يقال في أصحاب النار.

الثاني: إن هذا الاستثناء حقيقي، وواقع على طبقة من طبقات جهنم وهي طبقة العصاة، من الموحدين.

الثالث: إن هذا الاستثناء واقع على المدة التي يكون فيها الخلق في الموقف، أو في البرزخ، أو الحياة الدنيا، ورجح هذا ابن جرير – رحمه الله –.

الرابع: إن هذا الاستثناء استثناء، استثناه الله تعالى وهو لا يفعله كما يقال: "والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك"، مع الجزم على الضرب.

الخامس: إن هذا الاستثناء إعلام لهم بأن خلودهم بمشيئة الله عز وجل، لا أنهم أصبحوا قابلين للخلود أو أن ذلك واجب على الله، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٦] فالنبوة فضل وعطاء من الله، ولو شاء لسلبها ولكنه لم يشأ.

---

(١) انظر جامع البيان (١٢ –١١٧)، وانظر تفسير ابن كثير (٥٨٧/٣).

السادس: إن هذه الآية من المتشابه الذي لا نعلم بالمراد به، فيحمل المتشابه على المحكم، الصريح بتخليدهم في النار.

السابع: إن هذا الاستثناء على حقيقته، وهو واقع على الفترة التي تتبدل فيها جلودهم كما قال تعالى: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ [النساء: ٥٦].

الثامن: إن هذا الاستثناء بمعنى "سوى" فيصير المعنى "خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض سوى ما شاء ربك أن يزيدهم من العذاب"، وهو استثناء واقع على المدة.

وقيل بمعنى "الواو"، وقيل بمعنى "لكن" فيكون الاستثناء منقطعاً وقيل لمعنى "مَنْ" ويكون المعنى "خالدين فيها .. إلا من شاء ربك عدم خلودهم" فيكون الاستثناء واقعاً على الأعيان (١).

وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿ لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [النبأ: ٢٣].

فلا دليل فيها – أيضاً – على انقضاء عذاب أهل النار، ويجاب عنها بعدة أوجه:

الأول: إن المراد بالأحقاب المدد الطويلة، التي لا نهاية لها.

الثاني: إن ذلك جار على أسلوب العرب في الخطاب، كما سبق بيان ذلك (٢).

الثالث: إن هذه الآية من قبيل المتشابه، فتحمل على المحكم.

---

(١) انظر فيما سبق جامع البيان (١٢/١١٨ -١٢٢)، وانظر الاعتبار ببقاء الجنة والنار ص٧٠ -٧١، وانظر شرح العقيدة الطحاوية (٤٩١ -٤٩٢)، وانظر رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار ص٩٢، وانظر روح المعاني (١٢/١٤٤ -١٤٥) وانظر جلاء العينين في محاكمة الأحمدين، ص٤٨٠ وانظر دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ص١٢٢ -١٢٣.

(٢) انظر ص٤١٥.

الرابع: إن قوله تعالى عقب هذه الآية: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النبأ: ٣٠] يرد استدلالهم بالآية.

قال الإمام الصنعاني - رحمه الله - : "فزيادة العذاب بعد الأحقاب، بل خص تعالى الزيادة على العذاب، وأنه تعالى لا يزيدهم بعد لبث الأحقاب إلا عذاباً فانتفى مفهوم العذاب الذي أفاده الجمع"(١).

الخامس: إن قولهم استدلال بمفهوم العدد، وهو أضعف أنواع المفاهيم، فلو خالف مفهوم آخر لقدم عليه ذلك المفهوم الآخر، فكيف وقد خالف المنطوق الصريح في آيات تخليد الكافرين في النار.

السادس: إن مدة الأحقاب واقعة على تعذيبهم، بالحميم والغساق فإذا انقضت هذه الأحقاب، عُذبوا بنوع آخر من العذاب، ومال إلى هذا القول ابن جرير والإمام الشنقيطي - رحمهما الله -(٢).

ويقال لهم إجمالاً، إن القول بفناء النار لا يخلو من خمسة وجوه:

الوجه الأول: القول بفنائها، وفناء عذابها تبعاً.

الوجه الثاني: موت من فيها، وبقاؤها على حالها.

الوجه الثالث: خروج من فيها، وبقاؤها على حالها.

الوجه الرابع: أن يقال ببقائهم فيها مع تخفيف العذاب أو زواله.

الوجه الخامس: بقاء النار ودوامها أبدا.

فأما الأربعة الأولى، فقد أبطلها القرآن ونص على فسادها، فالأول في قوله تعالى: ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾

---

(١) رفع الأستار، ص٨٨.

(٢) انظر جامع البيان (٣٠/٩ -١٢)، وانظر الاعتبار ببقاء الجنة والنار (٦٨ -٦٩)، وانظر رفع الأستار (٨٨ -٨٩)، وانظر جلاء العينين، ص٤٨٥، وانظر دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (٣٠٧ -٣٠٨).

[الإسراء: ٩٧] .

ومعلوم أنه "كلما يقتضي التكرار بتكرار الفعل الذي بعدها.

وأما الثاني: فباطل أيضاً بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ ﴾ [فاطر: ٣٦] .

وقوله: ﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ [الأعلى: ١٣] .

وأما الثالث: فبطلانه في قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٧] .

وقوله: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحج: ٢٢] .

وأما الرابع: ففي قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ [فاطر: ٣٦] وإذا انتفى التخفيف، انتفى من باب أولى زوال العذاب بالكلية أو استحالته عليهم لذة.

وببطلان الأربعة الوجوه، يتعين بطريق السبر والتقسيم، الوجه الخامس [(١)] .

وأما الآثار التي استدلوا بها، ففيها مسلكان:

الأول: من حيث ثبوتها: فهي لم تثبت، وهي ضعيفة كما ذكر ذلك العلماء، بل وفيها الموضوع، وأحسن ما فيها أثر عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — عن الحسن — رحمه الله — وقد تبين أنه منقطع، حيث لم يثبت لقاء الحسن بعمر، والأئمة لا يعملون بمراسيل الحسن — رحمه الله — في أحكام الطهارة فكيف بهذه المسألة العظيمة من مسائل العقيدة، قال الحافظ ابن حجر — رحمه الله — في هذا الأثر: "فهو

(١) انظر دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (١٢٤ -١٢٧).

منقطع، ومراسيل الحسن عندهم واهية، لأنه كان يأخذ من كل أحد"[١].

الثاني: على فرض ثبوتها فهي محمولة على أمرين:

الأول: أن المراد بها، نار العصاة من الموحدين، إذ قد عُلم قطعاً خروجهم من النار، ودخولهم الجنة، وفناء نارهم.

الثاني: إن هذه الآثار في غير محل النزاع، إذ هي تدور حول خروج أهل النار من النار، وليس فناء النار، والخروج من النار لا يعني خلوها وفناءها، بل يحتمل وجود بقية باقية، وعليه فالاستدلال بها في غير محل النزاع، فلا يصح نسبة القول بفناء النار إلى أحد من الصحابة [٢].

وأما استدلالهم بالعقل، فهم في الحقيقة قد وقعوا فيما حذروا منه أهل البدع والتأويل، وبطلان هذا الاستدلال يتبين بما يلي:

١ - لو كفر كافر بالله تعالى طول عمره، وعندما أدركه الموت تاب وأناب في الغرغرة، فحكمنا عليه بالكفر إجماعاً، لأن التوبة لا تقبل حينئذ، فكيف بمن مات مصراً على كفره، وعناده، لاشك أنه أسوأ منه، فهل يعقل أن تفنى ناره، ويدخل الجنة، لاشك أن هذا محال [٣].

٢ - إن الرحمة المذكورة في الآيات والأحاديث، إنما هي خاصة للمؤمنين لا يستحقها غيرهم [٤].

---

(١) نقلاً من السلسلة الضعيفة (٧٣/٢)، وانظر رفع الأستار للصنعاني (٦٥ -٦٧) وانظر أيضاً ص (٧٠ -٨١ -٨٢)، وانظر السلسلة الضعيفة (٧٠/٢ -٧٥).

(٢) انظر رفع الأستار ٣٧ -٣٨.

(٣) انظر مقدمة المرجع السابق للألباني ص٢٣.

(٤) انظر المرجع السابق، ص٢٤ -٢٥.

٣ - إن هذا القول يلزم منه دخول فرعون وهامان، وسائر الكفرة إلى الجنة بعد فناء نارهم، وهذا لم يقل به مسلم ولا يهودي، ولا نصراني [(١)].

وأما ما نسب إلى شيخ الإسلام — ابن تيمية — رحمه الله — وما ورد عن تلميذه ابن القيم — رحمه الله — مع جلالة قدرهما، وسعة علمهما[(٢)]، فالجواب عن ذلك بما يلي:

أولاً: إنه قد ورد عنهما خلاف ذلك كما جاء عن ابن تيمية في الفتاوى وغيرها [(٣)]، وكما جاء في كتب ابن القيم [(٤)] — رحمهما الله —.

ومن حسن الظن بهذين الإمامين القول إن ذلك القول متأخر، لما لهما من العلم والفضل، ولما لهما من الجهود في إبطال البدع، والرد على أصحابها، مما لا يزال أثره إلى اليوم قائماً، وإصرارهما على هذا القول بما يستبعد.

ثانياً: أن يحمل قولهما على نار العصاة.

ثالثاً: إنه لم يوجد نقل صحيح صريح من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية — رحمه الله — وكل ما في هذه المسألة هو ما نقله عنه تلميذه

---

(١) انظر الاعتبار ببقاء الجنة والنار، ص٧٦ -٧٧.

(٢) ألف أحد المعاصرين رسالة في إبطال هذا الادعاء سماها "كشف الأستار لإبطال ادعاء فناء النار المنسوب إلى شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم".

(٣) انظر الفتاوى (١٨/٣٠٧)، وانظر تلبيس الجهمية (١/١٥٧) وانظر ما نقل عنه صاحب كتاب كشف الأستار ص٥٨ -٧٦. وقال الألباني في مقدمة رفع الأستار، ولشيخ الإسلام ابن تيمية — رحمه الله تعالى — قاعدة في الرد على من قال بفناء الجنة والنار، لم نقف عليها، وإنما ذكرها الشيخ يوسف بن عبدالهادي في فهرسته (ق/١/٢٦) ا.هـ السلسلة الضعيفة (٢/٧٥).

(٤) انظر الوابل الصيب، ص٣٤، وانظر استدلاله بأقوال السلف دون معارضة كما في حادي الأرواح، ص٣٨٥.

ابن القيم — رحمه الله — .

أما ابن القيم فلعل إيراده للأدلة، لبيان أوجه تأويل الآية، ويؤيد ذلك قوله بعد سرد الأدلة: "فإن قيل: فإلى أين انتهى قدمكم في هذه المسألة العظيمة الشأن، التي هي أكبر من الدنيا بأضعاف مضاعفة؟ [(١)] .

قيل: إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ** ﴾. [هود: ١٠٧] .. ا.هـ [(٢)] .

ويؤيد ذلك أيضاً، استدلاله بأقوال السلف في تلك المسألة — كما سبق الإشارة إلى ذلك — من تعليق منه، ولو كان يعتقد خلاف ذلك لبينه [(٣)] .

رابعاً: لعل ذلك القول صدر في أول حياتهما، وقبل تمرسهما في العلم، ثم تبين لهما بطلان ذلك فرجعا عنه، وهذا كثير في حياة العلماء، فالعالم قد يكون له قولان أو ثلاثة في المسألة، ومع ذلك لا ينكر عليهم [(٤)] .

خامساً: ويقال أيضاً ربما حملهما على هذا القول، توهمهما أن هذا القول لبعض الصحابة فتابعوهم عليه، وساعد على ذلك شدة الخوف من الله، مع عظيم الرجاء بسعة عفوه ومغفرته، مع ما تأولا من ظواهر النصوص السابقة، وهما بشر والبشر ليس معصوماً [(٥)] .

---

(١) انظر كشف الأستار، ص٢٤ -٣٤.
(٢) حادي الأرواح، ص٣٦٣.
(٣) انظر كشف الأستار ص ٢٤ -٣٤، وانظر ٥٥ -٥٦.
(٤) انظر جلاء العينين ص٤٨٨، وانظر مقدمة رفع الأستار ص٢٥ -٢٨.
(٥) انظر مقدمة رفع الأستار، ص٢١ -٢٢.

الباب الخامس

في الإيمان بالقضاء والقدر

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في معنى الإيمان بالقدر وحكمه.

الفصل الثاني: في الرزق والأجل.

الفصل الثالث: في الهداية والإضلال

الفصل الأول :
في معنى الإيمان بالقدر والحكمة

إن من أسباب سعادة المؤمن، وانشراح صدره في هذه الحياة، إيمانه بالقضاء والقدر، لأنه يعلم أن الأمور كبيرها وصغيرها كلها بتقدير الله تعالى فيرضى ويسلم، والإيمان بالقضاء والقدر من أهم ركائز العقيدة الإسلامية، وهو ركن من أركانها كما سيأتي، وقبل بيان ذلك نبدأ بتعريف القضاء والقدر في اللغة وفي الشرع.

تعريف القضاء والقدر:

القضاء في اللغة "أصله قَضَايٌ لأنه من قضيت، إلا أن الياء لما جاءت بعد الألف همزت والجمع الأقضية" (١) .

ومن معانيه في اللغة الحكم (٢) ، وهو أوضح معاني القضاء وأشدها ارتباطاً به، ويأتي بمعنى الوجوب والوقوع (٣) ، قال تعالى: ﴿ **قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ** ﴿٤١﴾ ﴾ [يوسف: ٤١] وبمعنى الإكمال والإتمام (٤) ومنه قوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ** ﴾ [القصص: ٢٩] الآية ويأتي أيضاً بمعنى الأمر (٥) وله معانٍ أخرى (١) وأما القدر فهو

---

(١) الصحاح (٦/٢٤٦٣)، وانظر لسان العرب (١٥/١٨٦).

(٢) النهاية في غريب الحديث (٤/٧٨)، وانظر الصحاح (٦/٢٤٦٣)، وانظر لسان العرب (١٥/١٨٦)، وانظر بصائر ذوي التمييز (٤/٢٧٦).

(٣) انظر بصائر ذوي التمييز (٤/٢٧٧).

(٤) انظر الصحاح (٦/٢٤٦٣)، وانظر لسان العرب (١٥/١٨٧)، وانظر بصائر ذوي التمييز (٤/٢٧٧).

(٥) انظر لسان العرب (١٥/١٨٦)، وانظر بصائر ذوي التمييز (٤/٢٧٦).

"مصدر قَدَّر، يَقدِرُ قَدَراً، وقد تُسكَّن داله" [٢].

ومن معانيه الحكم والقضاء [٣]، والشرف، والعظمة [٤] ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَـٰهُ فِى لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴾ [القدر: ١] ويأتي بمعنى التضييق في المكان أو الرزق [٥] ففي المكان كما في قوله تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ ﴾ [الأنبياء: ٨٧] الآية.

وفي الرزق كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَـٰهُ ٱللَّهُ ﴾ [الطلاق: ٧] الآية ويأتي بمعنى التقدير [٦]، وبمعنى القدرة والقوة[٧]. وهناك معانٍ أخرى [٨].

وأما في الشرع:

هناك من العلماء من جعل القضاء والقدر بمعنى واحد، وهناك من ذكر بينهما فروقاً فقيل: "القضاء من الله تعالى أخص من القدر، لأنه الفصل بين التقدير فالقدر هو التقدير، والقضاء هو الفصل والقطع" [٩].

==

(١) انظر الصحاح (٢٤٦٣/٦ -٢٤٦٤)، وانظر مختار الصحاح ص٢٦٦، وانظر لسان العرب (١٨٦/١٥ -١٨٩)، وانظر بصائر ذوي التمييز (٢٧٦/٤ -٢٧٨).

(٢) النهاية في غريب الحديث (٢٢/٤).

(٣) انظر الصحاح (٧٨٦/٢)، وانظر المفردات في غريب القرآن ص ٣٩٥، وانظر النهاية في غريب الحديث (٢٢/٤)، وانظر لسان العرب (٧٦/٥).

(٤) انظر بصائر ذوي التمييز (٢٤٣/٤).

(٥) انظر بصائر ذوي التمييز (٢٤٣/٤).

(٦) انظر الصحاح (٧٨٦/٢)، وانظر المفردات، ص٣٩٥، وانظر النهاية في غريب الحديث (٢٣/٤)، وانظر لسان العرب (٧٦/٥).

(٧) انظر الصحاح (٧٨٧/٢)، وانظر بصائر ذوي التمييز (٢٤٤/٤).

(٨) انظر الصحاح (٧٨٦/٢) وما بعدها، وانظر لسان العرب (٧٤/٥) وما بعدها، وانظر بصائر ذوي التمييز (٢٤٣/٤ -٢٤٦).

(٩) المفردات في غريب القرآن ص٤٠٦ -٤٠٧.

وقيل: القدر قبل وقوعه يمكن دفعه، بخلاف القضاء فلا راد له [١]
وقيل: "القضاء هو الحكم الكلي الإجمالي في الأزل، والقدر جزئيات ذلك الحكم وتفاصيله" [٢].

وبتأملي لهذه الفروق، لم أجد هناك أثراً مترتباً على هذا الخلاف كما أنه لا يوجد دليل فاصل بين القولين [٣]، والله تعالى أعلم.

ومعنى الإيمان بالقضاء والقدر، الإيمان بعلم الله بما الخلق عاملون، بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلاً، وكتابته في اللوح المحفوظ مقادير كل شيء، ثم الإيمان بمشيئته جل وعلا، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن ووقوعهما على التقدير السابق زماناً، وصفةً.

وهذا ما عليه أهل السنة والجماعة [٤].

وللإيمان بالقضاء والقدر أربع مراتب، شملها التعريف السابق، ويجب الإيمان بها جميعاً.

المرتبة الأولى: العلم، ومعناه الإيمان بأن الله تعالى يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وهو تعالى يعلم ما الخلق عاملون وعلم أحوالهم، وآجالهم وأرزاقهم، وهو متصف بهذا العلم أزلاً وأبداً، وهذا ما اتفقت عليه هذه الأمة، عدا فرقة القدرية الضالة

---

(١) انظر المرجع السابق ص٤٠٧.
(٢) فتح الباري (٤٨٦/١١)، وانظر الدين الخالص (١٥٤/٣).
(٣) وانظر القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة للشيخ عبدالرحمن المحمود، ص١٩ - ٢٢، رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة الإمام محمد بن سعود، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة.
(٤) انظر مجموع الفتاوى (١٤٨/٣ -١٤٩)، (٤٤٩/٨، ٤٥٢، ٤٥٩)، وانظر الواسطية، ص٢٢ -٢٣ وانظر التدمرية ص٢٠٩، وانظر شرح العقيدة الطحاوية، ص٢٥١، وانظر لوامع الأنوار (٣٤٨/١).

التي ظهرت في أواخر عهد الصحابة (١) .

ومنكر هذه المرتبة كافر بالإجماع (٢) .

ودليلها من سورة يونس — عليه السلام — في قوله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يونس: ١٨] .

وقوله: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ .. ﴾ [يونس: ٣٩] الآية.

وقوله: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ [يونس: ٦١] .

وقوله: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يونس: ٦٥] .

---

(١) فرقة القدرية ظهرت في أواخر عهد الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، وأول من قال بنفي القدر معبد الجهني كما ذكرت أكثر المصادر، وقتل صبراً في زمن الحجاج عند خروجه من ابن الأشعث، وقد قيل: إنه مات مصلوباً بدمشق لبدعته في القدر، وكان القدرية الغلاة ينفون العلم السابق وأن الله تعالى لا يعلم الأشياء إلا بعد وقوعها وأن الأمر أنف ثم ظهرت بعد ذلك فرقة القدرية المجوسية نفاة المشيئة والخلق وهم جمهور المعتزلة ومن وافقهم من الخوارج والمرجئة والشيعة، انظر الفصل في الملل والنحل (٨٢/٣)، انظر الملل والنحل للشهرستاني (٣٠/١) (٤٥/١)، وانظر مجموع الفتاوى (٢٦٤/٧)، وانظر ميزان الاعتدال (١٤١/٤)، وانظر تهذيب التهذيب (٢٠٣/١٠ - ٢٠٤).

(٢) انظر السنة للخلال، ص ٥٢٩ - ٥٣٠، وانظر الإبانة ص٢٠٣ وانظر شرح أصول الاعتقاد (٧٠٦/٤ وما بعدها) وانظر مجموع الفتاوى (٤٩١/٨ - ٤٩٧)، وانظر شفاء العليل ص ٥٥ - ٦٣، وانظر معارج القبول (٣٢٨/٢) وانظر (٩٢٠/٣ - ٩٢٣).

المرتبة الثانية: مرتبة الكتابة، ومعناها أن الله تعالى كتب مقادير كل شيء في اللوح المحفوظ، وعلى ذلك أجمع أهل السنة.

قال ابن القيم – رحمه الله – : "وأجمع الصحابة والتابعون، وجميع أهل السنة والحديث أن كل كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب" ا. هـ (١).

ودليلها في سورة يونس – عليه السلام – في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ [يونس: ٦١] وهذه الآية جمعت بين مرتبتي العلم والكتابة، وهذا يقع كثيراً في القرآن الكريم (٢) كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الحج: ٧٠].

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال وعرشه على الماء" (٣).

والأدلة على هذه المرتبة من الكتاب والسنة كثيرة جداً (٤).

المرتبة الثالثة: المشيئة، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، قال ابن القيم – رحمه الله – : "وهذه المرتبة قد دل عليها إجماع الرسل من أولهم إلى آخرهم، وجميع الكتب المنزلة من عند الله، والفطرة التي

---

(١) شفاء العليل، ص٧٧.
(٢) انظر تفسير الكريم الرحمن (٣/٣٦٦).
(٣) رواه مسلم في كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى – عليهما السلام – رقم ٢٦٥٣ (٤/٢٠٤٤).
(٤) انظر شفاء العليل من ص٧٣ إلى ص ٧٩، وانظر معارج القبول (٣/٩٢٤ -٩٤٠).

فطر الله عليها خلقه، وأدلة العقول والعيان ..، والمسلمون من أولهم إلى آخرهم مجمعون على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن" ا.هـ (١) .

والإيمان بالمشيئة إيمان بحقيقة الربوبية، إذ لا يجري في الكون إلا ما يشاؤه الرب تعالى، فالخلق خلقه، والعباد عباده، والرزق رزقه، والعطاء عطاؤه، والمنع منعه، إذ لا مالك غيره، ولا رب سواه (٢) .

ودليلهما من السورة قوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [يونس: ١٦].

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [يونس: ٢٥] .

وقوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ . [يونس: ٤٩].

وقوله جل ذكره: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [يونس: ٩٩ -١٠٠] .

وهذه المشيئة متعلقة بالأمر الكوني القدري، وهي مستلزمة لوقوع المراد ولا يلزم منها الحب والبغض، كما شاء الله تعالى خلق إبليس والشياطين والكفار وهو يبغضهم، وكذلك خلقه من الأفعال ما يبغضه ويسخطه، كالكفر والشرك والنفاق، فهو سبحانه يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، لا يسأل عما يفعل.

---

(١) شفاء العليل، ص٨٠.
(٢) انظر المرجع السابق ص٨٠ -٩٠.

وأما المحبة والرضا فمتعلقها أمره تعالى الديني، وهو لا يستلزم الوقوع، إذ قد يحب الله تعالى أمراً ولا يشاؤه فلا يقع لعدم المشيئة، وقد يشاؤه ويحبه فيقع (١).

والأحاديث في إثبات هذه المرتبة كثيرة وقد عقد البخاري – رحمه الله – في صحيحه لذلك باب ساق فيه جملة من الأحاديث (٢).

المرتبة الرابعة: الخلق، وتعني الإيمان بأن الله خالق كل شيء، بما في ذلك أفعال العباد، وقدرهم، وآجالهم، وهذه المرتبة اتفق عليها أهل الإسلام، واتفقت عليها الكتب الإلهية ونازع فيها التي قبلها طوائف من القدرية (٣) كما سيأتي بيانه إن شاء الله (٤).

ودليلها في السورة، في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [الأعراف: ٥٤] الآية.

وقوله: ﴿ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝ ﴾ [يونس: ٦].

وفي سورة الزمر يقول الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝ ﴾ [الزمر: ٦٢] قال ابن القيم – رحمه الله – : "وهذا عام محفوظ لا يخرج عنه شيء من العالم أعيانه وأفعاله، وحركاته

(١) انظر مجموع الفتاوى (١٨٨/٨ -١٩٠) و(١٩٧/٨ -٢٠٠)، وانظر منهاج السنة (١٦/٣ -١٧) (١٨٠/٣، ١٥٦ -١٥٨)، وانظر شفاء العليل ص (٨٨ -٩٠)، (٤٤٥ -٤٤٨)، وانظر فتح الباري (٤٥٨/١٣ -٤٥٩)، وانظر لوامع الأنوار (٣٣٨/١ -٣٣٩).

(٢) انظر صحيح البخاري كتاب التوحيد، باب في المشيئة والإرادة (٢٧١٥/٦).

(٣) انظر منهاج السنة (١٢/٣ -١٣، ١٢٨ -١٢٩)، وانظر شفاء العليل، ص٩١.

(٤) انظر ص ٤٨٨ وما بعدها.

وسكناته، وليس مخصوصاً بذاته وصفاته، فإن الخالق بذاته وصفاته وما سواه مخلوق له" ا.هـ [١] .

ومنكر هذه المرتبة مبتدع ضال، ولا يحكم بكفره، ما لم ينكر العلم[٢] .

هذه هي مراتب القدر التي لا يكتمل إيمان المسلم، إلا بإيمانه بجميعها[٣].

والإيمان بالقضاء والقدر واجب لابد منه، وهو الركن السادس من أركان الإيمان الستة، كما جاء في حديث جبريل عندما سأل رسول الله ﷺ "ما الإيمان قال: أن تؤمن بالله وملائكته، وكتابه، ولقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث وتؤمن بالقدر كله، قال: صدقت .." الحديث [٤] .

رُوي عن أبي الدرداء — رضي الله عنه — عن النبي ﷺ قال: "لكل شيء حقيقة وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه" [٥] وقال ابن عباس — رضي الله عنه — : "القدر نظام التوحيد، فمن وحد الله عز وجل وكذب بالقدر كان

---

(١) شفاء العليل، ص٩٧.

(٢) انظر الإيمان لابن تيمية ص٣٦٩.

(٣) انظر الواسطية ص ٢٢ -٢٣، وانظر جامع العلوم والحكم (١٠٣/١ -١٠٤)، وانظر لمعة الاعتقاد مع شرحها للشيخ محمد بن عثيمين (٩٢ -٩٣)، وانظر القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة "رسالة ماجستير" بجامعة الإمام محمد بن سعود للشيخ عبدالرحمن المحمود ٢٣ -٥٨.

(٤) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى رقم ١٠ (٤٠/١).

(٥) رواه أحمد في مسنده (٤٤١/٦ -٤٤٢)، ورواه أبو عاصم في السنة رقم: ٢٤٧٦ (١١٠/١) عن أبي الربيع به بنحوه، وقال الألباني في تخريجه: حديث صحيح، رجاله ثقات على ضعف هشام، ولكنه قد توبع، ولحديثه شواهد ا.هـ ظلال الجنة، ص(١١٠/١).

تكذيبه بالقدر نقضاً للتوحيد ومن وجد الله وآمن بالقدر، كانت العروة الوثقى" [١] .

قال الإمام النووي – رحمه الله – : "تظاهرت الأدلة القطعية من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة، وأهل الحل والعقد، من السلف والخلف على إثبات قدر الله سبحانه وتعالى" ا.هـ [٢] .

وقال الإمام الشوكاني – رحمه الله – : "الإيمان بالقدر خيره وشره فهي الخصلة العظمى التي تتفاوت فيها الأقدام بكثير من الدرجات، فمن رسخ قدمه في هذه الخصلة ارتفعت طبقته في الإيمان" ا.هـ [٣] .

---

(١) رواه الآجري في الشريعة ص ٢١، ورواه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد برقم ١١١٢ (٦٢٣/٣) من طريق أخرى بنحوه، ورواه أيضاً برقم: ١٢٢٤ (٦٧٠/٤) بأطول منه، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٧/٧) ثم قال: "رواه الطبراني في الأوسط وفيه هانئ بن المتوكل وهو ضعيف، وقال الألباني: "ضعيف موقوفاً ومرفوعاً" تخريج العقيدة الطحاوية، ص٢٥٠، قلت: وإن كان ضعيفاً فمعناه صحيح.

(٢) شرح مسلم (١٥٥/٢).

(٣) قطر الولي على حديث الولي ص ٤١٣.

الفصل الثاني
في الـرزق والأجـل

أولاً: الرزق:

الرزق في اللغة: "ما ينتفع به والجمع الأرزاق" (١).

ويطلق الرزق على العطاء، وعلى النصيب، وعلى ما يصل إلى الجوف (٢).

وأما في اصطلاح الشرع، وما عليه أهل السنة والجماعة فالرزق ينقسم إلى قسمين: الأول: عام وهو ما ينتفع به، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝ ﴾ [هود:٦]، وفي الحديث "إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها، وتستوعب رزقها" (٣) الحديث.

وحديث أبي الدرداء قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "فرغ الله إلى كل عبد من خمس من أجله ورزقه وأثره وشقي أم سعيد" (٤).

---

(١) الصحاح (١٤٨١/٤)، وانظر لسان العرب (١١٥/١٠)، وانظر القاموس المحيط، ص١٤٤.

(٢) انظر الصحاح (١٤٨١/٤)، وانظر لسان العرب (١١٥/١٠)، وانظر بصائر ذوي التمييز (٦٥/٢).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده (١٩٥/٧)، وهو في موارد الظمآن رقم ١٨١١ ص ٤٤٨ -٤٤٩ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: "رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط وأحد إسنادي أحد رجاله ثقات" ا.هـ (١٩٥/٧).

وهذا يشمل كل ما ينتفع به، سواء كان حلالاً أو حراماً، ويشمل رزق الخلق كلهم بما فيهم البر والفاجر وغيرهما.

الثاني: خاص وهو ما يملك، وهو الرزق الحلال، وهو المراد في قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ٩٣].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ... ﴾ [المنافقون: ١٠] الآية.

وكلاهما يطلق عليه مسمى الرزق، وكلاهما مكتوب في اللوح المحفوظ، وداخل تحت مشيئة الله تعالى وخلقه، فإذا أكل الحرام فهو رزق من حيث الانتفاع به، مع تحريم الله تعالى لهذا الفعل، والوعيد لفاعله، وليس لأحد أن يحتج بالقدر فلا حجة فيه لأحد [(١)] قال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ [البقرة: ١٨٨] الآية.

ودليل النوع الأول من سورة يونس في قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس: ٣١] الآية.

وفي قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٥٩].

ودليل النوع الثاني في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [يونس: ٩٣].

وخالف المعتزلة أهل السنة في ذلك فقالوا: فإن قيل: من أين أن

---

(١) انظر مجموع الفتاوى (٨/٥٤١ -٥٤٦)، وانظر لوامع الأنوار مع هامشه للشيخ بابطين (١/٣٤٣ -٣٤٤)، وانظر التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية لعبدالعزيز الرشيد ٦١ -٦٢.

الحرام لا يجوز أن يكون رزقاً؟ قلنا لأن الحرام مما يقع به الاغتذاء فإن قيل يجوز أن يكون رزقاً لأن الله تعالى منعنا من إنفاقه واكتسابه فلو كان رزقاً لم يجز ذلك" (١) وقالوا "رزق .. كل عبد ما أحل له وأمره بأخذه فأما ما نهاه عن أكله وعذبه في قبضه، فليس ذلك، لعمرهم من رزقه"(٢).

واستدلوا بما يلي:

١ - قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [يونس: ٥٩].

٢ - قالوا: إن الله تعالى مدحنا بإنفاق ما رزقناه، حيث قال: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [البقرة: ٣] ومعلوم أنه لا يجوز أن يمدح على الإنفاق من الحرام" (٣).

٣ - قالوا: إن في ذلك وصف للرب تعالى بالظلم والعدوان، إذ "إنه يطعم ويرزق عباده طعاماً ثم يكتبه عليهم حراماً، فيوجب عليهم قبول ما أعطاهم العقاب ويحرمهم، بأخذ ما صير إليهم الثواب" (٤).

والرد عليهم من عدة أوجه:

الأول: إن قولهم هذا خلاف الأدلة الصحيحة، من القرآن والسنة وما أجمعت عليه الأمة قبل ظهور المعتزلة، كما أن قولهم هذا مخالف لما اجتمعت عليه كتب اللغة من تعريف الرزق بسائر ما ينتفع به على الإطلاق(٥).

---

(١) شرح الأصول الخمسة، ص٧٨٧.

(٢) رسالة الرد والاحتجاج على الحسن بن محمد بن الحنفية ليحيى بن الحسين الرسي مطبوعة ضمن رسائل العدل والتوحيد (٢/١٦٥).

(٣) شرح الأصول الخمسة، ص٧٨٨.

(٤) رسالة الرد والاحتجاج على الحسن بن محمد ضمن رسائل العدل والتوحيد (٢/١٦١).

(٥) انظر لوامع الأنوار (١/٣٤٤).

الثاني: إن هذا القول يلزم منه أن يكون الإنسان قادراً على أكل رزق غيره، وهذا صريح قول المجوسية، ويلزم منه أيضاً أن يأكل الإنسان رزقه الذي يكتبه الله له، وهذا ظاهر البطلان (١).

الثالث: ويلزم منه أيضاً أن لو أن شخصاً تغذى طول عمره بالحرام لكان لازم قولهم: إن الله تعالى لم يرزقه شيئاً وهذا خلاف ما أجمعت عليه الأمة، "أن لا رازق إلا الله".

ويقال لهم أيضاً من أطعم غيره طعاماً مغصوباً إلى أن مات، فيلزم من قولكم إن هذا الإنسان رزقه غير الله، وهذا إقرار بوجود رازقين الأول يرزق الحلال، والثاني يرزق الحرام (٢).

الرابع: أن الله تعالى قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الروم: ٤٠].

فدل على أن الله تعالى متفرد بالخلق، والرزق، والإماتة، والإحياء، فلو أخرجنا الرزق منها لكان في هذا تفريق بين المتماثلات بغير دليل، فثبت أن الله الخالق الرازق، المحيي المميت، ولا يجوز أن يقع في ملكه سبحانه ما لا يريد (٣).

---

(١) انظر حادي الأرواح ص٣٨٣، وانظر لوامع الأنوار (١/٣٤٤).

(٢) انظر الإبانة (١٨٥ -١٨٦) وانظر التمهيد ص ٣٧٠ -٣٧١، وانظر أصول الدين (١٤٤ -١٤٥، وانظر المواقف ص ٣٢٠، وانظر الفقه الأكبر مع شرحه القاري، ص١١٤، وانظر لوامع الأنوار (١/٣٤٤)، وانظر شرح النونية لأحمد عيسى (٢/٢٣٥).

(٣) انظر التمهيد، ص٣٧٠ -٣٧١.

الخامس: في قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس: ٣١]

فالمشركون مقرون، بأن الله رازقهم، ولم يؤثر عنهم إنكار ذلك، مع كفرهم وعنادهم، فأصبحت المعتزلة شراً منهم من هذا الوجه.

السادس: إن احتجاجهم بقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا ﴾ [يونس: ٥٩]. الآية.

فلا دليل فيه إذ الآية نزلت في المشركين، الذين يحرمون السوايب والحام والوصيل على ما سبق بيانه [١]، وإن كان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو مقرر في الأصول، فلا دليل لهم في الآية إذ هي ذم لكل من حرم الحلال، وأحل الحلال، فالاستدلال بها في غير محل النـزاع.

السابع: أن تخصيصهم الرزق بما يصح تملكه [٢]، باطل إذ يلزم منه أنه طعام البهيمة، والطفل من ثدي أمه، لا يسمى رزقاً، لأنهما لا يملكانه، فلا يكون رزقاً لهما وهذا خلاف قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ [هود: ٦] الآية.

كما أنه لا يلزم أن من رزقه تعالى للحرام، أن يباح تملكه [٣] كما سبق بيان ذلك [٤] وأما زعمهم أن في هذا نسبة الرب تعالى للظلم

---

(١) انظر ص وما بعدها.
(٢) انظر شرح الأصول الخمسة ص٧٨٤.
(٣) انظر الإبانة ١٨٦ -١٨٧، وانظر الاعتقاد للبيهقي ص٩٦، وانظر الفقه الأكبر مع شرحه ص١١٤.
(٤) انظر ص وما بعدها.

والعدوان – فسيأتي الرد عليه إن شاء الله تعالى في الفصل القادم [١] .
وبهذا يتبين بطلان قولهم هذا [٢] .

---

(١) انظر ص وما بعدها.
(٢) قال ملا على القاري في شرحه للفقه الأكبر ص ١١٤ "وللشيخ أبو الحسن الرستغني، وأبو إسحاق الإسفرايني ما حققا الخلاف في هذه المسألة، وقالا الخلاف لفظي لا حقيقي قيل وهو الصواب" ا.هـ، والصواب إن هذا غير صحيح والخلاف ليس لفظياً، إذ هو يعود إلى فساد اعتقاد المعتزلة وقولهم بوجوب فعل الأصلح على الله، ومسألة التحسين، والتقبيح، بناء على أصولهم المنهجية في تقديم العقل على النقل، فالخلاف بينهم وبين أهل السنة خلاف في المنهج، مما كان سبب ضلالهم وبعدهم عن الحق والعياذ بالله.

زيادة الرزق ونقصانه:

إن الرزق الذي قدره الله تعالى وكتبه في اللوح المحفوظ، لا يزيد ولا ينقص، ولا يتغير، وفي الحديث عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: "إن الله عز وجل وكل بالرحم ملكاً، يقول: يا رب نطفة، يا رب علقة، يا رب مضغة، فإذا أراد أن يقضي خلقه قال: أذكر أم أنثى، شقي أم سعيد فما الرزق والأجل، فيكتب في بطن أمه" (١).

وهذا التقدير العمري عند خلق النطفة، وهو تفصيل لما سبق كتابته في اللوح المحفوظ.

أما ما كتبه الله تعالى، وأطلع عليه الملائكة في الصحف التي بأيديهم فيزيد بالأسباب التي يطرقها العبد، وهي نوعان:

الأول: أسباب دينية كصلة الرحم كما في الحديث عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من سره أن يبسط له في رزقه أو ينسأ له في أثره، فليصل رحمه" (٢).

ومن الأسباب أيضاً الدعاء والبر وتقوى الله قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٢ -٣]. الآية.

واجتناب البغي، وظلم العباد، والربا، وأكل مال اليتيم.

الثاني: أسباب طبيعية، ومادية، كالسعي للرزق، وبذل الجهد، واختيار الأزمان المناسبة، وحسن اختيار المكاسب النافعة .. ونحو ذلك.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري في كتاب البيوع، باب: من أحب البسط في الرزق، رقم ١٩٦١ (٧٢٨/٢ -٧٢٩) ورواه أيضاً في كتاب الأدب، باب: من بسط له في الرزق بصلة الرحم رقم ٥٦٣٩ (٢٢٣٢/٥) عن أبي هريرة – رضي الله عنه – به بلفظ (وينسأ)، ورواه مسلم في كتاب البر والصلة، باب: صلة الرحم وتحريم قطيعتها رقم ٢٥٥٧ (١٩٨٢/٤) بعدة روايات.

وهذه الأسباب والمسببات كلها بقدر الله تعالى، ومشيئته، فقد علم تعالى أن هذا العبد يصل رحمه فزاد رزقه وأجله، وعلم أن آخر يقطع رحمه فنقص في رزقه وأجله، وهذا مما لا تعلمه الملائكة، فالزيادة والنقصان في صحفهم، دون ما سبق كتابته في اللوح المحفوظ [١] .

ومع تقدير الله للعبد الرزق، فيجب عليه طرق الأسباب في طلب الرزق وهذا لا ينافي التوكل، بل من ظن فهو ضال، ومثله كمن رجا أن يولد له من غير نكاح ولا وطء قال بعض العلماء: "الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب المأمور بها قدح في الشرع" [٢] .

وقال بعض العلماء إن الزيادة في الرزق، إنما هي البركة فيه، لأن الصلة صدقة والصدقة تنمي المال، وتباركه، وقيل إن رزقه يكتب مقيداً بشرط صلة الرحم، ونحو ذلك من أسباب الرزق [٣] ، وسيأتي الجمع بين هذه الأقوال في الأجل [٤] إن شاء الله.

ثانياً: الأجل

الأجل في اللغة: "مدة الشيء" [٥] سواء كان هذا الشيء موتاً، أو حلول دين، أو عدة طلاق .. أو نحوه [٦] .

---

(١) انظر مجموع الفتاوى (٥٤٠/٨ -٥٤١)، وانظر الدرة البهية شرح تائية شيخ الإسلام ص٧٠ -٧٢.
(٢) مجموع الفتاوى (٥٢٨/٨).
(٣) انظر فتح الباري (٣٥٣/١١ -٣٥٤).
(٤) انظر ص ٤٤١.
(٥) الصحاح (١٦٢١/٤).
(٦) انظر النهاية في غريب الحديث (٢٦/١)، وانظر لسان العرب، وانظر بصائر ذوي التمييز (١٠٨/٢).

وأما في الاصطلاح: فالمراد "بالأجل المضاف زمان تبطل فيه الحياة قطعاً من غير تقدم ولا تأخر" (١) .

فلكل إنسان أجل محدود لا يتقدمه، ولا يتأخر عنه، سواء مات حتف أنفه (٢) أو مات قتيلاً، أو هدما، أو هرماً، أو غرقاً، وهذه الأمور جعلها الله تعالى أسباباً للموت، مع علم الرب تعالى بما كان، وما يكون من تلك الأسباب إذ قد كتبها في اللوح المحفوظ، وشاءها، وخلقها، ومع ذلك من قتل مسلماً بغير حق عوقب لقتله، ويجب القصاص منه، إلا أن يعفو أولياء المقتول ومن قتل كافراً محارباً فله الأجر والثواب من عند الله تعالى.

ودليل هذا من سورة يونس – عليه السلام – في قوله تعالى: ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [يونس: ٤٩] وقوله: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [يونس: ١٠٤].

وفي الحديث عن أم حبيبة زوج النبي ﷺ قالت: "اللهم أمتعني بزوجي رسول الله ﷺ وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية، قال فقال النبي ﷺ: لقد سألت الله لآجال مضروبة، وأيام معدودة، وأرزاق مقسومة، لن يعجل شيئاً قبل حله، أو يؤخر شيئاً عن حله، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب في النار، أو عذاب القبر، كان خيراً وأفضل" (٣) .

---

(١) لوامع الأنوار (١/٣٤٩).

(٢) أي على فراشه من غير قتل ولا غرق ولا حرق "القاموس المحيط ص١٠٣٢.

(٣) رواه مسلم في كتاب القدر، باب بيان أن الآجال والأرزاق وغيرها لا تزيد ولا تنقص عما سبق به القدر رقم ٢٦٦٣ (٤/٢٠٥٠ -٢٠٥١) ورواه الإمام أحمد في مسنده (١/٣٩٠) عن وكيع به بلفظه (أنك سألت ..) الحديث.

قال الإمام النووي – رحمه الله – : "وهذا الحديث صريح في أن الآجال والأرزاق مقدرة لا تتغير عما قدره الله تعالى وعلمه في الأزل فيستحيل زيادتها ونقصها حقيقة عن ذلك .." ا.هـ (١) .

وخالف بعض المعتزلة في ذلك قال القاضي عبدالجبار الهمذاني :

"الخلاف في المقتول لو لم يقتل كيف كان يكون حاله في الحياة والموت؟ فعند شيخنا أبي الهذيل أنه كان يموت قطعاً لولاه وإلا يكون القاتل قاطعاً لأجله وذلك غير ممكن، وعند البغدادية أنه كان يعيش قطعاً، والذي عندنا أنه كان يجوز أن يحيا ويجوز أن يموت، ولا يقطع على واحد من الأمرين فليس إلا التجويز" ا.هـ (٢) .

ثم ذكر ما استدل به البغداديون، ومن الأدلة التي ذكرها – ما يلي :

١ - قالوا : "إنا نعلم من حيث العادة أن الجماعة الكبيرة، لا تموت دفعة واحدة، وإن كنا نجوز أن يقتلوه دفعة واحدة" (٣) .

٢ - إنه يعيش قطعاً، لأن لو لم يعش لكان يكون القاتل ظالماً له (٤) .

ومعلوم إن هذا القول خلاف ما اجتمعت عليه أهل السنة والجماعة، والدليل على بطلان هذا القول واضح، وبيان ذلك من أوجه :

الأول : ما تظاهرت عليه النصوص القطعية، من القرآن والسنة على إثبات أن الأجل بقدر الله، وأنه لا يتقدم ولا يتأخر، وقد سبق

(١) شرح مسلم (٢١٣/١٦).
(٢) شرح الأصول الخمسة، ص٧٨٢.
(٣) المرجع السابق، ص٧٨٣.
(٤) المرجع السابق ونفس الصفحة، وانظر أصول الدين ١٤٢ -١٤٣، وانظر المواقف ص٣٢٠.

بعضها (١) ومنها أيضاً قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤] وقوله: ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون: ١١].

الثاني: إن قولهم هذا يلزم منه أن يكون القاتل قادراً على قطع أجل المقتول، وهو قادر على تأخيره، فصار الأجل بيد الإنسان، وهذا باطل (٢).

الثالث: لو فرضنا أن الله علم أنه لا يقتل، أمكن أن يكون قدر موته في هذا الوقت، وأمكن أن يكون قدر حياته إلى وقت آخر، فالجزم بأحد هذين على التقدير الذي لا يكون جهل (٣).

الرابع: ومن بطلان هذا القول، فساد القول: إنه يجب أن تكون المرأة التي لو عاش لتزوجها زوجة له، والقول: إن النار مثوى هذا المقتول لأنه لو عاش لكفر، أو العكس، فدل المنع من ذلك على بطلان قولهم لو لم يقتل لعاش (٤).

أما زعمهم بأن العادة جرت على عدم موت الجماعة في وقت واحد، فهذا يرد عليه بأمرين:

الأول: إن هذا مخالف للحس والواقع، فالعادة جرت بذلك، وقد يموت الآلاف دفعة واحدة بمرض كالطاعون أو غيره (٥).

الثاني: إن الكلام هنا على قدرة الله تعالى ومشيئته، فلو شاء أن يموت من في الأرض كلهم جميعاً دفعة واحدة لماتوا.

---

(١) انظر ص .
(٢) انظر الإبانة ص ١٨٤ -١٨٥.
(٣) مجموع الفتاوى (٥١٧/٨ -٥١٨).
(٤) انظر الإبانة ص ١٨٤، وانظر التمهيد، ص٣٧٥ -٣٧٦.
(٥) انظر شرح الأصول الخمسة ص٧٨٣ -٧٨٤، وانظر المواقف ص٣٢٠.

أما عن ظلم القاتل للمقتول، ولو مات بأجله لم يكن ظالماً، فهذا مرجعه عدم تفريقهم بين الإرادة والمشيئة، وبين المحبة والرضا، وهذا من أسباب ضلالهم كما سيأتي [(١)] — إن شاء الله — فالقتل هنا بمشيئة الله تعالى، وهو لا يحبه ولا يرضاه بل نهى عنه، ولا يصح أن يقال إنه بغير مشيئته تعالى، إذ لا يقع في ملكه إلا ما يريد، فلا تعارض إذن والحمد لله.

زيادة الأجل ونقصانه:

وردت بعض النصوص التي تدل على زيادة الأجل ونقصانه كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [فاطر: ١١] وقوله: ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [نوح: ٣ -٤].

وحديث "من سره أن يبسط له في رزقه أو ينسأ له في أثره، فليصل رحمه" [(٢)] وتحقيق القول في ذلك كما سبق في زيادة الرزق ونقصانه، فالأجل أجلان:

١ - مطلق، وهذا لا يعلمه إلا الله تعالى، وهو لا يتغير، ولا يتبدل بل هو كما أثبت في اللوح المحفوظ.

٢ - أجل مقيد: وهو ما اطلعت عليه الملائكة في صحفهم، فإذا وصل المرء رحمه أمر الله تعالى الملائكة بزيادة أجله، وإذا قطعها أمر الله

---

(١) انظر ص ٤٥٢ وما بعدها.

(٢) سبق تخريجه.

تعالى بنقص أجله، فهذه زيادة الأجل ونقصانه، مع ثبوته عند الله تعالى وفي سابق علمه [١].

وقيل: إن نقصان الأجل وزيادته، إنما هو ما يطرحه الله تعالى في العمر من البركة، بحيث يهيئ له أسباب التوفيق، فيعمل العمل الكبير في الزمن القليل [٢].

وقيل: إن نقصان العمر بالمعاصي، إنما هو في تأثيرها على القلب، لأن الحياة الحقيقية حياة القلب، فإذا عصى الله تأثر قلبه بهذه المعصية، فحرم من الحياة بقدر معصيته، ولهذا سمى الله تعالى الكافر ميتا [٣] قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢] الآية.

ولا تنافي بين هذه الأقوال بل يمكن الجمع بينها فيقال: إن الزيادة والنقصان في صحف الملائكة التي بأيديهم، دون ما ثبت في أم الكتاب، وهذا الشخص الذي فعل الأسباب الموصلة لرضا الله من صلة الرحم، وتقوى الله تعالى، وغير ذلك لاشك أن الله تعالى يجعل في رزقه وفي عمره البركة، ويزيده من الإيمان، وانشراح الصدر بقدر طاعته، والله أعلم.

---

(١) انظر شرح مسلم للنووي (٢١٣/١٦)، وانظر مجموع الفتاوى (٥١٧/٨) وانظر فتح الباري (٤٣٠/١٠)، وانظر لوامع الأنوار (٣٤٩/١).

(٢) انظر الداء والدواء ص ٧٧، وانظر فتح الباري (٣٠/١٠).

(٣) انظر الداء والدواء، ص٧٧.

الفصل الثالث
في الهداية والإضلال

إن مسألة هداية الله تعالى للعبد وإضلاله له هي قلب أبواب القدر، ومسائله – كما سماها ابن القيم رحمه الله – لأن أعظم نعمة الهداية، وأعظم مصيبة هي مصيبة الضلال [١].

الهدى لغة: ضد الضلال، وهو الرشاد والدلالة [٢]، ويأتي بمعنى الاقتداء بالشيء كما يقال هَدَى هَديه [٣]، وبمعنى التعريف والبيان كقولهم "هديته الطريقَ والبيت هدايةً، أي عرفته" [٤].

وأما تعريفها شرعاً:

فالهداية في كتاب الله تعالى أربع مراتب كما ذكرها المحققون من العلماء:

الأولى: الهداية العامة: وهي هداية كل مخلوق لما يصلح أمور معاشه، وهي أعم المراتب، وهي شاملة لجميع المخلوقات ودليلها قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝﴾ [طه: ٥٠].

قال ابن جرير – رحمه الله – عند تفسير هذه الآية: "يعني نظير خلقه في الصورة والهيئة كالذكور من بني آدم، أعطاهم نظير خلقهم من الإناث أزواجاً، وكالذكور من البهائم، أعطاها نظير خلقها، وفي

---

(١) انظر شفاء العليل ص ١١٧.
(٢) الصحاح (٢٥٣٣/٦)، وانظر تهذيب الأسماء واللغات للنووي (١٨٠/٣)، وانظر لسان العرب (٣٥٣/١٥)، وانظر القاموس المحيط، ص١٧٣٣.
(٣) انظر الصحاح (٢٥٣٤/٦)، وانظر لسان العرب (٣٥٦/١٥).
(٤) المرجع السابق (٢٥٣٣/٦)، وانظر لسان العرب (٣٥٤/١٥ -٣٥٥).

صورتها وهيئتها من الإناث أزواجاً، فلم يعط الإنسان خلاف خلقه فيزوجه بالإناث من البهائم، ولا البهائم بالإناث من الإنس، ثم هداهم للمأتى الذي منه النسل والنماء كيف يأتيه، ولسائر منافعه من المطاعم والمشارب" ا.هـ (١) .

وجماع القول: إن هذه الهداية تعم جميع المخلوقات، وتعم سائر أمور المعاش من نكاح، وطعام وشراب، وجميع السلوك التي يهدي الله تعالى مخلوقاته لعملها من غير تعليم سابق كهداية النمل إلى تنظيم طرق المعاش وخزن الطعام وغير ذلك مما يحار العقل البشري فيه فسبحان من خلق فسوى ثم قدر فهدى (٢) .

الثانية: هداية الإرشاد والدعوة والبيان، وهي أخص من التي قبلها حيث إنها مختصة بالمكلفين من الخلق، والمراد بها دعوة الخلق وبيان الحق لهم، وهي حجة الله على خلقه، فلا يعذب أحداً إلا بعد إرسال الرسلُ وإنزال الكتب قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ [النساء: ١٦٥] ، ويقول تعالى في سورة يونس: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [يونس: ٤٧] .

وهذه الهداية هي التي أثبتها الله عز وجل لنبيه ﷺ في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى: ٥٢] .

وهي ثابتة من بعده للعلماء، والدعاة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ولكن تحقق الهداية الخاصة ليس موجباً، ولكنها شرط في حصولها أي هداية البيان والإرشاد، وتخلف الهداية الخاصة، إما لوجود

---

(١) جامع البيان (١٦/١٧١).

(٢) انظر شفاء العليل، ص١١٧ -١٣٩.

مانع، أو لعدم كمال السبب، ولكن حجة الله قائمة بهذه الهداية بعدة أمور — كما سبق — وهي:

١ - في الآيات السمعية وهي متمثلة فيما يلي:

أ - إرسال الرسل.

ب - إنزال الكتب، بما فيها من الحق والبيان.

٢ - البيان بالآيات الكونية والنظر في الآفاق، قال تعالى: ﴿ **قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١** ﴾ [يونس: ١٠١].

وقد سبق تفصيل ذلك في الباب الأول [1].

٣ - بيان الصراط المستقيم، وإقامة أسباب الهداية، باطناً وظاهراً، ومن لم تكتمل عنده هذه الأسباب لصغر أو لزوال عقل، أو نحو ذلك فهؤلاء رفع عنهم التكليف، ولم يكلفهم الله تعالى إلا ما في وسعهم.

ودليل هذه المرتبة من سورة يونس — عليه السلام — في قوله تعالى: ﴿ **وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٥** ﴾ [يونس: ٢٥] فاشتملت هذه الآية الكريمة على هداية البيان والإرشاد في قوله تعالى: "والله يدعو إلى دار السلام"، وعلى الهداية الخاصة وهي هداية التوفيق والإلهام في قوله تعالى: "ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم" وكذلك جاءت في قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٣** ﴾ [يونس: ١٣] في قوله: ﴿ **ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ**

(١) انظر ص وما بعدها.

قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [يونس: ٧٤].

فهاتان الآيتان اشتملتا على نوعي الهداية — أيضاً — ففي بيان الرسل، ومجيئهم إلى أقوامهم بالبينات هداية إرشاد وبيان، وفي قوله: ﴿ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾. وقوله: ﴿ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ نفي لهداية التوفيق عنهم لظلمهم وهذا كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [فصلت: ١٧].

فهداهم في الهداية الأولى هداية البيان والإرشاد، فأعرضوا عنها لم يقبلوها فعاقبهم الله تعالى بالضلال جزاء إعراضهم وردهم الحق [(١)].

المرتبة الثالثة: هداية التوفيق والإلهام وخلق المشيئة المستلزمة للفعل[(٢)].

وهذه لا يقدر عليها إلا الله سبحانه وتعالى، فمن شاء هدايته اهتدى، ومن شاء ضلاله ضل، وهي أخص مما قبلها إذ هي خاصة للمهتدين من المكلفين، وهي حتمية الوقوع، وهي التي نفاها الله تعالى عن رسوله ﷺ في قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص: ٥٦] ودليلها من سورة يونس — عليه السلام — في آيات كثيرة كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ

---

(١) انظر فيما سبق أصول الدين (١٤١ -١٤٢) وانظر المفردات ٥٣٨، وانظر شفاء العليل (١٣٩ -١٤١)، وانظر مدارج السالكين (١/ ٤٢ -٤٣).

(٢) شفاء العليل، ص١٤١.

بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [يونس: ١٩] وقوله كما سبق بيان ذلك: ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [يونس: ٢٥] وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [يونس: ٣٣] وقوله: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [يونس: ٣٥] وقوله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يونس: ٤٠] وقوله: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [يونس: ٧٤] وقوله: ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [يونس: ٨٨]. وقوله: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [يونس: ٩٩ -١٠٠].

وهذه المرتبة ضل فيها القدرية المجوسية، والجبرية [(١)]. وسيأتي بيان ضلالهم قريباً — إن شاء الله —.

---

(١) انظر شفاء العليل ص١٤١، وانظر مدارج السالكين (٤٣/١)، وانظر المفردات ٥٣٨ والجبرية: هم مثبتة القدر وينقسمون إلى قسمين ١ - الجبرية المحضة أتباع الجهم بن رضوان حيث قالوا: إن العبد ليست له إرادة ولا قدرة وإنما تنسب إليه الأفعال مجازاً، وإلا فالفاعل الحقيقي لها هو الله، وما العبد إلا كالريشة في مهب الريح، وكان ظهورهم بعد ظهور القدرية، وذلك في أواخر دولة بني أمية. ٢ - الجبرية المتوسطة من الأشاعرة والماتريدية ونحوهم القائلين إن الله تعالى خلق أفعال العباد، وقدرها وشاءها ثم أثبتوا للعبد قدرة غير مؤثرة في الفعل وهي ما يسمى عندهم بالكسب، انظر المقالات ص ٢٧٩، وانظر الفرق ص١٩٩، وانظر الملل والنحل (٨٧/١)، وانظر اعتقادات فرق المسلمين والمشركين وما بعدها.

المرتبة الرابعة: الهداية إلى طريق الجنة أو طريق النار — والعياذ بالله — وهذه الهداية تكون في الآخرة بعد الحساب والجزاء.

ودليلهما من السورة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ ﴾ [يونس: ٩].

فالباء هنا (بإيمانهم) يحتمل أن تكون سببية، فيكون المعنى يهديهم ربهم بسبب إيمانهم إلى اجتياز الصراط، ودخول جنات النعيم، ويحتمل أن تكون للاستعانة، فيصبح العمل قائداً ودليلاً إلى الجنة، أو يهيئ الله تعالى لهم نوراً يقودهم إلى الجنة، كما جاء في بعض الأحاديث والآثار(١)، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ ﴾ [محمد: ٤ -٥].

وهذه الهداية حاصلة لهم بعد قتلهم، فدل على أن المراد بها هداية إلى طريق الجنة على القول الراجح(٢).

وفي هداية أهل النار إلى النار يقول تعالى: ﴿ ۞ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الصافات: ٢٢ -٢٣](٣).

وأما الضلال فهو ضد الرشاد والهدى "ضل الشيء يضل ضلالاً، أي ضاع وهلك"(٤).

وإضلال الله تعالى للعبد نوعان:

---

(١) انظر جامع البيان (١١/ ٨٨ -٨٩)، وانظر ابن كثير (٣/٤٨٦).
(٢) انظر شفاء العليل، ص١٤٨.
(٣) انظر فيما سبق شفاء العليل، ص١٤٨، بدائع الفوائد (٢/٣٧).
(٤) الصحاح (٥/١٧٤٨)، وانظر بصائر ذوي التمييز (٣/٤٨١ -٤٨٥).

الأول: ضلال على الصراط المستقيم، وهذا ضلال في العلم، فلا يهتدي إليه، ويكون هذا نتيجة إعراضه وصده عن الحق، فعاقبه الله تعالى بالضلال لأنه لا يصلح إلا للضلال وليس أهلاً للهداية، فمن رحمة الله تعالى بعباده أنه لا يعذب العباد بموجب علمه السابق، وإنما يرسل الرسل وينزل الكتب، ثم بعد ذلك يحاسب العباد على أعمالهم، وما اقترفته أيديهم فيجازيهم به.

الثاني: ضلال في الصراط، ويسمى ضلال القصد والعمل، فيهتدي إلى طريق الهداية، ولكنه يضل في كثير من تفاصيلها، أو يضل في جميع تفاصيلها فلا يهتدي إلى شيء من ذلك، وهذا النوع دون ما قبله (١).

قال الإمام الطحاوي – رحمه الله – :

"يهدي من يشاء، ويعصم ويعافي فضلاً، ويضل من يشاء، ويخذل ويبتلي عدلاً" (٢) وقال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – :

"مما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها، مع إيمانهم بالقضاء والقدر وأن الله خالق كل شيء وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه يضل من يشاء، ويهدي من يشاء وأن العباد لهم مشيئة وقدرة يفعلون بمشيئتهم وقدرهم ما أقدرهم الله عليه، مع ولهم: إن العباد لا يشاؤون إلا أن يشاء الله (٣).

وقد خالف القدرية أهل السنة والجماعة في هذه المسألة، فقالوا: "إن الهدى على وجهين: هدى دليل وبيان، فقد هدى الله بهذا الهدى كل

---

(١) انظر شفاء العليل ص٧١، ص١٤٣.
(٢) شرح العقيدة الطحاوية، ص١٠٨.
(٣) مجموع الفتاوى (٨/٤٥٩).

مكلف بالغ، الكافر منهم والمؤمن [١]، وهدى هو الثواب والنجاة، فلا يفعل الله هذا الهدى إلا بالمؤمنين المطيعين القائلين عن الله وعن رسوله ﷺ [٢].

وأما الضلال ففسروه بأمور:

١ - العقاب والهلاك عقوبة لكفرهم حيث قالوا: "إن قيل: أفتقولون: إن الله أضل الكافرين؟ قيل له: نقول: إن الله أضلهم، بأن عاقبهم وأهلكهم عقوبة لهم على كفرهم، ولم يضلهم عن الحق ولا أضلهم بأن أفسدهم، جل وعز عن ذلك" [٣].

٢ - إنَّ معنى أضلٍ الله، سماه ضالاً [٤].

٣ - وفسروه أيضاً بترك التوفيق والسداد وهو ما يسمى عندهم الخذلان [٥].

وقال بعض المعاصرين من القدرية: "لقد ثبت بالدليل القاطع إن الإنسان يعيش في هذه الحياة ضمن دائرتين اثنتين لا ثالث لهما، أما الدائرة الأولى: فهي التي تنفذ فيها إرادة الله تبارك وتعالى ومشيئته الكونية، وفيها جعل الله تعالى الإنسان يسير بحسبها وعلى مقتضاها سيراً مجبراً لا إرادة له فيها ولا اختيار .. وأما الدائرة الثانية: فهي التي

---

(١) هذه لا تخالفهم فيها، وهي المرتبة الثانية من مراتب الهداية.

(٢) رسالة إنقاذ البشر من الجبر والقدر للشريف المرتضي (٣٢٣/١١) ضمن رسائل العدل والتوحيد وانظر المقالات ص ٢٢٧، (٢٥٩ - ٢٦١).

(٣) رسالة إنقاذ البشر من الجبر والقدر (٣٢٥/١).

(٤) انظر رسالة الرد على المجبرة القدرية ليحي بن الحسين الرسي ضمن رسائل العدل والتوحيد (٨١/٢ - ٨٢) وانظر (٨٤/٢ - ٨٥).

(٥) انظر المرجع السابق (٨٢/٢)، وانظر المقالات ٢٦٠، وانظر الكشاف (٢٢/٢)، (٣٧٢/٢ - ٣٧٣).

تنفذ فيها إرادته ومشيئته الشرعية، وفيها جعل الله تعالى الإنسان يسير فيها سيراً اختيارياً، بحيث لا مكره له فيها ولا مجبر" (١) ثم قال: "فالإنسان في أفعاله الاختيارية ضمن هذه الدائرة التي يسيطر عليها لا علاقة لأفعاله فيما يتعلق بالقضاء ولا دخل للقضاء بها، وذلك لأن الأفعال الاختيارية لا تدخل تحت بحث القضاء أو القدر، وإنما تدخل تحت بحث الأحكام الشرعية" (٢) .

فتأمل قوله هذا وما فيه من الضلال، إذ جعل أفعال العباد كلها لا علاقة لها بالقضاء والقدر، ومما يعجب له عنوان كتابه فقد سماه "مسألة القضاء والقدر ونشأتها لدى الفلاسفة والمتكلمين، بحثها على مقتضى منهج السلف"!! فأي سلف يريد؟! هل يريد أسلافه من القدرية النفاة؟ أم يريد سلف الأمة وأئمتها؟! وحاشاهم عن هذا القول الباطل الذي يخرج أفعال العباد عن دائرة إرادة الله ومشيئته فيجري في ملكه ما لا يريد.. وبطلان هذا القول وغيره من أقوال القدرية سيأتي إن شاء الله.

واستدلوا بأدلة كثيرة من النقل والعقل، ومن أدلتهم:

١ - قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧] فقالوا: "فقد خبر الله أنه هدى ثمود الكفار فلم يهتدوا، فأخذتهم الصاعقة بكفرهم" (٣) .

٢ - استدلوا بالآيات التي فيها إثبات مشيئة العباد كقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ [الكهف: ٢٩].

---

(١) مسألة القضاء والقدر لعبدالحليم محمد قنبس، ص١٣٩ -١٤٠.
(٢) المرجع السابق، ص١٤٥.
(٣) رسالة إنقاذ البشر من الجبر والقدر، ضمن رسائل العدل والتوحيد (١/ ٣٢٤).

٣ - استدلوا أيضاً بالآيات الدالة على أن العباد يصدر منهم الإيمان والكفر كقوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾ [الإسراء:٩٤] .

فقالوا "فلو كان الإيمان من جهة الله تعالى وموقوفاً على اختياره، حتى إن خلق كان، وإن لم يخلق لم يكن، لكان لا يكون لهذا الكلام معنى، لأن للمكلف أن يقول: الذي منعني منه أنك تخلقه فيَّ، وخلقت فيَّ ضده الذي هو الكفر [١] .

وهذه الأدلة النقلية استدلوا بها لأنها توافق العقل كما زعموا وإلا فهذه المسألة لا يستدل بالسمع عليها على حد زعمهم [٢] .

وأما أدلتهم العقلية فكثيرة منها:

إن الله تعالى "لو أراد المعاصي، والقبائح والكفر لوجب أن يكونوا مطيعين لله تعالى بمعاصيهم، لأنهم فعلوا ما أراد الله تعالى" [٣] .

ومنها: أنه تعالى لو خلق الأفعال بما فيها من ظلم وفسق، لوجب كونه تعالى ظالماً جائراً [٤] .

ولما رأت الجبرية شناعة هذا القول وفظاعته فروا إلى شر منه فقالوا "إنه لا فعل لأحد في الحقيقة إلا الله وحده، وإنه هو الفاعل وإن الناس إنما تنسب إليهم أفعالهم على المجاز، كما يقال: تحركت الشجرة ودار

---

(١) شرح الأصول الخمسة ص٣٦٠، وانظر في سرد أدلتهم النقلية رسالة الرد على المجبرة ضمن رسائل العدل والتوحيد (٣٩/٢)، وما بعدها.

(٢) انظر شرح الأصول الخمسة، ص٣٥٤ -٣٥٥.

(٣) المرجع السابق ص٤٦٠، وانظر رسالة الرد على المجبرة (٥٨/٢) وما بعدها.

(٤) انظر المرجع السابق، ص٣٤٥، وانظر أدلتهم العقلية في رسالة الرد على المجبرة ضمن رسائل العدل والتوحيد (٥٤/٢ وما بعدها).

الفلك وزالت الشمس، وإنما فعل ذلك بالشجرة والفلك والشمس الله سبحانه .." [١] فعلى هذا فهداية المهتدي فعل الله، لا دخل للعبد فيها إطلاقاً، بل كما خلق له طولاً كان به طويلاً، ولونا ونحو ذلك [٢]، فيسلبون العبد القدرة تماماً على الفعل وهؤلاء الجبرية الغلاة أصحاب جهم بن صفوان.

وأما الجبرية المتوسطة من الأشاعرة والماتريدية ونحوهم فقالوا: إن الله خلق أفعال العباد وقدرها، وشاءها، ثم أثبتوا للعبد قدرة غير مؤثرة في الفعل، وهو ما يسمى عندهم كسباً وهم مختلفون في تعريفه اختلافاً كبيراً.

فمنهم من عرفه بأنه "ما يقع به المقدور في محل قدرته" [٣] وقيل الكسب: "ما وقع من الفاعل مقارناً لقدرة محدثه اختياراً" [٤] وهذا التعريف لا فرق بينه وبين سابقه.

وقيل: "هو ما خلقه الله تعالى في محل قدرة المكتسب على وفق إرادته في كسبه" [٥].

ووجه المشابهة بين قولهم هذا وقول جهم إنهم يقولون: "إن العبد ليس بفاعل حقيقة، وإنما هو كاسب حقيقة، ويثبتون مع الكسب قدرة لا تأثير لها في الكسب .. ولكن قرنت به من غير تأثير، وزعموا أن كل ما في الوجود من القوى والطبائع والأسباب العلوية والسفلية كقدرة

---

(١) مقالات الإسلاميين، ص٢٧٩.

(٢) انظر المرجع السابق ونفس الصفحة، وانظر الفتاوى (٨/٤٤٥).

(٣) شرح جوهرة التوحيد ص١٠٤، وانظر أصول الدين ١٣٣ -١٣٤.

(٤) جلاء العينين ص٢٦٥، وانظر الإنصاف للباقلاني، ص٧١، وانظر كتاب التوحيد للماتريدي، ص٢٥٦ وما بعدها.

(٥) جلاء العينين، ص٢٦٦.

العبد لا تأثير لشيء منها، فيما اقترنت به من الحوادث والأفعال والمسببات بل قرن الخالق هذا بهذا لا لسبب ولا لحكمة أصلاً" (١) .

وهم لم يميزوا بين الفعل والمفعول، ولا بين الخلق والمخلوق، ومما يؤسف له أن يحكى هذا المذهب عن أهل السنة والجماعة، وهم منه براء ومذهب أهل السنة كما سبق بيانه وسط بين القدرية والجبرية (٢) .

وكلا الطائفتين معهم حق وباطل، وهدى الله تعالى أهل السنة والجماعة للقول الوسط الذي يجمع بين الحق.

وقبل سرد الأدلة من سورة يونس التي تبطل دعواهم أود بيان بعض الأسباب التي كانت سبب ضلالهم وانحرافهم عن الحق.

فمنها: عدم استطاعتهم أن يجمعوا بين العدل والقدر، لأن القدر عندهم أن يعاقب العبد على ما قضاه الله وقدره عليه، والعدل ينافي ذلك – على زعمهم – فنفوا القدر ليثبوا العدل، فصار عدلهم تكذيباً بالقدر، كما أن توحيدهم نفي الصفات وتعطيل الكمال (٣) .

ومنها: اعتقادهم أن الإرادة تستلزم الأمر فما أراده الله تعالى فقد أمر به، ولم يفرقوا بين الإرادة الكونية القدرية، والإرادة الشرعية الدينية المستلزمة للأمر ويبطل قولهم هذا إجماع المسلمين على أن الله لم

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/٤٦٧ -٤٦٨).

(٢) قال الإمام السفاريني – رحمه الله – عند حكايته مذاهب الناس في القدر: "وأما المتوسطون فهم أهل السنة والجماعة فلم يفرطوا تفريط القدرية النفاة، ولم يفرطوا إفراط الجبرية المحتجين بالقدر على معاصي الله، وهؤلاء على مذهبين مذهب الأشعري ومن وافقه من الخلف، ومذهب سلف الأمة وأئمة السنة .. ا.هـ" لوامع الأنوار (١/١١) ثم فصل في ذكر مذاهبهم، وكان الأولى ألا يقرن مذهب الأشاعرة بمذهب أهل السنة والجماعة، لأنه يخالف ما عليه أهل السنة والجماعة كما سيأتي، وانظر كتاب الشيخ السويح في بيان الهدى من الضلال في الرد على صاحب الأغلال (٢/٢٠٤).

(٣) انظر الفوائد ص٤٨.

يأمر بالسرقة ومن قال بذلك كفر، ومع ذلك إذا سرق فلا يقال: إن الله تعالى لم يرد سرقته، ولكن نقول: علم الله تعالى ذلك وشاءه، ومع ذلك جعل للعبد قدرة واختياراً على الفعل، وهو مسؤول عن عمله ومعاقب عليه وإقامة الحد عليه بقدر الله (١).

ومنها: قولهم بنفي نسبة القبيح إلى الله تعالى، وهو ضلال، لأن الفعل القبيح ينسب إلى الله تعالى خلقاً لا فعلاً فالخلق غير المخلوق، والفعل غير المفعول، وإلا لزم إثبات خالق مع الله (٢).

ومن أسباب ضلال الجبرية عدم تفريقهم بين نوعي فعل العبد وهي:

١ - ما يصدر منه من أفعال بغير إرادته ولا قدرته كحركة الارتعاش فهذا الفعل يوصف به ولا ينسب إليه.

٢ - ما يصدر منه من أفعال بمحض إرادته وقدرته، كجميع أفعاله الاختيارية، بما فيها الطاعات والمعاصي فهذه إليه صفة وفعلاً (٣).

ومن أسباب ضلالهم نفي المحبة والبغض والحكمة (٤).

وسبب ذلك كله أنهم بنوا عقيدتهم على أصل فاسد، فاضطرهم هذا إلى نفي لوازمه فوقعوا في أعظم مما فروا منه.

الرد عليهم من خلال السورة:

أولاً من خلال قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [يونس:٣٣].

---

(١) انظر منهاج السنة (٣/٢٢٩ - ٢٣٠)، وانظر شفاء العليل ص٤٦٥، وانظر لمعة الاعتقاد مع شرحه لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، ص٩٥.

(٢) انظر مجموع الفتاوى (٨/٥١١)، وانظر شفاء العليل، ص١٥٥.

(٣) انظر شرح العقيدة الطحاوية، ص٥١٣ - ٥١٤.

(٤) انظر شفاء العليل، ص٢١٨ وما بعدها.

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يونس: ٩٦].

وقوله: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ [يونس: ٩٩-١٠٠].

والرد عليهم من خلال هذه الآيات مجتمعة يتبين بما يلي:

أولا: أن هداية الله للعبد هداية التوفيق تلزم أمرين:

الأول: فعل الرب تعالى، وهو الهدى.

الثاني: فعل العبد وهو الاهتداء، وهو أثر فعله سبحانه فهو الهادي والعبد المهتدي، ولا سبيل إلى وجود الأثر إلا بمؤثره التام، فإن لم يحصل فعله لم يحصل فعل العبد [(١)] ولهذا قال تعالى: ﴿ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩] وفي هذا بيان أن الله تعالى إذا أراد إضلال عبد لم يستطع أحد هدايته [(٢)] وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ ﴾ رد عليهم أيضاً إذ لو كان المراد هداية البيان والإرشاد، لما صح تقييدها بالمشيئة، إذ هي عامة لجميع الخلق، فدل تقييدها بالمشيئة أنها خاصة لمن آمن واتبع ما أمره الله[(٣)] وقد نفى الله جل وعلا القدرة على الهداية عن النبي ﷺ في قوله تعالى: الآية.

---

(١) شفاء العليل، ص١٤١.

(٢) انظر شفاء العليل، ص١٤١، وعلى هذا يتفق أهل السنة، انظر درء تعارض العقل والنقل (٨/٣٧٩).

(٣) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص١٠٨-١٠٩، وانظر الإبانة ص١٩١.

فلو أعطاها الله لكان أحق بها رسول الله ﷺ ، فالعبد الفقير أعجز من باب أولى عن خلق أي عمل من أعماله بل هو مخلوق بعمله وقدرته وهو إرادته، فتبين أن الله تعالى هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ومن قال: إن ذلك للعبد فقد جعل العبد قادراً على ما يقدر عليه الله تعالى من القدرة والسلطان، ونظيره قول من قال: إن الله أعطى العباد علم ما لم يعلمه، وهذا محال، فكذلك القدرة لا يقدرهم على ما لا يقدر عليه، فمن فرق بينهما فعليه الدليل (١) .

وأما تأويلهم الهدى بأن المراد به الثواب والنجاة (٢) .

فيقال لهم: إذا جاز أن عندكم أن يثبت العبد على فعله الاختياري الذي هو بتوفيق الله له، فلم لا يجوز أن ينعم عليه ابتداء بتوفيقه لهذا العمل واختياره للهدى دون الضلال (٣) .

فلو سأل سائل هل يكون الإيمان مقدوراً للعبد الذي لم يشأ الله له الإيمان، فالجواب على ذلك أن يقال:

إن القدرة التي هي شرط في الأمر موجودة لدى الكافر والمؤمن قبل الفعل، وهي مناط التكليف، وتكون موجودة مع المؤمن عند الفعل، وهو الصحيح أن القدرة توجد قبل الفعل ومعه كما قرر ذلك شيخ الإسلام (٤) ، وأما القدرة التي هي مستلزمة للفعل فلا توجد إلا مع الفعل وهي مختصة بالمطيع وليست شرطاً في التكليف، فالقدرة الأولى عدله أعطاه تعالى جميع خلقه ولم يكلفهم بما لا يطيقون، والثانية

---

(١) انظر الإبانة، ص١٦٧، ٢٠٩، ٢١٠، وانظر الحجة في بيان الحجة (٢/٤١٤ - ٤١٥).

(٢) انظر ص ٤٤٨.

(٣) انظر منهاج السنة (٣/٢٦٣ -٢٦٤).

(٤) انظر الفتاوى (٨/٣٧١ وما بعدها)

فضله يختص به من يشاء، وعلى هذا اتفق علماء السلف والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الحجرات: ٧] فدل على أن الله تعالى اختص المؤمنين بمزيد فضل، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء(١) .

وإضلال الله تعالى للعبد نوعان:

الأول: ما يكون جزاء للكافر على كفره وإعراضه عن الحق، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] .

الثاني: ما يفعله الله تعالى بالعبد ابتداء، لعلمه السابق أنه لا يقدر نعمة الهداية ولا يؤدي حق الله تعالى عليه في شكرها، فهو غير صالح للهداية أصلاً (٢) كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٣] .

ثانياً: في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [يونس: ٢٢].

فقوله تعالى: ﴿ يُسَيِّرُكُمْ ﴾ دليل على خلقه لأفعال العباد، فالتسيير فعل الله والسير فعل العبد، كذلك الهدى والضلال فعله، فهو الهادي وهو المضل، والعبد هو المهتدي وهو الضال، وهذه حقيقة لا مجازاً (٣) .

---

(١) انظر منهاج السنة (٤٤/٣ -٤٥، ٥٤ -٧٢، ١١٨ -١١٩)، وانظر مجموع الفتاوى (٣٧١/٨ وما بعدها) وانظر شفاء العليل، ص١٨٠.

(٢) انظر الفوائد ص ٤٨ -٤٩، وانظر عقيدة المسلمين والرد على الملحدين للبليهي (٢٩٧/٢ -٣٠٠).

(٣) انظر منهاج السنة (١١١/٣ -١١٢)، انظر شفاء العليل، ص١٠٦.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس: ٤٤] وقوله: ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٥٤] .

وفي هاتين الآيتين نفي للظلم عن الله تعالى، فإذا أمر الله عباده بالفعل، وبين لهم الطريق، ومكنهم من الأسباب والشروط، فعصوه، ولم يعنهم على الطاعة عقوبة لهم، وعاقبهم على ذلك كان ذلك عدلاً منه، لأن العبد عوقب على فعله، ومثال ذلك – ولله المثل الأعلى – السارق إذا سرق فقطع الإمام يده فلا شك أن هذا الإمام عادل ويشكر على إقامته الحد، ولو احتج هذا السارق بالقدر لم يقبل منه، وكذلك الكافر لو احتج على الله بالقدر لم يكن هذا عذراً مقبولاً، فالقدر ليس حجة لأحد، والله تعالى قد أمره ونهاه، ثم عاقبه بعد ذلك على مقتضى عدله وحكمته، وعلمه [١] .

ومن هنا فليس لأحد أن يزعم أن تعذيب الله تعالى للكافر على كفره مع إرادته لذلك، يعد ظلماً ومزيد بيان ذلك في الأوجه التالية:

الأول: إن الاحتجاج بالقدر على المعاصي حجة داحضة، فلو أن إنساناً طلب آخر ديناً عليه، فقال لا أعطيك حتى يخلق الله فيَّ قدره على رده لك، عُدُّ ذلك القول من أفسد القول، وكذلك هؤلاء القدرية لو تعدى شخص على أحدهم وأكل ماله، أو اعتدى على عرضه، ثم احتج عليه بالقدر، لم يقبل عذره، ولأصر على أخذ الحق منه.

كما أن الله تعالى ذكر احتجاج المشركين بالقدر في قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ﴾ [الأنعام: ١٤٨] .

---

(١) انظر منهاج السنة (٣/٣٣ -٣٥).

وبيّن أن ذلك لم ينفعهم، بل عذبوا على كفرهم، ووصفهم بالجهل واتباع الظن الذي لا يغني عن الحق شيئاً، وطالبهم بالحجة والبرهان.

كما أنه لو صح الاحتجاج بالقدر للزم من ذلك أن يكون فرعون، وقارون، وأقوام الرسل جميعاً الذين عصوا رسلهم، معذرون، لا لوم عليهم ولا عتب، وهذا الكفر الصريح كما إنه يلزم من ذلك ألا يُفرق بين أولياء الله وبين أعدائه.

كما أن ما قدره الله على العبد أمر مجهول لا يعلمه، فكيف يسلك سبيل الغواية ويحتج بالقدر؟ ولماذا لا يسلك سبيل الاستقامة، ويقول هذا قدري؟ لاشك أن هذه مغالطة: ولو كان القدر حجة للعصاة، لكان في إرسال الرسل عبث ينزه الرب جل وعلا عنه، فهو قد أخبر بأن هذه الرسل تقيم الحجة وتبين البرهان فلو كان القدر حجة للعصاة لما أقيمت هذه الحجة [(١)].

الثاني: إن الإعانة على الفعل ليست هي الفعل، فإذا أعان الله تعالى العبد على الطاعة فذلك فضله، وأما الطاعة ففعل العبد، والعبد لا يقول لا أفعل ذلك الفعل الذي هو من مصلحتي، ما لم يخلق الله فيَّ الفعل، ومثال ذلك لو أن سيلا انحدر على شخص من منحدر لم يكن له أن يقول اجلس في مكاني حتى يخلق الله في الهرب، بل تراه يبادر في الهرب سائلاً الله الإعانة.

---

(١) انظر منهاج السنة (٣/٥٤ -٧٢)، وانظر مجموع الفتاوى (٨/٢٦٢ -٢٦٥، ٢٨٨) وانظر الدرة البهية لابن سعدي (١٩ -٢٠)، (٥١ -٥٢)، انظر لمعة الاعتقاد مع شرحه للشيخ ابن عثيمين ص٩٣ -٩٥.

الثالث: إن ما اعتقدته القدرية من نفي خلق الله تعالى لأفعال العباد، لأن خلقه لها ثم معاقبتهم على فعلها يعد ظلماً، فنقول لهم: إن ما أثبتموه من خلق العبد لفعله، يقتضي وصف الله بالنقص، إذ هذا يلزم منه أن يكون الله تعالى قادراً على البعض غير قادر على البعض الآخر، مع أن الجميع داخل في ملكه، فشمول خلقه وقدرته على كل شيء، أكمل من شموله الخلق والقدرة لشيء دون شيء، والرب لا يوصف إلا بالكمال المطلق.

الرابع: إن الظلم يراد به أمران:

١ - تصرف غير المالك في ملك غيره بلا إذن.

٢ - مخالفة الأمر الذي ينبغي طاعته، والله جل وعلا، لا تجب عليه طاعة مخلوق، وكلنا عبيده، وتحت تصرفه، والمالك يتصرف في ملكه كما يشاء، وكونه تعالى لا يظلم ليس عجزاً ولا امتناعاً وإنما لكمال عدله.

الخامس: إن قولهم "لوجب أن يكون ظالماً جائراً" (١) دعوى مجردة من الدليل ولا دليل لهم سوى القياس الفاسد الذي هو من أفسد القياس وهو قياس أفعال الرب على أفعال العباد، قال شيخ الإسلام: "لا نزال بين المسلمين أن الله عادل ليس بظالم، لكن ليس كل ما كان ظلماً من العبد يكون ظلماً من الرب، ولا ما كان قبيحاً من العبد يكون قبيحاً من الرب" ا.هـ (٢)، فلهذا صاروا مشبهة الأفعال.

السادس: إن علم البشر قاصر، وهم لا يعلمون من حكمة الله وعلمه إلا ما علمهم منها، فلا يكون عدم علمهم دليلاً على نفي الحكمة والعلم اللذين لم يعلماها.

---

(١) كما سبق من أدلتهم، ص٤٥٠.

(٢) منهاج السنة (١٥١/٢).

السابع: أنه قد تبين لنا أن الإنسان يفعل ما فيه إيلام وضرر بالحيوان كالذبح مثلاً، لمصلحة راجحة عنده، ومعلوم أن ذلك لا يعد ظلماً منه قبيحاً (١).

رابعاً: ومن الآيات أيضاً في الرد على القدرية قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [يونس: ٧٤].

وقوله: ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [يونس: ٨٨].

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [يونس: ٩٦] ففي هذه الآيات دليل واضح على أن الطبع على القلوب من فعل الله تعالى ومثله الختم، والرين، والموت والغشاوة، والقساوة، والشدّ .. وزعمت القدرية إن ذلك بمعنى التسمية أو الحكم كما سبق في أقوالهم، ومعنى الطبع والختم "الاستيثاق من الشيء حتى لا يخرج منه داخل فيه، ولا يدخل فيه خارج عنه" (٢).

قال الآجري – رحمه الله – بعد أن سرد الآيات الدالة على الطبع والختم:

"جميع ما تلوته من هذه الآيات يدل العقلاء على أن الله عز وجل ختم على قلوب قوم، وطبع عليها، ولم يردها لعبادته، وأرادها لمعصيته، فأعماها عن الحق فلم تبصره، وأصمها عن الحق فلم

---

(١) انظر فيما سبق الشريعة، ص١٥١، وانظر مجموع الفتاوى (١٢٥/٦ -١٣٠) وانظر (٢٦٢/٨ -٢٦٥) وانظر جامع مع الوسائل ص١٢١ وما بعدها، وانظر منهاج السنة (٣٣/٣ -٣٨)، (١٥١/٣) وانظر الفوائد ٤٨، وانظر شرح العقيدة الطحاوية ٥٢١ - ٥٢٢، وانظر الدرة البهية شرح العقيدة التائية ص١٩ -٢٠، ٥١ -٥٢.

(٢) أضواء البيان (٤٠/١) وانظر شرح السنة (١٤٣/١).

تسمعه، وأخزاها ولم يطهرها، يفعل بخلقه ما يريد" ا.هـ [(١)] وهذا الطبع جزاء كفرهم، وإعراضهم، قال ابن القيم – رحمه الله – : "القرآن من أوله إلى آخره إنما يدل على أن الطبع، والختم والغشاوة لم يفعلها الرب سبحانه بعبده من أول وهلة حين أمره بالإيمان أو بيّنه له، وإنما فعله بعد تكرار الدعوة منه سبحانه والتأكيد في البيان والإرشاد وتكرار الإعراض منهم والمبالغة في الكفر والعناد فحينئذ يطبع على قلوبهم ويختم عليها فلا تقبل الهدى بعد ذلك والإعراض والكفر الأول لم يكن مع ختم وطبع، بل كان اختياراً فلما تكرر منهم صار طبيعة وسجية" ا.هـ [(٢)] .

أما زعم القدرية أن المراد سماهم، أو أخبر عنهم أو حكم عليهم فهذا خلاف اللغة والإجماع [(٣)] قال القرطبي – رحمه الله – "أجمعت الأمة على أن الطبع والختم على قلوبهم من جهة النبي ﷺ والملائكة والمؤمنين ممتنع، فلو كان الختم والطبع هو التسمية والحكم لما امتنع من ذلك الأنبياء والمؤمنون، لأنهم كلهم يسمون الكفار بأنهم مطبوع على قلوبهم وأنهم مختوم عليها، وأنهم في ضلال لا يؤمنون؛ ويحكمون عليهم بذلك فتثبت أن الختم والطبع هو معنى غير التسمية والحكم؛ وإنما هو معنى يخلقه الله في القلب يمنع من الإيمان به .." ا.هـ [(٤)] .

وكيف يصح القول: إن معنى أضله الله وختم على قلبه، سماه ضالاً وهل يصبح معنى قوله تعالى: ﴿ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ .. ﴾ [الجاثية: ٢٣] . أي سماه ضالاً؟ لاشك أن هذا تحريف للكلم عن مواضعه.

ومما يبين فساد قولهم هذا، أن الله تعالى تمدح بأن الأمر كله له

---

(١) الشريعة، ص١٥٤.
(٢) شفاء العليل، ص١٥٩.
(٣) انظر الإبانة ص١٩٣.
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١/١٨٧)، وانظر الإبانة ص١٩٤.

وبيده، وتحت قهره وسلطانه، فهل يعقل أن يكون ذلك بمجرد التسمية، وأيُّ مدح وثناء في ذلك، والعباد كلهم قادرون على التسمية والإخبار..»[(١)] .

خامساً: الآيات ترد على الجبرية، وهي كثيرة، كما في قوله تعالى: وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝﴾ [يونس: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۝﴾ [يونس: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ۝﴾ [يونس: ٥٢].

وقوله تعالى: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۝﴾ [يونس: ٧٠].

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝﴾ [يونس: ٧٢].

وقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ۝﴾ [يونس:١٠٨].

وجميع هذه الآيات أثبتت للعبد كسباً، وأن العذاب الذي ينالهم جزاء كفرهم وفعلهم الذي هو بإرادتهم وقدرتهم، والله تعالى قد أثبت للعبد فعلاً.

وأثبت له مشيئة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ۝ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝﴾ [الإنسان: ٢٩ -٣٠] وعلى هذا اتفق سلف الأمة وأئمتها [(٢)]

---

(١) انظر شفاء العليل ص١٤١ -١٤٨.

(٢) انظر مجموع الفتاوى (٨/٤٥٩ -٤٦٠).

وكان السلف ينكرون لفظ "الجبر" ويقولون "جبل" (١) .

والجبر من الألفاظ المجملة فإن أريد بالجبر القهر والقدرة وهو معنى اسم الله تعالى "الجبار" أي بمعنى أنه قادر على كل شيء قاهر له، ومن قهره أن يجعل له قدرة وإرادة على الفعل فهذا صحيح فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

وإن أريد بالجبر الإكراه على الفعل، مع عدم القدرة على جعل الشخص مريداً لفعله، أو قادراً عليه فهذا باطل، ولا يطلق على الرب – تعالى الله عما يقولون علواً كبيرا – وهذا قد يفعله المخلوق مثله، والفرق بينه وبين ما قبله يتبين بما يلي:

١ - عجز المخلوق عن جعل المُكرَه قادراً أو مريداً.

٢ - إن هذا قد يسمى ظلماً والله تعالى منزه عن الظلم.

٣ - إن المخلوق جاهل بالعاقبة، ولا يعلم الحكمة وقد يكون سفيها جاهلاً، أما الرب تعالى فأفعاله على مقتضى حكمته وعلمه سبحانه.

٤ - إن جبر المخلوق لمخلوق يكون لنقص في المُكرِه وعجز عن القيام بالعمل بمفرده والرب تعالى له الكمال المطلق (٢) والقول بالجبر، من أشنع البدع، وأشدها قبحاً، قال العلامة عبدالرحمن السعدي – رحمه الله – : "وهذا القول من أشنع البدع وأنكرها وهو مخالف للكتاب والسنة، وإجماع الأئمة المهتدين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ومخالف للعقول والفطر، ومخالف للمحسوس، وكل قول

(١) انظر السنة للخلال ص٥٤٩ -٥٥٠، وانظر مجموع الفتاوى (١٠٣/٨ -١٠٤، ٤٦٠ -٤٦٢) وانظر شفاء العليل ص٢٢٠، وانظر شرح الطحاوية ص٥١٤.

(٢) انظر مجموع الفتاوى (٤٦٣/٨ -٤٦٥) وانظر شفاء العليل ص٢٢٠ -٢٢٢.

يمكن صاحبه أن يطرده، إلا هذا القول الشنيع" ا.هـ [١] .

ومما يدل على بطلان هذا القول عدة أمور:

الأول: إن الله تعالى نسب أفعال العباد إليهم كما سبق ذكره في الآيات وأخبر أنه يجازيهم بها، فدل على أن لهم قدرة وإرادة، والله تعالى خالقهم وخالق إرادتهم وقدرهم.

الثاني: إنه يلزم منه سقوط الأمر والنهي، إذا لا قدرة للعبد على فعل مأمور أو ترك محظور.

الثالث: إنه يلزم منه إسقاط إقامة الحدود على مرتكبي الجرائم، إذ هم مجبورون على الفعل، ومعلوم أنه لو أُعتدي على أحد هؤلاء الجبرية معتد ثم احتج بالقدر، وأنه لا قدرة له على الترك لعَدَّ ذلك زيادة تهكم وظلم.

الرابع: أنه يلزم منه إبطال الأسباب وتعطيلها سواء كانت دينية أو دنيوية [٢] .

وبهذا تبطل أقوال القدرية وحججهم الواهية، وقد أُثر عن أئمة السلف - رحمهم الله - قولهم "ناظروا القدرية بالعلم، فإن أنكروا العلم وإن اعترفوا به خصموا" معنى ذلك أن يقال لهم هل تؤمنون بعلم الله تعالى لما كان وما يكون فإن قالوا: لا كفروا، إذ أنكروا النصوص المصرحة بذلك من الكتاب والسنة وإن قالوا: نعم رجعوا عن مذهبهم الباطل، إذا كيف يعلم الله تعالى الأشياء بما فيها أعمال العباد، ثم لم يقدرها ولم يردها، ومن هنا فهذا تناقض ظاهر، فإما أن ينكروا العلم والمشيئة والخلق كأسلافهم من القدرية وإما أن يثبتوا العلم والمشيئة

---

(١) الدرة البهية ص٢٢.

(٢) انظر المرجع السابق ص٢٢ -٢٣.

والخلق كما هو مذهب أهل السنة والجماعة (١).

ولهذا قال شيخ الإسلام – رحمه الله – : "أفعال العباد مخلوقة باتفاق سلف الأمة وأئمتها كما نص على ذلك سائر أئمة الإسلام: الإمام أحمد ومن قبله وبعده، حتى قال بعضهم: من قال: إن أفعال العباد غير مخلوقة فهو بمنزلة من قال: إن السماء والأرض غير مخلوقة"ا.هـ (٢) ولهذا جاءت الأحاديث الكثيرة بذمهم والتحذير منهم وأنهم مجوس هذه الأمة.

عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: "القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم" (٣).

---

(١) انظر جامع العلوم والحكم (١/١٠٣)، وانظر الدرة البهية ص٢٠ -٢١.

(٢) مجموع الفتاوى (٨/٤٠٦).

(٣) رواه أبو داود في سننه كتاب السنة، باب في القدر رقم ٤٦٩١ (٢/٦٣٤) وروي بنحوه عن حذيفة في الباب نفسه رقم ٤٦٩٢ بزيادة "وهم شيعة الدجال"، وحق على الله أن يلحقهم بالدجال، روى الإمام أحمد في مسنده بنحوه عن ابن عمر رضي الله عنه، وروى بنحوه الإمام أحمد في السنة عن طريق أخرى عن ابن عمر رقم ٧٥٠ ص١٣٩ وروى الإمام ابن أبي عاصم في السنة من جابر رضي الله عنه رقم ٣٢٨ (١/١٤٤) وحسنه الألباني وروى بنحوه أيضاً عن حذيفة رضي الله عنه رقم ٣٢٩ (١/١٤٤ - ١٤٥) وهو في صحيح الجامع رقم ٥١٦٣ (٢/٩١٧).

الخــاتمة

وبعد:

فإني أحمد الله جل وعلا، وأثني عليه على ما من به عليَّ، وأعانني على إتمام هذه الرسالة، وأسأله سبحانه بأسمائه الحسنى، وصفاته العلا أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم.

وختاماً أُبين أهم ما توصلت إليه من النتائج من خلال بحثي في هذه السورة العظيمة وهو كما يلي:

أولاً: إن الإيمان بأركان الإيمان الستة، ومعرفتها، يزيد في القلب حب الله تعالى وتعظيمه وخشيته وذلك بمعرفة أسمائه وصفاته وما تحويه من معاني الجلال والكمال والإيمان بألوهيته وعبادته كما شرع على ألسنة رسله وبما أنزل من كتبه إذ هو المستحق للعبادة دون سواه والإيمان بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وكذلك معرفة عظيم خلقه في مخلوقاته من الملائكة وغيرها، والإيمان باليوم الآخر وأن ذلك محتم الوقوع فيعظم الخوف من الله تعالى، ويزداد الرجاء في مغفرته ورحمته ويتحقق القسط والعدل [1].

الثاني: إن مبدأ الإلحاد والكفر وإنكار وجود الرب تعالى، أمر يرفضه الشرع والعقل الصحيح والحس والفطرة السليمة، فالكون كله من أكبر جرم فيه إلى أصغر ذرة فيه كله آيات تسبح لله تعالى وتشهد بدلائل ربوبيته وألوهيته.

---

(١) انظر عقيدة المؤمن ص٤٨٣ -٤٨٦.

الرابع: إثبات الله تعالى لأسمائه وصفاته في كتابه الكريم، وهذا يقتضي منا الإيمان بها كما جاءت من غير تشبيه ولا تحريف ولا تأويل ولا تعطيل.

وبناء عليه فما أحدثه المتكلمون من التأويل والتحريف أمر مخالف لاعتقاد أهل السنة والجماعة وهو من البدع المحدثة وكل بدعة ضلالة.

الخامس: أن الوحي ثابت بالأدلة القطعية وأن القرآن كتاب الله العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث كما قال ذلك موريس بوكاي.

السادس: الرد على شبهات المنكرين وبيان ما يدبره المستشرقون من كيد للإسلام وأهله وهذا يدعو أبناءه إلى بذل الجهد في التصدي لتلك الشبهات ومحاولة نشر وترجمة الكتب القيمة في العقيدة والتفسير والسيرة وغيرها التي ألفها علماء مسلمون إذ للأسف هناك من يحسِّن الظن بطائفة من المستشرقين فيقوم بنشر كتبهم وترجمتها ووصفهم بالموضوعية والنزاهة وهو في الحقيقة لو تأمل كتبهم لوجدها مليئة بالكيد للإسلام والطعن فيه والتشكيك في مبادئه العظام.

السابع: إثبات النبوات بما فيها نبوة نبينا محمد ﷺ وأن المكذب بها معاند، معرض عن الحق سواء كان مشركاً أو كتابياً.

الثامن: أن الولاية لا تثبت إلا لمن آمن بالله واتقى، وأما من خالف الحق وادعى علم الغيب وصرفت له النذور وعُبد من دون الله فليس من أولياء الله بل هو دجال كذاب مفتر، وإن طار في الهواء ومشى على الماء.

التاسع: إن معجزات الأنبياء ليست لغيرهم وإن لها ما يميزها عن خوارق السحرة والكهان.

العاشرة: إثبات البعث بالسمع والعقل.

الحادي عشر: إن عقيدة أهل السنة والجماعة في القدر تشمل إيمانهم بعلم الله تعالى بخلقه، ومقاديرهم وآجالهم وأرزاقهم وكتابة ذلك في اللوح المحفوظ ومشيئته لذلك فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وخلقه للخلق بما في ذلك أفعال العباد وأن الله تعالى يهدي من يشاء بفضله ويضل من يشاء بعدله.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الفهـــارس

فهرس المصادر والمراجع

حرف (أ)

اسم الكتاب وتاريخ الطبع واسم المؤلف:

١ - الإبانة عن أصول الديانة، للشيخ أبي الحسن بن إسماعيل الأشعري، ط مطابع الجامعة الإسلامية، تقديم: حماد الأنصاري، ط٢، ١٤٠٥هـ.
٢ - الإبانة عن شريعة الفرق الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، للشيخ أبي عبدالله عبدالله بن محمد بن بطة العكبري الحنبلي، ط١، ١٤٠٩هـ، تحقيق ودراسة رضا نعسان معطي، نشر وتوزيع دار الراية.
٣ - إثبات نبوة النبي ﷺ، تأليف أبي الحسن بن الحسين الحسني الزيدي، تحقيق خليل أحمد إبراهيم، ط١، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م نشر: دار الكتاب العربي.
٤ - اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية الإمام شمس الدين أبي عبدالله محمد بن بكر ابن القيم تحقيق: فواز زمرلي، ط١، ١٤٠٨/١٩٨٨، نشر: دار الكتاب العربي.
٥ - أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تأليف أبي عبدالله محمد بن إسحاق الفاكهي المكي، دراسة وتحقيق عبدالملك بن دهيش، ط١ ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، طبع ونشر مكتبة النهضة.

٦ - اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى، للحافظ أبي الفرج زين الدين عبدالرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق: بشير محمد عيون، ط٢، دمشق ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، نشر مكتبة دار البيان، مكتبة المؤيد.
٧ - الأدب المفرد، للإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري تخريج محمد فؤاد عبدالباقي، دار البشائر الإسلامية، لبنان، ط٣، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
٨ - الأربعين في أصول الدين، للرازي، ط١، ١٣٥٣هـ.
٩ - الأربعين في دلائل التوحيد، لابن إسماعيل الهروي، تحقيق: علي محمد بن ناصر الفقيهي، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
١٠ - الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد لإمام الحرمين أبي المعالي عبدالملك الجويني، تحقيق: أسعد تميم، ط١ مؤسسة الكتب الثقافية، ١٤٠٥هـ.
١١ - أركان الإيمان، لوهبي سليمان غاوجي، ط٢، دمشق، مؤسسة الرسالة، ١٣٩٩هـ.
١٢ - الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية، ط١٧، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
١٣ - الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، د. علي عبدالواحد وافي نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.
١٤ - الأسماء والصفات، للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق وتعليق: عماد الدين أحمد حيدر، طبع ونشر: دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٥هـ.

١٥ - الأسماء والصفات، تأليف العلامة المفسر الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، تصحيح: حسن السماحي سويدان، دار القارئ، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
١٦ - اشتقاق أسماء الله، لابن القاسم عبدالرحمن بن إسحاق الزجاجي، تحقيق: د. عبدالحسين المبارك، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
١٧ - الإصابة في تمييز الصحابة، تأليف شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر، ط دار الكتب العلمية.
١٨ - أصول الدين، لمنصور عبدالقاهر بن طاهر البغدادي، طبعة مصورة عن مدرسة الإلهيات بدار الفنون التركية باستانبول، ط دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٠١هـ.
١٩ - الأصول من الكافي، تأليف أبي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، دار صعب، دار التعارف، بيروت، ط٤، ١٤٠١هـ.
٢٠ - الأضحوية في أمر المعاد، لابن سينا، تحقيق: سليمان دنيا، ط١، ١٣٦٨هـ، دار الفكر العربي.
٢١ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تأليف محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، نشر مكتبة ابن تيمية، ط عام ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
٢٢ - إظهار الحق، لرحمة الله الهندي، دراسة وتحقيق: محمد أحمد محمد ملكاوي، طبع ونشر إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

٢٣ - الاعتبار ببقاء الجنة والنار، تأليف أبي الحسن تقي الدين السبكي، دمشق، مكتبة القدس، ١٣٤٩هـ.

٢٤ - اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، لفخر الدين محمد بن عمر الخطيب الرازي، ومعه كتاب المرشد الأمين إلى اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، نشر مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

٢٥ - الاعتقاد على مذهب السلف أهل السنة والجماعة للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، طبعة السلام العالمية.

٢٦ - إعجاز القرآن لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق: عمادالدين أحمد حيدر، طبع ونشر مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٢٧ - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى الرافعي، نشر دار الكتاب العربي، ط٣.

٢٨ - الأعلام تأليف خير الدين الزركلي، ط دار العلم للملايين، ط٩، ١٩٩٠م.

٢٩ - أعلام النبوة تأليف: علي بن محمد الماوردي، راجعه وقدم له: طه عبدالرؤوف سعد، نشر مكتبة الكليات الأزهرية.

٣٠ - الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام وإثبات نبوة محمد ﷺ، تأليف شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج القرطبي، تقديم وتحقيق وتعليق، د. أحمد حجازي السقا، ط دار التراث العربي.

٣١ - إغاثة اللهفان، للإمام محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عفيفي، ط المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
٣٢ - اقتضاء الصراط المستقيم، لشيخ الإسلام ابن تيمية — رحمه الله — تحقيق محمد حامد فقي، نشر دار المعرفة، بيروت، لبنان.
٣٣ - الإمام عند الجعفرية، لعلي أحمد السالوس، مكتبة ابن تيمية، الكويت.
٣٤ - الأمكنة والمياه والجبال، لمحمود عمر الزمخشري، تحقيق، د. إبراهيم السامرائي، طبعة السعدون، بغداد.
٣٥ - الانتصار للخياط، تقديم ومراجعة محمد حجازي، نشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مطبعة المدني.
٣٦ - الانتصاف لأحمد بن منير الإسكندراني، مطبوع في حاشية الكشاف.
٣٧ - الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس، تأليف: عبدالحميد محمود ظهماز، ط دار القلم، ودار العلوم، بيروت، ط١، ١٤٠٩/١٩٨٩م.
٣٨ - الإنصاف، للقاضي أبي بكر بن الطيب الباقلاني، تحقيق عمادالدين أحمد، ط عالم الكتب، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.
٣٩ - إيثار الحق على الخلق، للإمام محمد إبراهيم الوزير الحسيني الصنعاني، تحقيق أحمد مصطفى صالح، الدار اليمنية للنشر والتوزيع، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٤٠ - الإيمان، لابن أبي شيبة، تحقيق وتقديم محمد ناصر الدين الألباني، ط المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
٤١ - الإيمان، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تخريج محمد ناصر الدين الألباني، ط المكتب الإسلامي، بيروت عام ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
٤٢ - الإيمان بالملائكة، للشيخ محمد بن سليمان الدريوش، رسالة ماجستير مقدمة إلى قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، عام ١٤٠٢هـ -١٤٠٣هـ، مكتوبة على الآلة الكاتبة.
٤٣ - الإيمان بالملائكة وأثره في حياة الأمة، للشيخ صالح الفوزان.
٤٤ - الإيمان بعوالم الآخرة، عبدالله سراج الدين، ط٢، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
٤٥ - إيمان فرعون لجلال الدين الدّواني والرد عليه لعلي بن سلطان محمد القارئ المسمى فر العون من مدعي إيمان فرعون، تحقيق وضبط ابن الخطيب، المطبعة المصرية، ط١، ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م.

(ب)

٤٦ - البحر المحيط، لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، ط٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، طبع ونشر دار الفكر.
٤٧ - بدائع الفوائد، للعلامة أبي بكر محمد بن أبي بكر الدمشقي ابن القيم الجوزية، نشر دار الكتاب العربي، توزيع دار النفائس.

٤٨ - البداية والنهاية، لأبي الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي، تحقيق: د. أحمد أبو ملحم وآخرون، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، نشر دار الريان للتراث، القاهرة.
٤٩ - البرهان في علوم القرآن، للإمام بدرالدين محمد بن عبدالله الزركشي، تحقيق: محمد أبوا لفضل إبراهيم، ط دار المعرفة، بيروت.
٥٠ - البرهان المسدد في إثبات نبوة سيدنا محمد ﷺ، تأليف يوسف بن إسماعيل النبهاني، ط عام ١٣٢٣هـ.
٥١ - بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تأليف مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، تحقيق محمد علي النجار، ط المكتبة العلمية، بيروت، لبنان.
٥٢ - البعث عند الفلاسفة، رسالة دكتوراه أعدها الشيخ عبدالكريم بن محمد الحميدي، مقدمة إلى قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
٥٣ - بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، تأليف أبي العباس شيخ الإسلام أحمد بن تيمية وتكميل وتعليق محمد بن عبدالرحمن بن قاسم.
٥٤ - البيان عند الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات للباقلاني، تحقيق: رتشرد يوسف اليسوعي، تاريخ الطبعة: بدون.

٥٥ - بيان الهدى من الضلال في الرد على صاحب الأغلال، تأليف إبراهيم بن عبدالعزيز السّويّح النجدي، المطبعة السلفية، القاهرة، ط عام ١٣٦٩هـ.

(ت)

٥٦ - تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ط دار الفكر.

٥٧ - تاريخ بغداد للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، ط دار الكتب العلمية.

٥٨ - التاريخ الكبير للحافظ أبي عبدالله إسماعيل بن إبراهيم البخاري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٥٩ - التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، تأليف الإمام أبي المظفر الإسفراييني، تعليق وتخريج محمد زاهد الكوثري، ط٢، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ط دار الكتب العلمية.

٦٠ - التبيان في أقسام القرآن، للعلامة، شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، طبعة دار الطباعة المحمدي بالأزهر، نشر مكتبة الرياض الحديثة، سنة ١٣٨٨هـ.

٦١ - تثبيت دلائل النبوة، تأليف عبدالجبار بن أحمد الهمذاني، تحقيق وتقديم د. عبدالكريم عثمان، نشر وطبع الدار العربية، بيروت.

٦٢ - التحبير في علم التفسير لجلال الدين السيوطي، تحقيق: د. فتحي عبدالقادر فريد، دار العلوم للطباعة والنشر، ط١، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، الرياض.

٦٣ - تحفة الأحوذي في شرح سنن الترمذي، للإمام الحافظ أبي العلي محمد بن عبدالرحمن المباركفوري، تصحيح: عبدالوهاب عبداللطيف، نشر صاحب المكتبة السلفية، ط٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
٦٤ - تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين، للإمام محمد بن علي الشوكاني، طبع ونشر مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
٦٥ - التخويف من النار والتعريف بحال البوار للحافظ أبي الفرج عبدالرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ /١٩٨٣م، ط دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
٦٦ - التدمرية في تحقيق الإثبات للأسماء والصفات وحقيقة الجمع بين القدر والشرع، طبعة شركة العبيكان، تأليف شيخ الإسلام تقي الدين أبي العباس أحمد عبدالحليم عبدالسلام ابن تيمية، تحقيق: محمد عودة السعوي، طبعة شركة العبيكان، ط١، ١٤٠٥هـ.
٦٧ - تذكرة الحفاظ للإمام أبو عبدالله شمس الدين الذهبي، دار الكتب العلمية.
٦٨ - التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، تأليف شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد القرطبي، ط دار الفكر.
٦٩ - التصديق بالنظر إلى الله تعالى في الآخرة، تأليف الحافظ أبي بكر محمد بن الحسين الآجري، تحقيق سمير الزهيري، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، مؤسسة الرسالة.

٧٠ - التصوف المنشأ والمصادر، تأليف إحسان إلهي ظهير، نشر إدارة ترجمان السنة، ط ١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
٧١ - تطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد، تأليف محمد بن إسماعيل الأمير اليمني الصنعاني، تحقيق: د. السيد محمد سيد، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، نشر مكتبة الزهراء.
٧٢ - التعريفات، تأليف علي بن محمد الشريف الجرجاني، ط عام ١٩٨٥م، مكتبة لبنان — بيروت.
٧٣ - تفسير الآيات الكونية، د. عبدالله شحاتة، طبعة دار الاعتصام، ط١ ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
٧٤ - تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل لعلاء الدين علي بن محمد الخازن، ط دار الفكر عام ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
٧٥ - تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، ط٢، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.
٧٦ - تفسير غريب القرآن لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق السيد أحمد صقر، ط دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط عام ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
٧٧ - تفسير القرآن العظيم للإمام أبي محمد بن عبدالرحمن بن حاتم الرازي، تحقيق د. أحمد عبدالله الزهراني، ط١، ١٤٠٨هـ، نشر مكتبة الدار ودار طيبة ودار ابن القيم.

٧٨ - تفسير القرآن العظيم للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع.
٧٩ - تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، تأليف محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت.
٨٠ - التفسير القرآني للقرآن لعبدالكريم الخطيب، ط دار الفكر العربي.
٨١ - التفسير الكبير للفخر الرازي، طبعة دار الفكر.
٨٢ - تفسير المراغي لأحمد مصطفى المراغي، طبعة دار الفكر، ط٣، ١٣٩٦هـ.
٨٣ - التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، تفسير سورة يونس، د. محمد البهي نشر مكتبة وهبة، طبع: دار الغريب، ط١، ١٣٩٦هـ.
٨٤ - تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين لأبي الحسين القاسم بن محمد الراغب الأصفهاني، تقديم وتحقيق، د. عبدالمجيد النجار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
٨٥ - تقريب التهذيب للإمام الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر دراسة محمد عوامة، طبعة دار القلم، ط٣، ١٤٠٠هـ/١٩٩١م.
٨٦ - تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، تأليف القاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، ط١٤٠٧، ١هـ/ ١٩٨٧م، طبع ونشر مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.

٨٧ - التلخيص للحافظ الذهبي مطبوع بحاشية المستدرك.
٨٨ - تهذيب الأسماء واللغات للإمام العلامة الحافظ أبي زكريا محيي الدين بن شرف النووي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.
٨٩ - تهذيب التهذيب للإمام شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، طبعة دار الفكر، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
٩٠ - التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية، تأليف العلامة عبدالعزيز بن ناصر الرشيد، ط٢، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.
٩١ - التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل للإمام أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة، دراسة وتحقيق عبدالعزيز الشهوان، ط٢، ١٤١١هـ/١٩٩١م، نشر مكتبة الرشد الرياض.
٩٢ - التوحيد ومعرفة أسماء الله عز وجل وصفاته على الاتفاق والتفرد، تأليف أبي عبدالله محمد بن إسحاق بن محمد ابن مندة، تحقيق د. علي محمد الفقيهي.
٩٣ - التوحيد لعبدالمجيد الزنداني، ط٢، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، مكتبة جدة — جدة.
٩٤ - توضيح الكافية الشافية، ط، المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٦٨هـ.
٩٥ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للعلامة الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق محمد زهري النجار، ط، عالم الكتب، بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

(ج)

٩٦ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، طبعة دار الفكر، ط عام ١٤٠٥هـ.
٩٧ - جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، تأليف الحافظ أبي الفرج عبدالرحمن بن شهاب الدين البغدادي، الشهير بابن رجب، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٢هـ/١٩٩١م.
٩٨ - جامع الرسائل لابن تيمية، أبي العباس، تقي الدين أحمد بن عبدالحليم، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، مطبعة المدني، ط١، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.
٩٩ - جامع الفرق والمذاهب الإسلامية، تأليف أمير مهنا وعلي خريس، ط١، ١٩٩٢م، نشر المركز الثقافي العربي، بيروت.
١٠٠ - الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبدالله القرطبي، تصحيح أحمد البردوني، ط، الهيئة المصرية العامة.
١٠١ - الجامع لشعب الإيمان، تأليف الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق د. عبدالعلي حامد، نشر الدار السلفية، بومباي، الهند، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
١٠٢ - جلاء العينين في محاكمة الأحمدين للسيد نعمان خير الدين الآلوسي قدم له علي السيد صبح المدني، طبعة المدني، عام ١٤٠١هـ/ ١٩٩١م.
١٠٣ - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تقديم وإشراف علي السيد المدني، مطبعة المدني.

١٠٤ - الجواب الفسيح لما لفَّقه عبدالمسيح، تأليف الإمام الآلوسي، تحقيق أحمد حجازي، السقا، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، دار الجيل، بيروت.

(ح)

١٠٥ - حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، للإمام أبي عبدالله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تقديم: علي السيد صبح مدني، نشر دار المدني.

١٠٦ - الحبائك في أخبار الملائك للحافظ جلال الدين السيوطي، تحقيق مصطفى عاشور، طبعة مكتبة القرآن.

١٠٧ - الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، إملاء الإمام الحافظ أبي القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل التميمي الأصبهاني، تحقيق ودراسة محمد بن ربيع المدخلي، نشر دار الراية، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

١٠٨ - حدائق أنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار ﷺ، لأبي الفرج عبدالرحمن بن علي الشهير بابن الديبع الشيباني، تحقيق عبدالله الأنصاري، طبع في قطر على نفقة سمو أمير دولة قطر.

١٠٩ - الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية، تأليف: عبدالرحمن بن ناصر السعدي، ط عام ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، مكتبة المعارف، الرياض.

١١٠ - الحكيم الترمذي ونظريته في الولاية، د. عبدالفتاح عبدالله بركة، طبع مجمع البحوث الإسلامية، نشر المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.
١١١ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبدالله الأصفهاني، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، ط دار الكتب العلمية، بيروت.
١١٢ - الحياة البرزخية من الموت إلى البعث، محمد عبدالظاهر خليفة، طبعة دار الاعتصام.
١١٣ - الحيدة للإمام عبدالعزيز بن يحيى بن مسلم الكناني، تصحيح الشيخ إسماعيل الأنصاري، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، ط جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان الأردن.

(خ)

١١٤ - خاتم النبيين ﷺ، تأليف محمد أبو زهرة، طبع ونشر، دار الفكر العربي، ط١، ١٩٧٢م.
١١٥ - ختم الولاية، تأليف أبي عبدالله محمد بن علي بن الحسن الحكيم الترمذي، تحقيق عثمان إسماعيل يحيى، ط المطبعة الكاثوليكية، بيروت.
١١٦ - الخصائص الكبرى للإمام أبي الفضل جلال الدين السيوطي، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ط دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

١١٧ - خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، تخريج وتصحيح: سالم السلفي وأبو هاجر محمد السعيد بسيوني، نشر مكتبة التراث الإسلامي، مصر.
١١٨ - خلق الإنسان بين الطب والقرآن، د. محمد علي البار، الطبعة السابعة، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، الدار السعودية للنشر والتوزيع.

(د)

١١٩ - دائرة معارف القرن العشرين، تأليف محمد فريد وجدي، طبع ونشر دار المعرفة، بيروت، ط، الثالثة.
١٢٠ - الداء والدواء لابن قيم الجوزية، تقديم محمد جميل غازي، نشر دار المدني.
١٢١ - الدرة البهية شرح القصيدة التائية في حل بالمشكلة القدرية، تأليف العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي، مكتبة المعارف، الرياض، ط عام ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.
١٢٢ - درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبدالحليم، تحقيق د. محمد رشاد سالم توزيع مكتبة ابن تيمية.
١٢٣ - دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، تأليف موريس بوكاي، طبعة دار المعارف، ط٤، عام ١٩٧٧م.

١٢٤ - الدرر السنية في الأجوبة النجدية، جمع عبدالرحمن بن محمد بن قاسم النجدي، طبعة الدار العربية للطباعة والنشر، ط٢، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
١٢٥ - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، طبعة حيدر آباد عام ١٣٤٩هـ.
١٢٦ - الدر المنثور في التفسير بالمأثور للإمام جلال الدين السيوطي، طبعة دار الفكر، ط١، ١٤٠٣هـ.
١٢٧ - دفع إبهام الاضطراب عن آيات الكتاب، تأليف محمد الأمين الشنقيطي، مطبعة المدني، القاهرة.
١٢٨ - دلائل التوحيد للعلامة محمد جمال الدين القاسمي، تعليق خالد عبدالرحمن العك، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩١م، طبع ونشر دار النفائس.
١٢٩ - دلائل النبوة للحافظ أبي نعيم الأصبهاني، تحقيق محمد رواس قلعة وعبدالبر عباس، ط٢، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، دار النفائس، بيروت.
١٣٠ - دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة لأبي بكر أحمد الحسين البيهقي، تحقيق د. عبدالمعطي قلعجي، ط دار الكتب العلمية، دار البيان للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
١٣١ - الدين الخالص، تأليف السيد محمد صديق حسن، مكتبة دار التراث، القاهرة.

(ر)

١٣٢ - رد الإمام الدارمي عثمان بن سعيد على بشر المريسي العنيد، تعليق وتصحيح محمد حامد الفقي، ط دار الكتب العلمية، ط١، عام ١٣٥٨هـ.
١٣٣ - الرد على الجهمية للإمام الحافظ ابن مندة، تحقيق: علي محمد فقيهي، ط١، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
١٣٤ - الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد بن حنبل، تحقيق وتعليق، د. عبدالرحمن عميرة، نشر وتوزيع دار اللواء، ط٢، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
١٣٥ - مفتريات على الإسلام، د. عبدالجليل شلبي، نشر دار القلم، الكويت، سنة الطبع، ١٩٨٢م، ط١.
١٣٦ - رسائل العدل والتوحيد، دراسة وتحقيق، د. محمد عمارة، ط دار الشروق.
١٣٧ - الرسالة الأكملية فيما يجب من صفات الكمال، تأليف شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية، طبع مطبعة المدني، مصر، نشر مؤسسة المدني، ط عام ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
١٣٨ - رسالة الإمام العالم عبدالله بن أبي زيد القيرواني، طبعة دار الكتب الإسلامية، طبعة عربي وفرنسي نقلتها إلى اللغة الفرنسية، د. كوثر عبدالسلام البحيري، دار الكتاب المصري القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

١٣٩ - رسالة استخراج الجدال من القرآن الكريم، لابن الحنبلي، مطبوع ضمن مجموعة الرسائل المنبرية.
١٤٠ - الرسالة الشافية وجوه الإعجاز، تأليف: عبدالقاهر الجرجاني، مطبوع من كتاب دلائل الإعجاز للمؤلف تعليق محمود محمد شاكر، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، مطبعة المدني، ط، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.
١٤١ - رسالة الشرك ومظاهره، تأليف مبارك بن محمد الميلي، مكتبة الإيمان للطبع والنشر والتوزيع، مصر، ط١، ١٤٠٩هـ.
١٤٢ - رسالة الصوفية والفقراء لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية.
١٤٣ - رسالة عرش الرحمن لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية، مطبوعة ضمن مجموعة الرسائل والمسائل.
١٤٤ - الرسالة القشيرية للإمام القاسم عبدالكريم القشيري، تحقيق: د. عبدالحليم محمود ومحمود الشريف، مطبعة حسان، نشر دار الكتب الحديثة.
١٤٥ - الرسل والرسالات، د. عمر سليمان الأشقر، ط٣، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، مكتبة الفلاح، الكويت.
١٤٦ - رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار، تأليف الإمام محمد بن إسماعيل الصنعاني، تحقيق العلامة محمد ناصر الدين الألباني، طبعة المكتب الإسلامي، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

١٤٧ - الروح لشمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية، عالم الكتب، بيروت.
١٤٨ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لأبي الفضل شهاب السيد محمود الآلوسي البغدادي، نشر إدارة الطباعة المنيرية، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٤٩ - الرؤية، للإمام الحافظ أبي الحسين علي بن عمر الدارقطني قدم له وحققه وخرجه إبراهيم محمد العلي وأحمد فخره الرفاعي، طبعة مكتبة المنار، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.
١٥٠ - رؤية إسلامية للاستشراق، تأليف د. أحمد غراب. ط، المنتدى الإسلامي، ط٢، ١٤١١هـ.
١٥١ - زاد المسير في علم التفسير للإمام أبي الفرج جمال الدين عبدالرحمن علي محمد الجوزي، طبعة المكتب الإسلامي، ط٤، ١٤٠٧هـ.
١٥٢ - زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية، تحقيق شعيب عبدالقادر الأرنؤوط، ط١٤، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، مؤسسة الرسالة.

(س)

١٥٣ - سبعون برهاناً علمياً على وجود الذات الإلهية لابن خليفة عليوي، طبعة دار الإيمان، ط٣، ١٤٠٨هـ.
١٥٤ - سلسلة الأحاديث الصحيحة، للشيخ ناصر الدين الألباني. طبعة المكتب الإسلامي.

١٥٥ - سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ على الأمة، للشيخ العلامة ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط٤، ١٤٠٨هـ.
١٥٦ - سنن أبي داود للحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، دراسة وفهرسة كمال الحوت، طبع ونشر دار الجنان، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية.
١٥٧ - سنن ابن ماجة للحافظ أبي عبدالله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، ط، المكتبة العلمية، بيروت.
١٥٨ - سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي، تعليق عزت عبيد الدعاس، طبع ونشر المكتبة الإسلامية، استانبول، تركيا.
١٥٩ - سنن الدارمي للإمام الحافظ عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي، تحقيق فؤاد زمرلي وخالد السبع العلمي، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ط، دار الكتاب العربي، بيروت.
١٦٠ - السنن الكبرى للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، توزيع مكتبة المعارف، ط١، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، سنة ١٣٥٦هـ.
١٦١ - سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية السندي، ترقيم وتصحيح عبدالفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، ط٣، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.

١٦٢ - السنة لأبي بكر أحمد بن محمد بن هارون الخلال دراسة وتحقيق د. عطية الزهراني، دار الراية للنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.
١٦٣ - السنة للحافظ أبي بكر عمرو بن أبي عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني ومعه ظلال الجنة في تخريج السنة للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، طبعة المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
١٦٤ - السنة للإمام عبدالله بن أحمد بن حنبل، تحقيق محمد السعيد بسيوني، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ط، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٦٥ - السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: د. همام عبدالرحيم ومحمد أبو صعيليك، مكتبة المنار، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.
١٦٦ - السيرة النبوية للحافظ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق حسام الدين القدسي، ط٢، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ط، دار الكتب العلمية، بيروت.

(ش)

١٦٧ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب للمؤرخ أبي الفلاح عبدالحي بن العماد الحنبلي، ط، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٦٨ - شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للإمام الحافظ أبي القاسم هبة الله بن الحسن اللالكائي، تحقيق: د. أحمد سعد حمدان، نشر دار طيبة، الرياض.
١٦٩ - شرح الأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار الهمذاني، تعليق أحمد الحسين بن أبي هاشم، تحقيق: د. عبدالكريم عثمان، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
١٧٠ - شرح الزرقاني على موطأ مالك، لمحمد الزرقاني، ط عام ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، دار المعرفة، بيروت.
١٧١ - شرح السنة للإمام الحسين البغوي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمد زهير الشاويش، ط، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، بيروت.
١٧٢ - شرح الصاوي على جوهرة التوحيد لأحمد بن محمد المالكي الصاوي، توزيع دار الإخاء.
١٧٣ - شرح العقيدة الأصفهانية، تأليف أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية، تقديم حسين محمد مخلوف، نشر دار الكتب الإسلامية، طبع مطبعة الاعتصام، القاهرة، عام ١٣٥٨هـ.

١٧٤ - شرح العقيدة الطحاوية [(١)] ، للقاضي علي بن علي بن محمد أبي العز الدمشقي ، تحقيق : بشير محمد عيون نشر مكتبة دار البيان ، ج١ الأولى ، ١٤٠٥هـ.
١٧٥ - شرح العقيدة الطحاوية ، للقاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي ، طبعة المكتب الإسلامي.
١٧٦ - شرح القصيدة النونية المسماة الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ، شرح وتحقيق د. محمد خليل هراس ، طبعة دار الكتب العلمية ، ج ، الأولى ، ١٤٠٦هـ.
١٧٧ - شرح كتاب التوحيد للشيخ عبدالله الغنيمان ، ط١ ، الأولى ١٤٠٥هـ ، توزيع مكتبة الدار بالمدينة المنورة.
١٧٨ - شرح المقاصد ، تأليف مسعود بن عمر الهير بسعد الدين التفتازاني ، تحقيق عبدالرحمن عميرة ، نشر مكتبة الكليات الأزهرية ، الأزهر.
١٧٩ - شرح النونية المسماة توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم ، تأليف أحمد بن إبراهيم بن عيسى ، تحقيق زهير الشاويش ، ط٣ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، ط١ ، المكتب الإسلامي.
١٨٠ - الشريعة للإمام أبي بكر محمد بن الحسين الآجري ، تحقيق محمد حامد فقي ، طبعة الكتب العلمية.

(١) هذه النسخة التي اعتمدت عليها وما عداها أشير إلى الطبعة.

١٨١ - شطحات الدكتور مصطفى محمود في تفسيراته العصرية للقرآن، تأليف عبدالمتعال محمد الجبري، طبعة دار الاعتصام.
١٨٢ - الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض، أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، تحقيق علي محمد البجاوي، مطبعة الحلبي.
١٨٣ - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل للإمام ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
١٨٤ - شمائل الرسول ﷺ للحافظ ابن كثير، تحقيق د. مصطفى عبدالواحد، دار القبلة للثقافة الإسلامية ومؤسسة علوم القرآن، ط٢، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.
١٨٥ - الشيعة والحاكمون لمحمد جواد مغنية، نشر دار ومكتبة الهلال ودار الجواد، بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ، مطبعة: أمير — قم.

(ص)

١٨٦ - الصحاح لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبدالغفور، دار العلم، ط٢، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
١٨٧ - صحيح البخاري للإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، ضبط وترقيم وشرح وتخريج د. مصطفى ديب البغا، نشر وتوزيع دار ابن كثير، دمشق ط٤، ١٤١٠هـ.
١٨٨ - صحيح الجامع الصغير وزيادته، تأليف محمد ناصر الدين الألباني، ط٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ط، المكتب الإسلامي.

١٨٩ - صحيح سنن ابن ماجة للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، إشراف زهير الشاويش، طبعة المكتب الإسلامي، نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج، ط٣، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
١٩٠ - صحيح سنن النسائي للشيخ العلامة محمد ناصر الدين الألباني، طبعة المكتب الإسلامي، نشر مكتبة التربية العربي لدول الخليج، ط١، عام ١٤٠٩هـ.
١٩١ - صحيح مسلم للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، طبع ونشر المكتبة الإسلامية، استانبول، تركيا.
١٩٢ - صحيح مسلم بشرح النووي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
١٩٣ - صفات الله لصالح المسند، ط٢، ١٤١٢هـ/١٩٩١م، طبعة مطبعة المدني.
١٩٤ - الصفدية، لابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم.
١٩٥ - الصلة بين التصوف والتشيع، تأليف كامل مصطفى الشيبي، ١٩٦٩م، ط٢، دار المعارف، مصر.
١٩٦ - الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن قيم الجوزية، تحقيق وتخريج وتعليق د. محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، ط١، ١٤٠٨هـ.
١٩٧ - الصوفية معتقداً ومسلكاً، تأليف د. صابر طعيمة، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.

(ط)

١٩٨ - طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين أبي نصر عبدالوهاب السبكي، تحقيق د. محمود الطناحي، د. عبدالفتاح الحلو، ط٢، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ط هجر.

١٩٩ - طريق الإيمان، سميح عاطف الذين، طبعة دار الكتاب اللبناني، ط٩، ١٩٨٣م.

٢٠٠ - طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن قيم الجوزية، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، نشر دار ابن القيم، الدمام.

(ض)

٢٠١ - ضعيف الجامع الصغير وزيادته، تأليف محمد ناصر الدين الألباني، ط٣، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ط. المكتب الإسلامي، بيروت.

(ع)

٢٠٢ - عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي للإمام ابن العربي المالكي، نشر دار الكتاب العربي.

٢٠٣ - عالم الملائكة الأبرار، د. عمر سليمان الأشقر، ط٦، ١٤١١هـ/١٩٩١م، طبع ونشر مكتبة الفلاح، بيروت، دار النفائس، الكويت.

٢٠٤ - العبودية للإمام تقي الدين أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية، طبعة دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

٢٠٥ - عرائس المجالس لأبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري المعروف بالثعلبي، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط٤.
٢٠٦ - عقائد السلف للأئمة أحمد بن حنبل والبخاري وابن قتيبة والدارمي، جمع على النشار وعمار الطالبي، نشر منشأة دار المعارف بالأسكندرية، عام ١٩٧١م.
٢٠٧ - العقد المنظم في أقسام الوحي المعظم، تأليف علوي السيد عباس المالكي، طبع دار إحياء الكتب العربية.
٢٠٨ - العقيدة الإسلامية وأسسها، لعبدالرحمن حبنكة الميداني، ط٥، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، دار القلم، دمشق.
٢٠٩ - عقيدة التوحيد في القرآن لمحمد ملكاوي، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، نشر دار ابن تيمية، الرياض.
٢١٠ - عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية، تأليف أحمد سعد بن حمدان الغامدي، نشر دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
٢١١ - العقيدة في الله، د. عمر سليمان الأشقر، نشر مكتبة الفلاح ودار النفائس، ط٧، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
٢١٢ - عقيدة المسلمين والرد على الملحدين والمبتدعين، تأليف صالح إبراهيم البليهي، المطبعة الأهلية للأوفست، ط٢، ١٤٠٤هـ.
٢١٣ - عقيدة المؤمن، تأليف أبي بكر الجزائري، طبعة دار الشروق، جدة، ط٥، ١٤٠٧هـ.

٢١٤ - العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية، لإمام الحرمين أبي المعالي عبدالملك بن عبدالله الجويني، تقديم وتحقيق وتعليق، د. أحمد حجازي السقا، نشر وطبع مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

٢١٥ - العقيدة والشريعة في الإسلام أجناس جولد تسيهر ترجمة وتعليق محمد يوسف وعبدالعزيز عبدالحق وعلي حسن عبدالقادر، دار الرائد العربي، بيروت، طبعة مصورة عن مطبعة دار الكتاب المصري، عام ١٩٤٦م.

٢١٦ - العلم يدعو إلى الإيمان كريس موريسون، ترجمة محمود، صالح الفلكي، دار القلم، بيروت، ط١، ١٩٨٦م.

٢١٧ - العلو للعلي الغفار في صحيح الأخبار وسقيمها للإمام الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تصحيح عبدالرحمن محمد عثمان، نشر محمد عبدالمحسن صاحب المكتبة السلفية بالمدينة، ط٢، ١٣٨٨هـ.

٢١٨ - عمدة القارئ شرح صحيح البخاري لبدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد العيني، مطبعة الحلبي، مصر، ط١، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

٢١٩ - عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير تأليف الحافظ أبي الفتح محمد بن محمد بن سيد الناس، تحقيق محمد العيد ومحيي الدين مستو، طبع ونشر دار ابن كثير، بيروت، ط١٤١٣، ١هـ/١٩٩٢م.

(ف)

٢٢٠ - الفتاوى الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.
٢٢١ - فتح الباري لشرح صحيح البخاري، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي، شرح وتصحيح محب الدين الخطيب، دار الريان للتراث، ط١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
٢٢٢ - الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني مع شرحه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني، تأليف أحمد عبدالرحمن البنا، طبعة دار الشهاب، القاهرة، نشر مكتبة الحرمين.
٢٢٣ - فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، تأليف محمد علي الشوكاني، طبعة دار المعرفة، بيروت.
٢٢٤ - الفتوحات المكية، تحقيق: د. عثمان يحيى، مراجعة د. إبراهيم مدكور عام ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، طبعة ثانية مصورة عن الطبعة الأولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالاشتراك مع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
٢٢٥ - الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق شريف محمد هزاع، نشر دار الصحابة للتراث، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
٢٢٦ - الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم للأستاذ عبدالقاهر بن طاهر البغدادي، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، طبعة عام ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ط، دار الجيل، دار الآفاق بيروت.

٢٢٧ - الفصل في الملل والأهواء والنحل، تأليف أبي محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم الظاهري، تحقيق د. محمد إبراهيم نصر، د. عبدالرحمن عميرة، دار الجيل.
٢٢٨ - فصوص الحكم لابن عربي، تعليق أبو العلاء عفيفي نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
٢٢٩ - الفقه الأكبر مع شرحه لملا علي القارئ تصحيح محمد بدر الدين أبو فراس الحلبي، مكتبة ومطبعة الحلبي، القاهرة، ط١، عام ١٣٢٣هـ.
٢٣٠ - الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، تأليف عبدالرحمن عبدالخالق، مكتبة ابن تيمية، ط٣، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
٢٣١ - الفوائد لشمس الدين أبي عبدالله محمد بن قيم الجوزية، تحقيق بشير محمد عيون، الطبعة الثانية، عام ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، مكتبة المؤيد، الطائف، مكتبة دار البيان، دمشق.
٢٣٢ - فيض القدير للمنياوي، مطبوع في حاشية المستدرك.
٢٣٣ - في ظلال القرآن، لسيد قطب، طبعة دار الشروق.

(ق)

٢٣٤ - القاموس المحيط لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق مكتبة تحقيق التراث ومؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٢٣٥ - القرآن المعجزة الكبرى، تأليف محمد أبو زهرة، طبع ونشر دار الفكر العربي.
٢٣٦ - قرة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين حاشية العلامة عبدالرحمن بن حسن على كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبدالوهاب، تصحيح وتعليق إسماعيل الأنصاري، طبعة الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء، الرياض، ط٣، عام ١٤٠٤هـ.
٢٣٧ - قصص الأنبياء للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق عبدالقادر أحمد عطا.ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٣٨ - القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة، للشيخ عبدالرحمن المحمود رسالة ماجستير مقدمة إلى قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، مكتوبة على الآلة الكاتبة.
٢٣٩ - قطر الولي على حديث الولي للإمام الشوكاني، تحقيق وتقديم د. إبراهيم إبراهيم هلال، مطبعة حسان، نشر دار الكتب.
٢٤٠ - القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، لفضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين، ط٣، ١٤٠٨هـ، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، الرياض.
٢٤١ - القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون، تأليف مصطفى صبري، طبعة عام ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، ط، دار السلام.

٢٤٢ - القيامة الكبرى، د. عمر سليمان الأشقر، ط٢، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، مكتبة الفلاح، الكويت.

(ك)

٢٤٣ - كتاب الزيارة من أجوبة شيخ الإسلام ابن تيمية، راجعه وعلق عليه سيف الدين الكاتب، دار مكتبة الحياة، ط، عام ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

٢٤٤ - كتاب سيبويه، لعلي بشر عمر بن عثمان بن قنبر، تحقيق وشرح عبدالسلام هارون، طبعة عالم الكتب، ط٣، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٢٤٥ - الكتاب المقدس، تصدرها دار الكتاب المقدس في العالم العربي، ١٩٨٣م.

٢٤٦ - كرامات أولياء الله، للإمام الحافظ أبي القاسم هبة الله بن الحسن اللالكائي، تحقيق د. أحمد سعد حمدان، نشر دار طيبة، الرياض، الطبعة، عام ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

٢٤٧ - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لمحمود بن عمر الزمخشري، طبعة دار الكتاب العربي، ترتيب وضبط وتصحيح مصطفى حسين أحمد، ط٣، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٢٤٨ - كشف الأستار لإبطال ادعاء فناء النار المنسوب لشيخ الإسلام ابن تيمية وبتلميذه ابن القيم الجوزية، تأليف د. علي بن علي جابر الحربي اليماني، دار الطيبة الرياض، ط١، ١٤١٠هـ.

٢٤٩ - كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للمفسر الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني، تصحيح أحمد القلاش، ط٥، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٢٥٠ - كشف الشبهات للإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب، تحقيق عمر غرامة العموري، ط٣، ١٤١٠هـ، نشر دار البخاري، القصيم.
٢٥١ - الكواشف الجلية من معاني الواسطية، للشيخ عبدالعزيز بن محمد السلمان، ط١٧، ١٤١٠هـ.
٢٥٢ - الكواكب الدرية لشرح الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية، تأليف محمد بن عبدالعزيز بن مانع، مطبعة المدني، نشر المؤسسة السعودية بمصر، القاهرة.

(ل)

٢٥٣ - لسان العرب للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن منظور، طبعة مؤسسة الكتب الثقافية، نشر مؤسسة صادر، بيروت.
٢٥٤ - لسان الميزان للإمام الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر، ط١، نشر دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
٢٥٥ - لمع الأدلة في قواعد أهل السنة والجماعة لعبدالملك الجويني، تحقيق د. فوقية حسين محمود، ط٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ط، عالم الكتب.

٢٥٦ - لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد، لموفق الدين أبي محمد عبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي، مع شرحه لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين، تحقيق أشرف عبدالمقصود، مكتبة البخاري، ط٢، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

٢٥٧ - لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرق المرضية، تأليف العالم الشيخ محمد بن أحمد السفاريني الأثري الحنبلي، منشورات مؤسسة الخافقين، ط٢، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، دمشق.

٢٥٨ - اللآلئ البهية في شرح لامية شيخ الإسلام ابن تيمية، تأليف بن عبدالله الحنبلي، ط١، مؤسسة النور، الرياض.

٢٥٩ - الله جل جلاله، لسعيد حوى، دار القلم، ط٣، ١٤٠١هـ.

٢٦٠ - الله والكون، د. محمد جمال الدين الفندي، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٨٧م.

٢٦١ - الله يتجلى في عصر العلم، تأليف نخبة من العلماء الأمريكيين، ترجمة د. الدمرداش عبدالمجيد سرحان، تعليق د. محمد جمال الدين، نشر دار القلم، بيروت.

(م)

٢٦٢ - ماذا يقول الكتاب المقدس، لأحمد ديدات، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، ترجمة وتحقيق إبراهيم خليل أحمد، نشر دار المنار، القاهرة.

٢٦٣ - مباحث في إعجاز القرآن، تأليف مصطفى مسلم، نشر دار المنارة، جدة، ط١ ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
٢٦٤ - مباحث في علوم القرآن، مناع خليل القطان، دار الطباعة، نشر مكتبة وهبة، ط٥ ، ١٤٠١هـ.
٢٦٥ - مباحث في علوم القرآن، صبحي صالح، ط١٧ ، دار العلم للملايين، بيروت.
٢٦٦ - مجمع البيان في تفسير القرآن، لأبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي، تحقيق هاشم الرسولي وفضل الله الطباطبائي، دار المعرفة للطباعة والنشر، ط١ ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
٢٦٧ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي بتحرير العراقي وابن حجر،نشر دار الكتاب العربي،ط٣، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
٢٦٨ - مجموع التوحيد لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية وشيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب ونخبة من علماء المسلمين، طبعة دار الفكر.
٢٦٩ - مجموعة رسائل الشيخ حمد بن عتيق نشر دار الهداية، الرياض.
٢٧٠ - مجموعة رسائل الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، طبع على نفقة محمد وأحمد وأبناء المؤلف، تاريخ الطبعة : بدون.
٢٧١ - مجموعة الرسائل المنيرية، إدارة الطباعة المنيرية،ط عام ١٣٤٦هـ.

٢٧٢ - مجموعة الرسائل والمسائل للإمام تقي الدين ابن تيمية، تعليق وتصحيح جماعة من العلماء بإشراف محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت ط الأولى، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
٢٧٣ - مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن بن قاسم، طبع ونشر مكتبة ابن تيمية.
٢٧٤ - محاضرات في النصرانية، تأليف الشيخ محمد أبو زهرة، طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء، ط٤، ١٤٠٤هـ.
٢٧٥ - المحرر الوجيز للقاضي أبي محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: المجلس العلمي بفاس، ط، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
٢٧٦ - محمد رسول الله، تأليف: اتين دينية، ترجمة عبدالحليم محمود، طبع ونشر المكتبة العصرية، بيروت.
٢٧٧ - محمد ﷺ المثل الكامل، تأليف أحمد جاد المولى، تحقيق عبدالرحيم ماrديني، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩١م، مكتبة دار المحبة.
٢٧٨ - مختار الصحاح للشيخ محمد بن أبي بكر عبدالقادر الرازي، طبعة مكتبة لبنان، بيروت، عام ١٩٨٨م.
٢٧٩ - مختصر السيرة، تأليف الإمام محمد بن عبدالوهاب التميمي، تصحيح الشيخ عبدالرحمن البراك وآخرون، نشر أنصار السنة المحمدية.

٢٨٠ - مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، تأليف الإمام المحقق محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية، اختصار محمد الموصلي، المطبعة السلفية، دار الفكر، ط عام ١٣٤٩هـ.

٢٨١ - مختصر العلو للعلي الغفار، تأليف الحافظ شمس الدين الذهبي، تحقيق واختصار محمد ناصر الدين الألباني، ط٢، ١٤١٣هـ/١٩٩١م، المكتب الإسلامي.

٢٨٢ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، للإمام ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد حامد فقي، نشر دار الكتاب العربي، ط عام ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

٢٨٣ - مروج الذهب ومعادن الجوهر للمؤرخ أبي الحسن علي بن الحسين المسعودي، ط٥، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ط، دار الفكر، بيروت، لبنان.

٢٨٤ - مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية، تأليف شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب شرح وإضافة محمود شكري الآلوسي، منشورات الفيصلية، ط، عام ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

٢٨٥ - مسألة القضاء والقدر، تأليف عبدالحليم محمد قنبس، راجعه خالد عبدالرحمن العك، بيروت، لبنان، عام ١٩٨٠م.

٢٨٦ - المستدرك على الصحيحين للإمام الحافظ أبي عبدالله محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري، دراسة وتحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

٢٨٧ - مسند الإمام أحمد بن حنبل، فهرسة الشيخ ناصر الدين الألباني، طبعة المكتب الإسلامي [١] ، ط٥، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
-مسند الإمام أحمد بن حنبل، شرح أحمد شاكر، ط، دار المعارف، مصر.
-مسند الإمام أحمد بن حنبل، إشراف د. سمير طه المجذوب، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ط، المكتب الإسلامي.
٢٨٨ - مشكاة المصابيح، تأليف محمد بن عبدالله الخطيب التبريزي، تحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
٢٨٩ - معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، تأليف حافظ أحمد حكمي، تعليق عمر محمود أبو عمر، دار ابن القيم، ط١، ١٤١٠هـ.
٢٩٠ - معالم التنزيل للإمام أبي الحين بن مسعود الفراء البغوي، تحقيق خالد العك ومروان سوار، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م دار المعرفة، بيروت، لبنان.
٢٩١ - معالم السنن شرح سنن أبي داود للإمام أبي سليمان حمد بن محمد الخطابي البستي، تحقيق عبدالسلام عبدالشافي محمد، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(١) هذه النسخة التي اعتمدت عليها وما عداها أشير إلى الطبعة.

٢٩٢ - المعجم المفهرس لألفاظ الحديث، ذ.أ.ى ونسنك، دار الدعوة، استانبول، ١٩٨٦م.
٢٩٣ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه محمد فؤاد عبدالباقي، دار الحديث، ط٣، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
٢٩٤ - مع الأنبياء في القرآن الكريم، تأليف عبدالفتاح طبارة، ط١٧، ١٩٨٩م، نشر دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.
٢٩٥ - مع الطب في القرآن، تأليف د. عبدالحميد دياب، د. أحمد قرقوز، تقديم د. محمود ناظم نسيمي، طبعة مؤسسة علوم القرآن، ط٢، ١٤٠٢هـ.
٢٩٦ - مع الله في صفاته وأسمائه الحسنى، تأليف حسن أيوب، ط٤، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.
٢٩٧ - معنى لا إله إلا الله، للإمام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي، تحقيق وتعليق علي محيي الدين علي القرة، طبعة دار الإصلاح.
٢٩٨ - المغني في أبواب التوحيد والعدل للقاضي أبي الحسن عبدالجبار الأسد آبادي الهمذاني، تحقيق د. محمد مصطفى د. أبو الوفا الغنيمي، طبعة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر.
٢٩٩ - مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة للعلامة الإمام ابن القيم الجوزية، طبعة دار الفكر.
٣٠٠ - المفردات في غريب القرآن، تأليف أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب، تحقيق محمد سيد كيلاني دار المعرفة بيروت.

٣٠١ - مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، للإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان ط٣.
٣٠٢ - المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى، لأبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي، تخريج محمد مصطفى أبو العلا نشر مكتب الجندي، طبعة شركة الطباعة الفنية.
٣٠٣ - الملل والنحل، تأليف أبي الفتح، محمد بن عبدالكريم بن أحمد الشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
٣٠٤ - الملل والنحل، للأستاذ أبي منصور عبدالقاهر البغدادي، تحقيق د. ألبير نصري نادر، دار المشرق، بيروت، لبنان.
٣٠٥ - مناهج الجدل في القرآن الكريم، تأليف د. زاهر بن عواض الألمعي، مطابع الفرزدق.
٣٠٦ - مناهل العرفان في علوم القرآن الكريم، للشيخ محمد عبدالعظيم الزرقاني، طبعة دار إحياء الكتب العربية.
٣٠٧ - منهاج السنة النبوية لابن تيمية تقي الدين أحمد بن عبدالحليم، تحقيق د. محمد رشاد سالم، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
٣٠٨ - المنهاج في شعب الإيمان، للحليمي، تحقيق حلمي محمد فودة، طبعة دار الفكر، ط١، ١٣٩٩هـ.
٣٠٩ - منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة، تأليف عثمان بن علي حسن، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، مكتبة الرشد، الرياض.

٣١٠ - المنقذ من الضلال لأبي حامد محمد الغزالي، تحقيق ودراسة عبدالحليم محمود، نشر دار الكتب الحديثة، طبعة مطبعة حسان، القاهرة.
٣١١ - موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق ونشر محمد عبدالرزاق حمزة، طبعة دار الكتب العلمية.
٣١٢ - المواقف في علم الكلام لعضد الدين القاضي عبدالرحمن بن أحمد الإيجي، مطبعة عالم الكتب، بيروت.
٣١٣ - الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة، تأليف د. ناصر القفاري، ود. ناصر عبدالكريم العقل، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، دار الصميعي، للنشر والتوزيع.
٣١٤ - موسوعة المستشرقين، تأليف د. عبدالرحمن بدوي، نشر دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٩٣م.
٣١٥ - مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب، تصنيف وإعداد عبدالعزيز بن زيد الرومي، راجع أصوله وصححه د. محمد بلتاجي، د. سيد حجاب، مطبعة المركز الإسلامي للطباعة والنشر.
٣١٦ - ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تأليف أبي عبدالله بن محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق علي محمد البجاوي.
٣١٧ - النبوات، تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية، دراسة وتحقيق محمد عبدالرحمن عوض، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، دار الكتاب العربي، بيروت.

٣١٨ - نبوة محمد ﷺ في الكتاب المقدس، د. أحمد حجازي السقا، طبع ونشر دار الفكر العربي، ط١، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
٣١٩ - نظم المتناثر من الحديث المتواتر، لأبي الفيض جعفر الحسني الإدريسي الشهير بالكتاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ.
٣٢٠ - النهاية في غريب الحديث والأثر للإمام مجد الدين المبارك محمد الجزري المعروف بابن الأثير، طبعة دار الفكر، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناجي.
٣٢١ - النهاية في الفتن والملاحم، للإمام أبي الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي، تصحيح وضبط الأستاذ أحمد عبدالشافي، طبع ونشر دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

(هـ)

٣٢٢ - هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، للإمام ابن قيم الجوزية، تقديم وتحقيق وتعليق د. أحمد السقا، دار المطبعة السلفية، نشر دار الريان.
٣٢٣ - الهدية السنية التحفة الوهابية النجدية، جمع وترتيب الشيخ: سليمان بن سحيمان، تعليق السيد محمد رشيد رضا، مكتبة التوفيق ط، عام ١٣٨٩هـ/١٩٦٨م.
٣٢٤ - هذه هي الصوفية، تأليف عبدالرحمن الوكيل دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
٣٢٥ - هندسة النظام الكوني في القرآن الكريم، د. عبدالعليم عبدالرحمن خضر، ط٢، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، نشر تهامة.
٣٢٦ - الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب، لشمس الدين أبي عبدالله محمد بن قيم الجوزية، تحقيق وتخريج بشير محمد عيون، نشر مكتبة دار البيان، توزيع مكتبة المؤيد.
٣٢٧ - وحي الله لحسن ضياء الدين عتر، ط٢، ط دار الفنون، جدة.
٣٢٨ - الوحي في الإسلام وإبطال الشبهات لعبدالله عبدالحي أبو بكر، رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة أم القرى، مكتوبة على الآلة الكاتبة.
٣٢٩ - الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت، ط٩، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

٣٣٠ - الوحي المحمدي عبدالجليل شلبي، مطابع الشروق، القاهرة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.
٣٣١ - الوفاء بأحوال المصطفى، تأليف أبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي، تحقيق مصطفى عبدالواحد، طبع مطبعة السعادة، نشر دار الكتب الحديثة، ط١ ، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.
٣٣٢ - ولاية الله والطريق إليها، دراسة وتحقيق لكتاب "قطر الولي على حديث الولي" للإمام الشوكاني، تأليف إبراهيم إبراهيم هلال، طبعة المدني.

(ي)

٣٣٣ - يقظة أولي الاعتبار مما ورد في ذكر النار وأصحاب النار، صديق حسن خان، تحقيق أحمد حجازي السقا، نشر دار التراث الإسلامي، الأزهر.
٣٣٤ - اليوم الآخر بين اليهودية والمسيحية والإسلام، تأليف د. فرج الله عبدالباري أبو عطاالله، طبع ونشر دار الوفاء للطباعة، المنصورة، مصر، ط١ ، ١٤١١هـ/١٩١١م.

الدوريات

٣٣٥ - مجلة المنار، ج٦ م٣٢.
٣٣٦ - مجلة الأزهر، العدد ٨ شوال ١٣٩٦هـ.

فهرس الموضوعات

الموضوع **رقم الصفحة**

*** ***